المنظمة العربية للترجمة

فرانسوا دوس

هدية 2016

شكرا أستاذي العزيز
محمد الطاهر المنصوري

التاريخ المفتّت

من الحوليّات إلى التاريخ الجديد

ترجمة

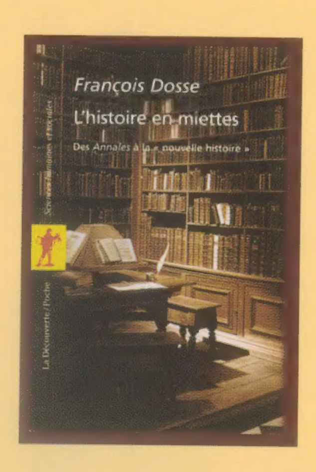
د. محمد الطاهر المنصوري

بدعم من مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

التاريخ المفتَّت

من الحوليَّات إلى التاريخ الجديد



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم



المنظمة العربية للترجمة

أصبح التاريخ، منذ سنوات، يشدّ اهتمام الجمهور الواسع. ويعود هذا في جزء كبير منه، إلى نجاح «التاريخ الجديد» الذي انطلق منذ 1929، بدفع من مارك بلوخ ولوسيان فافر ومجلتهما **الحوليات**.

يروي المؤلف، بالاعتماد على وثائق وشهادات عديدة غير معروفة في كثير من الأحيان، تاريخَ هذا التاريخ.... وهو يقدّم قراءة نقدية وجدالية لعديد المفاهيم التي تبنّتها مدرسة الحوليات: نهاية التاريخ، موت الإنسان، تأثير البنى، التخلّي عن المواضيع السياسية، إلخ ...

يتميز هذا الكتاب بحيويّة أسلوبه، ومن المنتظر أن يثير ردود فعل الكثيرين. إنه كتاب منخرط في معركة متحمسة من أجل التاريخ، حول تساؤل كبير: ألا نشاهد، اليوم، تفتيتاً للتاريخ، بعد كلّ جهد **الحوليات** في التجديد؟

- **فرانسوا دوس**: أستاذ التاريخ بجامعة باريس 12، مختص في التاريخ الثقافي. من مؤلفاته:

L'humanisation des sciences humaines, *Histoire du structuralisme*, *L'Empire du sens*, et *Michel de Certeau : Le Marcheur blessé*.

- **محمد الطاهر المنصوري**: أستاذ التاريخ بالجامعة التونسية، من مؤلفاته: **العلاقات بين مصر المماليك والإمبراطورية البيزنطية** (1992)، **ما بين الخمار والزنار أو قوانين اللباس في العالم الإسلامي الوسيط** (2007)، كما ترجم **التاريخ الجديد** لجاك لوغوف (2007)، ضمن إصدارات المنظمة.

الثمن: 14 دولاراً
أو ما يعادلها

التـاريـخ الـمفـتَّـت

من الحوليّات إلى التاريخ الجديد

المنظمة العربية للترجمة

فرانسوا دوس

التاريخ المفتّت

من الحوليّات إلى التاريخ الجديد

ترجمة

د. محمد الطاهر المنصوري

مراجعة

د. جوزيف شريم

بدعم من مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة

دوس، فرانسوا

التاريخ المفتَّت: من الحوليّات إلى التاريخ الجديد/ فرانسوا دوس؛ ترجمة محمد الطاهر المنصوري؛ مراجعة جوزيف شريم.

429 ص. ـ (علوم إنسانية واجتماعية)

بيبليوغرافيا: ص 393 ـ 409.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-0-1353-4

1. التاريخ ـ فلسفة. 2. النظم الاجتماعية. أ. العنوان. ب. المنصوري، محمد الطاهر (مترجم). ج. شريم، جوزيف (مراجع). د. السلسلة.

901

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

Dosse, François

L'Histoire en miettes: Des Annales à la «nouvelle histoire»



المنظمة العربية للترجمة

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 ـ 113

الحمراء ـ بيروت 2090 1103 ـ لبنان

هاتف: 753031 ـ 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)

e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 ـ 113

الحمراء ـ بيروت 2407 2034 ـ لبنان

تلفون: 750084 ـ 750085 ـ 750086 (9611)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت / فاكس: 750088 (9611)

e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الثاني (يناير) 2009

المحتويات

II ـ سنوات بروديل

III ـ تاريخ مفتّت

مقدمة المترجم

يعود المؤلف **بالحوليّات** (*Les Annales*) إلى جذور بعيدة ناقداً بعضاً ممن تعتبرهم روّادها الأوائل (عصر لافيس) ورابطاً إياها بمجلة **التوليف التاريخي** (*La Revue de synthèse historique*) لهنري بر (Henri Berr). صدرت **الحوليّات** في فجر القرن العشرين (سنة 1900) وهي إشارة لطيفة إلى أن من اعتبروا أنفسهم روّاد **الحوليّات** ليسوا سوى مقلدين ومتنكرين لإرث القدامى وهو ما ردَّ عليه لوغوف (Le Goff) في مقدمة الطبعة الثانية من **التاريخ الجديد** (*La Nouvelle histoire*).

ومهما كانت الحيثيات التي أحاطت بنشوء المدرسة والمجلة ومهما كانت الملابسات والمبالغات التي أحاطت بأطروحات بروديل (Braudel) حول البحر الأبيض المتوسط، فإن مدرسة **الحوليّات** وروّادها الأوائل على الأقل قد أحدثوا تجديداً في المنهج والمواضيع واعتمدوا أساليب غير مألوفة وجرأة غير مسبوقة، فإلى جانب المدرسة الماركسية، اهتمت **الحوليّات والتاريخ الجديد** بمن لا تاريخ لهم.

وقد أعدّ فرانسوا دوس أطروحته حول مدرسة **الحوليّات** ثم ألّف كتاب **التاريخ المفتَّت** الذي هو موضوع الترجمة.

عمد المؤلف إلى جمع فتات الأخبار ليعيد بناء تاريخ مجلة **الحوليّات** وذلك بتسقّط أخبار روّادها عبر تاريخ مؤسسيها والفاعلين

فيها والمساهمين في ازدهارها وازدهار الكتابة التاريخية منذ بداية القرن العشرين، وتتبع المؤلف تاريخ الروّاد والمريدين، من لوسيان فيفر ومارك بلوخ وبيار شونو وجورج دوبي وإيمانويل لوروا لادوري وغيرهم، ورصد العلاقات الشخصية بين الأفراد والعلاقات التي تربط بعض هؤلاء بالسلطة السياسية ومراكز التمويل وانخراط المؤرخين في التأسيس لمشروعية السلطة وقولبة المناهج التاريخية خدمة للسلطة الملكية أو الجمهورية. وقام بتركيب شبكة العلاقات الشخصية والعلمية والسياسية من نِتَف الأخبار المبعثرة هنا وهناك كفتات الخبز وهي عبارة عن جزئيات مشتتة تهم الجوانب الشخصية من أجيال من روّاد **الحوليّات** كان يبحث في نشوء العلاقة بين بروديل ولوسيان فيفر وهي علاقة نشأت على مراحل إذ رأى فرناند بروديل لوسيان فيفر لأول مرة عام 1934 في مبنى **التوليف التاريخي** لهنري بر، ولكن اللقاء الحقيقي والحاسم يعود إلى عام 1937 وذلك في إطار رحلة بحرية عبر المحيط الاطلسي إذ كان كلاهما عائداً من أمريكا اللاتينية، فالحوار الذي بدأ آنذاك لم ينقطع قط بين الرجلين ويقول بروديل عن هذه العلاقة: «بدخولي حياة لوسيان فيفر، أخذت مكاناً ما فتئ يتوسع وهو مكان أحد أبناء البيت»[1].

كما أن هذه العلاقات كانت حاسمة في خلق نوع من الجبهة المتضامنة والمتشابكة من أجل انتصار **الحوليّات** ليس فقط على التاريخ التقليدي وإنما على بقية العلوم الإنسانية.

---

(1) Fernand Braudel, «Présence de Febvre,» dans: *Eventail de l'histoire vivante, hommage à Lucien Febvre offert [à l'occasion de son 75ème anniversaire] par l'amité d'historiens, linguistes, géographes, économistes, sociologues, ethnologues*, 2 vols. (Paris: A. Colin, 1953), p. 5.

وتتبع فرانسوا دوس مدرسة **الحوليّات** من خلال برامج بحوثها ومصادر تمويلها وتدخل المموّلين في سيرها، وأورد فرانسوا دوس أخباراً حول تبرّعات مموّلين أمريكيين لبرامج البحث واعتراضهم في بعض الأحيان على مواضيع لا تتماشى والسياسةَ الأمريكية، كالمواضيع التي تتعلق بالصين في العصر الوسيط أو تلك التي تهم الاقتصاد السوفياتي. كما حاول الربط بين الالتزامات السياسية-الأخلاقية لبعض الباحثين المؤثرين في **الحوليّات** ومدرستها من ناحية والمواضيع أو المواقف العلمية التي اتخذوها. من أمثلة ذلك مشاركة بيار شونو في الحركات المقاومة للإجهاض واهتمامه بالديموغرافيا والكتابة في التاريخ من أجل إنارة الحاضر، فهو بالاضافة إلى إقراره بتفوق الحضارة الغربية كان يدعو إلى تدعيم السياسة الإنجابية خوفاً «من تحويل الغرب إلى صحراء تغزوها قريباً جحافل العالم الثالث السمراء» وهو الذي يقول حسبما أورده فرانسوا دوس: «نحن بصدد تكوين مخزن للبارود، سنتسبب في الحروب الأهلية بإنشاء رجال في العالم الثالث وبإرسالهم للعمل في منطقة الرور (Ruhr) أو في باريس. كمؤرخ مهمته إنارة الحاضر أقول لكم: إنه جنون»[2]. إن ميزة أفكار بيار شونو هي الشفافية. يقول بعد تنديده بالمستشفيات-المجهِضات: «لا نريد نحن آباء الثلاثة والأربعة أطفال أن نكون ماسحي أحذية للعبيد وكسكان أفريقيا (bougnoule) وكنّاسي الشوارع، ولا خدماً للغير»[3]. هذا على مستوى البنية الديموغرافية

(2) Pierre Chaunu, «Discours à l'occasion du prix de la fondation Louise Weiss, décerné le 17 janvier 1977 pour son livre,» dans: Pierre Chaunu et Georges Suffert, *La Peste blanche: Comment éviter le suicide de l'Occident,* l'air du temps ([Paris]: Gallimard, 1976).

(3) Pierre Chaunu, dans: *France-inter* (14 décembre 1978).

لمدرسة **الحوليّات**. إن السبب الذي جعلنا نعرِّب عنوان الكتاب **بالتاريخ المفتَّت** هو أن مدرسة **الحوليّات** باقتباسها عدداً كبيراً من القوانين النظرية والمصطلحات والمقاربات التي هي في الأصل نابعة من علوم مجاورة، أدت بالتاريخ إلى التفتّت، فلم يعد هناك تاريخ بالمعنى الكلاسيكي أو بالمعنى العلمي وإنما تاريخ منبث داخل العلوم الاجتماعية الإنسانية عموماً.

ويرى فرانسوا دوس أن مدرسة **الحوليّات** سعت إلى «التسلط» واستيحاء الكثير من المواضيع والمناهج من العلوم الأخرى حتى إنها أدّت **بالتاريخ إلى التفتّت**.

وكتاب فرانسوا دوس هذا ليس كتاباً في التاريخ العام وإنما هو كتاب في تاريخ «تاريخ الحوليّات ومؤرّخيها» ينير القارئ ويقوده على دروب مجهولة من تاريخ صنّاع المنهج الحوليّاتي، فهو أداة ضرورية لفهم ميلاد الحوليّات وازدهار التاريخ عبر ما أنتجته وتحوّله في نهاية المطاف إلى فتات.

تمهيد

عشر سنوات تفصل صدور **التاريخ المفتَّت** (1987) عن إعادة نشره في سلسلة الجيب (1997) (Livre de poche). ومنذ ذلك الحين تغيّر مشهد الكتابة التاريخية، فهل كان يجب القيام بعملية تحديث للكتاب؟ وهل كان يجب تغيير بعض مقاطعه وأخذ المسيرة التي حققها المؤرخون والمؤلف نفسه منذ ذلك الوقت بالاعتبار؟

لأن **التاريخ المفتَّت** لم يعد ملكاً لمؤلفه وإنما لقرائه، لم يعد هذا المسلك الأكثر ملاءمةً، فهذا الكتاب قد أصبح مصدراً للعديد من الاستعمالات حتى إن عنوانه أصبح تعبيراً متفقاً عليه لاستحضار فترة معينة من تاريخ الكتابة التاريخية، وهي فترة جيل **الحوليّات** الثالث، فقد كانت لهذا الكتاب تأثيرات سريعة في فرنسا وخارجها. لذلك كان من الضروري إعادة نشره على حاله تلك. ومازلت أتبنى بصورة مطلقة أهم ما جاء في النقد الذي صيغ والتسلسل الذي رُسم لمدرسة نسجت خيوطها بالتواصل والتقطع ما بين 1929 ومنتصف الثمانينيات.

وعلى العكس، يمكن أن نعتبر اليوم بصورة مشروعة أن الجانب الجدلي فيه قد «تجاوزه الزمن»، فالنبرة «المتمركسة» للخطاب لازالت

تساهم في موقف التنديد باسم حقيقة مفترضة، وموضوع تاريخي مسبق التهيئة، وهي كثير من المواقف التي تخليت عنها بصورة تدريجية بالتناسق مع تقدم أبحاثي ومنشوراتي اللاحقة. كما أنني انخدعت بالنظرة السلبية التي مررها الجيل المؤسس **للحوليّات** والمتعلقة بالمدرسة المنهجية التي سبقته، فكل شيء لم يولد عام 1929، وشارل سينيوبوس (Charles Seignobos) ضحية لوسيان فيفر (Lucien Febvre) يستحق أن نعيد قراءته[1].

تعود ظروف أزمة تاريخ **الحوليّات** الجديد وانفجاره المتوقع في **التاريخ المفتَّت** إلى بداية الثمانينيات، فقد بدأ بيار نورا (Pierre Nora) منذ 1980 يبتعد عندما أطلق مجلة **الحوار** (*Le Débat*) التي أدخلت آفاقاً سياسية في خطاب المؤرخ. ومن جانبه أصبح بيار شونو (Pierre Chaunu) يتحدث عن عصر الأداء المتراجع. أما فرانسوا فوريه (François Furet) فقد غادر رئاسة مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية (EHESS) بصورة تلقائية سنة 1985 ليشرف على إدارة شبكة أخرى من المؤرخين والفلاسفة في معهد ريمون آرون (Raymond Aron) ويطوّر تاريخاً أكثر تنظيراً ومنفصلاً عن أرضيته الاقتصادية والاجتماعية، ففي هذا الإطار ظهر **التاريخ المفتَّت** وفيه أيضاً صرّح المؤرخ جورج دوبي (Georges Duby) «نحن في نهاية شيء ما. . . لدي شعور باللهاث والتعب»[2].

---

(1) Charles Victor Langlois et Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques*, collection «le sens de l'histoire» préface de Madeleine Rebérioux (Paris: Editions Kimé, 1992).
صدر لأول مرة عن دار Hachette سنة 1898، انظر أيضاً: Antoine Prost, «Seignobos revisité,» *Vingtième siècle*, no. 43 (juillet-septembre 1994), pp. 100 - 117.

(2) Georges Duby, dans: *Le Magazine littéraire* (1987).

كان رد فعل النواة الإدارية **للحوليّات** نفي فكرة الأزمة. ومن أجل تكوين حزام وقائي قادر على حماية صرح متصدّع كان متفقاً على عدم ذكر **التاريخ المفتّت**. وقد كان ينظر إلى الأسئلة المطروحة على أنها هجمات عدوانية. وتبدو عبارات جاك لوغوف (Jacques Le Goff) من خلال هذا المنظار معبّرة عن هذا الموقف، في الوقت الذي لا يستطيع القارئ فيه أن يجد أي نقد لأعمال لوغوف الشخصية ضمن **التاريخ المفتّت**، فقد أخذ موقف حارس القلعة المحاصرة، متحدثاً في مقدمة الطبعة الثانية **للتاريخ الجديد**[*] عن مؤامرة حقيقية دبّرها أولئك الذين يتحدثون عن أزمة التاريخ. وقدم هؤلاء على أنهم «رقباء[3]... ووعّاظ[4]... ضخّمتهم وسائل الإعلام»[5]، وأن طرح تساؤلات رئيسية تهم علم التاريخ هي من نتاج «منسقي الحديث عن أزمة الكتابة التاريخية... والارتجاليين»، ولكن ليس هناك ما يقلق، فلنطمئن، لأن المسألة لا تعدو كونها «إشاعات صاخبة ولكنها سطحية ومتبدلة في عالم الإعلام الضيّق»[6]، فإذا كان جاك لوغوف يقرّ، افتراضاً، بأنه يمكن أن تكون هناك أزمة فهي ناتجة حسب رأيه عن عاملين اثنين **العامل الأول** هو نجاح **الحوليّات** في حدّ ذاته، أما **العامل الثاني** فهو خارج عن نطاق علم التاريخ، وهو يقصر تطبيق فكرة الأزمة على العلوم الاجتماعية الأخرى، بدون أن ينتبه

(*) **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف؛ ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري؛ مراجعة عبد الحميد هنية (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007).

(3) Jacques Le Goff, dir., *La Nouvelle histoire*, historiques; 47 (Bruxelles: Complexe, 1988), p. 11.

(4) المصدر نفسه، ص 13

(5) المصدر نفسه، ص 12.

(6) المصدر نفسه، ص 12.

إلى أن البرنامج الأولي **للحوليّات**، والذي اعتمد دائماً على التطعم بالعلوم الاجتماعية، لا يمكن إلا أن يدفع بالمؤرخين إلى زمن الشك. يبدو أن ساعة التساؤلات لم تحن بعد، فقد حمل جاك لوغوف على «العودة الغامضة إلى مواضيع تاريخية قديمة» تذكره بالأرستقراطيين الذين هاجروا إبّان الثورة الفرنسية والذين لم يتعلَّموا جديداً، ولم ينسوا قديماً والذين يجب صد هجومهم»[7]. أما التساؤلات المتعلقة بالرواية التاريخية والتي طرحها كل من ميشال دو سيرتو (Michel de Certeau) وبول فاين (Paul Veyne) ولورانس ستون (Lawrence Stone) وبول ريكور (Paul Ricoeur)، فقد جوبهت بالرفض: «إن التاريخ السردي في نظري جثة يجب ألا تُبعث بل يجب قتلها مرة ثانية»[8]، فبالنظر إلى عنف هذا الرد السلبي، يمكن أن نؤكد أن **التاريخ المفتَّت** عندما أرّخ **للحوليّات** من خلال استراتيجيتها، قد فعل ذلك بكثير من التورية. إلا أن بعض المظالم قد ارتكبت هنا وهناك ضد بيار شونو مثلاً، فقد كان هدفاً في مستوى النقد الأيديولوجي من طرف المؤلف والذي تسنى له فيما بعد اكتشاف رجل بعيد جداً عن القوالب الجاهزة التي قيلت حول شخصه.

ولكن، وبعد أن حاولت مجلة **الحوليّات** بعناية كبيرة تجنب أي إعادة نظر، فقد تبنت بصورة استعراضية الوضع الجديد من خلال تهويل افتتاحية عددها لشهري آذار - نيسان (مارس - أبريل) 1988 تحت عنوان مكتوب بالحبر الأحمر: **التاريخ والعلوم الاجتماعية: تحول حاسم**. وهي افتتاحية تتحدث عن ضرورة وجود معطى جديد

(7) المصدر نفسه، ص 15

(8) المصدر نفسه، ص 16.

وتحالفات جديدة وتدعو إلى المساهمات في إعادة تعريف ما هو خصوصي بالنسبة إلى المقاربة التاريخية «يبدو اليوم أنه زمن الشك (. . .)، فالنماذج المهيمنة التي كنا نستجلبها من الماركسيات أو البنيويات وكذلك الاستعمالات الواثقة للتكميم، قد فقدت من قدرتها التأطيرية»[9]. لقد أدت هذه الدعوة للمشاركة إلى نشر عدد خاص في تشرين الثاني-كانون الأول (نوفمبر-ديسمبر) 1989 حول التحول الحاسم. وكل المواضيع المقدمة في هذه الافتتاحية تحدد بصورة ما نوعاً من البرنامج التوجيهي للبحث التاريخي وتعلن عن تحوّل جذري ونقد للمواقف السابقة.

أولاً يلاحظ هذا التقديم أن الحوار بين العلوم كما تم إنجازه يؤدي بالمؤرخ إلى فقدان هوية اختصاصه «يجب الدفاع ولو بتناقض مكذوب لتأكيد هويات الاختصاصات المختلفة، ففي هذا العمل المتعدد، إن استكشاف الآليات الزمنية يجب أن يشكل المساهمة الخاصة للتاريخ»[10]. ويتمثل المستوى الثاني من النقد الذاتي في التأكيد على مخاطر الأهمية الممنوحة للأمد الطويل والتي تحجب الانقطاعات والتحولات التاريخية لفائدة ظواهر التواصل «إن استخدام استعارة تراتب مستويات التاريخ والاهتمام الخاص بالظواهر ذات الديمومة الأكثر طولاً يحملان في طياتهما مخاطر تناسي المسارات التي تأتي بالجديد»[11].

تعترف افتتاحية **الحوليّات** من جهة أخرى بأنها تنازلت لنوع من

---

(9) انظر: «افتتاحية: التاريخ والعلوم الاجتماعية: تحول حاسم،» **الحوليّات** (آذار/ مارس - نيسان/ أبريل 1988).

(10) المصدر نفسه، ص 1318.

(11) المصدر نفسه، ص 1319.

الوضعية أو العلموية وأهملت البعد التأويلي للتاريخ «فقد تمّ تصور التاريخ الاجتماعي منذ البداية كما لو أنه تاريخ الجماعي والكثير، فقد اهتم مبكراً بقياس الظواهر الاجتماعية (. . .) وقد تم تجميع كم هائل من المواد وتحليلها، إلا أنه في إطار تطور البحث في حد ذاته فقد تفوَّق تركيم المواد على الطموح وفي بعض الأحيان على رغبة التأويل ذاتها»[12]. وقد أدّى هذا الموقف الوضعي الجديد إلى إقصاء البعد الإنساني للتاريخ وقدرة الفرد على التحرر من كل ما من شأنه أن يتحكم فيه ويسمح له بالتشكل والانخراط في الواقع من خلال ممارسات فردية «ليس المجتمع شيئاً، وليس بالأمر العديم الأهمية أن تتلاقى العديد من البحوث الحالية على الابتعاد عن النموذجين الكبيرين وهما الوظيفية والبنيوية لتلتفت إلى تحليلات تعتمد الاستراتيجيات»[13].

وفي النهاية، وفي اعتراف ضمني بمشروعية موضوع النقد المركزي **للتاريخ المفتَّت**، أشارت الافتتاحية إلى مخاطر تفجر علم التاريخ «إن الاتساع المتسارع لمجال المؤرخ وازدياد المناطق المستحدثة، كل ذلك تم مقابل خطر غير متوقع: هو تقطيع جديد لن يمرّ أبداً، هذه المرة، بين العلوم الاجتماعية، ولكن داخل اختصاصنا ذاته تحت غطاء تخصصات جديدة»[14].

انطلقت مجلة **الحوليّات** إذاً بداية من عامي 1988- 1989 في مسار جديد مختلف جذرياً عما كان عليه الأمر في الفترة السابقة.. وقد لعب المؤرخ برنار لوبتي (Bernard Lepetit) سكرتير التحرير،

(12) المصدر نفسه، ص 1319.

(13) المصدر نفسه، ص 1319

(14) المصدر نفسه، ص 1322.

دوراً رئيسياً في تحديد هذه التوجهات الجديدة وفي تصور تحالف جديد «يحرك التأويلية كمرجع نظري أو بالأحرى يؤدي إلى إمكانية ترجمة التأويلية ضمن جهاز أول تحول حاسم»[15]، فتركز نموذج جديد وحقق تحولاً مزدوجاً تأويلياً وعملياً يقطع جذرياً الصلة بالفترة السابقة التي كانت محكومة بالتفوق الحصري لظواهر الأمد الطويل عند بروديل (Braudel) وبالتاريخ الجامد عند لوروا لا دوري (Le Roy La durie). أثّر هذا التحول في الاتجاه في جزء كبير من العلوم الإنسانية التي كانت مندرجة في مسار الأنسنة[16]، وعلى المستوى «المؤسسي» ضمّت هيئة إدارة **الحوليّات** عام 1994 عالمَي الاقتصاد لوران تيفينو (Laurent Thévenot) وأندريه أورليان (André Orléan). وغيّرت المجلة بصورة معبرة العنوان الفرعي الذي كانت تحمله منذ 1946 فأصبح **تاريخ، علوم اجتماعية** بدل **اقتصاديات، مجتمعات، حضارات**. وقد أولى برنار لوبتي، صاحب هذا التحول الحاسم في مرحلته الثانية، أي مرحلة «تحوله العملي»[17]، عناية خاصة بالمجتمع الذي يعتبر كمقولة للممارسة الاجتماعية. وانطلاقاً من مبدأ علماء اقتصاد الاتفاقيات الذي يرى أن المجتمع ينتج مرجعياته الخاصة ولا يمكن الرجوع به إلى أي جوانب طبيعية عميقة، لذلك أعطيت الأولوية إلى مسألة الاتفاق. إن أهم التأثيرات التي حصلت بالنسبة للمؤرخ نتيجةَ هذا التغيير على مستوى الفاعلين، تعبّر عن إعادة ترتيب الزمن وإعادة الاعتبار للأمد القصير وللفعل

---

(15) Christian Delacroix, «La Falaise et le rivage: Histoire du tournant critique,» *Espaces temps*, nos. 59-61 (1995), p. 97.

(16) انظر: François Dosse, *L'Empire du sens: L'Humanisation des sciences humaines* (Paris: La Découverte, 1995).

(17) Delacroix, Ibid., p. 107.

التاريخي المموقع وللفعل المحدّد في إطاره، فالنظرة الخارجة عن الزمن هي التي أصبحت متأثرة بالنسبية بفعل هذا التغيير، فمثل هذا الموقف الذي تقوده فكرة التملك، أدّى إلى وضع مركز الثقل الزمني في الحاضر: «وهكذا فإن الماضي هو حاضر في حالة انزلاق»[18].

إن عملية الربط بالحاضر الخاصة بالخطاب التاريخي الجديد الذي خرج من سباته البنيوي تهدف إلى أخذ النماذج الزمنية لحركة الفاعلين في الماضي مأخذَ الجد باتباع مثال يقوم به علماء اقتصاد الاتفاقيات بالنسبة إلى المجتمع الحاضر.

وفي انقلاب بلاغي ظاهر ومعبّر عن الزمن الجديد للكتابة التاريخية، أوصى برنار لوبتي بنموذج زمني صالح لمهنة المؤرخ الذي يشارك «إيجابياً في تأويل الوعي التاريخي للزمن الحاضر»[19]. وفي إطار تعريف هذا الأمر يعود في مرجعيته بشكل صريح إلى تحليل مأخوذ من كتاب **الزمن والرواية** (*Temps et Récit*)، وبهذا فإنه يشهد على الأهمية الجديدة للكتابة التاريخية في أعمال بول ريكور[20]. يتعرض الحاضر لخسارة في المعنى لأنه يجد نفسه مفسوخاً بين ماض قد ولّى ولا رغبة في تكراره ومستقبل شديد الغموض. لذا يقتضي منع أفق الانتظار من الهروب، و«جعل انتظارذاتنا أكثر تصميماً وتجربتنا أكثر إبهاماً»[21].

---

(18) Bernard Lepetit, dans: Paul Ricœur, *Temps et récit*, l'ordre philosophique, 3 tomes (Paris: Seuil, 1983-1985), tome 3: *Le Temps raconté*, p. 390.

(19) المصدر نفسه، ص 297.

(20) انظر: François Dosse, «Paul Ricœur révolutionnaire de l'histoire,» *Espaces temps*, nos. 59-61 (1995), pp. 6-26.

(21) Ricœur, Ibid., tome 3: *Le Temps raconté*, p. 390.

كان **التاريخ المفتَّت** يسعى إلى تفكيك الكتابة التاريخية كما تصورها بيار نورا في مجموعته **مكتبة التواريخ** (*Bibliothèque des histoires*) الصادرة عن دار غاليمار (Gallimard). وهنا أيضاً يصبح تنقيل النظر ضرورياً، لأن صاحب هذا النقد أدرك، في هذه الأثناء، قوة التشكيك في المخططات العامة التي يجب تفكيكها لأنها جميعها تفترض محركاً للتاريخ يعطي الأجوبة قبل طرح الاسئلة على التجربة التاريخية.

ومن جهة أخرى، خاض بيار نورا بنفسه، وبعد أن ثمّن تفجر التاريخ، مشروعاً شاسعاً هو مشروع **أماكن الذاكرة** (*Lieux de mémoire*) والذي يمكن النظر إليه على أنه استعادة لمعنى. وهو مشروع يأخذ بعين الاعتبار المرحلة التفكيكية الضرورية من أجل الحفاظ على موقف متباعد ونقدي بالنسبة إلى الموروث التذكري، ولكنه مندمج في مشروع الملاءمة المتعدد.

إن الفكرة المركزية بالنسبة إلى هذه الكتابة التاريخية، فكرة الأثر، سواء كانت المادية أو المعنوية على السواء، هي المحرك الجوهري **لأماكن الذاكرة** لبيار نورا، فهي الرابط الذي يعجز عنه الوصف ويصل الماضي بحاضر أصبح عبئاً ثقيلاً في إعادة ترتيب الزمن بواسطة آثاره التذكرية. يرى بيار نورا في ذلك شكلاً من أشكال القطيعة الجديدة في كتابة التاريخ التي «لا يمكن تسميتها إلا بإعادة رسم التاريخ»[22].

إن هذه القطيعة تدعو مجموعة المؤرخين إلى أن يعيدوا زيارة الأشياء بشكل مختلف انطلاقاً من الآثار التي تركتها في الذاكرة

(22) Pierre Nora, dir., *Les Lieux de Mémoire*, 3 tomes (Paris: Gallimard, 1993), tome 3: *Les France*, avec la collaboration de Maurice Agulhon [et al.], p. 26.

الجماعية الأحداث والرجال والرموز وشعارات الماضي. فهذا التخلي/ الاستعادة للتقليد التاريخي كله من خلال اللحظة التذكرية التي نعيشها يفتح المجال أمام تاريخ آخر: «لا المؤثرات بل مفاعيلها، وليس الأعمال المحفوظة في الذاكرة ولا حتى تلك التي تسترجع في عملية التذكر، بل أثر تلك الأعمال ولعبة إسترجاعها، ليست الأحداث في حد ذاتها إنما بنيانها في الزمن، إندثار معانيها وانبعاثها، وليس الماضي كما حصل ولكن إعادة توظيفه الدائمة وإستعماله والتخلي عنه، وضغطه على أزمنة الحاضر المتعاقبة، وليس التقليد ولكن كيفية تكونه وانتقاله من جيل إلى جيل»[23].

هذه الورشة الضخمة التي انفتحت على تاريخ تحولات الذاكرة وعلى واقع رمزي محسوس وغير قابل للتثبيت في نفس الوقت، بإحداث إشكالية مزدوجة لمفهوم التاريخانية ومفهوم الذاكرة تحول إلى نموذج هذا الزمن الواسطة الذي يعرفه ريكور (Ricœur) كجسر بين الزمن المعيوش والزمن الكوني. وبعيداً عن حصر الذاكرة بوضع الرواسب الوهمية المضخمة لفاعلين يتم التحكم بهم، فإنها تدعو إلى أخذ الفاعلين وكفاءاتهم على محمل الجد وتعيد إلى الأذهان أنها تتحكم في غالب الأحيان بالتاريخ الذي يصنع.

يفرض زمن التفكير الذي يمر به علم التاريخ نظرة تأويلية ليس فقط بالنسبة إلى مواضيع مهنة المؤرخ ولكن أيضاً بالنسبة إلى تطورات كتابته.

فتاريخانية نموذج **الحوليّات** التي يشكلها **التاريخ المفتَّت** تشترك في هذا الوعي الجديد للكتابة التاريخية.

---

(23) المصدر نفسه، ص 24.

أبعد من الظرفية التذكرية الحالية المعبرة عن أزمة واحدة من مقولتي ما وراء التاريخ ـ أفق الانتظار، وغياب أي مشروع عن مجتمعنا الحديث، يسترجع علم التاريخ وظيفة مرتبطة بالفعل وهي الدين الأخلاقي إزاء الماضي.

بالتأكيد، لم يعد نظام التاريخانية، المفتوح دائماً على الصيرورة، اسقاطاً لمشروع تم التفكير فيه ملياً ومنغلق على ذاته. ومنطق العمل نفسه، يبقي مجال الممكنات مفتوحاً في إطار إعادة فتح إمكانات الحاضر الذي تغذيه ممكنات الماضي غير الثابتة. تبقى إذاً وظيفة التاريخ حية والحزن على المواقف التيولوجية يمكن أن يصبح فرصة لإعادة التفكير في عالم الغد.



المقدمة

«إن من يتحكم بالماضي يمسك بالمستقبل»

(جورج أورويل)

تلهم كليو (Clio) جمهوراً متزايداً متعطشاً لمعرفة ماضيه. يتدافع الناس للاستماع للخطاب التاريخي. وتستقبل شاشات التلفزة وإستوديوهات الإذاعة باحثين كانوا في السابق مغمورين مع جهدهم الأرشيفي ومنحصرين في حلقة ضيقة من الجامعيين. أثناء برامج السهرات الإنتخابية يقدم رينيه ريمون (René Rémond) إيضاحات المؤرخ. عُيّن جورج دوبي (Georges Duby) رئيساً للقناة السابعة للتلفزة. فرانس أنتير (France inter) تُسمِع الفارق من خلال زيادة برامجها التاريخية، حيث يجلس جنباً إلى جنب مؤرخون محترفون مثل بيار ميكيل (Pierre Miquel) أو هنري آمورو (Henri Amouroux)، ولكن أفضل فترة إذاعية من حيث الوقت جرى تخصيصها لراويةٍ للتاريخ تطارد الحلم والهروب، هي سيدة الفترة الصباحية إيف روجيري (Eve Ruggieri) التي تستعرض في مسلسلها اليومي مازاران (Mazarin) والقشتالية (La Castiglione) وكليوباترا (Cléopâtre) وجوزيفين دو بوهارنيه (Joséphine de Beauharnais) لجمهور وفيّ جداً يقدر ما بين 975000 و1200000 مستمع.

إن نجاح المؤرخ آلان ديكو (Alain Decaux) في التلفزة لا يمكن إنكاره. لقد اقتحمت جميع وسائل الإعلام والاتصال حقل المؤرخ. وهي تستجيب إلى تعطش حقيقي للتاريخ وإلى ضرورة ملحة لجمهور يساهم في ازدهار سوق الكتاب ومجلات تبسيط التاريخ والتي تزداد رغم هذه الفترة المتأزمة بنسبة 10% في العام. ويصل عدد النسخ المطبوعة لمجلة ذات نوعية كمجلة **التاريخ** (*L'Histoire*) إلى 80000 نسخة. إن الرجوع إلى التاريخ موقف عام. بعد الترتيب الذي جرى تنظيمه بمناسبة سنة التراث (1980)، تاه الكثيرون في شجرات أنسابهم، أو تذكروا أن عجوزاً يموت هو بمثابة مكتبة تحترق. لقد أخرجوا آلاتهم لتسجيل روايات الأجيال القديمة والاحتفاظ بجوانب هاربة من الحياة. . . إن التاريخ الذي يُستهلك أصبح أداة علاجية تعوّض نقصاً وتقطع عزلة ضواحي ذات ماضٍ بلا ذاكرة. وبذلك يبدو المؤرخ كأنه محافظ: فهو يطمئن، فيستدعى باستمرار للسهر على مجتمع جريح. وفي غياب حاضر مثير للحماسة وأمام مستقبل مقلق، يبقى الماضي مجالاً لترسيخ هوية خيالية عبر عصور مع أنها قريبة ولكننا أضعناها نهائياً. إن هذا البحث يتم أكثر بصورة فردية وأكثر محلية نظراً لانعدام مصير جماعي محرك، فنتخلى عن الفترات المدوية من أجل ذاكرة الناس العاديين اليومية. فتنشأ طوبوغرافيا جمالية جديدة وفق ما يدور الحديث عن قرية أو عن نساء أو عن مهاجرين أو عن هامشيين. . . وفي هذا الحقل للبحوث الجديدة تتغذى الإثنية الداخلية من أزمة مفهوم التقدم وتزدهر في «حاضر ثابت»[1]، فقد مررنا لاشعورياً من السِّيَر الكبرى لأبطال التاريخ، من لويس الحادي عشر (Louis XI) إلى نابليون

(1) J-R. Rioux, dans: *Le Monde du dimanche* (7 octobre 1975).

(Napoléon) مروراً بشارلكان (Charles Quint) إلى سِيَر أبطال الحياة اليومية المغمورين. ومن ناحية أخرى التركيز الإعلامي المتجدد يومياً لأحداث سريعة وملحة في نفس الوقت تدور على الساحة العالمية الشاسعة تمنحنا صورة تاريخ متسارع وهارب منا في نفس الوقت، نتلقاه أكثر مما نعيشه، تنجذب إليه عواطفنا. ولكن هذا الحدث لا يعطي معنًى لحياتنا، لذا كان البحث عن هويتنا في مياه أكثر هدوءاً في العصور البعيدة، لتحدي قلقنا، وتحديداً في العصور الوسيطة. يرفض مجتمع بأسره أن يكون يتيماً ويجتهد للاستلهام من تاريخه، فقد أظهر بحث حديث[2] ميل الفرنسيين الشديد للتاريخ: 50,2% من المستجوَبين يمتلكون كتباً تهتم بالتاريخ، وبالنسبة إلى 9,6% من بينهم تحتل هذه الكتب المرتبة الأولى في قراءاتهم. إن التاريخ سوقه رائجة ولكن أي تاريخ؟

تتجسد كليو (Clio) في فرنسا، من وراء تشويش التاريخ البحث تجاري، التاريخ - البضاعة، في مدرسة حازت موقعاً مهيمناً: مدرسة **الحوليّات** (*Annales*)، فقد استولى «الحوليّاتيون» على كل المواقع الهامة في مجتمع الإعلام، وقد أصبح المؤرّخ الجديد تاجراً وعالماً في نفس الوقت، فهو وسيط تجاري وإعلاني وإداري للتحكم في مختلف مستويات شبكة توزيع الأعمال التاريخية. إن مختلف المسؤولين عن السلاسل التاريخية في معظم دور النشر هم من «الحوليّاتيين»، فهم يحتلون بهذه الصورة مكان سلطة أساسية، هي سلطة اختيار الأعمال التي تعتبر جديرة بالنشر وإلقاء البقية في سلة المهملات. هذه المدرسة المهيمنة تغلغلت في نفس الوقت ضمن

---

(2) *Pratiques culturelles des Français: Description socio-démographique, évolution 1973-1981* (Paris: Dalloz, 1982). Enquête sur 4000 personnes de plus de 15 ans entre décembre 1981 et janvier 1982.

عناصر الصحافة لتكون رجع صدى لمنشوراتها لتضمن لها الانتشار الضروري لاكتساب جمهور أوسع. وهكذا أصبح الإنتاج التاريخي الفرنسي حكراً تاماً «**للحوليّات**»[3]، من مختبرات البحث إلى دوائر التوزيع.

إن نجاحها هو نتيجة استراتيجية التحكم في الإجراءات، في لغة العلوم الاجتماعية المجاورة وفي قدرة هائلة على الاستيلاء لنفسها على لباس الآخرين من أجل إعادة كساء عجوز غير كريمة تحولت إلى آكلة لحوم البشر. إن هذا الغزو هو سمة ثابتة لمدرسة تستطيع بقدر ما هي قادرة على إدارة هجومها بأفضل الطرق فإنها تستطيع تطوير استراتيجية نابعة من الدروس الثلاثة الناجمة عن التجارب الفاشلة في تحقيق علم اجتماعي موحد في بداية هذا القرن: تجارب المدرسة الجغرافية الفيدالية (Vidalienne) والمدرسة الدوركايمية (Durkheimienne) ومشروع هنري بر التوليفي. فهي تقدم ذاتها منذ البداية على أنها مدرسة مناضلة، على الهامش، داعية العلوم الاجتماعية لنجدتها في زعزعة التاريخ التاريخاني المسيطر، ومدرسة شهيدة ضحية الإقصاء حتى لا ترعب شركاءها المحتملين. هذه المدرسة ترفض أي عقيدة أو أية فلسفة أو نظرية للتاريخ، لذلك فهي تتمتع بطواعية وحركية وقدرة على الاندماج في حقل الأبحاث الأشد اتساعاً.

إن الجمع بين إستراتيجيا حازمة للتحالفات ونزعة إبستيمولوجية شاملة تسمح لمدرسة **الحوليّات** بالقضاء على خصومها. إنها إمبراطورية شاسعة تلك التي شيدتها بفعل حرب الكر والفر والتي

---

(3) François Dosse, «Main basse sur la ville,» dans: Maurice Aymard [et al.], *Lire Braudel*, armillaire (Paris: La Découverte, 1988), à paraître.

كانت فيها لغة الإستراتيجيا العسكرية (حدود، أراضي...) بمثابة أهداف متعددة حتى الاستيلاء الشامل. ولكي نفهم هذا الانتصار، علينا إعادة تركيب مراحله. يشير مارك فيرّو (Marc Ferro) إلى أن هذه المدرسة هي انبثاق لعلم تجريبي تخلص من الأيديولوجيات ومن رؤى للعالم. وقد تصبح علماً مستقلاً بذاته فوق أي شك وأي تأثير. إن مثل هذا التصور يسمح بعدم التساؤل عن أسباب نجاح هذه المدرسة وعن العلاقات التي أقامتها مع روح عصرها وعن الوظيفة المنوطة بالمؤرخ. غير أن التاريخ شديدُ الارتباط بالمكان والزمان اللذين نشأ فيهما، كما كتب ميشال دو سيرتو (Michel de Certeau) «إن الممارسة التاريخية بأسرها متعلقة ببنية المجتمع»[4].

هذه المدرسة التي تجاوزت سن الخمسين لها الآن تاريخ، وكما قال لوسيان فيفر (Lucien Febvre) سنة 1946 : «بما أن العالم يتحرك **فالحوليّات** أيضاً تتحرك». فيجب إذاً أن نتساءل بماذا أجاب هذا الخطاب التاريخي الجديد عن مطلب اجتماعي دون أن نقوم بدراسة آلية تنحصر في لعبة المرايا بين المجتمع الشامل وخطاب المؤرخ.

فهذا الخطاب له استقلاليته وله منطقه الانتظامي الخاص داخل حقل علوم الإنسان. وهذا المعطى الثاني هو الذي يوضح بالفعل الانقطاعات الأساسية وتبديلات نماذج **الحوليّات** من سنة 1929 إلى اليوم.

فإذا كانت كتابة المؤرخ وليدة عصرها، فمن هذا المنظور «لا

---

(4) Michel de Certeau, «L'Opération historique,» dans: Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires, 3 vols. (Paris: Gallimard, 1974), vol. 1: *Nouveaux problémes*, pp. 3-41.

يوجد مؤرخ بريء في أي مكان» (جان بوفييه) (Jean Bouvier)، وإذا كان يجب أن توضع في حقل العلوم الاجتماعية، يجب وضعها تحت ضوء ثالث وهو ضوء اختصاص التاريخ في حد ذاته، كاختصاص مستقل له منطقه الخاص به كمهنة، تواجهه مشاكل الموقع والتجديد والمحافظة ومن هذا المنطلق يجب التوصل من خلال دراسة اجتماعية تاريخية لبيئة المؤرخين من وجهة نظر مورفولوجية، إلى إدراك تقدم المعرفة في علاقة بمأسستها. ولا يمكن إلا انطلاقاً من هذه النظرات الثلاث الواقعة ضمن التعاقبية، أن نكتشف نشاط بعض المراكز العقلانية في الخطاب الحوليّاتي. لا نستطيع القيام بتفكيرمنظم حول تاريخ **الحوليّات** لمن يريد أن يتساءل عن وظيفة المؤرخ والتاريخ .

إن المسألة ذات أهمية، فهي مسألة الوجود بحد ذاته للتاريخ، وقدرته على تجنب التجربة الانتحارية المزدوجة: الهروب إلى الأمام على طريق الذوبان ضمن العلوم الاجتماعية أو التراجع نحو التاريخ الوضعي القديم الذي عرفه القرن التاسع عشر. إن شرط القفزة لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال تجاوز التجريبية وإعادة تسليح علمي.

يظل التاريخ علماً في طور البناء على شاكلة مجتمعنا الذي لا ينفصل عنه. وهكذا يستمر الصراع من أجل التاريخ.

الحوليّات: هيئة الإدارة

BLOCH
FEBVRE
BRAUDEL
MORAZE
FRIEDMANN
LE GOFF
LE ROY-LADURIE
FERRO
LEUILLIOT
MANDROU
BURGUIERE
MAHN-LOT
REVEL
VALENSI
TRABUC

29 35 40 45 50 55 60 65 70 75 80

Directeur
Membre du Comité de Direction
Secrétaire du Comite
Secrétaire ou Assistant de la Rédaction

المصـــــدر: Hervé Coutau-Bégarie, *Le Phénomène «nouvelle histoire»: Stratégie et idéologie des nouveaux historiens* (Paris: Economica, 1983), p. 257.



I

زيارة جديدة لكليو



1 ـ ما قبل تاريخ الحوليّات

عودة إلى الأصول

دون التسليم بتقليد قبيلة المؤرخين التي وصفها مارك بلوخ (Marc Bloch) بعد فرانسوا سيميان[1] (François Simiand) بـ «صنم الأصول»، من الضروري أن نحدد التربة التي نبتت عليها مدرسة **الحوليّات** لنفهم أسباب موقعها المهيمن.

إن إنشاء مجلة **الحوليّات** نتج عن تحول مزدوج بلبل الوضع العالمي في فترة ما بعد 1914 ـ 1918، وكذلك حقل العلوم الاجتماعية. وسنجد هذا التأثير المزدوج وراء كل تبدل بارز في تطور الخطاب الحوليّاتي. وكما يقول بنيتو كروشي (Benetto Croce): «كل تاريخ هو تاريخ معاصر».

يستسلم جاك لوغوف قليلاً إلى السهولة عندما يكتب «ليس من باب الصدفة أن تنشأ مجلة **الحوليّات** سنة 1929، وهي سنة اندلاع

---

(1) سيميان (Simiand) (1873 ـ 1935): عالم اجتماع واقتصاديّ دوركايمي، وأستاذ في الكوليج دو فرانس (1932 ـ 1935).

الأزمة الكبرى»[2]. لا يمكن اختزال مشروع مارك بلوخ ولوسيان فيفر إلى رد فعل منظم لمجموعة من المؤرخين أمام أزمة اندلعت بصورة واضحة بعد انهيار بورصة وول ستريت (Wall Street) في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1929 في حين أن المجلة صدرت في كانون الثاني/ يناير من العام نفسه، وتعود كمشروع إلى فترة ما بعد الحرب مباشرة. مع ذلك لم يكن جاك لوغوف مخطئاً تماماً، لأن الأزمة التي حدثت بعد تأسيس المجلة لم تكن سوى الأرضية التي أدت إلى نجاحها. إن الانهيارات المأسوية لاقتصاد رأسمالي على المستوى العالمي، التي أطاحت بنفخة واحدة بأمريكا وأوروبا، أدت إلى إعادة النظر في فكرة تقدم متواصل للإنسانية في اتجاه المزيد من التحسن المادي. كانت هذه الأزمة أساسَ تساؤلات جديدة تعيد تقييم ما هو اقتصادي واجتماعي غارق في انخفاض قيمة النقد والركود الاقتصادي والبطالة. وفي هذا الظرف الذي قوي فيه الطلب من أجل الفهم والتصرف، فإن مجلة **الحوليّات**، التي تحمل عنوان **حوليّات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** (*Annales d'histoire économique et sociale*) تجيب تماماً على أسئلة زمن يحوّل نظره عما هو سياسي نحو ما هو اقتصادي.

من جهة أخرى لم ينتظر الاقتصادي عام 1929 ليغزو الأفق السياسي. لقد طغت على العشرينيات من القرن العشرين هنا وهناك نقاشات كبيرة وقرارات اقتصادية هامة، ففي عام 1921 أكد لينين عندما أقر السياسة الاقتصادية الجديدة في روسيا أن «الاشتراكية يتم تعريفها بالسوفيات زائد تعميم الكهرباء»، وخلال هذه الفترة

---

(2) Jacques Le Goff, Roger Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire,* les encyclopédies du savoir moderne (Paris: Retz- C. E. P. L., 1978), p. 214.

نفسها طغت على العلاقات الدولية مسألة التعويضات. والحكم على السياسات كان مرتبطاً بنجاحها أو فشلها الاقتصادي، كما أن تحالف اليسار في فرنسا انهزم أمام جدار المال الذي صعد عليه ريمون بوانكاريه (Raymond Poincaré) والذي بإعادة الفرنك إلى عياره الذهبي عام 1928، تمكن من الانتصار الذي جنى ثماره على المستوى الانتخابي. لمواجهة الأزمة كانت المشاريع الحكومية تتبلور من خلال المشاريع الاقتصادية المعروضة. وفرانكلين د. روزفلت (Franklin Roosevelt) مَدين في انتخابه عام 1932 لبرنامج النيوديل (New Deal)، وانتصار الجبهة الشعبية في فرنسا ناتج هو أيضاً في جزء منه عن رد الفعل ضد سياسة التخفيض الإرادي في قيمة العملة التي قام بها اليمين في عهد غاستون دوميرغ (Gaston Doumergue) أو بيار لافال (Pierre Laval). وأصبح الاقتصاد المقياس الذي يفكر من خلاله مجتمع سنوات العشرينيات والثلاثينيات في ذاته، وفي هذا الجو نمت مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، لصاحبيها مارك بلوخ ولوسيان فيفر، كالسمكة في الماء. هناك بالتأكيد الحدس الواضح لدى المؤرخين الكبيرين، ولكن كذلك أيضاً خطاب خاص ما فتئ يتأقلم مع الوضع الاجتماعي الذي يصدر فيه. إن الأزمة طرحت تحدياً، وأوجدت الحاجة لتقدير كمية المتغيرات الاقتصادية وتحديداً تطور الأسعار. وفي هذا المجال، شهدت الكتابة التاريخية خلال هذه الفترة صدور ثلاثة كتب أساسية: كتب فرانسوا سيميان (François Simiand) وهنري هاوزر (Henri Hauser) وإرنست لابروس[3] (Ernest Labrousse).

(3) François Simiand, *Recherches anciennes et nouvelles sur le mouvement* =

في الواقع، أنه من خلال هذه الدراسات، عرف التاريخ الاقتصادي انطلاقة أكثر علمية، وهو منعطف أساسي حدد من خلاله بيار شونو أركيولوجيا هذا الشكل من التاريخ: «كل شيء بدأ عند أفق 1929-1930»[4]. «دخل الحساب التاريخ عبر الأسعار. وجاءت الصدمة غداة أزمة 1929»[5].

إن في أساس هذا الخطاب التاريخي الجديد الذي رمّزته مجلة **الحوليّات** يوجد أيضاً الإرباك الذي أحدثته حرب 1914-1918 ونتائجها. إن ملايين القتلى الذين خلفتهم هذه الحرب الطويلة يقفون كما في فيلم أبيل غانس (Abel Gance) **إني أتهم** (J'accuse) ليذكّروا الأحياء بمسؤولياتهم. يمثل ذلك بالنسبة إلى المؤرخ إفلاس التاريخ - المعركة الذي لم يعرف كيف يمنع البربرية. فالإرادة السلمية المصممة في مرحلة ما بعد الحرب، وربما المبالغة في سلميتها (ميونيخ)، تدفع إلى تجاوز الرواية عن تاريخ قومي صرف،

---

général des prix du XVIème au XIXème siècle, conférences d'histoire et statistique = économiques (Paris: Ed. Domat Montchrestien, 1932); Henri Hauser (1866-1946), pionner de l'histoire économique du XVIe siècle en étudiant les origines du capitalisme moderne en France, Henri Hauser, *Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800*, publiés par Henri Hauser [avec la collaboration de Denuc et P.-J. Burin] (Paris: Impr. Les Presses modernes, 1936); E. Labrousse (né en 1895), professeur à la Sorbonne et à la VIe section de l'APHE, C. E. Labrousse, *Esquisse du mouvement des prix et des revenue en France au XVIIIème siècle*, collection scientifique d'économie politique; 3, 2 vols., préface de Henri Sée et de Roger Picard (Paris: Dalloz, 1933).

(4) Pierre Chaunu, *Histoire, science sociale: La Durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne* (Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1974), p. 56.

(5) Pierre Chaunu, «L'Histoire sérielle: Bilan et perspectives,» *Revue historique* (1970), p. 302.

متعصب كان عقيدة لجيل كامل من الشباب منذ هزيمة 1870. وعلى العكس من ذلك هناك رغبة في تقريب الإنسانيات والشعوب، وبرزت غايات جديدة بالنسبة للخطاب المؤرخ والذي أصبح يعتبر وسيلة ممكنة لتحقيق السلم بعدما كان سلاحاً للحرب. في عام 1935 قام سيليستان بوغليه (Célestin Bouglé) بتقييم جهود تنظيم المؤتمرات التاريخية الدولية التي تصب في هذا الاتجاه[6]، قرعت الحرب ناقوس نهاية «الزمن الجميل» لأوروبا التي نرى بوادر أفولها أو انحطاطها[7]. قبل الحرب كان كل شيء يقرر في أوروبا. والخطاب الأوروبي ـ المركزي للمؤرخين كان يتناسب تماماً مع عالم وحّدته الرأسمالية وهيمنت عليه لندن وباريس. بعد الحرب، خرجت أوروبا مستضعَفة من جراء النزيف البشري حيث بلغ عدد الضحايا عدة ملايين من البشر، والدمار المادي، وخاصة بفعل صعود قوى جديدة أكثر حيوية مثل اليابان وبنوع خاص الولايات المتحدة الاميركية. إن التشابك العالمي للمشاكل وحالة التبعية للعالم الجديد خففت من الرسالة الشاملة للأوروبيين، وحولت الخطاب المؤرخ هنا أيضاً باتجاه تجاوز الأوروبية ـ المركزية نحو أخذ المصائر المتعددة والحضارات العديدة بعين الاعتبار. في هذا الإطار المتميز بإعادة طرح الحقائق السائدة قبل الحرب يمكن تفهم خطاب **الحوليّات** وليس فقط في إطار تطور خاص بالخطاب المؤرخ المنفصل عن الواقع. وكما يقول لوسيان فيفر: «لم تكن أزمة

---

(6) C. Bouglé, *Bilan de la sociologie française contemporaine*, nouvelle encyclopédie philosophique; 4 (Paris: F. Alcan, 1935), p. 79.

(7) Albert Demangeon, *Le Déclin de l'Europe*, bibliothèque politique et économique (Paris: Payot, 1920), et Oswald Spengler, *Le Déclin de l'Occident* (Paris: Gallimard, 1920).

التاريخ مرضاً خاصاً فتك بالتاريخ وحده. لقد كانت أحد المظاهر، بل الظاهرة التاريخية البحتة لأزمة كبرى في الفكر البشري»[8].

هذه الأزمة الشاملة أو الأزمة الحضارية لم تؤثر فقط على فئة المؤرخين، بل إنها قلبت قناعات جميع الأوساط الثقافية التي كانت في حالة غليان إبان الثلاثينيات، كما بيَّن ذلك جان توشار (Jean Touchard) وبيار أندرو[9] (Pierre Andreu). نجد العديد من النقاط المشتركة بين الخطاب الحوليّاتي و«روح الثلاثينيات» هذه التي يزخر بها العديد من حركات المفكرين الشباب المتمردين: «أظهر التمرد أحسن ما لدى المفكرين الشباب»[10]، حيث صدرت مجلات جديدة خلال سنوات الثلاثينيات هذه: **مخططات** (*Plans*) بإدارة فيليب لامور (Philippe Lamour)، **فكر** (*Esprit*) لإيمانويل مونييه (Emmanuel Mounier) أو **صراع** (*Combat*) و**الإنسان الجديد** (L'Homme nouveau) و**الكراسات** (*Les Cahiers*) لصاحبها جان بيار ماكسانس (Jean-Pierre Maxence) ورد **فعل** (*Réaction*) لصاحبها جان دو فابريغ (Jean de Fabrègues) و**النقد الاجتماعي** (*Critique sociale*) وخاصة **النظام الجديد** (*L'Ordre nouveau*) لصاحبيها روبير آرون (Robert Aron) وأرنو دانديو (Arnaud Dandieu) اللذين نشرا معاً عام 1931 **تقهقر الأمة الفرنسية** (*La Décadence de la nation*

---

(8) Lucien Febvre, *Combats pour l'histoire*, économies, sociétés, civilisations (Paris: Armand Colin, 1953), p. 36.

(9) J. Touchard, «L'Esprit des années 1930,» papier présenté à: *Tendances politiques dans la vie française depuis 1789: [Colloque de Royaumont, 23 mai 1959]*, colloques: Cahiers de civilisation (Paris: Hachette, 1960), et Pierre Andreu, «Les Idées politiques de la jeunesse intellectuelle de 1927 à la guerre,» *Revue des travaux de l'académie des sciences morales et politiques* (1957), pp. 17-35.

(10) Andreu, Ibid.

(*française*) و**السرطان الأمريكي** (*Le Cancer américain*).

وبغضّ النظر عن الاختلافات بين هذه الأوساط الفكرية المتنوعة، يمكن أن نتحدث عن جيل وعن مواضيع مشتركة: «يخلق تضامن الخطر بيننا وحدة لم يستطع صنعها لا المعلمون ولا العقائد، وهي وحدة الرفض أمام البؤس المذهل لعصر يجد فيه الإنسان كل ما يحبه وما يرغب فيه مقطوعاً من أصوله الحية ذابلاً مشوهاً معكوساً مقشور الجوانب»[11]، كما نجد فيها مختلف معارك لوسيان فيفر ومارك بلوخ من أجل التاريخ. وفي المقام الأول «المواضيع الكبرى في الثلاثينيات هي مواضيع مقاومة»[12]. لكن الخطاب الحوليّاتي يجد أصل تجذره في المعارضة المطلقة وفي الرفض الكلي للكتابة التاريخية المهيمنة والتي تسمى بالوضعية. إن هوية **الحوليّات** بُنيت بالفعل على قاعدة الرفض للجيل السابق جيل لافيس (Lavisse) وسينيوبوس (Seignobos) ولانغلوا (Langlois).

السمة الثانية التي تميز مفكري الثلاثينيات هؤلاء هي رفضهم للسياسة، فاللعبة السياسية والحياة البرلمانية والأحزاب السياسية هي محل هجوم هؤلاء المثقفين. والدولة محل ريبة ومرفوضة كما لو أنها خارج المجتمع، وهي جسم غريب يثير ظاهرة رفض عنيفة: «سواء كانوا معتدلين أو راديكاليين أو اشتراكيين أو شيوعيين، كل زعماء السياسة الذين ترد أسماؤهم كأسياد للمنابر السياسية أو كقادة للصحف، يحملون وصمة عار: نوع من التواطؤ الموبوء والتفاهم القذر يتضح عبر التباسط التخاطبي (Tutoiement) الذي يتم في الأروقة

---

(11) Denis de Rougemont, «Cahiers de revendications,» *NRF*, vol. 20 (1932), p. 51.

(12) Touchard, «L'Esprit des années 1930,» p. 101.

الخلفية والترافق في الحانات»[13]. دعت مجلة **النظام الجديد** (*L'Ordre nouveau*) إلى عدم التصويت في انتخابات نيسان ـ أيار (أبريل ـ مايو) 1936: «يمنع التصويت كما يمنع البصاق على الأرض»[14]. رغم أن مجلة **النظام الجديد**، مرتع الأفكار الجديدة، كانت ترغب «في إلغاء الوضع البروليتاري» وإرساء أسس «التحليق في القرن العشرين»[15]. إن رفض السياسة جليّ أيضاً لدى مارك بلوخ ولوسيان فيفر، فقد طوّرا منهجاً يتمحور حول الاقتصادي والاجتماعي مهملَيْن بصورة كلية الحقل السياسي الذي أصبح بالنسبة إليهما هامشياً وملحقاً ونقطة ميتة في أفقهما. إن روح الثلاثينيات هذه هي أيضاً تفكير في التدهور والانحطاط وعدم جدوى الأيديولوجيات، والتفكير بالقفزة الضرورية، مفسحةً مجالها كله للإنسان كشخصية وكحالة فردية: «يعني ذلك... بكلمة واحدة، إعادة خلق حضارة إنسانية»[16]. أفضى هذا التفكير إلى رفض للحقيقتين الموجودتين: **الرأسمالية** بتناقضاتها وأزماتها التي أدت إلى بطالة الملايين من الناس **ونشأة أنظمة شمولية** مثل الفاشية والنازية، ولكن أيضاً الحل عبر ثورة جماعية على النمط السوفياتي: «**النظام الجديد**، تهيئ لثورة النظام ضد الفوضى الرأسمالية والقمع البلشفي...»[17]. إنه البحث عن نظرية ثالثة. نجد هذه الرغبة في مستقبل جديد وعصري وإنساني متحرر من الدولة في المواضيع

---

(13) Daniel Rops, dans *L'Ordre nouveau* (octobre 1933),
ورد في: المصدر نفسه، ص 102.

(14) *L'Ordre nouveau* (avril 1936),
ورد في: Touchard, Ibid., p. 102.

(15) Andreu, «Les Idées politiques de la jeunesse intellectuelle de 1927 à la guerre».

(16) *Plans*, no. 1, p. 9.

(17) Prospectus de lancement de *L'Ordre nouveau*.

المؤسسة للخطاب الحوليّاتي. يتساءل مارك بلوخ حول هذه الأوروبا المهددة بواسطة التاريخ الوسيط في كتابه **المجتمع الفيودالي** (*Société féodale*). وهو في نفس الوقت يدعو إلى تاريخ مقارن وينتمي بصورة كلية إلى جيل يضاعف المؤسسات القادرة على تطوير حوارات دولية علمية[18].

ساهم مارك بلوخ ولوسيان فيفر بصورة هامة في ذهنية الثلاثينيات هذه، إلى جانب أولئك «اللاتقليديين»، والذين أنهى البعض منهم مسيرته في الأكاديمية الفرنسية (L'Académie française): تييري مولنييه (Thierry Maulnier) ودانيال روبس (Daniel Rops) وروبير آرون (Robert Aron) وجورج إيزار (Georges Izard)، مثلما انتهى رافضو ستراسبورغ بفرض تصورهم للتاريخ على طائفة المؤرخين بأسرها.

الدافع الثاني الذي عرِفه وسطُ المؤرخين، وهو عامل أزمة تحول إلى عامل حيوية، جاء من حقل العلوم الاجتماعية. أدت إعادة النظر في نظرية التطور وفكرة التقدم إلى تحول الفكر التاريخي نحو مجالات أخرى خارجة عن حقله الخاص. تميزت هذه الفترة بالعلوم الاجتماعية الجديدة، مثل: الألسنية، والتحليل النفسي، والأنثروبولوجيا، وخاصة ذلك العلم الذي يهتم بالمجتمع والذي يقف على الحدود المباشرة للتاريخ، وهو علم الاجتماع، مع المدرسة الدوركايمية «غادرت العقلانيةُ البورجوازية التاريخ وانسحبت نحو الاقتصاد السياسي وبصورة جزئية نحو علم الاجتماع»[19]. جرى

(18) 1930: Institut d'études comparées à Oslo. 1935; Fondation J. Bodin à Bruxelles. Débats entre Allemands et Polonais sur la silésie.

(19) Alain Guerreau, *Le Féodalisme, un horizon théorique,* préface de Jacques Le Goff (Paris: Le Sycomore, 1980), p. 142.

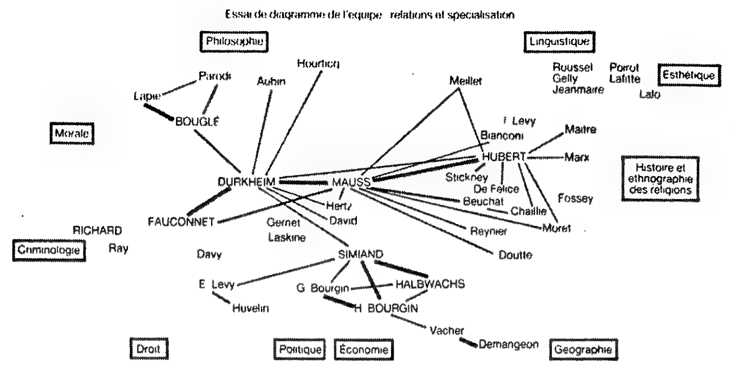
تكليف إميل دوركايم (Emile Durkheim) بأول درس في علم الاجتماع بهذه الصيغة في كلية آداب ببوردو (Bordeaux) سنة 1887. وأصبح مدرسة، كما أوضح ف. كارادي[20] (V. Karady)، بأنه نجح في اكتساب موقع مهيمن في هذا الاختصاص. ولكن الطريق كانت ما تزال طويلة أمام علم الاجتماع حتى يستطيع أن يفرض نفسه أمام اختصاصات الجامعة الكلاسيكية. كانت استراتيجية المدرسة الدوركايمية تتمثل في كسب مواقع في حرب متنقلة، وفي تحقيق موطئ قدم في حقل علوم الإنسان المجاورة، مقترحاً عليها علاقات تكاملية وعارضاً تقديم خدمات. لقد وضع علم الاجتماع الدوركايمي الناشئ لنفسه مطمحُ تحقيق توحيد كل العلوم الإنسانية تحت رايته من خلال مفهوم السببية الاجتماعية. وفي هذا الصدد فإنه يهاجم قلعة التاريخ، ذلك العلم المتجذر بقوة داخل المؤسسات الجامعية، وكانت له مجلة منذ 1897 للتعريف بأطروحاتها: **السنة العلمية الاجتماعية**[21] (*L'Année sociologique*). فإميل دوركايم لا ينفي قيمة التاريخ الذي يعتبره أساسياً، ولكنه يغير من وضعيته.

---

(20) V. Karaday, «Durkheim, les sciences sociales et l'université: Bilan d'un semi-échec,» *Revue française de sociologie* (avril 1976).

(21) انظر الشكل الرقم (1-1).

الشكل الرقم (1-1)



Les lignes reliant les individus symbolisent les relations (de collaboration, d'enseignement, d'amitie, etc.) qui sont attestées comme d'une certaine importance. Elles sont plus ou moins épaisses selon l'intensité de ces relations. Les noms des principaux collaborateurs de l'*Année sociologique* 1re série sont en capitales.

المصـــــدر: Philippe Besnard, «La Formation de l'équipe de l'année sociologique,» *Revue française de sociologie*, vol. 20 (janvier-mars 1974).

على المؤرخ أن يكتفي بجني وتجميع المواد التي ينتج عالم الاجتماع منها عسله: «لا يمكن أن يكون التاريخ علماً إلا إذا سما فوق ما هو فردي، والحقيقة أنه عندئذ يفقد ذاته ليصبح فرعاً من فروع علم الاجتماع»[22]. إن المؤرخ الذي يزعم أنه يقارن ويؤوّل يصبح عالم اجتماع، والتاريخ يكون عندئذ علماً رديفاً لعالم الاجتماع المنتج الرئيسي. من منظور اكتساب موقع مركزي ومهيمن أثبتت هذه المجموعة الدوركايمية قدرة على الانسجام مرتبطة بتصلب يقيني سيؤدي إلى فشل مشروعهم[23]. هذه المجموعة تتصارع على جبهتين وبنفس الدرجة ضد العضوانية الكاثوليكية التي يدعو إليها لو بلاي (La Play) وضد الإشتراكية. وفي مواجهة «التقسيم الاجتماعي

---

(22) Emile Durkheim, dans: *L'Année sociologique*, vol. 6 (1903), pp. 124-125.

(23) Daniel Lindenberg, *Le Marxisme introuvable*, l'ordre des choses (Paris: Calman-Lévy, 1975).

للعمل» الذي ينادي به كارل ماركس، تضع هذه المجموعة «تقسيم العمل الاجتماعي». وهي تدعو إلى فكر توافقي مصبوغ بحداثة خطاب علموي، يغذيه في نهاية القرن التاسع عشر انتصار الوضعية الفلسفية، إطار المعرفة الذي نشأ عنه علم الاجتماع: «يجب على مجتمعنا أن يستعيد وعيه لوحدته العضوية... نعم أيها السادة، إني أعتقد أن علم الاجتماع قادر، أكثر من أي علم آخر، على إعادة بناء هذه الأفكار»[24].

يمنح الدوركايميون للمؤرخين مجالاً جديداً للبحث، علم الاجتماع الديني، الذي ينظر له على أساس أنه لغة مشتركة ممكنة لتجديد يقطع علاقته بتقاليد الدراسات المدرسية الجامدة والمنفصلة عما هو اجتماعي. وقد استفادوا من ظرف جامعي ملائم، ففي نظام جامعي في طور التجديد كانوا يستطيعون الادعاء بأنهم يحتلون مكاناً فيه، خاصة وأنهم قد تمتعوا قبلها بهيبة دار المعلمين العليا وشهادة التبريز في الفلسفة. كما استفادوا أيضاً من نجاح فكر أوغست كونت (Auguste Comte) الذي ينتسب إليه إميل دوركايم. إلا أن كليو (Clio) كانت متجذرة بقوة ومرتبطة بمصير الجمهورية حتى تقبل بتهميشها بهذا الشكل. كما استهدف الدوركايميون أيضاً الجغرافيا التي انتقدوا أحاديتها المناطقية وأملوا تعويضها بعلم تشكل اجتماعي: «لا يكفي أن يوجد أغنام في بلد ما لتفسير امتلاك ذلك البلد صناعة صوفية»[25]، يتهكم فرانسوا سيميان (François Simiand)، منتقداً

(24) Emile Durkheim, «Leçon d'ouverture du cours de science sociale,» *Revue internationale de l'enseignement*, vol. 15 (1888), p. 48.

(25) V. Karaday, «Stratégies de réussite et modes de faire-valoir de la sociologie chez les durkheimiens,» *Revue française de sociologie*, vol. 20, no. 1 (1979), pp. 49-82.

الحتمية التي لاحظها عند كبار الجغرافيين في ذلك العصر: دومانجون (Demangeon) وبلانشار (Blanchard) وفاشيه (Vacher) وسيون (Sion).. .في مقابل الوصف الجغرافي الذي ينطلق من التربة والمناخ يضع الدوركايميون تحولاً يعطي الأولوية للبحث عن الأسباب التي يوجد موقعها داخل المجتمع. لذا فالجغرافيا يجب إذاً[26] أن تتلاشى كعلم مستقل. وهنا أيضاً يتحطم علماء الاجتماع على صخرة ذات صلابة خاصة، وهي المدرسة الجغرافية الفيدالية (Vidalienne) التي كانت في أوج مجدها. وكان على الدوركايميين أن يكتفوا في فترة ما بين الحربين في باريس بأربعة كراسٍ في السوربون وبمنصب في «كوليج دو فرانس» (Collège de France) لمارسيل موس (Marcel Mauss). إن هذه الوضعية لا تعكس مع ذلك انتشار هذه المدرسة التي لخص وضعها سيليستان بوغليه (Célestin Bouglé) عام 1927 بالقول إن مركزها لم يكن في أي مكان، وإن اتساع دائرتها في كل مكان[27]. بسقوطهم على ضفاف كبريات المؤسسات الجامعية، اضطر علماء الاجتماع إلى الانكفاء داخل المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (L'Ecole pratique des hautes études) وإضطروا إلى تأسيس المعهد الفرنسي لعلم الاجتماع عام 1924 والذي نجد من ضمن أعضائه الأربعين الآباء المؤسسين لـ **السنة العلمية الاجتماعية**[28] (*L'Année sociologique*). إن نصف الهزيمة هذا، أو نصف النجاح، للمدرسة الدوركايمية كان في أساس نشأة مجلة **الحوليّات** سنة 1929، فقد اتبع لوسيان فيفر ومارك بلوخ

---

(26) F. Simiand, dans: *L'Année sociologique*, vol. 11 (1906-1909), p. 729.

(27) C. Bouglé, «Comment étudier la sociologie à Paris?,» *Annales de l'université de Paris* (1927), pp. 313-324.

(28) Fauconnet Bouglé, Halbwachs Davy, Simiand Mauss.

برنامجاً وعلى الأخص استراتيجيا علماء الاجتماع، بالأخذ من كل شيء. وقد ساهم توقف التدرج المهني داخل الجامعة فيما بين الحربين في التخلي عن الاختصاصات الناشئة التي لم تكن قد ثبّتت وجودها بعد مثل علم الاجتماع، ونقل مجال التجديدات إلى جهة الاختصاصات الأكثر قدماً[29]. وبالفعل جاء التجديد الناجح من حيث لا يتوقع: من علم التاريخ القديم: «أتصور أن **السنة العلمية الاجتماعية** كانت بالنسبة لمارك بلوخ أو كادت أن تكون، ما مثّلته **الحوليّات** بالنسبة لمن كانوا في سني»[30]. إن إميل دوركايم كان أحد عرّابي الكتابة الحوليّاتية والذي يعترف مارك بلوخ بأنه مدين له «لقد علّمنا أن نحلل تحليلاً أعمق، وأن نحصرالمشكلات، وأجرؤ على القول أنه علّمنا ألا ننزلق إلى التفكير السهل»[31].

في عام 1903 انفجرت قنبلة موقوتة من خلال مجلة هنري بر **مجلة التوليف التاريخي** (*La Revue de synthèse historique*)، كان قد وضعها عالم الاجتماع الشاب (ثلاثون عاماً) فرانسوا سيميان. إن مقاله الناري «المنهج التاريخي وعلم الاجتماع»، شكّل التحدي الأكثر راديكالية الذي لم يعرف علم التاريخ مثيلاً له من قبل، وجاء بمثابة عملية استيلاء، إذ إنه ينخرط في المنظومة الشاملة للهجوم الذي يقوده علم اجتماعي يفرض على المؤرخين اللجوء إلى حججهم والخضوع لإشكاليتهم وأن يتحولوا إلى مُجمّعين تجريبيين لمواد

(29) Johan Heilbron, «Les Métamorphoses du durkheimisme: 1920-1940,» *Revue française de sociologie*, vol. 36, no. 2 (avril-juin 1985), p. 226.

(30) G. Duby, «Préface,» dans: Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, U prisme; 34, préface de Georges Duby, 7ème éd. (Paris: A. Colin, 1974), p. 8.

(31) Bloch, Ibid., p. 27.

يمكن تفسيرها بواسطة العلم الاجتماعي الوحيد الذي ينزع إلى دراسة القوانين: وهو علم الاجتماع. وفي استهدافه بصورة أساسية لكتاب شارل سينيوبوس المنهجي، الصادر عام 1901، **المنهج التاريخي المطبق على العلوم الاجتماعية** (*La Méthode historique appliquée aux sciences sociales*)، ألقى فرانسوا سيميان حجراً هائلاً في المياه الراكدة. لقد دعا المؤرخين ليتخلصوا من بهرجهم ليجددوا أنفسهم، واعتمد الصورة المجازية لبايكون (Bacon) عن «أصنام قبيلة المؤرخين»، وعددها ثلاثة، وكلها غير مفيدة. هناك **أولاً** «الصنم السياسي»، أي الدراسة المهيمنة، أو على الأقل الاهتمام الدائم بالتاريخ السياسي»[32]، **يضاف إليه** «الصنم الفردي أو العادة الراسخة في فهم التاريخ كتاريخ للأفراد»، **وأخيراً** «صنم التسلسل التاريخي، أي عادة الضياع في البحث عن الأصول»[33]. وهو بذلك يضع موضع الشك وبصورة واضحة قدرة هذا العلم القديم القائم الذي هو التاريخ، أن يتشكل كطريقة إيجابية للمعرفة. وعلى العكس من ذلك فعلم الاجتماع الناشئ يقترح نفسه أن يكون «مدونة للعلوم الاجتماعية»[34]. إنه يدعو المؤرخين إلى العبور من المفرد إلى الظاهرة المنتظمة وإلى العلاقات الثابتة التي تسمح باستنباط قوانين علمية ومنظومات السببية. وهو يدعوهم أخيراً لتحويل ملاحظاتهم من الفردي إلى الاجتماعي. في الواقع، إن الكتابة التاريخية، في بداية القرن العشرين هذا، تنحصر في الأوساط السياسية التي يخصص لها أكثر من نصف أطروحات

---

(32) F. Simiand, «Méthode historique et science sociale,» *Revue synthèse historique* (1903),

وأُعيد نشره في: مجلة **الحوليات** (1960)، ص 117.

(33) المصدر نفسه.

(34) Roger Chartier et Jacques Revel, «L. Febvre et les sciences sociales,» *Historiens et géographes*, vol. 2 (1979), p. 430.

الدكتوراه في التاريخ وأكثر من ثلاثة أرباع ديبلومات الدراسات المختصة (DES) ومواضيع شهادة التبريز (Agrégation). أما في ما يتعلق بالصنم الفردي، وهي دراسة السِّيَر الفردية، فإنها ضمت أكثر من 30 في المئة من الأطروحات لغاية عام 1904، ولكن منذ فترة ما بعد الحرب تراجعت بشكل محسوس حتى باتت لا تمثل سوى 17 في المئة من الأطروحات في الفترة الممتدة ما بين 1919-1938[35].

ويشكل تدخل فرانسوا سيميان هذا جزءاً من كل في النقاشات، والمعارضات التي تطال كل العلوم الإنسانية وبصورة أخص المؤرخين وعلماء الاجتماع الذين يتنازعون السيطرة على حقل المعرفة ذاته. ابتداءً من عام 1894 نشر بيار لاكومب (Pierre Lacombe) الطبعة الأولى من كتاب **التاريخ باعتباره علماً** (*L'Histoire considérée comme science*)، إذ أنه حدد للتاريخ منظوراً اجتماعياً، أي بحثاً عن القوانين، فقد دعا المؤرخين قبل سيميان إلى العزوف عن الأحداث وكل ما يتعلق بالفردي والمفرد، لأن أي علم عليه أن يضع مقارنات وثوابت. وقد بدا مدير **المجلة التاريخية** متأثراً بالنقد الذي تم التعبير عنه وعبّر عن أمله في تاريخ متجدد ينفتح على الحركات البطيئة والظروف الاقتصادية والاجتماعية الأكثر ملاءمة لإعداد القوانين. لكن هذا لم يكن مسار التطور الذي اتبعه المؤرخون، بل على العكس، فقد اجتمع حول كتاب - برنامج يرغب في أن يكون واقياً في وجه هجوم علماء الاجتماع، وهو كتاب **المنهج التاريخي المطبق في العلوم الاجتماعية** لشارل سينيوبوس الصادر عام 1901، إذ إن سينيوبوس لا يعترف لعلم الاجتماع بالمكانة الأولى ضمن العلوم الاجتماعية ويعتبر أن المؤرخين هم الاتحاديون الوحيدون.

---

(35) Olivier Dumoulin, «Profession historien: 1919-1939,» (thèse de 3ème cycle, EHESS, Paris, 1984), pp. 233-236.

بصدور هذا الكتاب باتت الحرب معلنة. وفي هذا السياق تدخل فرانسوا سيميان في المعركة وخاض صراعاً بدا في مرحلة أولى كأنه «خطأ تكتيكي»[36] بالنسبة إلى مدرسة دوركايمية كانت استراتيجيتها تسعى إلى تطوير علاقات تكاملية. و كان من نتيجة هذا الهجوم، انغلاق رابطة المؤرخين على ذاتها. من جهة أخرى حرم سيميان نفسه من حليف افتراضي، يمثله المؤرخون المجددون مثل بول مانتو (Paul Mantoux) وغبريال مونو[37] (Gabriel Monod). . . بالنسبة إلى المحور الثاني من جدله الذي يجابه به اقتصاداً فكرياً نظرياً منفصلاً عن الوقائع. في الواقع إن تدخل فرانسوا سيميان ينخرط وبنفس المستوى ضد اصطلاحية المؤرخين وضد قانونية الاقتصاديين. عرف هذا المقال نجاحاً لافتاً بما أن مدرسة **الحوليات** ستتبع برنامجه بحذافيره لمقارعة التاريخ التاريخاني وتطوير تاريخ جديد. لقد استمدت **الحوليّات** من هذا النقد الصادر عام 1903 أساسيات خاصيتها التجديدية، من التاريخ الإشكالي إلى دفع البحوث الجماعية مروراً ببناء النماذج ولكن هذه المرة لفائدة تاريخ توحيدي وليس لفائدة علم الاجتماع.

هذا النص «بدا كنوع من سجل نظري»[38]. وكان بالغ التأثير في جيل مارك بلوخ ولوسيان فيفر الذي يعترف، وهو أمر نادر، «بالتأثير

(36) «Philippe Besnard, L'Impérialisme sociologique face à l'histoire,» *Journées annuelles de la société française de sociologie* (Lille), vol. 6 (1984).

(37) Paul Mantoux, *La Révolution industrielle au XVIIIème siècle, essai sur les commencements de la grande industrie moderne en Angleterre* (Paris: G. Bellais, 1906); G. Monod (1844-1912) professeur au collège de France en 1905, fondateur en 1876 de *la Revue historique*.

(38) Jacques Revel, «Histoire et sciences sociales: Les Paradigmes des Annales,» *Annales*, vols. 11-12 (1979), p. 1362.

الموازي» الذي مارسه عليه فرانسوا سيميان[39]. وقد رد مارك بلوخ ولوسيان فيفر على هذا التهميش الذي أراده سيميان لعلم التاريخ، ليس بالانكماش في المواقع التي يحتلها علمهما آنذاك ولكن بنقل التاريخ إلى حقل العلوم الاجتماعية ذاتها. تَمَثَّلَ ردُّ عام 1929 على التحدي الدوركايمي إذاً في إنجاز برنامج سيميان. وللتعبير عن أن الدرس قد تم استيعابه وأن الأصنام باقية، أعادت مجلة **الحوليّات** نشر مقال سيميان عام 1960.

هناك قطب آخر للدفع ذو حيوية خاصة في بداية القرن هذه، متأت من علم تقليدي قريب من علم المؤرخين في فرنسا وهو الجغرافيا. كان بول فيدال دو لا بلاش (Paul Vidal de la Blache) في البداية مؤرخاً اتجه منذ عام 1872، بعد هزيمة فرنسا، نحو الجغرافيا للرد على تحدي جزء من ألمانيا يتجه أكثر من فرنسا نحو دراسة العالم المعاصر. إن منهجته للموضوع الجغرافي أضحت نموذجاً لمدرسة **الحوليّات** التي نشأت في ما بعد، فالجغرافيا التي ولدت في ثمانينيات القرن التاسع عشر (1880) في فرنسا تشكلت، مثل **الحوليّات** فيما بعد، كرد فعل على المذهب الوضعي للمدرسة التاريخية. وهي تريد تفريغ الحدث، والعنصرالسياسي، وتتموضع في الحالي وتهتم بما يستقر في الحاضر، وبالمواقع التي تشكل نسيج مشاهدنا الطبيعية، والأراضي الزراعية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. إن هذا التوجه يعطي قيمة لعدد من المفاهيم التي تميز الجغرافيا الفيدالية (Vidalienne)، مفاهيم «البيئة» و«نوع الحياة» و«ما هو يومي». هذه الجغرافيا تهدف قبل كل شيء أن تكون

(39) Lucien Febvre, *Pour une histoire à part entière* (Paris: Service d'édition et de vente des publications de l'éducation nationale, 1962), p. 311.

علم المحسوس وما يمكن ملاحظته، وهنا نجد المصادر العميقة للاستلهام الحوليّاتي. إلا أنه توجد بعض التناقضات بالنسبة إلى المؤرخين في استعمال علم يعطي الأولوية «لما هو ثابت ودائم»[40]. من المؤكد أن فيدال دو لا بلاش لا يقيم رابطاً آلياً بين الوسط الطبيعي والمجتمع الإنساني الذي تتوفر له حلول كثيرة للتأقلم مع المحيط. إلا أن الحدود الموضوعة أمام الإنسان هي حدود ضيقة «ولا ينتصر الإنسان على الطبيعة إلا من خلال الاستراتيجية التي تفرضها عليه وبالأسلحة التي تقدمها له»[41]. في الواقع، إن هدف الجغرافيا الفيدالية لم يكن الإنسان إلا بصورة عرضية، إنها قبل كل شيء علم الأمكنة والمشاهد الطبيعية وتأثيرات مختلف الظواهر الطبيعية والإنسانية التي نراها على سطح الأرض. والإنسان يؤنسن الطبيعة في نفس الوقت الذي يكون فيه هناك تطبيع للإنسان. تهدف الجغرافيا الفيدالية أن تكون وصفية قبل كل شيء. إن ثنائي مرئي/ لا مرئي ينشط هنا مُشَيَّأً في صورة محسوسة بواسطة الخرائط والصور أو عبر مجرد رحلة ميدانية[42]. يتناسب الخطاب الفيدالي مع نظام الأشياء في مسار تعريفي. ليس الفهم عند فيدال دو لا بلاش إلا تحديد الموقع والمقارنة. إذاً، أثبتت الجغرافيا الفيدالية نفسها كعلم للحاضر ضد التاريخ التاريخاني[43]. تستلهم الجغرافيا الفيدالية مفاهيم

(40) Paul Vidal de la Blache, *Tableau géographique de la France* (Paris: Hachette, 1911), p. 385.

(41) Paul Vidal de la Blache, «La Géographie politique,» *Annales de géographie* (1898), p. 102.

(42) J. M. Besse, «Idéologie pour une géographie,» *Espaces temps*, no. 12 (1979).

(43) Christian Grataloup, «Après l'empirie, le beau temps,» *Espaces temps*, no. 30 (1985), p. 53.

بيولوجية تستعملها لإعادة تعريف تقسيمات جديدة وبناء جغرافيا إنسانية. في نظام الخطاب الفيدالي، تشبّه المجموعة بالخلية، والمجال الريفي أو المديني يشبّه بنسيج الخلايا، والمنطقة بالعضو والأمة بالجسم(44). ولا يمكن أن يكون هناك إلا علاقة تكامل فيما هو مثل الجسم الذي تؤمن مختلف مكوناته حسن سير الجسم الحي. ومثلما تبدو مختلف أعضاء الجسم متضامنة، تسعى مختلف العناصر في الجسم الاجتماعي لنموّ الكل نمواً متناسقاً. إن إعادة إنتاج الشيء نفسه تنتمي وحدها لما هو اعتيادي، ولكنها تتجنب التجاوزات الجدلية. يشجع إعطاء الأولوية للثوابت على تطوير علم الأرض الذي يسمح بإبراز بنى المشهد الطبيعي الثابتة. تضاف إلى هذا الاختيار المنهجي تأثيرات دو مارتون (De Martonne)، صهر فيدال وخليفته في السوربون عام 1909. وبالروحية ذاتها أعطى الفيداليون الأولوية للتاريخ الريفي وانطلقوا بحثاً عن الملامح الدائمة. لقد فضّلوا الأرض على المصانع والحقول المشتتة على المدن الأخطبوطية والثوابت الرعوية على التغيرات الصناعية، منتمين إلى الأرض أكثر من انتمائهم إلى المدينة. ومن الخاصيات الأخرى البارزة في المسيرة الفيدالية والتي سنجدها في **الحوليّات**، هو التحفظ تجاه أي بناء نظري شديد التصلب وتفضيل الوصف والملاحظة عليه. عندئذ تعددت الدراسات الخاصة المناطقية (Monographies régionales) التي صنعت مجد هذه المدرسة(45). هذه الدراسات سوف تعطي الكتابة الحوليّاتية البذور،

---

(44) Philippe Bachimon, «Physiologie d'un langage,» *Espaces temps*, no. 13 (1979).

(45) Albert Demangeon, *La Picardie et les régions voisines, Artois, Cambrésis, Beauvaisis* (Paris: A. Colin, 1905); Raoul Blanchard, *La Flandre, étude géographique de la plaine flamande en France, Belgique et Hollande* (Dunkerque: = La Société dunkerquoise pour l'avancement des lettres, des sciences et des arts,

وتفتح مجال المؤرخ على المشاهد الطبيعية والمواقع الثابتة، وتسمح للمؤرخ المختص أن يخرج من أرشيفه، ومن لوائح الأسعار، ومن السجلات الكنسية ليأخذ مفتاح الحقول. ويعترف لوسيان فيفر بهذه الأبوة : «يمكننا القول، إلى حد ما، أن الجغرافيا الفيدالية هي التي أنجبت التاريخ الذي هو تاريخنا»[46]. ويؤكد من جهة أخرى منذ مقالاته الأولى في **مجلة التوليف التاريخي** دور هذه الدراسات الخاصة المناطقية.

كان للمدرسة الجغرافية المتلاحمة السبق على المدرسة الدوركايمية بتواجدها الجامعي الأفضل. كان دو مارتون المنظمَ لهذا التأطير الفيدالي من خلال زيادة رؤوس الجسور بالنسبة إلى هذه المدرسة الجغرافية الجديدة، ليس في باريس فقط، وإنما في المقاطعات أيضاً. ولم يكن الجغرافيون ينعمون فقط بمجلة تعتبر الناطق الرسمي باسمهم، وهي **حوليّات الجغرافيا** (*Annales de géographie*) منذ 1891، إنما أكثروا في العشرينيات والثلاثينيات من إصدارالمجلات المناطقية من أجل مواصلة دراساتهم الفردية عن المناطق. من ناحية أخرى أسس دو مارتون جمعية الجغرافيين الفرنسيين بباريس عام 1923، وترأس عام 1921 هيئة لتأسيس اللجنة الوطنية للجغرافيا، وكُلف عام 1931 بتنظيم مؤتمر باريس الدولي من

1906); Raoul de Felice, *La Basse-Normandie: Etude de géographie régionale* (Paris: = Hachette, 1907); Antoine Vacher, *Le Berry, contribution à l'étude géographique d'une région française* (Paris: Librairie Armand Colin, 1908); Charles Passerat, *Les Plaines du Poitou* (Paris: Ch. Delegrave, 1909); Jules Sion, *Les Paysans de la Normandie orientale, pays de Caux, Bray, Vexin normand, vallée de la Seine; étude géographique* (Paris: A. Colin, 1909), et M. Sorre, *La Notion de paysage dans les Pyrénées méditerranéennes* (Paris: Colin, 1913).

(46) Lucien Febvre, dans: *Annales* (1953), p. 374 (note).

قبل الاتحاد الجغرافي الدولي، «رأس القمة في المدرسة الجغرافية الفرنسية»[47]. تبدو مسيرة مؤرخ حولياتي مثل بيار فيلار (Pierre Vilar) دلالة على التأثير الذي مارسته المدرسة الفيدالية. لقد كان بدايةً عالم جغرافيا، ثم نصحه م. سور (M. Sorre) أن يدرس ما سيكون اختصاصَه فيما بعد: منطقة كاتالونيا (Catalogne). كان مسجلاً لأطروحة دكتوراه تحت إشراف ألبير دومانجون (Albert Demangeon) الذي عرّفه على مارك بلوخ. آخر نقطة قوة للجغرافيا والتي تناولتها **الحوليّات**، هي العلاقة مع أصحاب القرار، والتفكير في الأزمة[48]. كان ألبير دومانجون موجوداً في عدد من اللجان المنغمسة في مشاريع استثمارية طويلة المدى. وهذه العلاقة بين العلماء والسلطة كانت تنشط ميدانياً وتفيد جغرافيا تستجيب لطلب اجتماعي، في الوقت الذي كان فيه التاريخ خلال تلك السنوات منفصلاً تماماً عن الحاضر.

نفهم قوة التحدي الذي رفعه الجغرافيون أمام المؤرخين بقدر ما أن التاريخ آنذاك لم يكن في وضع مريح. وإذا كان يجب الانتظار قليلاً لنرى تتويج جهود الجغرافيين بإنشاء شهادة تبريز (Agrégation) في الجغرافيا عام 1941، والتقدم بحساب عدد الكراسي الجامعية كان ملحوظاً. وإذا كان يوجد أستاذ للجغرافيا في الجامعة عام 1914 مقابل خمسة أساتذة في التاريخ، فلم تعد النسبة

---

(47) N. Broc, dans: *Au berceau des Annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, [organisé par l'université de Strasbourg et le groupe d'études historiographiques]; sous la direction de Charles-Olivier Carbonell et Georges Livet, recherches et documents/ société savante d'Alsace et des régions de l'est; 31. Publications de l'institut d'études politiques de Toulouse; 6 (Toulouse: Presses de l'institut d'études politiques de Toulouse, [1983]), p. 248.

(48) Demangeon, *Le Déclin de l'Europe.*

سوى أستاذ في الجغرافيا مقابل ثلاثة في التاريخ عام 1938. إن هذا الصعود القوي قد تحقق على خلفية أزمة مهنة المؤرخ، المتمثلة بوقف التدرج المهني وتجميد عدد المراكز. وإذا كان الأمر كما بيّن شارل أوليفييه كاربونيل[49] (Charles-Olivier Carbonell)، أن عدد الوظائف المتاحة في اختصاص التاريخ قد ارتفع كثيراً في أواخر القرن التاسع عشر (+ 50٪ ما بين 1875 و1905)، فمعدل أعمار الجامعيين المؤرخين كان منخفضاً جداً (نصفهم كانت سنهم أقل من 42 سنة عام 1900)، ما يجعل الوظائف محجوزة لفترة طويلة من الزمن. وبالنسبة إلى هذا العصر الذهبي تمثل فترة ما بين الحربين مرحلة أزمة خطيرة لمهنة المؤرخ[50]. وبينما ارتفع عدد الكراسي بكلية آداب باريس من 39 إلى 59 ما بين عام 1919 وعام 1939، فإن عدد الكراسي المخصصة للتاريخ بقي على حاله (اثني عشر) على الرغم من تزايد عدد الطلبة في هذا الاختصاص. وأصبح المسار الجامعي للمؤرخين باباً ضيقاً يوشك أن يغلق في وجوههم، كما نلاحظ شيخوخة عامة للمدرسين (بلغ معدل الأعمار في السوربون عام 1934 اثنين وستين سنة). وقد تأثر من جراء ذلك المسار المهني للمؤرخين الذي كان قد اكتسب موقعاً مميزاً. فرناند بروديل الحاصل على شهادة التبريز عام 1923، اضطر للانتظار إلى عام 1938 لتستقبله مؤسسة هامشية، ولو أنها تتمتع بالشرعية الفكرية، وهي القسم الرابع من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بعد المرور بالمعهد الثانوي في الجزائر وبجامعة ساو باولو في البرازيل. جورج لوفيفر (Georges

(49) Ch. O. Carbonell, dans: *Au berceau des Annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, pp. 89-104.

(50) Dumoulin, «Profession historien: 1919-1939».

(Lefebvre، رغم الشهرة التي منحته إياها أطروحته، اضطر لتجريب حظه ثلاث مرات في السوربون ولم يحصل على كرسي تاريخ الثورة الفرنسية إلا عام 1937، في سن الثلاث وستين[51]! في قمة الهرم نجد كوليج دو فرانس (Collège de France) وفي هذا الإطار فإن الخيبات التي عرفها مؤسّسا **الحوليّات**، مارك بلوخ ولوسيان فيفر، معبرة عن وقف التدرج الوظيفي. إنتخب لوسيان فيفر في كوليج دو فرانس يوم 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1932 بعد فشله مرتين وبالاعتماد على تقليد، هو تدريس التاريخ الحديث، وهو ما يبدو غريباً بالنسبة إلى مجدد مثله، ولكن المهم كان أن يشغل المنصب. أما بالنسبة إلى مارك بلوخ فقد كان حظه أكثر سوءاً، إذ لم يدخل كوليج دو فرانس أبداً رغم تقديمه ترشيحين[52]. ولم تسمح توجهاته التجديدية، في سوق مشبعة، أن يأمل بالوصول إلى موقع في أعلى مستويات المؤسسات التعليمية.

يجب أن نضيف مصدراً آخر غذّى مؤرخي تلك الفترة هو تطور الفكر العلمي بحد ذاته: «لم يعد جوّنا الذهني هو ذاته. فإن نظرية الغاز والنظرية الميكانيكية لإينشتاين ونظرية الكمات (Quanta)، قد غيرت بصورة عميقة، الفكرة التي كان يحملها في الأمس القريب كل واحد حول العلم»[53]. بأي شيء يمكن أن تبدل هذه الثورة العلمية في منظور المؤرخ؟ استمد منها لوسيان فيفر ومارك بلوخ حجة ضد

---

(51) المصدر نفسه، ص 89.

(52) M. Bloch, se présente à deux reprises: 20 janvier 1929 et 13 janvier 1935. Au contraire de L. Febvre, M. Bloch joue la carte de la novation, d'abord en faisant le choix de la promotion d'une histoire comparatiste, puis en misant sur l'histoire économique.

(53) Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, p. 29.

التاريخ التاريخاني الذي يقدس الوثيقة المكتوبة لدرجة أنه يجعل منها تفسيراً للتاريخ. لقد رأيا في نظرية الاحتمالات وفي نظرية نسبية قياس الزمن والمكان، إمكانية طموح التاريخ، بنفس الدرجة مثل العلوم المسماة صحيحة، إلى وضعية علم، شرط أن ينقد شهادات الماضي، وأن يعدّ شبكات للقراءة وأن يجرب فرضيات وأن ينتقل من المعطى إلى المنشأ في مسيرة فكرية أكثر انفتاحاً ونشاطاً: «إن البحث التاريخي، مثله مثل عدد من العلوم العقلية، تقاطع طريقه مع الطريق الملكية الكبرى لنظرية الاحتمالات»[54]. يمكن أن يتبع التفسير التاريخي مسلك البحوث السببية انطلاقاً من نقد الوثائق، حتى وإن كان في رأي مؤسسي **الحوليّات** يجب الاحتياط من كل ما هو ميتافيزيقي وكل تفسير أحادي الأسباب. المرجع العلمي الثاني الذي لعب دور النموذج بالنسبة إلى **الحوليّات** كان **المدخل إلى الطب التجريبي**. وقد حدثت نقلة في المجال الطبي مع كلود برنار من المرئي إلى اللامرئي: «لقد اتبع التاريخ بشكل ما نفس المسار»[55]. حاول لوسيان فيفر ومارك بلوخ إحلال التاريخ التجريبي الذي لا يهدف إلى معرفة مباشرة، وإنما معرفة منتشرة إعلامياً بتعدد الحالات المدروسة محل التاريخ العام التقليدي.

عصر لافيس

لم يعرف تعريف التاريخ في وقت إنشاء **الحوليّات** تغييرات هامة منذ عصر توسيديد (Thucydide). عام 1694 كان قاموس الأكاديمية الفرنسية يعرّف التاريخ بأنه: «سرد الأفعال والأشياء

(54) المصدر نفسه، ص 107.

(55) Marc Ferro, *L'Histoire sous surveillance: Science et conscience de l'histoire,* intelligence de l'histoire (Paris: Calmann-Lévy, 1985), p. 135.

الجديرة بالحفظ»، وتعطي الطبعة الثامنة عام 1935 المعنى ذاته: «رواية الأفعال والأحداث والأشياء الجديرة بالحفظ». وكان التاريخ السردي ما زال مسيطراً في الثلاثينيات. ابتعد المؤرخون عن العلوم الأخرى وحددوا مجالاً ضيقاً ولكنه خاص بأعمالهم. في مقابل العلوم التي تبحث في إنشاء القوانين والتي موضوعها التكرار وانتظام الظواهر، يعتبر التاريخ نفسه علم المصطلح الذي يبحث عن المتميز والمفرد والذي لا يتكرر تاركاً للعلوم الباحثة عن القوانين، مهمة اكتشاف قوانين الطبيعة. أدّى هذا التصور للتاريخ إلى تقدم البحث من خلال العناية الخاصة بنقد المصادر وتصنيفها وبتطوير التنقيب العلمي. إن هذا التنقيب العلمي ضمن المدرسة التاريخية الفرنسية اعتمد بقوة في القرن التاسع عاشر على جهاز الدولة. كان المؤرخ منذ زمن طويل في خدمة السلطة الملكية التي يعكس لها صورة منمقة.

كانت الدولة في القرن التاسع عشر تسهل الأبحاث بتمويلها عدد من مؤسسات التاريخ. وبذلك تنامى عدد المؤرخين الموظفين لدى الدولة خلال القرن التاسع عشر، «الدولة جعلت من نفسها مؤرخة»[56]. أنشأ غيزو (Guizot) هيئة الأعمال التاريخية، ولجنة المعالم التاريخية، وأسس عام 1846 مدرسة أثينا الفرنسية. وهكذا نظم البحث التاريخي نفسه وتعقلن. إنها ثورة منهجية لا شك فيها، تحققت داخل الدولة وبقيت تابعة لها «فكيف لا يكون خطاب المؤرخين عندئذ، هو خطاب حول الدولة؟»[57]. كانت تجتاز أوروبا آنذاك الفكرة القومية التي سيطرت على التحاليل. كان على المؤرخ الفرنسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يصالح الأمة ويتجاوز الشروخ

(56) Charles-Olivier Carbonell, *L'Historiographie*, que sais-je; 1966, 2ème éd. corr. (Paris: Presses universitaires de France, 1986), p. 94.

(57) المصدر نفسه، ص 59.

الناتجة عن ثورة 1789 بإضفاء الشرعية عليها واعتبارها مولدة لأزمنة جديدة تضمحل فيها التناقضات وتذوب فيها الصراعات من خلال مطامح شعب موحد. وبهذه الصورة يضفي المؤرخون تييه (Thiers) ومينييه (Mignet) وغيزو الشرعية على ثورة 1830 وسلطة لويس فيليب (Louis-Philippe) أمام المتشددين، ولكنهم في نفس الوقت ينبّهون من تجاوزات محتملة، فالصراع الطبقي لم يعد موجوداً. وفي قلب شرعنة السلطة هذه هناك تفكير حول الثورة.

وهكذا أصبح **تاريخ الثورة الفرنسية** (*L'Histoire de la révolution française*) لمينييه (1824) إنجيل الثورات الليبرالية، حيث ترجم إلى عشرين لغة. وقد شارك مينييه في **المجيدات الثلاث**، التي يعتبرها ثورة لا بد منها. لذلك كرمته السلطة الجديدة بتعيينه أميناً دائماً لأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. ولكن ثورة 1848، التي أطاحت بالنظام الملكي لتحول فرنسا إلى جمهورية، ملأت مينييه رعباً، وتخلى بالتالي عن رؤيته الحتمية والشاملة للتاريخ لينكفئ إلى عمل وصفي للأحداث الوقائعية البحتة، وإلى رواية السير المجردة من أي مفاهيم فلسفية للتاريخ. أما بالنسبة لغيزو فإنه يضع الصراع الطبقي في قلب التطور الاجتماعي، «المبدأ الأكثر خصوبة في تطور الحضارة الأوروبية»[58]. وفي رأي غيزو أن الحضارة ولدت من رحم التناقضات الطبقية التي هي مصدر التقدم والتجاوز. لكن غيزو، بعدما أسس لشرعية سلطة لويس فيليب ولسلطته هو على رأس الحكومة، يريد إرساءها نهائياً، ويعلن عندئذ أن هذا الصراع الطبقي قد أصبح غير متناسب مع العصر ولم يعد له مجال للبقاء: «لقد تم إرضاء جميع المصالح الكبرى...

(58) M. Guizot, *Histoire de la civilisation en Europe*, 7ème éd. (Paris: Didier, 1828).

ولم يعد هناك صراع بين الطبقات»[59]. التاريخ يكتب السلطة، إنه أفقها ومرآتها ومعناها، وهو منصهر فيها. لقد أكدت الدولة قوتها في القرن التاسع عشر الذي هو «قرن التاريخ»[60]، كما يلاحظ غبريال مونو (Gabriel Monod).

مدرسة جديدة تأسست، هي وليدة سيدان (Sedan) والرغبة في استرجاع منطقة الألزاس واللورين (L'Alsace-Lorraine) : إنها المدرسة المنهجية. وهي التي نصفها وصفاً غير ملائم بالمدرسة «الوضعية». وقد تجمعت حول **المجلة التاريخية** التي أطلقها غبريال مونو عام 1876. وكانت ترغب في تأسيس «علم وضعي»[61] للهروب من الذاتية. على المؤرخ أن يخضع مصادره لجهاز نقدي لتثبيت صحة الأحداث المروية، مع البقاء منغلقاً على أي نظرية فلسفية. ولكن في الواقع كان هؤلاء المؤرخون يهبون أنفسهم لسلطة جمهورية وطنية بقصد تثبيت قواعدها في وجه معارضة ملكية لها في مجال التاريخ أداة تعبير ممثلة في **مجلة المسائل التاريخية** المكونة من غلاة الملكيين والمساندين للشرعية الملكية مثل المركيز دو بوكور (de Beaucourt) والكونت دو ليبينوا (de L'Épinois) أو الكونت هياسنت دو شارانسي (Hyacinthe de Charencey). وعلى عكس ذلك تبنت **المجلة التاريخية** موقفاً يدعو إلى جمهورية معتدلة وضد رجال الدين، جامعةً حولها وسطاً علمانياً وجمهورياً، متناسقاً في مطامحه السياسية والعلمية[62]. ونتيجة لقربها من

(59) M. Guizot (1847),

ورد في: Gérard Mairet, *Le Discours et l'historique: Essai sur la représentation historienne du temps*, bibliothèque repères, sciences humaines, idéologies; 13 ([Tours]: Mame, 1974), p. 29.

(60) G. Monod, dans: *La Revue historique*, no. 1 (1876).

(61) المصدر نفسه، ص 36.

(62) On retrouve au comité de rédaction de la *Revue historique* en 1876: V. =

السلطة، هيمنت المدرسة المنهجية على عالم المؤرخين وتجاوزته. وقد ساهمت بصورة نشيطة في مجهود جول فيرّي (Jules Ferry) التعليمي، وفي إصلاح التعليم العالي، واحتل أعضاؤها الكراسي الجامعية وأشرفوا على السلاسل الكبرى لكتب التاريخ: **تاريخ فرنسا** لإرنست لافيس (Ernest Lavisse)، و**التاريخ العام** لألفرد رامبو (Rambaut)، و**شعوب وحضارات** لهالفين وسانياك (Halphen et Sagnac) وأعدوا التاريخ الذي يجري تدريسه انطلاقاً من التعليم الابتدائي إن كتاب **لافيس الصغير** (*Le Petit lavisse*) الصادر عام 1884 وصل إلى طبعته الخامسة والسبعين عام 1895! كان لكل هؤلاء المؤرخين نفس هدف سلطة الدولة: جمع الفرنسيين حول الوطن الذي أصبح قاعدة إجماع وطني يحمل في طياته الاستقرار والفاعلية في مواجهة الألمان. وهذا هو المعنى الذي يعطيه غبريال مونو للتاريخ عندما أصدر **المجلة التاريخية** «إن الأحداث التي مزقت الوحدة الوطنية التي بنيت ببطء عبر القرون، تفرض علينا واجب أن نحيي داخل روح الأمة وعيها بذاتها من خلال الوعي العميق بتاريخها»[63]. تحت أكداس الأرشيف المؤرخ توجد الراية ثلاثية الألوان (العلم الفرنسي). يصلح تاريخ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للقيام بالحرب. ومع ذلك، إذا كان التاريخ يبدو كأنه أداة للسلطة ويركز اهتمامه على الظواهر السياسية ـ العسكرية، فإن غبريال مونو كان يطمح إلى توسيع حقل المؤرخ: «لقد تعودنا كثيراً التعلق في التاريخ خاصة بما في النشاط الإنساني من مظاهر براقة ومدوية وعابرة، وبالأحداث الكبرى وبالعظماء، بدلاً من التركيز على الحركات الكبيرة والبطيئة للمؤسسات

= Duruy, Renan, Taine, Boutaric, Fustel de Coulange, G. Monod, Lavisse, Guiraud, Bémond, Rambaut.

(63) Monod, dans: *Revue historique*, no. 1 (1876), p. 38.

والظروف الاقتصادية والاجتماعية»[64]. يبدو مثل هذا الكلام متقدماً على القطيعة البحثية (Epistémologique) التي حققتها **الحوليّات**. ولكن بقيت نوايا غبريال مونو عند هذا المستوى كلاماً ميتاً، تمت التضحية به على مذبح الوطن. وحتى عام 1926، أي طوال خمسين عاماً، بقي توجه المجلة توجهاً تقليديا بشكلٍ جوهري، بإعتبارها محطة مرور إجبارية للوصول إلى المؤسسات والمواقع العليا. وهي تكرّس نخبة رابطة المؤرخين، فعلى الرغم من تصريحاتها من أجل العمل الجماعي ورغم رغبتها التجديدية في فتح مجال البحوث التاريخية، بقيت **المجلة التاريخية** مغلقة في وجه التأثيرات والتساؤلات العديدة التي تطرحها مجلة سنة علم الاجتماع و**مجلة التوليف التاريخي** لهنري بر وكذلك الجغرافيا الفيدالية.

كان الإنبهار بوصف الأحداث السياسية هو الأقوى، كما يبيّن ذلك التحقيق الذي قام به آلان كوربان (Alain Corbain) حول **المجلة التاريخية**[65]. يبدو أن **المجلة التاريخية** لم تتطور بصورة ملموسة حتى عام 1926 حيث حافظت على مقاربة التاريخ بصورة تقليدية، فقد خصص ثلثا المقالات بين عام 1901 وعام 1926 للسِّيَر السياسية والعسكرية: «إن النزعة الفرنسية ـ المركزية **للمجلة التاريخية** واضحة بما أن 54,14 في المئة من المقالات تعالج تاريخ فرنسا»[66]. أما

---

(64) G. Monod, dans: *La Revue historique*, nos. 7-8 (1896), p. 325.

(65) A. Corbin, enquête réalisée à l'occasion du centenaire de *la revue historique*, 1976, «Lundis de l'histoire,» *France culture* (21 décembre 1976), et A. Corbin, dans: *Au berceau des annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, pp. 105-107.

(66) Corbin, dans: *Au berceau des annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre* 1979, p. 119.

الاقتصاد والمجتمع، فإنهما لم يلعبا سوى دور هزيل في المجلة، والفترة موضوع الاهتمام كانت مقطوعة بصورة إرادية عن المجتمع المعاصر وتركزت على ما يسمى بالفترة الحديثة (من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر): «أود لو نوقف تاريخنا الداخلي عند عام 1875، عند إقامة الدستور الجمهوري، وأن نترك خارج المدارس الثانوية عار بناما والبولنجية»[67]. من المؤكد أن **المجلة التاريخية** سوف تعرف تجدداً عميقاً ابتداءً من الثلاثينيات خاصةً عند استبدال كريستيان بفيستر (Christian Pfister) ووصول شارل أندريه جوليان (Charles-André Julien) وموريس كروزيه[68] (Maurice Crouzet) على رأسها عام 1932. لكنها حتى ذلك الوقت، كانت تمثل بشكل كاريكاتوري عبادة الأصنم التي انتقدها فرانسوا سيميان.

تحدد المدرسة المنهجية مناهجها وطموحاتها من خلال **المدخل إلى الدراسات التاريخية** التي كتبها شارل لانغلوا (Charles Langlois) وشارل سينيوبوس عام 1898 لطلبة التاريخ. ويعتبر هذا الدليل برنامجاً منهجياً للمدرسة المنهجية، حيث يقدم التاريخ تحديداً على أنه تربية مدنية: «تمثل الأحداث وسائل جيدة للتربية المدنية أكثر فاعلية من دراسة المؤسسات»[69].

(67) G. Monod, dans: *La Revue historique* (1900), p. 309.

(68) C. Pfister (1857-1933), médiéviste et spécialiste de la Lorraine; Doyen puis recteur de l'université de Strasbourg, 1919-1931. Ch. A. Julien (Né en 1891), historien socialistes. Participe au congrès de tours (1920). Doyen de la faculté des lettres de Rabat. Charles-André Julien: *Histoire de l'Afrique du Nord: Tunisie, Algérie, Maroc* (Paris: Payot, 1931), et *Histoire de l'Algérie contemporaine* (Paris: Presses universitaires de France, 1964). M. Crouzet: inspecteur général de l'éducation nationale.

(69) Ch. Seignobos devant la société française de philosophie, 1908.

ورد في: A. Gérard, dans: *Au berceau des Annales: Le Milieu strasbourgeois,* =

أراد هذان المؤرخان وهما متحدان في العمل، إخضاع مقتضيات العلم إلى متطلبات التربية المدنية. لقد حدد المؤلفان أربعة مراحل للبحث التاريخي. على المؤرخ أن يقوم بجمع الوثائق وتصنيفها. وفي مرحلة تالية ينتقل إلى معالجة هذه الوثائق بالنقد الداخلي. ثم يحاول ربط الأحداث في ما بينها باعتماد الاستنتاج والمقارنة. وأخيراً ينظم الأحداث ضمن بناء منطقي. هذه المسيرة تحصر طموحات المؤرخ في نطاق المرئي والمعطى، فهو يجعل منه أسير الوثيقة المكتوبة: «لم يعد التاريخ إلا استخداماً للوثائق»[70]. يلح مؤلفا هذا الكتاب المدرسي على الأولوية التي يجب أن تعطى للظاهرة المفردة والفردية: «في الواقع كل حدث هو حدث فريد»[71]. والمؤرخ غير مطالب بالبحث عن سببية الظواهر التي يصفها: «إن كل تاريخ الأحداث هو تسلسل بديهي لحوادث لا يرقى إليها الشك»[72] الصدفة تطارد الضرورة والعرضي يفرغ القوانين. بهذه الصورة مات هنري الثاني (Henri II) برمية سهم مونتغومري (Montgoméry)، ووصول آل غيز (des Guises) إلى السلطة أصبح ممكناً بوفاة هنري الثاني، وهلمّ جرّا... يتقلص حقل المؤرخ في هذا التقنين للبحث التاريخي لينحصر في تركيب الأحداث السياسية والعسكرية من دون ارتباط حتمي. وهكذا فإن ثورات القرن التاسع عشر لم تكن بالنسبة إلى شارل سينيوبوس مجرد حوادث. كان شارل العاشر (Charles X) غير حذر فوقعت «أحداث تموز/ يوليو»، تعنّت لويس فيليب فانطلق طلق ناري بالصدفة في جادة

= *1908, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre* 1979, pp. 84-85.

(70) Charles Victor Langlois et Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques* (Paris: Hachette, 1898), p. 275.

(71) المصدر نفسه، ص 204.

(72) المصدر نفسه، ص 253.

الكبوشيين (Boulevard des Capucines)، وبذلك انهارت الملكية. أما بالنسبة إلى الأزمة العالمية عام 1914، فيحصرها شارل سينيوبوس في المناخ الظرفي للعصر، أجبرته على «الاعتراف بأن الظواهر السطحية للأزمة السياسية تسيطر على الظواهر العميقة للحياة الاقتصادية والفكرية والاجتماعية»[73].

من أبرز وجوه هذه المدرسة المنتسبة للتاريخ إرنست لافيس، مؤلف الكتاب الذي لازم أجيالاً متعاقبة من التلامذة. وهو صانع وحدة كل الفرنسيين المقدسة لاسترجاع الألزاس واللورين. لقد رغب أولاً أن يحقق هذه الوحدة حول الفكرة الإمبراطورية تحت حكم نابليون الثالث. وقد عيّنه وزير التعليم الرسمي، فيكتور دورري (Victor Duruy)، رئيساً لديوانه. ثم وصل إلى قمة الدولة عندما أصبح مربي الأمير الإمبراطوري (ابن الإمبراطور). في الواقع إن تعلقه بالنظام الجمهوري جاء متأخراً، وقد أمل طويلاً بعودة البونابرتية. ولم يدافع عن النظام الجمهوري في فترة الأزمة البولنجية وبقي في حالة ترقب في فترة قضية درايفوس (Dreyfus). وتشهد رسائله إلى الأمير الإمبراطوري ما بين عامي 1870 و1877 على تحفظاته تجاه الجمهورية الناشئة: «إن الراديكالية قناع قديم تتخفى وراءه رغبات خسيسة. وإن وسط اليسار لا ينتمي إلى جنس. ما العمل مع كل هذا؟.. إن الالتقاء لا يمكن أن يحدث إلا حول شخصكم فقط»[74]. ويتراجع خطابه بحكم الواقع، نظراً لصلابة المؤسسات الجمهورية.

---

(73) Ch. Seignobos, *Histoire politique de l'Europe contemporaine: Evolution des partis et des formes politiques, 1814-1914*, 2 vols., 7ème éd. (Paris: A. Colin, 1924).

(74) E. Lavisse, lettre au prince impérial, 18 février 1877,

ورد في: P. Nora, dans: *La La Revue historique*, vol. 6 (1962), p. 79.

أصبح لافيس حينئذ في خدمة الجمهورية الثالثة التي كان يبغضها، ولكن ما يهمه خاصة هو الثأر الذي يجب أن يأخذه كل الفرنسيين مجتمعين من الألمان. يُشِيد كتاب التاريخ المدرسي الذي ألفه بالمراحل المجيدة لبناء الدولة القومية، وكل مرحلة يجسّدها رجل - بطل عبارة عن نصف إله: «هذا الكتاب المدرسي يبدو كمعرض لوحات»[75]. إن التاريخ من منظور إرنست لافيس هو نداء ومقدمة للتعبئة العامة. والجندي المتمركز في فردان (Verdun) يشعر بأنه خير وريث لنضال فيرسنجيتوريكس (Vercingétorix). على التاريخ أن يعزّز حالة من الذهنية الحربية، وأن يفرز بعض الخطوط البسيطة المكونة للذات القومية المتعالية: «إذا كان التلميذ لا يحمل معه الذكرى الحية لأمجادنا القومية، إذا كان لا يعرف أن أسلافه حاربوا في ألف ساحة قتال من أجل أهداف نبيلة، إذا كان لم يتعلم كم كلف بناء وحدة وطننا من دماء وجهود، وأن يستخلص بعد ذلك من فوضى مؤسساتنا العجوز القوانينَ التي جعلتنا أحراراً، وإذا لم يصبح مواطناً مسكوناً بواجباته وجندياً يحب سلاحه، يكون المعلم قد أهدر وقته»[76].

المساهم الآخر في صنع الإجماع الوطني في تلك الفترة، هو فوستيل دو كولانج (Fustel de Coulanges)، فقد كان هو أيضاً متأثراً بهزيمة عام 1870 التي أوشكت أن تعصف بمساره المهني الزاهر في فترة الإمبراطورية، لأن فيكتور دوروي كان قد كلفه بتدريس التاريخ في دار المعلمين ودعاه لإلقاء المحاضرات بحضرة الإمبراطورة أوجيني (Eugénie). إن هزيمة سيدان (Sedan) أدت بفوستيل إلى

---

(75) Guy Bourdé et Hervé Martin, *Les Ecoles historiques*, points, histoire; H67 (Paris: Le Seuil, 1983), pp. 158-159.

(76) E. Lavisse, préface à la dernière édition de son manuel, 1912.

فصل تاريخ فرنسا عن أصوله الجرمانية وتحويل جذوره إلى العالم الروماني. عندها أكد القيمة العلمية لخطاب المؤرخ عندما يتطابق مع قوانين عمل المدرسة المنهجية. التاريخ «ليس فناً وإنما هو علم محض»[77]، ولكنه علم مرتبط بالوثائق يطمح إلى التجرد من كل أشكال الذاتية: «إن أفضل المؤرخين هو الذي يلتصق أكثر ما يمكن بالنصوص ويفسرها بأكثر ما يمكن من الصحة والذي لا يكتب أو لا يفكر حتى إلا من خلالها»[78]. وراء ستار العلمية هذا، هناك عمل مماثل لعمل إرنست لافيس، يهدف إلى رص صفوف المجموعة القومية ضد الشعب الألماني، العدو التاريخي. ويقدم الشعب الجرماني على أنه شعب غزوات. وعلى الفرنسيين كي يصمدوا أن يتجاوزوا خلافاتهم وأن يكونوا فخورين بإرثهم المشترك، ما تحقق في ظل النظام القديم أو في عهد الثورة على حد سواء. ويدعو فوستيل الفرنسيين إلى إحترام ماضيهم ما قبل الثوري، وتقاليدهم لترسيخ قوتهم القومية وتجاوز إنقساماتهم الداخلية: «إن الوطنية الحقة ليست حب أرض الوطن، إنها حب الماضي واحترام الأجيال التي سبقتنا»[79]. انطلاقاً من هذه المصالحة الوطنية يستطيع التاريخ عندئذ لعب دور فاعل وصيانة «حدود ضميرنا القومي ومحيط وطنيتنا»[80]. عندها، إذا كان يصعب فصل التاريخ عن سلطة الدولة، فإنه يتطابق أيضاً مع فكرة الأمة.

---

(77) Fustel de Coulanges, *Histoire des institutions politiques de l'ancienne France*, 6 vols. (Paris: Hachette, 1888), vol. 3: *La Monarchie franque*, pp. 32-33.

(78) المصدر نفسه.

(79) Fustel de Coulanges, *Questions historiques*, revues et complétées d'après les notes de l'auteur (Paris: Hachette et cie, 1893), pp. 3-16.

(80) المصدر نفسه.

تتغذى النزعة التاريخية الفرنسية المتشددة في جزء كبير منها من المدرسة التاريخية الألمانية، من أطروحات ليوبولد فون رانكه (Léopold von Ranke) في منتصف القرن التاسع عشر. وقد أثرت هذه الأطروحات بقوة في المؤرخين الفرنسيين الذين استمدوا منها قواعدهم النظرية. نجد عند رانكه أغلب الفرضيات المسبقة عند لانغلوا ولافيس وسينيوبوس وفوستيل: رفض أي تفكير نظري، تقليص دور التاريخ في جمع الوقائع وتأكيد سلبية المؤرخ أمام المواد التي يتعامل معها. يبدو أن المدرسة التاريخية الفرنسية المتشددة قد تلقت عقيدة رانكه العلموية لبلوغ الفاعلية الألمانية البادية للعيان في كارثة فرنسا عام 1870.

ثنائي ستراسبورغ

بتباعد الحرب واجهت مدرسة إرنست لافيس المنهجية معارضة آتية من عدة آفاق. من جهة الدوركايميون ومجلتهم **سنة العلم الاجتماعي**، وكذلك الجغرافيون الفيداليون أيضاً الذين يرغبون في تجاوز المفهوم العرضي للحادثة ودراسة العلاقة بين الإنسان ومحيطه. ولكن تطورات المقاربة الاشتراكية للتاريخ أيضاً والتي تعطي قيمة للصراعات الاجتماعية والتقلبات الاقتصادية من أجل معرفة آثارها السياسية مع صدور كتاب **التاريخ الاشتراكي للثورة الفرنسية** (*L'Histoire socialiste de la révolution française*) (1901–1908) الذي أشرف عليه جان جوريس (Jean Jaurès). وقد دخل التاريخ الاقتصادي إلى المحراب الجامعي في السوربون مع كرسي التاريخ الاقتصادي لهنري هاوزر (Henri Hauser)، وأطروحة بول مانتو (Paul Mantoux): **الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر** (*La Révolution industrielle au XVIII^e siécle*) (1906)... تشير كل هذه الظواهر إلى بداية تحول مواطن الملاحظة عند المؤرخين. وهي عناصر تؤشر كلها على قطيعة عام 1929. إلا أنه قبل تسعة وعشرين عاماً من تأسيس **الحوليّات** ظهرت

مجلة أخرى تطمح إلى تقديم جواب للمجددين وتجمع حولها المؤرخين انطلاقاً من نقد جذري للتاريخ التاريخاني، وهي **مجلة التوليف التاريخي** التي أسسها هنري بر عام 1900. بالمعنى الأوسع، إن تاريخ **الحوليّات** يبدأ من هنا، منذ فجر القرن العشرين[81]. ومن التناقضات أن هنري بر الذي لم يكن ذا ثقافة تاريخية وإنما أدبية وفلسفية، وهو أستاذ مادة الأدب في معهد هنري الرابع، قد ناقش عام 1898 أطروحة دكتوراه ذات طبيعة فلسفية[82]. لا يمكن لهذا القناص القادم من الخارج إلا أن يجد راحته في التموقع بعيداً عن التقاليد المؤسسية والحرفية لينادي بسقوط الحواجز وأن يتحقق التوليف بين كل الجهود العلمية. إنه يعتبر التاريخ علمَ العلوم، وجوهرَه ذا طبيعة نفسية. والتاريخ بالنسبة إليه هو الأداة لتحقيق التوليف الذي يتمناه من كل قلبه، ولكنه التاريخ الجديد كما يتصوره الدوركايميون. تهاجم **مجلة التوليف التاريخي** قداسة الحدث واختزالية المدرسة المنهجية. ينادي هنري بر بتاريخ توليفي وشمولي يأخذ بعين الاعتبار الواقع بجميع أبعاده من الاقتصادي إلى الذهني، كل ذلك من منظور علمي. وبهذه الصورة فهو يعيد المطامح الدوركايمية في البحث عن القوانين والمسببات. وهكذا نظر المؤرخون إلى **مجلة التوليف التاريخي** «كأنها حصان طروادة علماء الاجتماع»[83]. مع ذلك

---

(81) Georg G. Iggers, *New Directions in European Historiography*, with a contribution by Norman Baker (Middletown, Conn.: Wesleyan University Press, [1975]), p. 51.

(82) Henri Berr, *L'Avenir de la philosophie: Esquisse d'une synthèse des connaissances fondée sur l'histoire* (Paris: Hachette, 1899).

(83) M. Sigel, dans: *Au berceau des annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, p. 206.

انفصل هنري بر عن الدوركايميين في ما يتعلق بالامتياز المبالغ فيه الممنوح للأفعال الاجتماعية، وهو ما عبر عنه في بحثه **التوليف في التاريخ**، بحث نقدي ونظري، الصادر عام 1911 «عندما أراد (الدوركايميون) إدخال كل ظواهر التاريخ في نفس الإطار وتفسير كل شيء بنفس الوسيلة، فهم لا يقومون بعمل علمي وإنما يسعون إلى إنشاء فلسفة جديدة للتاريخ»[84]. يرفض هنري بر كل أشكال الدغمائية والأطر النظرية شديدة التحجر، فأصبحت مجلته حتى الحرب العالمية الأولى أداة حوار جامع بين مختلف العلوم الإنسانية. فضلاً عن ذلك، فإنه أراد إعادة الرابط الذي فكته المدرسة المنهجية بين الحاضر والدراسات التاريخية، وعلى الاهتمامات المعاصرة أن توجه أعمال البحث. كثيرة هي التوجهات التي مهدت مباشرة لخطاب **الحوليّات**. من جهة أخرى كان لوسيان فيفر وهو طالب شاب بدار المعلمين قد شارك مبكراً بالمجلة، منذ عام 1905 تاريخ أول مقال كتبه، وسرعان ما أصبح عضواً بهيئة التحرير مكلفاً بقسم «أقاليم فرنسا». إن هذه التجربة جعلت منه الوريث الذي لا ينازع لهنري بر. ونجد عند الرجلين نفس الحيوية العلمية والبحث عن الدعائم السياسية والميول الموسوعية. في عام 1914 أعلن هنري بر عن نيته في إصدار تاريخ علمي وشامل، فأنشأ عام 1925 مركزاً دولياً للتوليف. وأشرف وريثه، لوسيان فيفر في ما بعد على موسوعة فرنسية اقترحها دومونزي (De Monzie). ونجد عند الرجلين لذة الصراع والحوار الجدالي والأهمية الممنوحة للتلخيصات وللتاريخ الإشكالي ولمجال علم النفس، ونفس الطموح التوليفي وأخيراً البحث عن تاريخ كلي للفكر اللاعقلاني الذي جرى اقتراحه كدرع في وجه الماركسية. كانت بدايات مارك بلوخ في

---

(84) Henri Berr, *La Synthèse en histoire: Essai critique et théorique,* bibliothèque de philosophie contemporaine (Paris: F. Alcan, 1911), p. 43.

مجلة التوليف التاريخي عام 1912 بنشر مقال مطول حول منطقة إيل دو فرانس (Ile-de-France): «لقد كانت نظرة المؤرخ الشاب بلوخ وحتى مصطلحاته شديدة المطابقة لنظرة ومصطلحات هنري بر»[85]. فالمقارنة مع بلوخ هي واضحة جداً حتى في فشلهما المشترك بالنسبة إلى ترشيحاتهما المتعاقبة لدخول كوليج دو فرانس (Collège de France). ترشح هنري بر مرة أولى عام 1905 وانتخب غبريال مونو، وترشح مرة ثانية عام 1912 مدافعاً عن تدريس يتمحور حول المنهجية في التاريخ، ولكنه فشل مرة أخرى، فقد سد حراس المعبد الطريق على هذا المشاغب غير الملتزم بعلم من العلوم.

لماذا إذاً جرى إصدار مجلة **الحوليّات** عام 1929، ما دامت توجد مجلة مشابهة لها؟ يعود ذلك بالأساس إلى بعض التقصير في القدرة على التغيير عند هنري بر، وقد اتعظ من هذا الدرس لوسيان فيفر ومارك بلوخ. في المقام الأول لم يشأ هنري بر أن يؤسس حول شخصه مدرسة على عكس ما فعله علماء الاجتماع حول دوركايم. إن هذا الرفض جعل خطابه ينحصر في الهامش ما دام لم يكن مدعوماً باستراتيجية غزو المواقع واحتلال الكراسي الجامعية. وكانت ثورة الأفكار قد تمت، وكان ينقص ما هو أساسي، أي الربط المؤسساتي لنشرها. من جهة أخرى أدت حرب 1914-1918 إلى ردة فعل انتصارية ومعادية للجرمان عند هنري بر جعلته يعود بخطوات إلى الوراء بالنسبة إلى طموحاته الأولى. فأصبح يتكلم[86] عن «اليقظة الفرنسية» ويتمنى «علماً رجولياً». ويعلن تفوق أمة ديكارت

---

(85) Sigel, dans: *Au berceau des annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, p. 208.

(86) H. Berr, Préface à la reparution de la revue, 1919.

(Descartes) وأصبح انتصار 1918 هو انتصار للروح الفرنسية[87]. أدّى هذا التراجع في رغبة التجديد إلى امكانية تحقيق المشروع الحوليّاتي، وذلك انطلاقاً من فترة ما بعد الحرب. وإبتداءً من هذه اللحظة تم تصور المشروع من قبل لوسيان فيفر. إلا أنه لم يكن هناك ما يهيئ التاريخ ليلعب دور الموحد بين العلوم الاجتماعية، بل على العكس بدا أن التجديد آت من عند علماء الاجتماع: «إن طرافة الحركة التي قادها بلوخ وفيفر تكمن أكثر في طريقة تأكيدهما على برنامجهما أكثر مما هي في البرنامج ذاته»[88]. في الواقع كان الطموح لتحقيق توليف بين مختلف العلوم شعاراً مطلوباً منذ مدة في نفس الوقت من طرف المدرسة الدوركايمية والمدرسة الجغرافية و**مجلة التوليف التاريخي** .وقد تبنى لوسيان فيفر ومارك بلوخ الاستراتيجية الهجومية للدوركايميين، الذين ضعفوا بعد وفاة معلمهم، متفادين الدغمائية التي كانت سبب فشل هؤلاء. وأضافا إلى استراتيجية الغزو هذه، كونية هنري بر ليكسبا إلى جانبهما مختلف مكونات العلوم الاجتماعية وحشدها تحت راية تاريخ مجدد وموحِّد. وبتأكيدهما على قيمة الدراسات المناطقية نجحا في ضم الجغرافيين. لقد أدرك مديرا **الحوليّات** أن الوفاق الودي مع العلوم الاجتماعية الأخرى لم يكن كافياً لكسب اللعبة، بل يجب فرض الوحدة تعسفياً لتحقيق الانتصار. إن هذه الخاصية أساسية ومازالت حاضرة في كل مرحلة من مراحل الخطاب الحوليّاتي، وهي تلك القدرة على مسك كل شيء والانفتاح

---

(87) Henri Berr, *La Guerre allemande et la paix française: I. Le Germanisme contre l'esprit français, essai de psychologie historique* (Paris: La Renaissance du livre, 1919).

(88) André Burguière, «Histoire d'une histoire: La Naissance des annales,» *Annales*, vol. 11 (1979), p. 1350.

واستعادة القوى والجذب. ولعدم ترويع الشركاء وحسن استيعابهم يجب عدم تخويفهم كثيراً. وعلى عكس ما قام به دوركايم بخوضه معركة مواجهة، وهو الذي اكتسب مكانة مهيمنة في علم الاجتماع، عمدت **الحوليّات** إلى تغذية ما يشكل جزءاً من حكايتها الخرافية وأسطورتها المؤسسة، وهي الهامشية واللادغمائية. وسيقدم لوسيان فيفر ومارك بلوخ نفسيهما كقزمين يجابهان عملاقاً، هو المدرسة ذات النزعة التاريخية المتشددة، ويطلبان العون ليخلفاها. إذاً لا يمكن فصل المشروع الحوليّاتي عن بُعده الإستراتيجي: «لا يمكن فصل أي مشروع علمي عن مشروع سلطوي... إرادة الاقناع وإرادة القوة متحدتان كالنور والظل»[89]. كذلك يجب أن يكون الظرف مناسباً لمثل هذه النزعة الاستيلائية. وهذا هو الحال في الثلاثينيات، في فترة كان فيها الاقتصاد محصوراً في كليات الحقوق، والمدرسة الدوركايمية مشتتة ومفرقة بين كليات الحقوق والآداب، وأما بالنسبة إلى المدرسة الجغرافية فهي تبدو واهنة «كان الموقع مهيأً ليستولى عليه، فاستولت عليه **الحوليّات**»[90]. تحيلنا رغبة **الحوليّات** في الهيمنة على الأيديولوجيا وعلى المواضيع الهامة لتلك الفترة إلى عقلية الثلاثينيات لأن «التاريخ الذي يريد أن يكون مسيطراً لا يمكن أن يناهض الأيديولوجيا السائدة»[91].

لم يكن مؤسسا **الحوليّات** هامشيين، كما يرغبان أن يكونا، وكما يرغب ورثتهما. كلاهما أستاذان في جامعة ستراسبورغ التي أعيدت فرنستها منذ عام 1920، وقد أصبحت جامعة واجهة بعد

---

(89) المصدر نفسه، ص 1353.

(90) المصدر نفسه.

(91) Hervé Coutau-Bégarie, *Le Phénomène «nouvelle histoire»: Stratégie et idéologie des nouveaux historiens* (Paris: Economica, 1983), p. 126.

استرجاع الألزاس. كان عليها أن تبرهن للألمان قدرة الباحثين الفرنسيين[92]. وكانت ستراسبورغ آنذاك الجامعة الثانية بعد باريس من حيث أهمية أساتذتها. نجد فيها عدداً هاماً من العلماء في اختصاصات مختلفة، تعاونوا في ما بعد مع **الحوليّات**: الجغرافي بوليغ (Baulig) عالما الاجتماع موريس هالبواكس (Maurice Halbwachs)، وغبريال لوبرا (Gabriel Le Bras)، وعالم النفس شارل بلونديل (Charles Blondel)، والمؤرخون أندريه بيغانيول (André Piganiol) وشارل إدمون بيرّان (Charles-Edmond Perrin) وجورج لوفيفر (Georges Lefebvre)، وبالتأكيد لوسيان فيفر ومارك بلوخ اللذان يحتلان موقعاً استراتيجياً ضمن أرضية فكرية غنية. وقد أنشئت إلى جانب الاختصاصات التقليدية اختصاصاتٌ جديدة أكثر حداثة. هبَّ على ستراسبورغ فكر جديد شبيه بفكر **مجلة التوليف التاريخي**، ورغبةٌ في فتح الآفاق والانفتاح التي أشاد بها هنري بر منذ عام 1921. كانت لقاءات يوم السبت تسمح بلقاء الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين والجغرافيين والحقوقيين والرياضيين الذين أسسوا لحوار منتظم ومُمأسس حول مواضيع ثلاثة (الفلسفة والاستشراق وتاريخ الديانات والتاريخ الاجتماعي). كانت هذه الجامعة مقاطعة باريسية مقطوعة عن الواقع الألزاسي المحلي وأعضاؤها لا يحلمون إلا بالنجاح في الصعود إلى العاصمة «يجب أن نقبل بالأمر الواقع فسيكون لنا المجد في أننا مدخل إلى السوربون» مثلما عبر عن ذلك عميدها كريستيان بفيستر (Christian Pfister) عام 1925[93]، فجامعة ستراسبورغ هذه تمتلك

---

(92) Faire mieux que La Kaiser Wilhelms Univertsität (1872-1918).

(93) Pfister (1925),

ورد في: F. G. Dreyfus, dans: *Au berceau des annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, pp. 11-19.

مكتبة - واجهة، أداة عمل لا مثيل لها على الأقل بالنسبة لنظيراتها في المقاطعات. تتمتع أيضاً باعتمادات مالية مرتفعة بفضل ميزانية البحوث العلمية التي تدعم منشورات كلية الآداب بستراسبورغ. توجد خاصية أخرى مشجعة لستراسبورغ، كليتها للحقوق التي تجمع نخبة الحقوقيين الفرنسيين الحريصين على القيام بدراسات متعددة الاختصاصات ومقارنية، وهي تحمل اسماً مميزاً هو كلية الحقوق والعلوم السياسية. كان الحقوقي وعالم الاجتماع غبريال لوبرا يسمح بإتصالات مثمرة مع المختصين في الآداب وكلية اللاهوت عبر فتح بحوث مشتركة حول القانون الكنسي وعلم الاجتماع الديني. «لم تكن صدفة أن تنطلق شرارة عبقرية **الحوليّات** في ستراسبورغ، قبل أن تلهب كل شيء»[94]. وقد كان مارك بلوخ ولوسيان فيفر على الرغم من اختلاف طبعهما، مرتبطين بصورة خاصة منذ مرحلة ستراسبورغ. لقد كان معهد التاريخ الوسيط بجانب معهد التاريخ الحديث والباب الذي يفصل بينهما كان دائماً مفتوحاً. من جهة، شخص متبحر في العلم يجد راحته في الكتابة أكثر من المشافهة «يبدو بلوخ بكلامه المتقطع شديدَ البرودة، وربما مترفعاً، في أفكاره إعتدال وتردد مما يحيّر المبتدئين المتلهفين إلى الحقائق»[95]. ومن الجهة الثانية مربٍّ، وخطيب لاذع وموهوب: «كان فيفر يبهر مستمعيه لأول وهلة بطبعه الحاد وموهبته التربوية ولا يخشى اللجوء إلى أساليب فيزيائية تقريباً»[96]. في عام 1929 كان مارك بلوخ ولوسيان فيفر يتمتعان بسمعة مؤكدة بما أنهما يساهمان في **مجلة التوليف التاريخي**. كان لوسيان فيفر قد نشر

---

(94) M. Thomann, dans: Ibid., pp. 33-36.

(95) Ph. Dollinger, dans: Ibid., pp. 65-67.

(96) المصدر نفسه، ص 65.

كتابين لافتين أطروحته **فيليب الثاني ومنطقة الفرانش كونتيه** (1911) (*Philippe II et la Franche-Comté*)، وكتابه حول مارتن لوثر (Martin Luther) (1928)، وكان أيضاً عضواً في هيئة إدارة **مجلة التاريخ الحديث والمعاصر**. أما مارك بلوخ، الذي يصغره بثماني سنوات، هو ابن أحد ألمع المختصين في التاريخ الروماني، غوستاف بلوخ (Gustave Bloch) وصاحب أطروحة نوقشت عام 1920، عنوانها **ملوك وأقنان** (*Rois et serfs*)، وهو مؤلف كتاب فيه كثير من التجديد وقد حظي بالتنويه: **الملوك صناع المعجزات** (*Les Rois thaumaturges*) (1924) كانت مسيرتهما الجامعية بعيدة كل البعد عن أن تكون هامشية وكذلك بعد إصدار المجلة بقليل انتقلا تباعاً إلى باريس، طريق التتويج بالنسبة إلى لوسيان فيفر عام 1933، تاريخ دخوله كوليج دو فرانس وطريق نصف تتويج بالنسبة إلى مارك بلوخ الذي أصبح عام 1936 أستاذ التاريخ الاقتصادي في السوربون حيث خلف هنري هاوزر. متوجاً في الأوساط السياسية، سيجد لوسيان فيفر نفسه مكلفاً من قبل وزير التربية الوطنية (1932–1934) دو مونزي بمشروع موسوعة **فرنسية** والتي سيصبح أمينها العام ومديرها، أي صاحب المشروع الذي يدير ست مائة مشارك علمي ومائتي جامعي. وبفضل الجدول الذي أعده لوسيان فيفر نفسه عن مشاربه الفكرية يمكن أن نعرف الانتماءات التي ينتسب إليها، هو وكذلك **الحوليّات** بصورة عامة (انظر الجدول). نجد مجموعة من الحلقات بعيدة نسبياً عن الدائرة التي يتموقع فيها هو نفسه. تدور حوله ثلاث مجموعات: **مجلة التوليف التاريخي** و**سنة علم الاجتماع** و**الحوليّات**. إن زملائه في دار المعلمين جول سيون (Jules Sion)، هنري فالون (Henri Wallon)، ج. بلوخ (J. Bloch)، أوغوستان رونوديه (Augustin Renaudet) وشارل بلونديل (Charles Blondel) كانوا في اتصال مباشر، ثم نجد تأثيرات أخرى من بينها المدرسة الجغرافية

لفيدال دو لا بلاش (Vidal de la Blache) والألسنية مع أنطوان مَييه (Antoine Meillet) وبالتأكيد هنري بيرّان الذي طلب منه أن يشرف على المشروع الحوليّاتي. كان للوسيان فيفر مشروع إصدار مجلة تجديدية منذ ما بعد الحرب: «غداة الحرب مباشرة بعد تسريحي من الخدمة العسكرية فكرت بإصدار مجلة كبيرة للتاريخ الاقتصادي العالمي»[97]. فالخاصية الاقتصادية الأساسية لهذه المجلة الجديدة كانت واضحة مبكراً. وهي أكثر وضوحاً في الرسالة التي بعث بها لوسيان فيفر إلى آرمان كولان في بداية عام 1928 حيث يقترح فيها كعنوان للمجلة التي ستصدر: «التطور الاقتصادي، مجلة نقدية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي»[98]. تتأكد من خلال مشروع المجلة الرغبة في كسر الحدود بين العلوم وتحقيق علم اجتماعي موحد هذه المرة عن طريق التاريخ والحرص على الإجابة على تساؤلات الحاضر. على المجلة القادمة «أن تقوم بالربط الدائم بين مجموعات العاملين الذين غالباً ما يجهل بعضهم بعضاً ويظلون منغلقين في مجال اختصاصاتهم الضيق: مؤرخون محترفون، علماء اقتصاد، جغرافيون علماء اجتماع أو محققون مهتمون بالعالم المعاصر»[99]. إنه نوعاً ما نقل لنموذج ستراسبورغ على المستوى القومي. بلا شك كان مارك بلوخ وراء توجيه المجلة نحو الدراسة الاجتماعية مطعمة بعلم الاجتماع وليس فقط اقتصادية كما هو الحال في مشروع لوسيان فيفر

---

(97) L. Febvre, «Annonce du lancement des *Annales*, 11/ 1928,» dans: Lucien Febvre, *Combats pour l'histoire*, économies, sociétés, civilizations (Paris: A. Colin, 1953), p. 398.

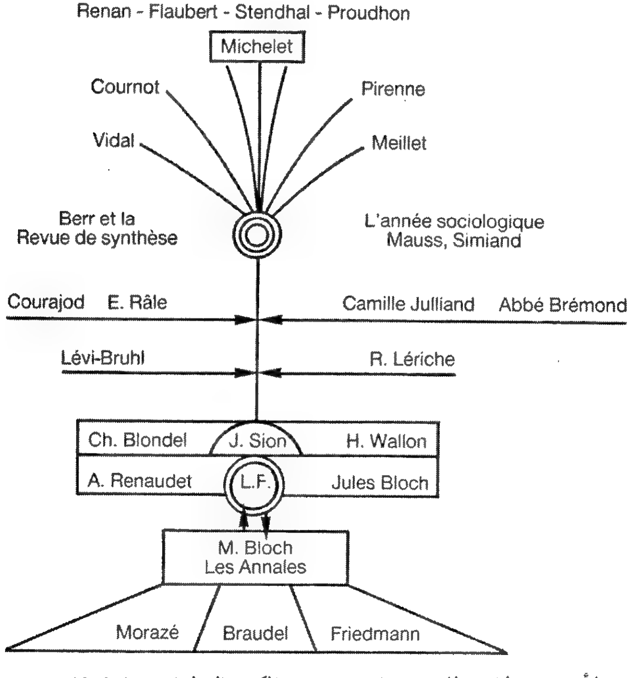
(98) L. Febvre, «Brouillon d'une lettre à A. Colin du 29 février 1928,» *Catalogue de l'exposition sur L. Febvre,* Bibliothèque nationale (novembre 1978), p. 39.

(99) المصدر نفسه.

في ما بعد الحرب: «نتشبث بكلمة إجتماعي. أؤكد (دراسة تنظيم المجتمع، الطبقات الاجتماعية...) إلى جانب الاقتصادي» هذا ما كتبه مارك بلوخ إلى أندريه سيغفريد[100] (André Siegfried).

الشكل الرقم (1-2)

TABLEAU DES ATTACHES INTELLECTUELLES DE LUCIEN FEBVRE



المصدر: الأرشيف الخاص للسيدة فيفر، معرض المكتبة الوطنية، سنة 1978.

(100) M. Bloch, «Lettre à A. Siegfried du 29 janvier 1928,»

ورد في: P. Leuillot, «Aux origines des annales d'histoire économique et social, 1928,» dans: *Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel* (Toulouse: Privat, 1972).

أخيراً صدرت المجلة يوم 15 كانون الثاني/ يناير 1929 تحت عنوان **حوليّات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** مع هيئة تحرير معلنة عن دورها في الربط بين مختلف العلوم الإنسانية بإدارة مؤرخَين. كان مارك بلوخ ولوسيان فيفر هما المديرين، والأعضاء الجغرافي ألبير دومانجون الذي لعب دور الوسيط القدير مع الناشر، وعالم الاجتماع الدوركايمي موريس هالبواكس وعالم الاقتصاد شارل ريست (Charles Rist)، وعالم السياسة أندريه سيغفريد والزملاء من المؤرخين هم أندريه بيغانيول للتاريخ القديم وجورج إسبيناس (Georges Espinas) للفترة الوسيطة وهنري هاوزر للفترة الحديثة (القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر) والذين يجب أن يضاف إليهم العقل المدبر للعملية: المؤرخ البلجيكي هنري بيرين(101). لقد تناسينا قليلاً دور هذا

(101) Albert Demangeon (1872-1940), géographe vidalien, professeur à Lille, puis à la Sorbonne (1911), *Le Déclin de l'Europe* (1920), et *La Picardie et les régions voisines, Artois, Cambrésis, Beauvaisis.*
Maurice Halbwachs (1877-1945), sociologue durkheimiens, professeurs à Paris à partir de 1935, *Les Causes du suicide* (Paris: F. Alcan, 1930); *Morphologie sociale* (Paris: A. Colin, 1938), et *Esquisse d'une psychologie des classes sociales* (Paris: M. Riviére, 1939).
Charles Rist (1874-1955), économiste, sous-gouverneur de la banque de France (1926-1929), *Histoire des doctrines économiques, depuis les physiocrates jusqu'à nos jours* (Paris: Société anonyme du Recueil Sirey, 1909), et *Histoire des doctrines relatives au crédit et à la monnaie depuis John Law jusqu'à nos jours* (Paris: Librairie du Recueil Sirey, 1938).
André Siegfried (1875-1959), un des fondateurs de la sociologie politique, professeur au collège de France, *Tableau politique de la France de l'ouest* (Paris: A. Colin, 1913), et *Tableau des partis en France* (Paris: B. Grasset, 1930).
André Piganiol (1883-1968), historien, spécialiste de Rome antique, professeur au collège de France (1942-1954), *Essai sur les origines de Rome* (Paris: E. de = Boccard, 1917), et *La Conquête romaine* (Paris: F. Alcan, 1928), et *Histoire de*

الأخير وأهميته، فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى، عندما كانت للوسيان فيفر الرغبة في إصدار مجلة كبيرة للتاريخ الاقتصادي العالمي، كانت نيته أن يعطي إدارتها لهنري بيرين «الذي كانت سلطته تتأكد بأنها لا مثيل لها»[102]. لقد شن هنري بيرين حملة مبكرة على المدرسة المبالغة في نزعتها التاريخية وتقصيراتها. ومنذ عام 1898 أكد على الطابع المتغير لعلم التاريخ المرتبط بالعصر وروح الفترة الزمنية، وذلك ضد رأي شارل لانغلوا وشارل سينيوبوس. وقد عرف شهرة كبيرة بعد أكثر من عامين من الأسر في ألمانيا كتب خلالهما **تاريخ بلجيكا**. التقى مارك بلوخ ولوسيان فيفر في الأول من أيار/ مايو عام 1920 «لقد أثّر رفضه للتخصص وجدة نظرته في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وإلحاحه على تأكيد ضرورة وجود تاريخ مقارن، في زميليه الشابين المنتسبين لستراسبورغ»[103]. ولم يتكدر الحوار والتعاون بين هؤلاء الثلاثة أبداً، سواء في المؤتمرات الدولية أو

Rome, «Clio»; introduction aux études historiques; [3] (Paris: Presses = Universitaires de France, 1939).

Georges Espinas (1869-1948), historien médiéviste, spécialiste d'histoire urbaine, *Les Origines du capitalisme* (Lille: Librairie E. Raoust, 1933-1949), *La Vie urbaine à Douai au moyen âge* (Paris: A. Picard, 1913).

Henri Hauser (1866-1946), pionner de l'histoire économique du XVIe siècle en étudiant les origines du capitalisme moderne en France. Hauser, *Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800,*

Henri Pirenne (1862-1935), historien belge, professeur à Gand, *Histoire de la Belgique*, 7 vols. (Bruxelles: H. Lamertin, 1920-1932).

(102) Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 398.

(103) R. Demoulin, dans: *Au berceau des Annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre* 1979, p. 274.

داخل مجلة **الحوليّات** أو في جامعة غان (Gand). لقد كانت وفاة هنري بيرين فرصة للتعبير عن الدَّين تجاه هذا الوصيّ الخفي: «لقد كان بالنسبة إلينا أكثر من مستشار وأكثر من ضامن، وإنما الروح الإلهية الحارسة التي كانت تمنحنا، في الأوقات العصيبة، القوة والجرأة للمثابرة، والتي كانت تعيد إلينا الإيمان في لحظات التردد»[(104)].

كانت القطيعة بين الخطاب التاريخي البالغ التشدد والخطاب الحوليّاتي سريعة ويمكن ملاحظتها في مقابلة طبيعة مقالات مجلة **الحوليّات والمجلة التاريخية**، وهو ما قام به المؤرخ الهولندي جان لويس أوسترهوف[(105)] (Jean-Louis Oosterhoff). لقد أظهرت الدراسة الكمية التي قام بها حول توزع مقالات المجلتين في الفترة الممتدة ما بين عام 1929 وعام 1945 (انظر الجدول) تراجعاً كبيراً للتاريخ السياسي من خلال **حوليّات** لوسيان فيفر ومارك بلوخ والذي أصبح لا يمثل إلا 2,8 في المئة من المقالات المنشورة في هذه المدة في حين كانت تمثل في نفس الفترة 49,9 في المئة من مقالات **المجلة التاريخية**. تأكد التوجه الاقتصادي **للحوليّات**: تمثل المقالات التي تتناول هذا الجانب نسبة 57,8 في المئة من المجموع مقابل 17,5 في المئة بالنسبة إلى **المجلة التاريخية**. أما بالنسبة إلى التاريخ الثقافي والذي مازال وزنه متواضعاً وهو أقل مما هو بالنسبة إلى **المجلة التاريخية**: 10,4 في المئة بالنسبة إلى **الحوليّات** مقابل 16,9 في المئة

---

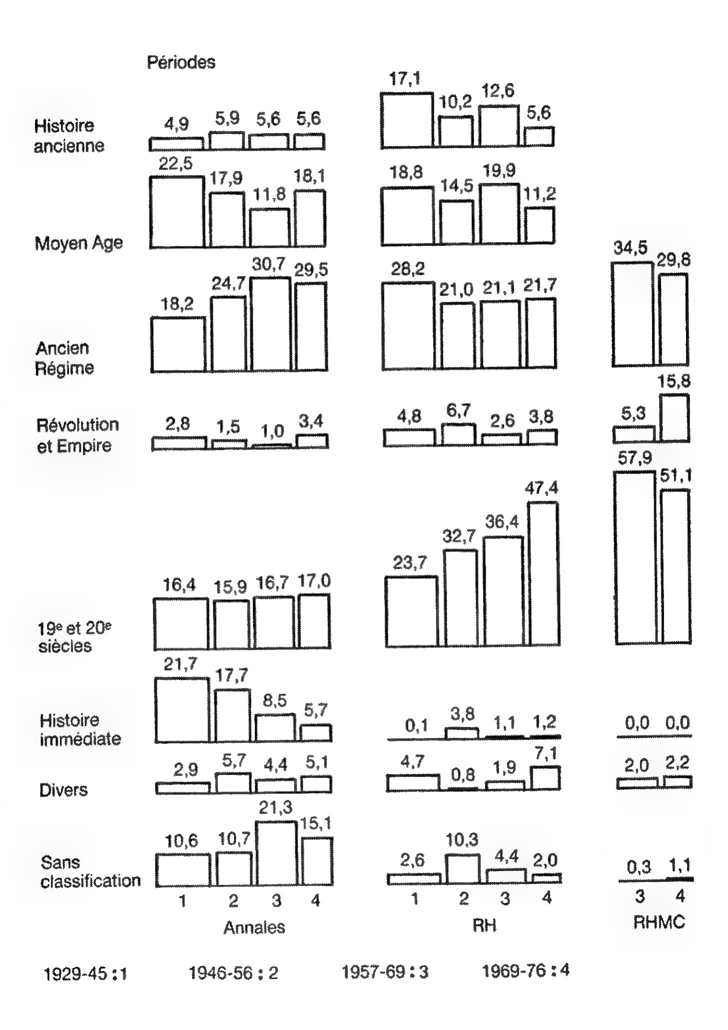
(104) Lucien Febvre, «H. Pirenne: 1862-1935,» *Annales d'histoire économique et sociale*, tome 7 (1935) p. 529.

(105) J. L. Oosterhoff, partie quantitative de l'article de H. L. Wesseling, «The Annales School and the Writing of Contemporary History,» *Review*, vol. 1 (Winter-Spring 1978).

بالنسبة إلى **المجلة التاريخية.** غزت المواضيع الحوليّاتية هذه المجلة رغم أنها تقف على نقيض فرضياتها النظرية. وتراجعت المواضيع التقليدية التي حققت نجاح **المجلة التاريخية** لحساب تاريخ أكثر انفتاحاً على الاقتصاد والمجتمع. وحتماً تقهقر تاريخ السِّيَر. وبصورة أقل حدة عرف التاريخ السياسي مرحلة من التآكل مع بقائه على رأس المواضيع المدروسة.

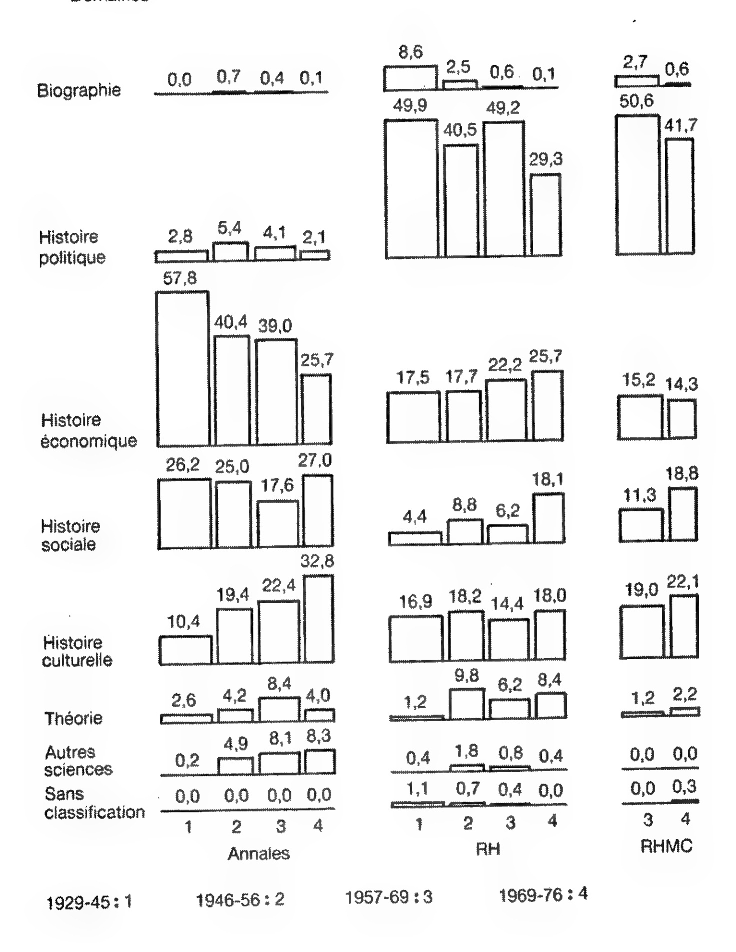
من وراء هذه الأرقام يسجل نجاح **الحوليّات أمام** التاريخ ـ المعركة. رغم ذلك كانت النزعة التاريخية المتشددة تحصد المواقع والأمجاد.

الشكل رقم 1



Périodes
Histoire ancienne
4,9 5,9 5,6 5,6
17,1 10,2 12,6 5,6
Moyen Age
22,5 17,9 11,8 18,1
18,8 14,5 19,9 11,2
Ancien Régime
18,2 24,7 30,7 29,5
28,2 21,0 21,1 21,7
34,5 29,8
Révolution et Empire
2,8 1,5 1,0 3,4
4,8 6,7 2,6 3,8
5,3 15,8
19e et 20e siècles
16,4 15,9 16,7 17,0
23,7 32,7 36,4 47,4
57,9 51,1
Histoire immédiate
21,7 17,7 8,5 5,7
0,1 3,8 1,1 1,2
0,0 0,0
Divers
2,9 5,7 4,4 5,1
4,7 0,8 1,9 7,1
2,0 2,2
Sans classification
10,6 10,7 21,3 15,1
2,6 10,3 4,4 2,0
0,3 1,1
1 2 3 4
Annales
1 2 3 4
RH
3 4
RHMC
1929-45 : 1
1946-56 : 2
1957-69 : 3
1969-76 : 4

الشكل رقم 2


Domaines
Biographie
Histoire politique
Histoire économique
Histoire sociale
Histoire culturelle
Théorie
Autres sciences
Sans classification
0,0 0,7 0,4 0,1
8,6 2,5 0,6 0,1
2,7 0,6
2,8 5,4 4,1 2,1
49,9 40,5 49,2 29,3
50,6 41,7
57,8 40,4 39,0 25,7
17,5 17,7 22,2 25,7
15,2 14,3
26,2 25,0 17,6 27,0
4,4 8,8 6,2 18,1
11,3 18,8
10,4 19,4 22,4 32,8
16,9 18,2 14,4 18,0
19,0 22,1
2,6 4,2 8,4 4,0
1,2 9,8 6,2 8,4
1,2 2,2
0,2 4,9 8,1 8,3
0,4 1,8 0,8 0,4
0,0 0,0
0,0 0,0 0,0 0,0
1,1 0,7 0,4 0,0
0,0 0,3
1 2 3 4
Annales
1 2 3 4
RH
3 4
RHMC
1929-45 : 1
1946-56 : 2
1957-69 : 3
1969-76 : 4

وقد أخذت **الحوليّات** انطلاقتها في مواجهة هذه النزعة. وكل عدد جديد من مجلة **الحوليّات** هو قطعة جديدة من الأسلحة الثقيلة لإطلاق النار على المدرسة التاريخية المتشددة. الملخصات، وباب «**حوارات ومعارك**» كانت كلها وسائل لممارسة الجدل من خلال مجلة تعطي لنفسها مسحة نضالية. إن ما أبقى على علماء الاجتماع والجغرافيين وعلماء النفس والمؤرخين الحوليّاتيين، وما أسس تضامنهم هو رفضهم المشترك للنزعة التاريخية المتشددة، يساهم تحديد الخصم في اتحاد المجموعة. كانت الهجومات الموجهة ضد المدرسة التاريخانية تؤاخذها **أولاً** على الخاصية السياسية الضيقة لبحوثها. ستعرّف **الحوليّات** نفسها **أولاً** على أنها مناهضة للخطاب السياسي وللتحليل السياسي. وقد نتج عن ذلك إنهيار للتاريخ السياسي. تقترح **الحوليّات** توسيع حقل التاريخ الذي، بعد مغادرة أرض السياسة، يحمل اهتمامات المؤرخين نحو آفاق أخرى كالطبيعة والمشاهد والسكان والديموغرافيا والمبادلات والعادات... «بهذه الصورة تكونت أنثروبولوجيا مادية وتحدد مفهوم المادية التاريخية»[106]. فمع هذا المفهوم للمادية الذي أصبح مركزياً حدث تحول في مصادر المؤرخ الذي لم يعد يقدر على الاكتفاء بتأويل الوثائق المكتوبة التي تنتجها الدوائر السياسية. وجب عليه أن ينوع في وثائقه ومناهجه باعتماد الإحصائيات والديموغرافيا والألسنية وعلم النفس وعلم المسكوكات وعلم الآثار... «النصوص لابد منها ولكن ليس النصوص فقط»[107]، ففي هذا التوسيع لمصلحة العلوم الإنسانية الأخرى يمكن أن نلحظ التحالف المعروض عليها ضد النزعة

---

(106) B. Barret-Kriegel, «Histoire et politique,» *Annales* (11 décembre 1973).

(107) Lucien Febvre, «Leçon d'ouverture au collège de France, 13 décembre 1933,» dans: Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 13.

التاريخية ولكن لتكون في خدمة التاريخ. ندد مارك بلوخ ولوسيان فيفر من خلال عرضهما للكتب ومن خلال مقالاتهما بنقائص معلمي المدرسة التاريخية الفرنسية الأوائل. كان هدف مارك بلوخ في كتابه **المجتمع الفيودالي** (*La Société féodale*) أن يبيّن أنه لا يمكن تحويل المجتمع الفيودالي إلى مجرد تعريف سياسوي أو قانوني: «تعني الفيودالية والمجتمع الفيودالي، في الاستعمال السائد حالياً، مجموعة متشابكة من الاستعمالات حيث لم تعد منطقة الفيودالية الصرفة تحتل المكانة الأولى»[(108)]. والتاريخ الذي يبشر به قد هجر ساحات المعارك وتهيئة النفوس لخوض الحرب واختار على عكس ذلك أن يصالح التناقضات وتم تجاوز العداء الجرماني الذي كانت تشعر به الأجيال السابقة: «إن أطروحة الحدود المقدرة لا تقوى على الصمود لا أمام دراسة الماضي ولا أمام ملاحظة الحاضر. لم تكن فرنسا دائماً تتمدد بنهم نحو الاستيلاء على النهر، ولا ألمانيا ما دامت تجهل المعنى الروحي لنهر الراين ذلك المعنى الذي ابتدعه حديثاً العقل والشعور. فرنسا، بلجيكا، هولندا، ألمانيا، سويسرا، كل هذه البلدان تفاهمت وتداخلت وتلاقحت بواسطة نهر الراين»[(109)]. يندرج من خلال رفض السياسي، التقليل من شأن الأحداث بصورة ضمنية لحساب أمد طويل يتناسب بصورة أفضل مع تطور المادية التاريخية.

لقد وصف لوسيان فيفر في عرضه للفصل الثالث من أطروحة فرنان بروديل، **البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب**

---

(108) Marc Bloch, *La Société féodale*, l'évolution de l'humanité; 8 (Paris: A. Michel, 1968), p. 13.

(109) Albert Demangeon et Lucien Febvre, *Le Rhin: Problèmes d'histoire et d'économie* (Paris: A. Colin, 1935), pp. 291-292.

الثاني، عام 1950 وهو الفصل الذي يهتم بالأحداث والسياسة والناس، وهو تقريباً ما قاله المؤلف نفسه، بأن هذا التاريخ هو «زبد» و«موجات فوق القمم تنشط بصورة سطحية حركة تنفس الكتلة المحيطية»[110]. كانت اللهجة جدالية كثيراً في أغلب الأحيان ضد خصوم معينين: فقد أصبح سينيوبوس ولانغلوا ولافيس وفوستيل أو هالفين، هدفاً تشحذ عليه الطاقة القتالية والحجج الحوليّاتية. لنحكم من خلال هذا العرض القاتل الذي قام به لوسيان فيفر لكتاب شارل سينيوبوس وش. أيزنمان (Ch. Eisenmann) و ب. ميليوكوف (Milioukov) حول **تاريخ روسيا** كان قد صدر هام 1932: «أفتح **تاريخ روسيا**: قياصرة مضحكون، لغط عائلي، وزراء مختلسون، موظفون ببغاوات، قرارات جائرة وتناقض في القرارات (oukases et prikazes) تحت الطلب... فالتاريخ هو الذي لم أجده في تاريخ روسيا هذا، ولذلك فإنه قد ولد ميتاً»[111]. ونفس سينيوبوس قد تعرض للهجوم في العام التالي، عام 1933، على صفحات **مجلة التوليف** من طرف لوسيان فيفر بمناسبة **كتاب التاريخ الصادق للأمة الفرنسية** (*Histoire sincère de la nation française*) يقول لوسيان فيفر أنه لم يمسك كتاب تاريخ وإنما كتاباً مدرسياً: «لا أنقد من خلال هذا الكتاب مؤرخاً وإنما أنقد مفهوماً معيناً للتاريخ... مفهوم أرفضه بكل كياني»[112].

انتقد مقاربة جامدة للتاريخ تجعل من فرنسا معطى قابلاً للاستهلاك وفرضية أو عنصراً لا يتحرك كما لو أنه خارج الزمن

---

(110) Febvre, *Pour une histoire à part entière*, pp. 167-179.

(111) L. Febvre, *Revue de synthèse*, vol. 7 (1934),
أُعيد نشره في: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 70-74.

(112) L. Febvre, *Revue de synthèse*, vol. 5 (1933),
أُعيد نشره في: المصدر نفسه، ص 80-98.

محمي من عوارض التاريخ. سيظل هذا الجدال مع التاريخ التاريخاني من ثوابت **الحوليّات**. في عام 1946 هاجم لوسيان فيفر مرة أخرى «السياسة الدبلوماسية في حد ذاتها» بسبب كتاب أ. روبو (A. Roubaud) **السلم المسلح** (*La Paix armée*) (1871 ـ 1914): «يقف هذا الكتاب على نقيض ما نسميه نحن في **الحوليّات** كتاب جيد للتاريخ المعاصر... الجغرافيا منعدمة... والاقتصاد مفقود»[113].

الهدف الثاني لهجومات **الحوليّات** هو تقديس الحدث لدى المؤرخين التقليديين، وحيادية المؤرخ المزعومة في وجه الأحداث التي يمكن له أن ينقلها دون تدخل فيها: «بتعبير آخر العالم، المؤرخ مطالب بالامّحاء أمام الأحداث»[114]. يلح مارك بلوخ ولوسيان فيفر على عكس ذلك بضرورة تدخل نشيط للمؤرخ في الوثيقة وفي الأرشيف. وكما يقول غاستون باشلار (Gaston Bachelard) بصيغة نجدها في كلمات شبيهة في الخطاب الحوليّاتي: «ليس هناك ما يتحرك بذاته/ لا يوجد شيء معطى/ كل شيء يبنى»[115]. ومن منظور **الحوليّات** يبني المؤرخ مواد بحثه: الوثائق ضمن سلاسل قابلة للفهم يضعها في إطار نظري مسبق يتماشى وطبيعة بحثه. وبدون هذه المقاربة الإشكالية يكون المؤرخ معاقاً وعبارة عن ناسخ، وهو مهندس بلا شك ولكنه ليس عالماً. أكد لوسيان فيفر من خلال صيغة الفيزيولوجي داستر (Dastre) «عندما لا نعرف عمّ نبحث لا نعرف ماذا نجد»[116]، فمقاربة المؤرخ التقليدي هي إذاً مقاربة العجز

---

(113) L. Febvre, *Annales, économies, sociétés, civilisations* (1946),
أُعيد نشره في: المصدر نفسه، ص 61-69.

(114) Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, p. 117

(115) Gaston Bachelard, *La Formation de l'esprit scientifique: Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective* (Paris: J. Vrin, 1969), p. 14.

(116) Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 59.

و«السذاجة الذهنية» و«الكسل»، جملة من الأوصاف التي تعطي صورة عن لهجة الجدال. يلح لوسيان فيفر على الدور الرئيسي للمؤرخ، على ذاتيته الضرورية: «المعطيات؟ ولكن ليس ما يختلقه المؤرخ»[117]. «ليس الماضي الذي يولّد المؤرخ. ولكن هناك المؤرخ الذي يولّد التاريخ»[118].

يعارض مارك بلوخ و لوسيان فيفر علموية رانكه وسينيوبوس الموضوعانية، بالنسبية الذاتية لممارسة يختار فيها المؤرخ الأحداث التي سيسائلها بحسب الاهتمامات المعاصرة، يطرح من خلالها جملة من الافتراضات التي بدونها تكون المعرفة التاريخية كلمة جوفاء. ليس على المؤرخ أن يتجرد من ذاتيته ليزرع الشك، بل بالعكس عليه أن يقابل فرضياته بالوثائق التي جمعها. لإحراق التاريخ التقليدي، ستوقد **الحوليّات** النار بجميع أنواع الخشب. لا يعد دمج علماء اجتماع وعلماء نفس وجغرافيين في الفريق حجة على الحداثة لمواصلة مسار تاريخ شبيه بذاته. ستتغذى **الحوليّات** من مفاهيم ومناهج وفرضيات العلوم الاجتماعية الأخرى. يمر المشروع الاستراتيجي لمارك بلوخ ولوسيان فيفر باحتواء كل هذه اللغات والنظم الجديدة، وهي أدوات أساسية لربح معركة النفوذ. بدأ ذلك بنداء من أجل كسر الحدود: اخرجوا من خنادقكم إنها معاهدة تآخٍ مقترحة على بقية العلوم الإنسانية.

«الجدران مرتفعة جداً حتى إنها تحجب النظر. . . إننا نريد أن نثور ضد هذه الانقسامات المخيفة»[119]. يحدث التجمع ضد شيء

(117) L. Febvre, «Leçon inaugurale au collège de France,» dans: Ibid., p. 7.

(118) Charles Morazé, *Trois essais sur histoire et culture*, avant-propos de Lucien Febvre (Paris: A. Colin, 1948), p. 8.

(119) L. Febvre, dans: *Annales d'histoire économique et sociale* (1929).

ما، وفي هذه الحالة ضد المدرسة التاريخانية العجوز. لتحقيق النجاح استعملت المجلة المفاهيم المناسبة لتوسع من دائرة الاكتساح، فهي تتجنب بعناية الظهور بمظهر الناطق الرسمي باسم عقيدة جديدة تصدم حلفاءها: «إن كلمة فضفاضة ككلمة اجتماعي يبدو أنها خلقت لتكون علامة لمجلة تزعم أنها لا تحيط نفسها بالأسوار»[120]. لم تكتف **الحوليّات** بالتحالف مع مختصين آخرين، بل أخذت مناهجهم ومفاهيمهم، فقد استلهم لوسيان فيفر مباشرة من الألسني أنطوان مَييه الذي كان يتعاون مع مجلة **سنة علم الاجتماع** عندما يعطي الأولوية مفهومه للأداة الذهنية التي تعني، كما في اللغة، «مجموعة إمكانيات»[121] وضعها المجتمع بتصرف الفرد. عندما يضع لوسيان فيفر القواعد لعلم نفس تاريخي، فهو يعتمد أعمال علماء النفس كهنري فالون أو جان بياجيه (Jean Piaget)، فيعطي آنذاك للمؤرخ رؤية جديدة: هي دراسة الأحاسيس والحياة العاطفية في التاريخ، وهي رؤية لا غد لها ولكن سيعاد استعمالها، بنجاح باهر في ما بعد. يضع مارك بلوخ في صلب تحاليله حول **المجتمع الفيودالي** أصنافاً إجتماعية يعرضها على محك التاريخ. يمثل **الخصائص المميزة للتاريخ الريفي** (*Les Caractères originaux de l'histoire rurale*) (1931) قطيعة في الكتابة التاريخية يترجم عبرها المفهوم الدوركايمي **للفعل الاجتماعي** كأداة للمقاربة التاريخية. أصبح لوسيان فيفر محامي فيدال دو لا بلاش ضد المدرسة الجغراسياسية الألمانية لراتزل (Ratzel)، فهو يدمج المقاربة الجغرافية في الأفق المؤرخ: **الأرض**

---

(120) Marc Bloch et Lucien Febvre, «A nos lecteurs,» *Annales d'histoire économique et sociale* (1929), pp. 1-2.

(121) Hans Dieter Mann, *Lucien Febvre: La Pensée vivante d'un historien*, cahiers des annales (Paris: A. Colin, 1971), p. 131.

وتطور الإنسانية (*La Terre et l'évolution humaine*) (1922) يعلن كذلك في عام 1953 أن الجغرافيا الفيدالية هي التي أنجبت تاريخ **الحوليّات**. ولكن هذا المدح يخفي رغبة في إخضاع الجغرافيا كعلم رديف للتاريخ. إن الوسيلة لتقليص دورها هو دمجها في التاريخ وتحديد مجالها: «الأرض وليس الدولة: هذا هو الذي يجب أن تحتفظ به الجغرافيا... أما فيما يتعلق بالباقي فالحرية متاحة للجميع كي ينهلوا من أعمال الجغرافيين... لأغراض ليست جغرافية»[122]. شعر الجغرافيون أنهم مهددون بمشروع لوسيان فيفر فردّوا عليه بعنف، حتى أن لوسيان فيفر اضطر للتوضيح: «هناك جهات مختلفة أرادت في المدة الأخيرة أن تكشف لي أنني خططت لمشروع جهنمي يتمثل في خنق الجغرافيا. والأسوأ من ذلك أنني لخنقها استعرت منها الحبل الخانق»[123]. ولكن المعركة كانت رابحة قبل إعلانها لأن الجغرافيا كانت آنذاك في مرحلة التقهقر.

لم تعد **الحوليّات** مجرد تجمع احتكاري، بل نجحت في حشد العلوم الإنسانية تحت رايتها. وقد ترتبت عن هذه المعركة ضد النزعة التاريخية المتشددة، نشأة نواة دائمة للخطاب الحوليّاتي في ما يتجاوز التقلبات: النظر إلى سرد الأحداث وإلى القضايا السياسية نظرة نسبية، هذا إذا لم يتم رفضها. وانطلاقاً من هذا الرفض تتحدد **الحوليّات** كمدرسة تتجاوز تنوع مكوناتها. الخصم هو دائماً نفسه: التاريخ المسمى بالتاريخ الوضعي. وهذا يسمح بتواصل وانسجام الحركة: «امتياز إضافي: ليس الخصم خصماً خطيراً لأنه قد مات»[124]. كان

---

(122) Lucien Febvre, *La Terre et l'évolution humaine* (Paris: Renaissance du livre, 1922), p. 78.

(123) Febvre, *Pour une histoire à part entière*, p. 163.

(124) Coutau-Bégarie, *Le Phénoméne «nouvelle histoire»: Stratégie et idéologie des nouveaux historiens*, p. 296.

الرفضان اللذان عرفتهما الفترة السابقة وهما رفض التاريخ الوقائعي والتاريخ السياسي من المواضيع التي تتبناها **الحوليّات** اليوم. هذه الإدانة النهائية يمكن التثبت منها كمعطى ثابت في تحليل المحتوى الذي قام به جان لويس أوسترهوف حول مجلة **الحوليّات** في مختلف مراحلها. لم يكن التاريخ السياسي يمثل سوى 2,8 من المقالات المنشورة بين عامي 1929 و1945 و5,4 ما بين عامي 1946 و1956 و4،5 ما بين عامي 1957 و1969 ليتراجع إلى نسبة 2,1 ما بين عامي 1969 و1976. في هذا المجال تعتبر مجلة **الحوليّات** اليوم وريثة **حوليّات** مارك بلوخ ولوسيان فيفر الصادرة عام 1929. إن هذا التواصل هو أساس بقاء هذه المدرسة على قيد الحياة رغم اختلاف مكوناتها.

2 - زمن مارك بلوخ ولوسيان فيفر

مؤرخو الحاضر

من تقاليد المؤرخين الفرنسيين أنهم مصابون بالرهبة من الفلسفة. نجد هذا الرفض لكل ما هو فلسفة للتاريخ لدى مدرسة **الحوليّات**: «لا لمنهج تجريدي على الطريقة الألمانية. . . فأفكار المؤرخ تستمد من التاريخ ذاته»[1]. ولكن مارك بلوخ ولوسيان فيفر، كانا على الرغم منهما، حاملين لتصور للتاريخ، أي لفلسفة تاريخية يمكن أن تقرأ من خلال المفاهيم التأسيسية لمنهجهما التاريخي. وإذا كانت أهم كتاباتهما تؤكد على المنهج التاريخي وتتخلى عن أي نظرية في دراسة التاريخ، فإنهما لم يشذّا عن القاعدة وما المذهب التجريبي الذي ينسبان إليه نفسيهما إلا دليل على الاختيار، وهذه طريقة خاصة في تصور التاريخ. تأثرت **الحوليّات** أكثر من مدارس تاريخية أخرى، باقتراحات وضغوطات المجتمع المعاصر بما أن مؤسسَيها قد أعادا ربط الاتصال بين الماضي والحاضر. إذاً فهذه المدرسة لا يمكن لها أن تتجرد من

(1) Lucien Febvre, dans: *Annales* (1956), p. 501.

القيم السائدة للمجتمع التقني والحديث الذي كان يتركز في أوروبا في بداية القرن العشرين. من هذه العلاقة بين **الحوليّات** والحداثة يمكن أن ندرك تماسك مشروعهما.

كي نفهم فهماً أفضل روح «الجبهة الشعبية»[2] يستحسن تتبع مسار كتّاب **الحوليّات** الأوائل. كان لوسيان فيفر في بداية حياته الفكرية اشتراكياً متحمساً، فكتب ما بين عامي 1907 و1909 في جريدة **اشتراكي الكونتوازي** (*Le Socialiste comtois*) وهي جريدة أسبوعية تصدرها فيدرالية الفرع الفرنسي للدولية العمالية (SFIO) بمنطقة الدوب (Doubs). وقد حرر يوم 21 آذار/ مارس 1909 أكثر من نصف الصفحة الأولى للجريدة في أربع مقالات: «لتحيَ الحياة! لتسقط السلطة»، «إلى متى؟»، «الدعاية في الحقول»، و«مظاهرة فلوكيه (Floquet)». إن أسلوبه ولهجته يثيران الدهشة عندما نقارنهما بمواقفه المستقبلية. عندما يرتاد دروب السلطة كأستاذ في كوليج دو فرانس، سيحافظ على حدة اللهجة الجدالية ولكن معركته ستكون منحصرة في التاريخ ويتخلى عن الصراع السياسي. لم يكن الأمر كذلك عام 1909 وهذا ما نحكم به من خلال هذا المقال: «آه عزيزي برودون (Proudhon)! هناك أناس يقولون أنك قد مت! إذهب وكن مطمئناً: وأخيراً قد نهضت الذات البشرية بعدما قبعت لقرون عديدة بلا حركة في هذه الحقارة. وهي ما زالت تصيح بصوت خافت ولكن بدون خجل، الصرخة المحررة التي كنت تطلقها أنت: لا للسلطة!». إذا كان لوسيان فيفر عند تأسيس **الحوليّات** لم يعد ملتزماً على المستوى السياسي، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى عدد من المشاركين بالمجلة. جورج فريدمان، المعجب بالإنجازات السوفياتية، كان ينشر

---

(2) R. Bonnaud, entretien avec l'auteur, 16 janvier 1986.

مقالات عديدة تشيد بحسنات الستالينية، وفرانتز بوركينو (Frantz Borkenau) كان ينتمي إلى مدرسة فرانكفورت، وجورج بورجان (Georges Bourgin) مؤرخ الكومونة (La Commune) كان صديقاً للوسيان هير (Lucien Herr) وليون بلوم (Léon Blum)، وعالم الاجتماع هالبواكس الذي مات في بوشنفالد (Buchenwald) عام 1945.

أما بالنسبة إلى مارك بلوخ، فقد ختم بوريسلاف جيريميك (Borislav Geremek)، المؤرخ ومستشار ليش فاليسا (Lech Walesa)، التنويه التذكاري الذي قدمه له مؤخراً على النحو التالي: «من الممكن أن نموت من أجل دانتزيغ»[3]، مذكراً أنه لا هو ولا مارك بلوخ قد هربا من التاريخ عندما فرض عليهما الأمر سواء في وجه الجنرال جاروزلسكي (Jaruzelski) أو ضد المحتل النازي. رابطاً التفكير بالفعل كان التزام مارك بلوخ التزاماً كاملاً أودى بحياته عام 1944. ويؤكد انتماءه إلى جيل، هو جيل التطرف الأقصى في قضية درايفوس (Dreyfus). وهو مؤيّد للجبهة الشعبية عام 1936 ومناهض لمعاهدة ميونيخ التي وقعت عام 1938. وعندما داهمته الحرب في عمر الثالثة والخمسين، ذهب برتبة ضابط إلى ما يناسب أن نسميها بالحرب الغريبة والتي سيصفها هو **بالهزيمة العجيبة**. وقد أفلت من الأسر بصعوبة والتحق بعائلته في قرية غيريه (Guéret) بمنطقة الكروز (La Creuse). هكذا تبرز الاختلافات بين مساري مديرَيّ **الحوليّات**. كان مارك بلوخ يعارض مواصلة نشر المجلة الذي لا يمكن أن يتم إلا وفق شروط سلطات الاحتلال النازية، أي إدارة مجلة من قبل فرنسيين لا ينحدرون من أصل يهودي: «لا أعتقد أنه يجب علي أن

(3) B. Geremek, 8ème Conférence M. Bloch, 17 juin 1986, texte lu par J. Le Goff (B. Geremek étant retenu en Pologne par la police).

أبدي الانصياع»[4]. ولم يكن ذلك رأي لوسيان فيفر الذي رد عليه بالقول «يجب أن تواصل **الحوليّات** صدورها، يجب ذلك»[5]. واصلت المجلة صدورها مع تغيير اسمها لتصبح : **مجموعة أعمال في التاريخ الاجتماعي**، وقد ظلت تصدر بهذا العنوان إلى عام 1944، ويديرها مسؤولان لا ينحدران من أصل يهودي ذُكر اسمهما على غلاف المجلة: لوسيان فيفر وبول لويّليو (Paul Leuilliot). في حين أن مارك بلوخ ظل يشارك بالمجلة تحت اسم مستعار هو مارك فوُجير (Marc Fougères). ولكنه لم يقف عند هذا الحد بل انخرط بصفة كلية: «أقولها بصراحة أتمنى في كل الحالات أن يظل لنا دم يراق حتى ولو كان ذلك دم أعزّ الناس عليّ»[6]. رفض أن يذهب، كما فعل كثير من المفكرين، إلى المدرسة الأمريكية الجديدة التي استدعته ليهرب من النازية، بل على العكس من ذلك انخرط عام 1943 في صفوف المقاومة النشيطة ضد المحتل في منطقة ليون، فقد أصبح نشيطاً في **الرماة الأحرار**: «جاء ذاك الأستاذ اللامع بتواضع وبساطة ليضع نفسه تحت إمرتنا»[7]. وأصبح عضواً في قيادة حركة المقاومة الموحدة لمنطقة ليون تحت اسم مستعار هو ناربون (Narbonne): «سرعان ما عرفه جميع المقاومين، وكان ذلك كثيراً لأنه كان يرى ويريد أن يرى كثيراً من الناس»[8]. في ربيع عام 1944 أوقف الغستابو (Gestapo) جزءاً كبيراً من قيادة حركة المقاومة

---

(4) Marc Bloch, lettre à L. Febvre, dans: *Annales d'histoire économique et sociale,* tome 1 (1945), p. 22.

(5) Lucien Febvre, lettre à M. Bloch, dans: Ibid., p. 23.

(6) Marc Bloch, *L'Etrange défaite*, avant-propos de Georges Altman (Paris: Editions Franc-tireur, 1946), p. 191.

(7) J. P. Levy, colloque M. Bloch, 17 juin 1986.

(8) G. Altman, dans: *Annales d'histoire sociale,* tome 1 (1945), pp. 11-14.

الموحدة بمنطقة ليون. وأوقف مارك بلوخ وسجن في مونلوك (Montluc) وعُذّب. وعندما قام الحلفاء بإنزال على (السواحل الفرنسية) أخذ النازيون ليثأروا، مجموعة من السجناء في سجن مونلوك لإعدامهم. و كان مارك بلوخ من بين الضحايا. «قال صبي عمره ست عشرة سنة كان إلى جانبه وفرائصه ترتعد: «سيكون الأمر مؤلماً...» فأخذ مارك بلوخ يده بعطف وقال له: لا أبداً يا صغيري ليس هناك ما يؤلم» وسقط هو الأول وهو يصيح «تحيا فرنسا»[9]. ترك مارك بلوخ وصية روحية كتبها في آذار/ مارس 1941 يؤكد فيها على هويته الفرنسية قبل كل شيء:

«غريب عن كل إنتماء طائفي وبعيد عن أي تضامن عرقي مزعوم، لقد شعرت طيلة عمري، قبل كل شيء وبكل بساطة أنني فرنسي... أموت كما عشت فرنسياً صالحاً»[10]. إلا أنه بالرغم من هذا العمل البطولي فإن هذا التعاطف الاشتراكي **للحوليّات** في فترة الثلاثينيات، لا يرجح الكفة كثيراً بما أن المجموعة قد بنت وجودها على رفض ما هو سياسي: «أتساءل دائماً كيف يمكن أن يفعل ذلك أي مؤرخ»[11]. كان اندماج المدرسة ذات النزعة التاريخية في الفكر الجمهوري فاعلاً، فقد خدم خطاب السلطة. وبرفضها للخطاب السياسي أخلّت **الحوليّات** بالمهمة المنوطة بمجلة تتناول التاريخ وعليها التوضيح والمساعدة على فهم الظواهر المعاصرة. لم يكن الغولاغ (Goulag) معروفاً بالفعل، وإنما

---

(9) Lucien Febvre, *Combats pour l'histoire,* économies, sociétés, civilisations (Paris: Armand Colin, 1953), p. 407.

(10) Marc Bloch, «Testament spirituel, Clermont-Ferrand, 18 mars 1941,» *Annales d'histoire économique et sociale,* tome 1 (1945).

(11) Febvre, Ibid., p. 402.

الستالينية كانت معروفة، وتروتسكي من أشهر ضحاياها في العالم بأسره منذ عام 1927. رغم ذلك واصلت **الحوليّات** مدح الدولة الشمولية الستالينية، لأن المجلة كانت تتوقف فقط عند تقدم قوى الإنتاج ونمو الصناعات الثقيلة، وهي نظرة للواقع السوفياتي أقل ما يقال فيها إنها نظرة جزئية. كان جورج فريدمان يمجد الستاكانوفية (مبادرة العمال لزيادة الإنتاج) (Stakhanovisme): «هذه الهبة الحارة لتجربتهم ومعارفهم التي يبديها الستاكانوفيون» ويمتدح ستالين: «إن خطابات مولوتوف (Molotov) وستالين، من بين خطابات رجال السياسة، هي الأكثر غنى والأكثر صلابة»[12]. لقد تجاهلت **الحوليّات** ظاهرتي النازية والفاشية، وهو الأدهى. إن هذه الثغرة في الخطاب الحوليّاتي من طرف مجلة تريد أن تكون تقدمية، لها دلالة كبيرة وهي تعود إلى نفي السياسي. هذه الغيابات الناتجة عن الفرضيات الخاطئة لمدرسة **الحوليّات**، تأسف لها مارك بلوخ بمرارة ولكن بعد فوات الأوان، وذلك في كتابه الجميل الذي كتبه عام 1940 ونشر عام 1946، **الهزيمة العجيبة** (*L'Etrange défaite*): «لم نتجرأ على أن نكون في الساحة العامة، والصوت الصارخ، في الصحراء **أولاً**.. لقد فضّلنا الانكفاء إلى داخل الطمأنينة الخائفة في مراكز عملنا. لعل من هم أصغر منا سناً يغفرون لنا الدماء التي تلطخ أيدينا»[13]. ينبعث من عبارات مارك بلوخ نوع من النقد الذاتي لمواقف مجموعة **الحوليّات**: «كان لمعظمنا الحق في القول بأننا كنا عمالاً جيدين،

---

(12) ورد في: G. Freidmann, dans: *Annales d'histoire économique et sociale,* Alain Guerreau, *Le Féodalisme, un horizon théorique,* préface de Jacques Le Goff (Paris: Le Sycomore, 1980), p. 122.

(13) Bloch, *L'Etrange défaite*, p. 188.

فهل كنا حقاً مواطنين صالحين؟»[14]، فهو ينقد قدرية الخطاب الحولّياتي الذي يعطي الأولوية للقوى الجماهيرية وينفي دور الأفراد والالتزامات ويحوّل الوجهة بعيداً عن الفعل الفردي والجماعي على حد سواء: «إنه خطأ في تأويل التاريخ»[15]. يمكن القول بأن هذا النص في حد ذاته، نقد ذكي لنقائص وتعتيم الخطاب التاريخي **للحوليّات**. وهو نقد له قيمة أكبر بما أنه كتب من أحد أسياد هذه المدرسة بلا منازع في فترة مأسوية يطرق فيها التاريخ أبواب المختصين ولكنهم مروا إلى جانبه دون أن يروه.

إذا كانت الميول اليسارية مهيمنة داخل مجموعة **الحوليّات** في فترة ما بين الحربين، لا يعني ذلك أنه يجب أن نجعل منها نواة للمفكرين الماركسيين كما اعتقد البعض ذلك. حقيقة يمكن أن تترك توجهات المجلة مجال الاعتقاد في ذلك، مثل إعطاء قيمة لما هو اقتصادي واجتماعي وللمادية التاريخية والأولوية المعطاة للبنى التحتية. كثيرة هي المفاهيم القريبة من الماركسية ولكن كما رآها ستويانوفيتش، كانت الكتابة التاريخية الماركسية «في نفس الوقت منافسة **للحوليّات** ورائدة لنموذجها»[16]. كانت معرفة الماركسية محدودة حتى الثلاثينيات، وهي من غير شك معتمدة في الأحزاب العمالية كممارسة بصورة أساسية. بدأت تعرف بعض الانتشار في الأوساط الجامعية انطلاقاً من الثلاثينيات خاصة من خلال **حلقة روسيا الجديدة** (*Cercle de la Russie neuve*)، التي أنشئت عام 1932 بإشراف دانيال شالّونج (Daniel Challonge) وشارل بارّان (Charles

(14) المصدر نفسه، ص 189.

(15) المصدر نفسه.

(16) Traian Stoianovich, *French Historical Method: The Annales Paradigm,* with a Foreword by Fernand Braudel (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1976), p. 237.

(Parrain) وجان بابي (Jean Baby)، ومن بين من تعاون مع هذه المجموعة الحوليّاتي جورج فريدمان. كانت هذه الحلقة وراء إنجاز العديد من المحاضرات التي سمحت بنشر عدد من المجلدات في عامي 1937 و1938 حول إضافات المادية التاريخية: **على ضوء الماركسية**. نهلت مجموعة **الحوليّات** عدداً من التوجهات التي توجد في ماركسية منتشرة غير معروفة لدى ناشري الماركسية، وذلك من أجل الصمود أمام فاعلية المادية التاريخية التي تقدم نفسها على أنها تاريخ شمولي. توشك **الحوليّات** في رغبتها التوسعية على الانخراط ببساطة في الماركسية. عندئذ وضعت المجموعة أسس خطاب خاص بها وهو بمثابة الحاجز وآلة الحرب في نفس الوقت. وكانت ملخصات الكتب الماركسية التي كتبها لوسيان فيفر في **الحوليّات** تندد «بخطة الأدراج» والدراسات التي تعطي الأولوية للحركات الشعبية والزعماء الثوريين. كان لوسيان فيفر يرى في الخطاب الماركسي تصوراً إرادياً ووقائعياً مثله مثل التاريخ التقليدي وشكلاً من أشكال النزعة الروحية الاقتصادية. يكشف التلخيص الذي قام به لوسيان فيفر لكتاب دانيال غيران (Daniel Guérin) حول الثورة الفرنسية مآخذه على الماركسية بنوع خاص: إنه تاريخ الطيبين وتاريخ الشريرين، إنه تقديم للمحاكمة. وتحت عنوان «كتاب متحمس عن الثورة»، يندد «بهذا التواطؤ بين ميشليه وماركس، إنه انتهاك للمحارم»، ثم يعيد «إن المؤرخ ليس قاضياً»[17]. عندما صدرت ترجمة كتاب **حروب الفلاحين** لإنجلز (Engels) عام 1930 نفى لوسيان فيفر عن هذا الكتاب أي مستوى تاريخي. وكتب تحت عنوان «كتاب تجاوزه

---

(17) L. Febvre, dans: *Annales, économies, sociétés, civilisations*, tome 3, no. 2 (1948), pp. 167-170,

أُعيد نشره في: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 109-113.

الزمن»: «لمعرفة إنجلز، نعم. لمعرفة حروب الفلاحين إنه مزحة»[18]. رغم أن ماركس وإنجلز بعيدان عن الخزي الحالي وهما موضع إعجاب غير خفي: «لدي شخصياً إعجاب كبير بماركس... ولكن هل معنى ذلك أن دروسه ستظل قالباً لكل المعتقدات؟[19] من جهة أخرى يتقبل المؤرخون الماركسيون الشبان مثل بيار فيلار (Pierre Vilar) وجان بروها (Jean Bruhat) بكثير من التعاطف هذه المجلة الجديدة والتي تبدو قريبة من اهتماماتهم. في عام 1934، وعلى أعمدة مجلة كاثوليكية *Foi et vie*، نوّه لوسيان فيفر بمزايا ماركس: «من الذي طرح لأول مرة المشكل الشائك والكبير للعلاقات بين الرأسمالية والإصلاح؟ بدون تردد نجيب: إنه كارل ماركس»[20]. ورغم ذلك فهو ينقد الطابع التنبؤي لأطروحة ماركس ورغبته في البرهنة على الحقيقة مهما كان الثمن والنظر إلى المادة التاريخية كحجة فقط من أجل تدعيم برهنته التي ترى أن الإصلاح قد نتج عن الرأسمالية. يستعيض لوسيان فيفر عن هذه المقاربة السببية بمفهوم التأثير المتبادل بين الظواهر. لكن ما هو مشترك بين مارك بلوخ ولوسيان فيفر والفكر الماركسي هو الرغبة الكليانية والشمولية للإحاطة بالواقع. لا نستغرب من هذا المنظور، ما كتبه لوسيان فيفر: «قد أقول بطيبة خاطر اقرأوا ماركس.. اقرأوا لينين أيضاً، وكل

---

(18) L. Febvre, dans: *Annales d'histoire économique et sociale* (1930), pp. 437-438,

أُعيد نشره في: Lucien Febvre, *Pour une histoire à part entière*, bibliothèque générale de l'école des hautes études en sciences sociales (Paris: Editions de l'école des hautes études en sciences sociales, 1982), pp. 454-455.

(19) Bloch, *L'Etrange défaite*.

(20) L. Febvre, dans: *Foi et vie*, vol. 5 (1934), pp. 119-138,

أُعيد نشره في: Febvre, *Pour une histoire à part entière*, pp. 350-366.

أولئك الذين واصلوا مجهود ماركس حول بعض النقاط الأساسية»[21].

مع وجود الخطاب ذي النزعة التاريخية إلى يمينها والخطاب الماركسي إلى يسارها تعرض جماعة **الحوليّات** طريقة ثالثة، تحتل موقعاً مركزياً وهو موقع مثالي لاستراتيجية السلطة. ولم يبق لها إلا بناء نموذج مبتكر وعلم خاص يضفي الشرعية على رغبتها في الهيمنة. من هذه الوجهة كان الخطاب الحوليّاتي خطاباً يمثل قطيعة مع التاريخ التقليدي، يبدع ويبني لكونه كذلك ثورة في الكتابة التاريخية. من إبداعات **الحوليّات** الأساسية في تلك الفترة كان القطع مع التصور الماضوي الصرف في الخطاب التاريخي، والربط بين الماضي والحاضر من خلال بناء تاريخ يكون مجال بحثه ليس الماضي فقط ولكن المجتمع المعاصر أيضاً. في حين كانت المدرسة ذات النزعة التاريخية تعتبر الممارسة التاريخية في مسيرتها العلموية كما لو أنها منقطعة عن الحاضر، دعا لوسيان فيفر المؤرخ إلى استيحاء القضايا التي يطرحها الزمن الحاضر الذي فيه يعيش ويفكر ويكتب. إن مساءلة الماضي من خلال الحاضر لها بالنسبة إلى **الحوليّات** قيمة استكشافية. إن التاريخ هو «جواب عن الأسئلة التي يطرحها إنسان اليوم حتمياً على نفسه»[22]. فالحاضر يساعد على البحث عن الماضي ويسمح بإعطاء قيمة لتاريخ - مشكل ويثري معرفة الماضي. انطلاقاً من هذه القيمة الاستكشافية للحاضر، دافعت **الحوليّات** عن تصور ذي نزعة نسبية للخطاب التاريخي، لأن التاريخ المنغمس في عصره وغارق في مشاكل الحاضر، ما يترتب عنه بناء

---

(21) L. Febvre, dans: *Annales* (1935), pp. 615-623,

أُعيد نشره في: Febvre, *Pour une histoire à part entière*, pp. 665-678.

(22) Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 42.

الزمن التاريخي والإيضاحات والتقسيمات التي كانت حدودها هي نفسها التي سمحت بالبحوث. يعني ذلك إذاً بناء يجب تعيينه كل مرة في الزمان والمكان اللذين ذكر فيهما. إن كل فترة تبني تصورها للماضي بحسب اهتماماتها. فالتاريخ «يبحث عن الأحداث والوقائع ويعطيها قيمة في الماضي وعن التوجهات التي تهيئ الزمن الحاضر. . . وتسمح بفهمه وتساعد على أن يعاش. . . فالتاريخ يصنع الماضي الذي يحتاجه»[23]. فإذا كان على المؤرخ حينئذ أن يعيد كتابة التاريخ حسب تساؤلات الحاضر، فهذا ليس مناقضاً بالنسبة إلى **الحوليّات** للخصائص العلمية التي يجب أن يتحلى بها المشروع التاريخي. وإذا كان الحاضر يساهم في فهم أفضل للماضي فالعلاقة ماضي-حاضر تعمل في الاتجاه المعاكس. إن جهل الماضي لا يسمح بفهم أفضل للحاضر وبالتالي التأثير فيه بفاعلية. يرفض مارك بلوخ التعريف الذي يقلص التاريخ في دور علم للماضي: «إن ذلك في نظري سوء تعبير»[24]. إن القيمة الاستكشافية للحاضر في معرفة الماضي، قد ذهب بها مارك بلوخ بعيداً، فهو يتصور مقاربة تكرارية لدى المؤرخ أي مقاربة ارتدادية. ينطلق المؤرخ من الحاضر ليصل عبر الزمن إلى مجتمعات الماضي. وهو يقترح قراءة عكسية «لأن المقاربة الطبيعية لأي بحث يجب أن تنطلق من المعلوم علماً أفضل أو على الأقل، من المعلوم علماً أقل سوءاً، إلى الأشد غموضاً»[25]. وهو يطبق على بحوثه هذه المقاربة التكرارية، فعندما يقابل أرياف

---

(23) المصدر نفسه، ص 117.

(24) Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, U prisme; 34, préface de Georges Duby, 7ème éd. (Paris: A. Colin, 1974), p. 32.

(25) المصدر نفسه، ص 48-49.

شمال فرنسا بأرياف إنجلترا[26]، يبدأ بملاحظة التناقض بين حقول الحراثة المتطاولة بلا نهاية في منطقة بيكاردي (Picardie) وأراضي المراعي الإنجليزية المجزّأة والمقسمة بأسيجة أو بحواجز. فانطلاقاً من هذا الواقع الملموس يسائل الماضي لتفسير هذه الثنائية في مناطق قريبة من بعضها في الواقع. انطلق مارك بلوخ، باهتمامه في بحوثه بالأنظمة الزراعية، من المشاهد المعاصرة ليصل إلى الفترة الوسيطة. إذاً فالماضي بالنسبة **للحوليّات** منصهر في الحاضر حتى إن مارك بلوخ يعارض مهنة جامع التحف القديمة المغلقة على عبادة الماضي بمهنة المؤرخ الذي له شغف النظر من حوله[27]. إن الأهمية التي أعطيت للحاضر جلية في مجلة **الحوليّات** التي كانت في هذه الفترة الأولى متجهة أساساً نحو دراسة المجتمع المعاصر. يفرق هذا التوجه بصفة جذرية بين **الحوليّات** وبقية المجلات الأخرى وخاصة **المجلة التاريخية**، إذ يبرز التحقيق الذي قام به أ. كوربان (Corbin) حول **المجلة التاريخية** بين عامي 1929 و1939 أهمية الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر: 33,8 في المئة من المقالات في حين لا تحتل الفترة المعاصرة التي تبدأ عام 1789 إلا ربع المقالات: 26,6 في المئة. ويظهر التحقيق الذي قام به أوليفييه دومولان (Olivier Dumoulin) حول مجلة **الحوليّات**[28] أنه في نفس الفترة تمثل المقالات الخاصة بالتاريخ المعاصر 42,4 في المئة من مجموع المقالات المنشورة بالمجلة. ولو أخذنا كمقياس تاريخاً أكثر معاصرة

---

(26) Marc Bloch, *Seigneurie française et manoir anglais*, préf. de Georges Duby, cahiers des «Annales»; 16 (Paris: A. Colin, 1967) (cours à la Sorbonne, 1936).

(27) Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, p. 48.

(28) Olivier Dumoulin, Communication, Séminaire de l'EHESS, 1980.

يبدأ عام 1871، تعطي المقارنة في الفترة نفسها 1929-1938 النتائج التالية: 36 في المئة من مقالات **الحوليّات**، 8 في المئة من مقالات **مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** و7,5 في المئة من **المجلة التاريخية**. إن الاهتمام بالمشاكل المعاصرة حاضر بقوة في مجلة **الحوليّات** كما تبيّنه عناوين فترة 1929-1939: «مشاكل السكن في الاتحاد السوفياتي» (1929)، «الأزمة المصرفية في ألمانيا» (1932)، «الأزمة المصرفية في أوروبا الوسطى» (1932)، أسباب الأزمة العالمية للقمح وجذورها (1933) «الاستياء في الأوساط الفلاحية بغرب الولايات المتحدة» (1936)، «تجربة روزفلت» (L'Expérience Roosevelt) (1936)، «الأزمة المصرفية والأزمة الكبرى في الولايات المتحدة» (1936)، «التعاضد الفلاحي في الاتحاد السوفياتي» (1938). تكشف لنا هذه العناوين بنفس الدرجة حضور المسائل اليومية وغياب المواضيع السياسية والاهتمام بالقضايا العالمية في خطاب **الحوليّات**. إن إضاءة المؤرخ يمكن أن يستخدمها عالم الاقتصاد، عندها يستطيع المؤرخ أن يعطي نفسه دور المستشار للإداري الاقتصادي. إن استخدام صيغ المستقبل وصيغ الشرط في مقالات المجلة يكشف لنا عن هذه الرغبة في تقديم علم عملي وصالح للمسؤولين عن المجتمع: «لو عرفنا التاريخ الاقتصادي بصورة أفضل لاستطعنا بسرعة فهم الوضع الاقتصادي والوضع المعاصر بوضوح أكثر»[29]. ومافتئت رابطة ماضي-حاضر تتأكد باستمرار، من قبل مديرَي المجلة، فقد جعلا من هذه الرابطة معنى المقاربة التاريخية ذاته: «لماذا الحديث عن الماضي والحاضر؟ فالواقع واحد. أن يضع الناس إصبعهم على هذه الوحدة سيظل ذلك اليوم كما بالأمس، هدف **الحوليّات**»[30]. «بين الماضي

(29) Les Directeurs, «Au bout d'un an,» *Annales* (1930), p. 2.

(30) المصدر نفسه، ص 3.

والحاضر ليس هناك عازل تلك هي أنشودة **الحوليّات**»[31] أكثر من ذلك، فإن مديرَي المجلة يدعوان إلى رابطة عضوية بين الماضي والحاضر حتى إنهما يلتزمان منطق إداري للنظام الرأسمالي. وهما يعتزمان ملاءمة مقاربتهما للمرحلة التقنية التي يأملان أن يلعبا فيها دوراً مفيداً. بهذه الروحية أحاطا نفسيهما بمسؤولين سواء في الميدان الإداري أو في ميدان الأعمال. وقد جذبت المجلة مختصّين كان دورهم الأساسي أن يؤثروا في الاقتصادي والاجتماعي، فقد دعتهم للتفكير في الممارسات الاقتصادية والاجتماعية ومتابعة تواصل كبير إلى حد ما، عند الاتصال بالمؤرخين، للأدوات التي يستعملونها يومياً: «هناك طبقتان من العمال خلقتا لتتفاهما ولكنهما تتجاوران دون أن تعرف الواحدة منهما الأخرى»[32]. وقد كتب مسؤولو البنوك والمالية في **الحوليّات** وبذلك دعموا التوجه التكنوقراطي للمجلة. أدت مساهمتهم في الخطاب الحوليّاتي إلى التقليل من شأن التحليل الذي بموجبه تكاد تكون تعبيراً عن خطاب ماركسي.

تستجيب **الحوليّات** إلى حاجة سلطة لم تعد تستطيع أن تكتفي في فترة ما بعد الحرب بشرعية برلمانية، فهي في حاجة إلى فنيين ومختصين لتركيز سياسة متصلة بالواقع تركيزاً أكثر ثباتاً وعلمية: «لقد خلفت قوانين الإحصاء روح القوانين»[33]. وللاستجابة إلى هذا المطلب الاجتماعي، بديهي أن تكون العلوم الاجتماعية الناشئة في موقع أفضل من التاريخ، وهو التحدي الذي ردت عليه **الحوليّات**، بمحاولة إعادة العلاقات بين اهتمامات المؤرخين واهتمامات

---

(31) L. Febvre, dans: *Annales* (1932), p. 281.

(32) Les Directeurs, dans: *Annales*, tome 1 (1929), pp. 1-2.

(33) Marc Ferro, *L'Histoire sous surveillance: Science et conscience de l'histoire,* intelligence de l'histoire (Paris: Calmann-Lévy, 1985), p. Q125.

الإداريين. وقد تمت دعوة رئيس الإدارة العامة للبنك العالمي السويسري بزيوريخ (Zurich): غ. باكمان (G. Backman)، ومدير البنك العالمي للتجارة والصناعة: أ. بوز (A. Pose) ومدير بنك بلدان أوروبا الوسطى ج. شابيّ (J. Chappey)، فقد ألهم النموذج الأمريكي **الحوليّات** كثيراً: هل سنرى جالساً في يوم من الأيام في مكاتب البحث المختص بأهم مؤسساتنا رئيس مصلحة الإحصاء إلى جانب مؤرخ مختص؟»[34] كان المشاركون في المجلة منتدبين من المنظمات الدولية لعصبة الأمم (SDN) خاصة بنك BIT الذي كان يديره آنذاك ألبير توماس (Albert Thomas). ينتمي هذا الأخير إلى نفس الدفعة التي تخرجت من دار المعلمين (عام 1899) التي ينتمي إليها لوسيان فيفر. وباعتبارهما صديقين قديمين، توجه لوسيان فيفر مباشرة إلى ألبير توماس عندما أصدر مجلة **الحوليّات**: «كتب لي: أوقف كل النشاطات وتعال إلى جنيف... سأعينك بكل قواي»[35]. عندما تم عرض مشروع إنشاء المجلة على الناشر، عرض مارك بلوخ علاقاته مع أوساط الأعمال ومن بينهم ريمون بلوخ المدير المساعد لاستثمار السكك الحديدية في أورليان (Orléans). وكان يرغب أيضاً في إشراك إداريين من المستعمرات.

لقد اتبعت **الحوليّات** انفتاحاً مبتكراً شمل أهم الشخصيات الإدارية. وسيدفعهم هذا التلاقي مع التكنوقراطية الصاعدة إلى تفضيل آليات العمل بغض النظر عن طبيعة الأنظمة، فكانت مقالات جورج فريدمان عن الستاكانوفية أو الأخبار المعبرة عن الإعجاب بالاتحاد

---

(34) M. Bloch, dans: *Annales* (1931), pp. 1-3.

(35) L. Febvre, dans: *Annales d'histoire économique et sociale*, tome 4, no. 16 (1932), pp. 381-384,

أُعيد نشره في: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 348-352.

السوفياتي التي يكتبها جيرار ميكيه (Gérard Méquet) بانتظام، كلها أدلة على القراءة الاقتصادوية للمجتمع. ولكن هذا المحور سيضعف في آخر الثلاثينيات. لم يكف لوسيان فيفر في عام 1938 عن الترداد على مسامع مارك بلوخ كما لو أنه يلومه: «إن عدد الوسيطيين كبير وكذلك عدد الجامعيين»[36].

مجدّدون

جددت **الحوليّات** إذاً الخطاب التاريخي بصورة جذرية. في المقام الأول، وكما يوحي بذلك عنوانها، تعطي المجلة الأولوية للظواهر الاقتصادية والاجتماعية التي ظلت مهملة إلى ذلك الوقت، فقد أظهر التحقيق الذي قام به جان لوي أوسترهوف التناقض الجوهري في هذا الميدان بين مجلة **الحوليّات** التي خصصت في الفترة 1929 ـ 1945 نسبة 84 في المئة من المقالات للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي مقابل 21,9 في المئة بالنسبة إلى **المجلة التاريخية** و26,5 بالنسبة إلى **مجلة التاريخ الحديث والمعاصر**، إذاً استفادت دراسات الاقتصاد والمجتمع من التخلي عن التاريخ السياسي. يندرج هذا التطور في مناخ ملائم، وقد رأينا ذلك. استفادت **الحوليّات** من إضافات سبّاقين في هذا الميدان هما: هنري هاوزر وفرانسوا سيميان. حصل هنري هاوزر عام 1927 على مكتسب وهو إنشاء أول كرسي للتاريخ الاقتصادي بكلية الآداب في السوربون. وأدى إذاً دوراً ريادياً في مأسسة التاريخ الاقتصادي داخل جامعات الآداب التي استفاد منها مارك بلوخ بعد أن خلفه على

---

(36) ورد في: Lucien Febvre, lettre à M. Bloch, avril 1938, Olivier Dumoulin, «Profession historien: 1919-1939,» (Thèse de 3ème cycle, EHESS, Paris, 1984), p. 326.

رئاستها عام 1936. كان تدريس الاقتصاد أمراً جديداً من ناحية، وموجوداً لدى القانونيين في كلية الحقوق حيث تم عام 1878 إدخال علوم اقتصادية واجتماعية. ونتج عن ذلك نوع من العزلة للاقتصاد، بفصله عن علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعي والجغرافيا البشرية. كان هنري هاوزر، وهو العضو في **مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** وفي هيئة تحرير **الحوليّات** أيضاً، يرتاب من المؤشرات الإحصائية التي يعتمدها فرانسوا سيميان. وظل بهذا المنحى «آخر ممسك بتاريخ اقتصادي قبل-الجداولي»[37]. إن الملهم الحقيقي في مجال التاريخ الاقتصادي لم يكن مؤرخاً، بل بالعكس كان هو ذاك الذي شن حملة ضارية ضد التاريخ وهو عالم الاجتماع الدوركايمي فرانسوا سيميان. وهو الرائد الحقيقي لتاريخ اقتصادي مبني على جهاز إحصائي يسمح بالإحاطة بالدورات المنتظمة في حركات شاملة تجر وراءها المجتمع بأسره. وقد سمح بمد جسر بين الدراسات المالية والدراسات الاجتماعية في مستويات الحياة، ولكن أيضاً مع ما يسميه بنفسه علم النفس الجماعي، المتميّز حسب الفئات الاجتماعية. لقد دعا لوسيان فيفر المؤرخين، منذ عام 1930، إلى تجاوز كبريائهم التي جرحت عام 1903، وإلى قراءة فرانسوا سيميان: «على المؤرخين أن يتخذوا كتاب درس الاقتصاد السياسي لفرانسوا سيميان ككتاب مطالعة أساسي»[38]. مع ذلك لا يعتبر لوسيان فيفر أنه يجب تطبيق منهج فرانسوا سيميان على حاله تلك في مجال التاريخ، ولكن يجب اعتماده كمصدر استيحاء وكمحاولة تجريبية. والثورة الحقيقية في كتابة التاريخ من هذه

(37) Olivier Dumoulin, dans: André Burguière, dirs., *Dictionnaire des sciences historiques* (Paris: Presses universitaires de France, 1986), p. 327.

(38) L. Febvre, dans: *Annales d'histoire économique et sociale* (1930), pp. 581-590.

الناحية والتي كانت في خط إضافات فرانسوا سيميان ولكن بملاءمتها للتاريخ، جاءت من المؤرخ إرنست لابروس[39] (Ernest Labrousse).

ومن علامات صعوبة التاريخ الاقتصادي في جامعات الآداب كانت مسيرة إرنست لابروس. كان طالباً في قسم التاريخ بالسوربون حيث تتلمذ على أولار (Aulard)، حيث قام بتحضير شهادة الدراسات المتخصصة في التاريخ الثوري عام 1913 بموضوع: «هيئة بحوث كومونة باريس». ونظراً لاهتمامه بالاقتصاد السياسي، تسجّل في كلية الحقوق عام 1919، فدرس الحقوق وحصل على إجازته. أعدّ فيما بعد بحثاً لنيل الدكتوراه حول تشريع المساعدة الاجتماعية من عام 1789 إلى السنة الثالثة للثورة، لكنه عاد إلى توجيه عمله عام 1926 إلى البحث التاريخي الصرف - ونشر أطروحته عام 1932: **لمحة عن تطور الأسعار والمداخيل في فرنسا خلال القرن الثامن عشر.** كان هذا التحول من تأثيرات أعمال فرانسوا سيميان وألبير أفتاليون (Albert Aftalion) والذي أصبح مساعداً له بكلية الحقوق. يجب أن ننتظر عام 1943 **وأزمة الاقتصاد الفرنسي** لنرى تكريس إرنست لابروس كدكتور دولة في الآداب ويصبح محاضراً عام 1945 ثم أستاذاً في السوربون. إن هذه المسيرة النضالية تعبّر بوضوح عن الصعوبة في تناول تاريخ اقتصادي بصورة علمية في ذلك الوقت.

كان إرنست لابروس قارئاً متحمساً **للحوليّات** منذ البداية ورغم ذلك بقي على هامش تاريخ المجلة، فلم ينشر فيها مقالاً قبل عام

---

(39) C. E. Labrousse: *Esquisse du mouvement des prix et des revenue en France au XVIIIème siècle*, collection scientifique d'économie politique; 3, 2 vols, préface de Henri Sée et de Roger Picard (Paris: Dalloz, 1933), et *Crise de l'économie française à la fin de l'ancien régime et au début de la révolution* (Paris: Presses universitaires de France, 1944).

1945. ولكنه كان مديناً بتسميته مدير أبحاث في القسم الرابع من المعهد التطبيقي للدراسات العليا عام 1938 لمارك بلوخ الذي ساند ترشيحه. ومنذ ذلك التاريخ أصبح يعتبر واحداً من كبار المبشرين بالتاريخ الجديد. لقد نجح في إدراج الأمد الطويل ودراسة البنى في تطورها ودراسة الأحداث، في إطار واحد، حيث كان هدفه تفسير الثورة الفرنسية عام 1789. وبفضل بحثه حول الأسعار والمداخيل بيّن بوضوح تقدم طبقة البورجوازية في إطار ازدهار القرن الثامن عشر، وهي طبقة صاعدة ومرشحة للسلطة. ولكنه لم يتجنب الدراسة الظرفية لحالات الغليان وأزمات الغذاء التي تبدو أنها أساسية في التحركات الاجتماعية. بربطه الاستيلاء على سجن الباستيل في منتصف تموز/يوليو وارتفاع سعر الخبز إلى أقصى حد، تجاوز الرواية السردية التقليدية للأحداث التي ميزت المدرسة المنهجية ولكن دون التخلي عن أخذ الأحداث بعين الاعتبار. وإذا لم يكن إرنست لابروس يحتل موقعاً مركزياً في جهاز **الحوليّات** فذلك لأنه يضع ما هو سياسي كأفق لمقاربته الاقتصادية ويفضل دراسة التناقضات بين الطبقات في حين أن **الحوليّات** مع اعتمادها للجانب الاجتماعي كموضوع للبحث، كانت تطمح إلى مجتمع توافقي: «إن تاريخي ينظر بالدرجة الأولى إلى ما هو اجتماعي - اقتصادي واجتماعي - سياسي»[40]. لم يبتعد إرنست لابروس كثيراً عن التاريخ التقليدي في نظر مارك بلوخ ولوسيان فيفر لأنه لم يقطع العلاقة بما هو وقائعي. ولقد بقي ملتزماً بشكل جوهري بفكر **الحوليّات**. وبعد أن أسس عام 1910 في باربزيو (Barbezieux) «نادي اليعاقبة» وهو حركة مستقلة للشباب الاشتراكي وإصداره جريدة

---

(40) E. Labrousse, «Entretien,» *Actes de la recherche en sciences sociales* (avril 1980), p. 115.

L'Avenir، شكّل عام 1911 مجموعة الدراسات الاجتماعية بباربزيو وكان برنامجها يتمثل في «التحرر الكامل للبروليتاريا» و«القضاء على البؤس» و«الجمهورية الاشتراكية والعالمية»(41). وأثناء الحرب، عام 1916، انخرط في الحزب الاشتراكي.

أصبح عام 1919 محرراً في جريدة *L'Humanité* ثم جريدة *Populaire* وأخيراً *L'Internationale* ولكن بلشفة الفرع الفرنسي للدولية العمالية طردته من جريدة **لومانيتيه** عام 1924 واستقال هو من الحزب عام 1925. وعلى عكس الكثيرين، مثل لوسيان فيفر، ممن عرفوا حركة انحراف نحو قبول السلطات القائمة ونحو التخلي عن الالتزام، عاد إرنست لابروس إلى الحزب الاشتراكي عام 1938 وأدار **المجلة الاشتراكية** (*La Revue socialiste*) منذ تأسيسها عام 1946 إلى أن استقال سنة 1954 بسبب عدم انخراط الفرع الفرنسي للدولية العمالية في الدفاع الأوروبي (CED). فقد ظل بإعطائه قيمة للتناقضات الاجتماعية، قريباً من الكتابة التاريخية الماركسية التي لم ينخرط فيها، مما أدّى إلى تهميشه. «في هذا التاريخ الاجتماعي ـ الثقافي أليس على تاريخ الوعي الطبقي أيضاً أن يبدو في موقع هام؟... إن من أكبر مهام دراسة الذهنيات الجماعية هي الدراسة الاجتماعية المقارنة للوعي في مختلف هذه الطبقات، ومسيراتها المتعددة الأشكال، ودرجة انتشارها على مستوى الطبقة»(42).

ورغم ذلك قدّرته مجموعة **الحوليّات** تقديراً عالياً وكأنه تم تحنيطه وهو على قيد الحياة من قبل مدرسة تعتبره المؤسس لتاريخ

---

(41) المصدر نفسه، ص 115.

(42) المصدر نفسه، ص 114.

اقتصادي مبني على الإحصائيات وعلى التكميم (من كمية) وعلى دراسة الدورات الطويلة والقصيرة المدى. ساهمت **الحوليّات** في تطوير هذا التاريخ الاقتصادي ليس من أجل إضافة عربة جديدة لقطار التاريخ، ولكن من أجل دمج عناصر تفسير هامة لدراسة مجتمعات الماضي والحاضر لأن المقاربة الاقتصادية تنصهر في مقاربة أوسع من المقاربة التاريخية الصرفة كما تنصهر في مجهود عقلنة النظام الاجتماعي.

عندما ترشح مارك بلوخ إلى كوليج دو فرانس (Collège de France)، بدأ بإعلان انتمائه إلى التاريخ المقارني (Histoire comparatiste)، في المرة الأولى ولكن في المرة الثانية، عام 1934 عدل من برنامجه التعليمي في اتجاه الاقتصاد. أراد مارك بلوخ أن يُنظر إليه كمؤرخ للاقتصاد عندما كتب في برنامجه: «إلى جانب الأفكار والعواطف هناك الحاجات... يمكن من خلال القاعدة الاقتصادية المدروسة حسب مناهج مطابقة تمام المطابقة لطبيعتها الخاصة، إثراء تفسير الحياة الاجتماعية في مجملها بصورة معمقة»[43]. بعد فشله في ترشيحه للكوليج دو فرانس، خلف هنري هاوزر عام 1936 في السوربون حيث تولى أول كرسي للتاريخ الاقتصادي في كلية الآداب. ومنذ وصوله إلى باريس، أسس مع موريس هالبواكس معهداً للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي في السوربون. وهكذا أصبح تاريخ الأسعار من الاهتمامات المميزة للمجلة. وقد أثنى لوسيان فيفر على أعمال إيرل هاملتون (Earl Hamilton) حول تدفق المعادن الثمينة من أمريكا وتأثير ذلك على

(43) M. Bloch, «Projet d'enseignement pour la collège de France,» 1934, ورد في: Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, p. 11.

الأسعار. إنها بداية تاريخ يعتمد الجداول ولكنه مندمج في كل اجتماعي شامل: ارتفاع الأسعار المبكر «هل يعزى فقط و بصورة مباشرة إلى تدفق المعادن من أمريكا؟ قطعاً لا. . . هناك أسباب عامة. . .»[44] لم يكن الحديث عن اعتماد الجداول موجود ولكن **الحوليّات** أخذت لحسابها ما سماه فرانسوا سيميان «التشريح المتواصل للظواهر»، أي الملاحظة المتواصلة لظاهرة ما عبر الزمن من وجهة نظر تاريخية. عندها يستطيع المؤرخ أن ينسب لنفسه مجال الإحصائيات. وإذا كانت المجلة هي المعبّر الرئيسي لهذا المفهوم، فقد فهم مديرا **الحوليّات** بسرعة أنه لا يمكن أن يقع انقلاب في الكتابة التاريخية لا رجعة عنه بدون تغيير جذري في المقاييس المطلوبة في مباراة الدخول إلى الجامعة لمادة التاريخ، فالقفل الذي يجب تغييره هو في شهادة التبريز (Agrégation) في التاريخ. وفي عام 1935 أيضاً احتجت رئيسة التبريز النسائية في التاريخ على اللامبالاة التي تبديها المترشحات في موضوع السيرة وميلهن إلى «موضة» تاريخ الفئات الاجتماعية[45]. مع عام 1932، نشرت رسالة مفتوحة في **نشرة جمعية أساتذة التاريخ والجغرافيا** حول مواضيع امتحانات التبريز، شككت في نتائج مباراة الدخول وبالتالي في معايير الانتقاء التي هي معايير المدرسة التاريخانية. هذه الرسالة موقعة من لوسيان فيفر ومارك بلوخ وجورج لوفيفر وشارل إدمون بيرّان وأستاذين في الجغرافيا هما ألبير دومانجون وشولّيّ (Cholley)، أي أربعة من

---

(44) L. Febvre, «Le Problème historique des prix,» *Annales* (1930), pp. 67-80,

أُعيد نشره في: Febvre, *Pour une histoire à part entière*, p. 304.

(45) *Bulletin de l'association des professeurs d'histoire et de géographie* (1935), p. 130.

ستراسبورغ وجميعهم من المتعاونين مع **الحوليّات**[46]. وقد أعاد مديرا المجلة طرح مسألة التبريز مرتين. عام 1934 أشار لوسيان فيفر إلى ضرورة الاسراع في إعادة النظر بقواعد وأساليب وروحية مباراة الدخول لشهادة التبريز، وقد تكلم عن الموضوع كما لو أنه موضوع مقلق جداً. وقد جرى عام 1937 نشر نص نقدي تمت كتابته بصورة مشتركة ولكن **الحوليّات** لم تنجح في ثني المؤسسة الجامعية الرافضة لتطبيق برامج المجلة. وما من صوت مؤثر تبنّى اقتراحات مارك بلوخ ولوسيان فيفر مما يقدم تبايناً واضحاً مع الطريقة التي استطاعت بها المدرسة المنهجية الاندماج في المؤسسة التعليمية والجامعية واستحوذت عليها. ولكن الأطر أصبحت الآن ثابتة منذ نهاية القرن التاسع عشر ولمدى بعيد كما أن فترة أزمة الثلاثينيات ليست مهيأة لتغييرات كبيرة. حولت **الحوليّات** نقطة الضعف هذه إلى قوة محركة، فعملت من خلال هذا الفشل على تغذية فكرة التهميش والنبذ من الجامعة، وهي أطروحة محدودة المصداقية ولكنها تسمح بسهولة أكثر بضم العلوم الاجتماعية حول المؤرخين دون الخوف من أن تبتلع وتوجه من قبل جارٍ قوي.

يفترض هذا الانزلاق من السياسي نحو الاقتصادي توسيعاً لمجال المصادر وتغييراً جذرياً في مهنة المؤرخ ذاتها والتي لا يمكن أن تقنع بالمصادر المكتوبة لبلوغ الأسس العميقة للمجتمع. وكان مارك بلوخ أول من كتب تاريخاً زراعياً متجاوزاً الأطر القانونية التي تحيط بالملكيات. ولم يكتف بفلاحة السجلات الكنسية على طريقة هنري سيه (Henri Sée)، ولكنه دمج تحولات المشهد الريفي ضمن

(46) Olivier Dumoulin, dans: «Les Annales d'histoire économique et sociale et l'enseignement de l'histoire,» *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, no. hors série «100 ans d'enseignement d'histoire» (1984), p. 24.

دراسته التاريخية، مميزاً بين أشكال الضيع المشتتة في شكل سيور والضيع المكونة من مربعات كبيرة ومكثفة، كما أقحم فيها دراسة السكان والديموغرافيا وأدوات العمل وتركيبة التربة وتغيرات الإنتاج والإشارات المتعلقة بحركة العملة والعلاقات العائلية.. وكل الإضافات التي جاءت بها المدرسة الجغرافية والاقتصاد دخلت في مجموعة المصادر الجديدة التي يعتمدها المؤرخ. وفي فترة ما بين الحربين كان كل عدد من مجلة **الحوليّات** يحتوي قسماً مخصصاً للتحقيقات هدفه كسب التعاطف مع التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ومع أدوات المؤرخ الجديدة وهي وثائق عفوية تختلف عن الأرشيف التقليدي. ولكن يجب ألا يؤدي هذا التوسيع في اهتمامات المؤرخ في هذه المرحلة إلى إحداث تهميش للإنسان لفائدة أي نوع من أنواع الحتميات التقنية أو الجغرافية. وبذلك يبيّن مارك بلوخ في نفس الوقت، أهمية التجديد التقني وتبعيته بالنسبة إلى المطلب الاجتماعي. وبأي شكل من الأشكال يجب أن لا يؤدي دمج الإضافات التي جاءت بها العلوم الاجتماعية إلى تشظي التاريخ. هناك جانب تجديدي آخر جاءت به هذه المدرسة الحوليّاتية يكمن في إعطاء قيمة للتاريخ-المشكل. إن المؤرخ بالنسبة إلى مارك بلوخ ولوسيان فيفر لا يستطيع أن يكتفي بالكتابة تحت إملاء الوثائق، عليه أن يسائلها ويضعها ضمن إشكالية. إنهما يقترحان ضد التاريخ ـ الرواية الذي ينادي به لانغلوا وسينيوبوس تاريخاً ـ مشكلاً، يكون أرضية نظرية لمفهومية تاريخ بنيوي مستقبلي. لم يعد التقسيم التاريخي يتمفصل إذاً وفق حقبات كلاسيكية ولكن وفق مشكلات يتم إبرازها والبحث عن حلول لها. إن التأكيد على تاريخ-مشكل هو عنصر أساسي في نموذج **الحوليّات** منذ 1929، ففي يومنا الحاضر، ورداً على سؤال برنار بيفو (Bernard Pivot) في برنامجه التلفزيوني **أبوستروف** (*Apostrophes*) حول تعريف التاريخ الجديد في كلمة، أجاب جاك

لوغوف: «التاريخ الجديد هو التاريخ - المشكل». مع ذلك، هل اكتشفت مدرسة **الحوليّات** فعلاً أن الرواية تنظم من خلال إطار مفاهيمي معد مسبقاً؟ قطعاً، لا. لأنه سبقها الكثيرون. لماذا إذاً تتواصل راية التاريخ - المشكل فاعلة وتوحد المجموعة؟ «بداية لفائدتها الاستراتيجية: إنها تسمح لهم أن يؤكدوا بأنهم يصنعون تاريخاً جديداً»[47]. عندما دخل لوسيان فيفر كوليج دو فرانس، أكد بصورة أساسية في درسه الافتتاحي يوم 13 كانون الأول/ ديسمبر 1933 على نظرة المؤرخ الجديدة والتي تقطع مع السلبية التي تدعوه إليها المدرسة التاريخانية: «إثبات فعل هو بناء»، «كل تاريخ هو اختيار»[48]. وكتعبير عن هذه المقاربة، إن لم تكن جديدة، فهي في كل الحالات في قطيعة مع التاريخ - الرواية الذي يمارسه مؤرخو تلك الفترة، هي أطروحة لوسيان فيفر نفسها والتي نوقشت عام 1911 حول **فيليب الثاني ومنطقة الفرانش كونتيه**. تبقى الفرضية المركزية هنا، فرضية سياسية والأستاذ المشرف هو غبريال مونو، وهي عمل يعود إلى ما قبل **الحوليّات** أي قبل رفض السياسي. ولكن عندما بدأ لوسيان فيفر بدراسة هذه المقاطعة في وقت تحول عسير بعد خلافة شارلكان (Charles Quint) لم يكتف بإضافة مونوغرافيا لدراسة الصراعات السياسية المحلية، فقد أعطى قيمة لدراسة الصراعات الاجتماعية الناشئة وللمقاومة التي أدتها هذه المقاطعة لتقدم الحكم الفردي: «إنه الصراع والتطاحن القوي بين طبقتين اجتماعيتين: النبلاء والبورجوازية. إنه صراع من أجل السلطة

---

(47) Hervé Coutau-Bégarie, *Le Phénoméne «nouvelle histoire»: Stratégie et idéologie des nouveaux historiens* (Paris: Economica, 1983), p. 52.

(48) L. Febvre, «Leçon inaugurale au collège de France,» décembre 1933, أُعيد نشره في: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 7-8.

ومن أجل التأثير ومن أجل الهيمنة السياسية»[49]. وكان عند لوسيان فيفر أيضاً، ومن وراء هذا الصراع الكبير الذي ألهب المنطقة طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر، البحث عن الواقع اليومي وعن التحولات الغامضة والمهملة وصولاً إلى الحياة الشعبية. ونتجت عن ذلك حركة جدلية حاول إعادة تركيبها: هي حركة الأحداث الطارئة المختلفة حيث يتواجه التناقض بين المقاطعات والسلطة المركزية. لم يحجب لوسيان فيفر في هذه الدراسة الحلقة السياسية ولكنه وضعها في قلب الصراعات. والسياسي لم يعد إذاً المجال الحصري لقطاعات أخرى من الواقع الاجتماعي، ولكن لا يعني ذلك أن دوره ليس مركزياً. فهو يصف هذا التداخل بين الضغوطات الاجتماعية والسياسية التي تنفجر عندما ينقطع التوازن الذي أسسه شارلكان، ويرى منطقة الكونتيه (La Comté) ملتزمةً رغماً عنها سياسة فيليب الثاني التي أصبحت أكثر فأكثر سياسة إسبانية. يبيّن لنا هذا التاريخ من وراء صراع الزعامات، بؤس المنطقة يمثله الفائض البشري وارتفاع الأسعار والتخريب الذي يحدثه المرور المتكرر للجيوش الملكية، هذا دون احتساب الكوارث الطبيعية والطاعون الذي ظهر بين عامي 1584-1586 وهو الأعنف بالنسبة إلى كل ما سبق. لم ينس لوسيان فيفر، أمام تراجع طبقة النبلاء وتقدم بورجوازية أثرت من جراء تطور التجارة والمضاربة، أن يأخذ في الحسبان نتيجة هذه الحركة المزدوجة: «كان الفلاح هو ضحية مثل هذا المجهود. وهو الذي كان يوفر للنبيل مصدر حياته أصبح يوفر للبورجوازي مصدر ثرائه»[50]. إنها لوحة كاملة للمجتمع الكونتوازي (Société comtoise) قدمها لنا لوسيان فيفر،

---

(49) Lucien Febvre, *Philippe II et la Franche-Comté: Etude d'histoire politique, religieuse et sociale* (Paris: Flammarion, 1970), p. 9.

(50) المصدر نفسه، ص 149.

بطريقة إشكالية وديناميكية رُسمت في ذروة صراع له أبعاد اجتماعية وسياسية أحدثت تحولات لا عودة عنها كانت نهايتها تحولاً في طبيعة هذا المجتمع بحد ذاتها».

إذا كان التاريخ - المشكل يشكل الأرضية النظرية لتاريخ بنيوي مستقبلي، فإن ذلك يبرز أكثر عند مارك بلوخ الذي يريد إعادة تركيب المجتمع الفيودالي: «إنه تحليل وتفسير بنية اجتماعية مع علاقاتها ذاك الذي نريد محاولة إنجازه هنا»[51]، فقد سبق لمارك بلوخ من خلال **المميزات الخاصة** أن وقف ضد المبالغة في اعتبار التأثيرات الاقتصادية للأوبئة في تفسير أزمة القرنين الرابع عشر والخامس عشر، على عكس ذلك قام بالتركيز على أهمية تدني العائدات الفيودالية مبرزاً بذلك أولوية القواعد البنيوية لنظام اجتماعي. وقد تناول في ما بعد في كتابه **المجتمع الفيودالي** حقيقة كاملة تشمل في تناسق واحد الاقتصادي والاجتماعي والذهني: «أدّى تطور الاقتصاد إلى مراجعة حقيقية للقيم الاجتماعية»[52]. معلناً عن كل الأبحاث المستقبلية حول علاقات النسب، كان مارك بلوخ يفكر في العلاقة الموجودة بين روابط الدم والفيودالية: «عوضاً عن روابط الدم الواسعة التي كانت سائدة قديماً، نرى مجموعات تحل مكانها تقترب أكثر من عائلاتنا الضيقة الموجودة اليوم...» ولكن «حذار أن نتصور أنه حصل منذ العهود القبلية البعيدة، تحرر اعتيادي للفرد»[53]، فهو يبيّن بذلك أن التابع في علاقته بالسيد والسيد بالتابع، قد نسج فعلياً روابط شبيهة بروابط النسب مع ما يترتب على ذلك من حقوق

---

(51) Marc Bloch, *La Société féodale*, l'évolution de l'humanité; 8 (Paris: A. Michel, 1968), p. 16.

(52) المصدر نفسه، ص 114.

(53) المصدر نفسه، ص 203- 206.

وواجبات أيضاً. وفي هذا النظام الفيودالي، لا تنتقل الفيودالية آلياً عند وفاة المتمتع بها مع أن قانون الوراثة سينتصر على القانون لأن الواقع الاجتماعي ينتهي دائماً بفرض نفسه على الواقع القانوني، وبنفس الطريقة يعيد المؤرخ الاجتماعي تركيب واقع أكثر تعقيداً وأكثر ثراءً من المؤرخ الذي يكتفي بالقانون المكتوب. لا يعني تحديد الأطر البنيوية لمجتمع ما بالنسبة إلى مارك بلوخ موت حركة التاريخ والتطور والتحولات، فهو يرى بوضوح خط انكسار أو قطيعة انطلاقاً مما دعاه العمر الثاني للفيودالية. تحدث عندئذ آلية معاكسة للفترة الأولى تتميز بالمركزية والتجميع وبتركيز مؤسسات لها أنشطة ممتدة أكثر من ذي قبل. لقد تغيرت بنية المجتمع بأكملها يحركها انتهاء الغزوات والتزايد الديموغرافي وتقدم حركة إصلاح الأراضي والتطور الحضري وتعميم التداول النقدي. ونتج عن ذلك اندثار ما كانت تبنى عليه الفيودالية حقيقة، أي ضعف الدولة. إلا أن الملكيات الفيودالية بقيت بعد انتهاء زمن الفيودالية. يسجل مارك بلوخ إذاً دراسته البنيوية ضمن حركية تاريخية عميقة تغيرها من الداخل كما من الخارج.

هناك حقل آخر له خصوبة خاصة في ذلك الوقت تعرض لإدراك حقيقي لمصلحة مجال المؤرخ، هو حقل الجغرافيا التي تحولت إلى جغرافيا تاريخية، وهو نموذج جديد كثير الخصوبة وسيكون الإطار الذي لا محيد عنه بالنسبة إلى الدراسات المونوغرافية في ما بعد الحرب العالمية الثانية. لقد ولدت هذه الجغرافيا التاريخية من التقاء الفيدالية (Vidalisme) والحوليّاتية (Annalisme).

قبِلَ هنا مارك بلوخ ولوسيان فيفر التحدي الذي أطلقته مدرسة جغرافية مزدهرة، ولن يتوانيا، مثل من خلفهما، عن التجوال في الحقل الجغرافي قبل امتلاكه وضمه بكل بساطة عندما تذوي المدرسة

الجغرافية. يتوافق هذا الزواج مع روح العصر، المتمثلة في إعادة اعتبار المنطقة والمقاطعة في فرنسا هذه، التي أصبح هناك وعي بالمركزية البالغة الشدة فيها، وذلك قبل جان فرانسوا غرافييه (Jean-François Gravier). وقد أدّى ذلك إلى المساهمة في نجاح جغرافيا تاريخية متخذة من المنطقة إطاراً لها ومتسائلة عن خصوصيتها: «إن المجموعات الاجتماعية التي تعبر عن الإنسان في الواقع هي الوحدات الطبيعية الجغرافية والاقتصادية: المنطقة والمهنة»[54]. إن الدراسة الديموغرافية والاقتصادية ودراسة العلاقات الاجتماعية التي تمثل محاور البحوث المفضلة لدى **الحوليّات**، تتكيّف أكثر مع المجالات المحدودة حيث يكون تحقيق معرفة المعطيات الإحصائية وتوليفها أيسر بالنسبة إلى منطقة مما هو بالنسبة إلى مساحة أوسع. إن الكشف التاريخي الخاص **بالحوليّات** يتأقلم أحسن مع هذه الوحدات الجغرافية ذات الأبعاد المحدودة. لتعميق الحراثة لابد من اختيار وحدات ذات أبعاد إنسانية، فهي الطريقة الوحيدة لتحقيق التوليف الذي يطمح إليه أنصار **الحوليّات**. لقد كان لوسيان فيفر بصورة أخص أقرب إلى المدرسة الفيدالية، فهو زميل جول سيون في دار المعلمين وصديق ألبير دومانجون الذي كان يتعاون مع **الحوليّات** والذي كتب معه عام 1931 كتاباً حول نهر الراين. وقد أسندت إليه في **مجلة التوليف التاريخي** مسؤولية متابعة إنتاجات المدرسة الجغرافية الفرنسية. كتب منذ 1905 **لمجلة التوليف التاريخي** مونوغرافيا حول منطقة الفرانش كونتيه في إطار سلسلة تتعلق بمناطق فرنسا وذلك حسب المفاهيم التوليفية التي أشار إليها هنري بر. وقبل الاستيلاء على الحقل الجغرافي لمصلحة المؤرخ، كان لوسيان فيفر يستغل

(54) *Plans*, no. 1, p. 16.

عرضه للكتب لخلق حوار متعدد الاختصاصات ويمدح من خلال ذلك الأعمال الجغرافية لعل المؤرخين يستوحونها. إن ربط الكتابة التاريخية بالثوابت والأمد الطويل في علاقة بالجغرافيا وعلى عكس ذلك إبراز ما يمكن للطبيعة أن يطرأ عليها من تغيرات عبر الزمن، ذلك هو المنظور الذي تنخرط فيها القطيعة الحوليّاتية التي تفكر بلغة التكامل وبلغة التضامن الضروري في علاقات التاريخية بالجغرافيا. كان لوسيان فيفر في عرضه لهذه الكتب، يدافع عن الأعمال الجغرافية المنطلقة من فرضيات ومن قضايا مركزية، وعلى عكس ذلك، كان ينتقد بشدة كل ما ينبثق عن المخططات التي تودع في الأدراج وعن مجرد التجميع»[55]. وكما كان يقترح التاريخ - المشكل، فهو يدافع عن جغرافيا - مشكل. في دراسته حول الفرانش كونتيه، يبيّن لوسيان فيفر في أي شيء لم يكن اسم هذه المنطقة اسماً جغرافياً، بل هو اسم تاريخي لا يعبّر عن بلد وإنما عن دولة وهو يغطي تنوعاً كبيراً في ما يتعلق بأرضياتها الجيومورفولوجية والمناخية وعن إنتاجها وسكانها. يسمح هذا العرض بإبراز الدور الرئيسي للإنسان بشكل أفضل: «يظل نصيب الإنسان هو الغالب. لأنه، في النهاية، هو الذي بنى من أجزاء متنافرة وحدة سياسية، أي دولة»[56]. وقد توصل مارك بلوخ إلى استنتاج مماثل في نفس السلسلة حول مناطق فرنسا والتي درس فيها منطقة الـ إيل دو فرانس (L'Ile-de-France): «إن الـ «إيل دو فرانس» محرومة من وحدة مناطقية»[57]. تدخل لوسيان فيفر سنة 1922 في

(55) Lucien Febvre, «C. R. de la «Basse Normandie» de Felice,» *Revue de synthèse historique* (1907).

(56) Febvre, *Philippe II et la Franche-Comté: Etude d'histoire politique, religieuse et sociale*, pp. 30-31.

(57) Marc Bloch, *L'Ile-de-France (les pays autour de Paris)* (Paris: L. Cerf, 1913), =

الجدل القائم بين علماء الاجتماع والجغرافيين بكتاب **الأرض والتطور البشري**، فانحاز للجغرافيين مادحاً الفيدالية (Vidalisme) ولكن من أجل تمثّل أفضل لمجالهم. وقد رفض عملية الهجوم التي قام بها علماء الاجتماع الدوركايميين الذين سعوا إلى دمج الجغرافيا تحت التسمية الجديدة، المورفولوجيا الاجتماعية: «لا يمكن لهذه العملية أن تطمح إلى إلغاء الجغرافيا البشرية لمصلحتها»[58]، أعاد لوسيان فيفر استعمال حجج فرانسوا سيميان ضد الجغرافيا، هذه المرة لدحضها، فالجغرافيون لا يستطيعون الوصول إلا إلى ظروف ممكنة ولا يبلغون تفسيرات نهائية وإلى سببية بسيطة، وهذا بالعكس، لا يلغي ثراء الجغرافيا: «فالجغرافيا لا تطمح لتكون علم الضرورات»[59]. إن مواضيع ومناهج علم الاجتماع والجغرافيا في رأي لوسيان فيفر متباعدة كثيراً. وعلى عكس ذلك، فإن التاريخ المجدد كما تراه **الحوليّات** قد وجد ليتفق مع جغرافية فيدال دو لا بلاش. ستؤدي هذه الثورة المزدوجة إلى اندماج عميق في إطار الملاحظة والبحوث التجريبية: «إن مجالاً من الجهد الكبير يؤدي بنا نحن، المؤرخين والجغرافيين، إلى مستقبل لا حد له»[60]. شارك لوسيان فيفر في النقاش الدائر بين جغرافية راتزل (Ratzel) الألمانية والجغرافيا الفيدالية منحازاً بشدة إلى هذه الأخيرة، فقد اعتبر الجغرافيا السياسية لراتزل التي تتمحور حول مفاهيم المواقع والأمكنة بمثابة التاريخ السياسي الذي يدحضه وقدم

= أُعيد نشره في: S. Fleury, ed., *Mélanges M. Bloch* (Paris: EHESS, 1983), tome 2, pp. 692-787.

(58) Lucien Febvre, *La Terre et l'évolution humaine* (Paris: Renaissance du livre, 1922), p. 78.

(59) المصدر نفسه، ص 84.

(60) المصدر نفسه، ص 398.

القطيعة التي تمثلها الجغرافيا الفيدالية على أنها بداية لما سيكون المجال الجغرافي كتلك التي يريد تحقيقها هو في الحقل التاريخي بالنسبة إلى التاريخ التاريخاني. كما قام لوسيان فيفر بتصفية حساب الحتمية الجغرافية منحازاً إلى مفهوم الاحتمالية الفيدالية. إن الطبيعة ليست كياناً محايداً تتحكم في حياة الإنسان، فهي مؤنسنة منذ البداية ومبدلة جذرياً بفعل الإنسان: «لا تمارس العوامل الطبيعية على الإنسان أبداً فعلاً آلياً صرفاً أعمى موسوماً بالقدر»[(61)]، فهو يهاجم هنا النقاش الداخلي بين الجغرافيين للتنديد بالدراسات الجغرافية التقليدية المبنية على حتمية الظروف الطبيعية التي لا بد منها. وهو حتى وإن ذهب مذهب أطروحات الجغرافيا البشرية الجديدة فلم يكن استقباله في هذا المجال استقبالا حاراً. ونفهم من هذه الزاوية أن لوسيان فيفر لم يتدخل كحكم محايد وإنما يسعى تحت غطاء التاريخ الجديد للاستيلاء على الموروث الفيدالي. لقد اتهم كاميل فالّو (Camille Vallaux) لوسيان فيفر بالرغبة في «تحطيم الجغرافيا البشرية» وحتى ألبير دومانجون (Albert Demangeon) رغم أنه سيكون متعاوناً مع **الحوليّات** في المستقبل، تدخل للتنديد «بالمبالغة النقدية» لدى لوسيان فيفر، «ومجهوده السلبي» ورغبته «في خلق فراغ من أجل التمتع بنقده»[(62)]. وإذا كان لوسيان فيفر يريد هنا أن يضع أسس تعاون

---

(61) المصدر نفسه، ص 393.

(62) ورد في: N. Broc, dans: *Au berceau des Annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979*, [organisé par l'université de Strasbourg et le groupe d'études historiographiques]; sous la direction de Charles-Olivier Carbonell et Georges Livet, recherches et documents/ société savante d'Alsace et des régions de l'est; 31. Publications de l'institut d'études politiques de Toulouse; 6 (Toulouse: =

عضوي بين الجغرافيين والمؤرخين، فإن ذلك يكون مقابل عزل الجغرافيين عن علماء الاجتماع. وإذا كانت نتيجة ذلك إثراء الخطاب التاريخي فقد أدّى ذلك إلى تقلص في ديناميكية الجغرافيا التي بتكريسها للتاريخانية، تفقد في نفس الوقت كل تفكير إبيستيمولوجي خاص وإمكانية بروز جغرافيا اجتماعية أو سياسية جديدة، تاركة للتاريخ مجال التفسير وتقويم وزن مساهمة العوامل الطبيعية إلى جانب العوامل الأخرى ومتخلية له في نفس الوقت عن الغذاء الاجتماعي. والاحتواء الآخر الكبير للمجال الجغرافي حققه مارك بلوخ عندما أدخل في كتابه **الخصائص المميزة للتاريخ الريفي الفرنسي** (1931) تاريخ المشهد الريفي مستغلاً وثائق التوزيع العقاري. لقد وجد الاتحاد العميق بين التاريخ والجغرافيا، في هذا الكتاب أرقى درجات التحقق وهو ما أعجب الجغرافيين الذين لم يجدوا بداً من الانصياع .

كان من أهم تأثيرات هذا التوجه للخطاب الحوليّاتي نحو الاقتصادي والحياة المادية والجغرافيا، هو إبطاء المدة الزمنية. وقد حل محل زمن الأنظمة وفترات الحكم السريع، الزمن الطويل. أصبح المؤرخ يفضل ما يدوم فترة طويلة وما يتكرر ليتمكن من رسم الدورات الطويلة والميول على مدى قرون. في هذا المستوى أيضاً يكرر التاريخ الجديد القطيعة مع التاريخ التاريخاني، الوقائعي الصرف، الذي لا يزال مسيطراً في بداية القرن العشرين، والذي بلغ صورة كاريكاتورية بالبحث المناقش في السوربون عام 1906 بعنوان: **ثورة 1848 : دراسات نقدية حول أيام 21، 22، 23 و24 شباط/ فبراير 1848** والذي حوله ألبير كريميو (Albert Crémieux) إلى أطروحة

=

Presses de l'institut d'études politiques de Toulouse, [1983]), p. 258.

ضخمة من 535 صفحة عام 1911. وعلى العكس فإن 45,9 في المئة من مقالات **الحوليّات** في الفترة ما بين 1929 و1939 تتناول الأمد الطويل، مقابل 30,7 في المئة بالنسبة إلى **المجلة التاريخية** و25,3 في المئة بالنسبة إلى **مجلة التاريخ الحديث والمعاصر**[63].

توجه آخر اتبعته **الحوليّات** وبنوع خاص مارك بلوخ الذي رفع التحدي الدوركايمي: التاريخ المقارني. عرض مارك بلوخ في أوسلو عام 1928 برنامجاً لتاريخ المجتمعات الأوروبية المقارن، وحدد فيه هدفه ومناهجه. لقد كان علماء الاجتماع يبنون اختصاصهم كعلم مادام يسمح بالمقارنة. وقد اعتمد مارك بلوخ هذا المنظور بالنسبة إلى المؤرخين: «ربما يكون مستقبل علمنا، بدفع هذا الثمن»[64]. إن الشروط الضرورية لإنجاح هذا المشروع كانت بالنسبة إلى مارك بلوخ في مقارنة ما يمكن مقارنته أي مقارنة المجتمعات التي في ما بينها بعض أوجه الشبه في البدايات.

وتجنباً لمسيرة غير تاريخية تعالج العموميات الكبرى خارج مجال المكان والزمان في إطار مقارنات كبيرة ضمن التشابه، حدد مارك بلوخ نزعة المقارنة داخل المجتمعات ذات النمط الواحد واعتبر هذه المسيرة أكثر علمية من التأويلات المتعلقة بالشبه بين المجتمعات البدائية والمجتمع الغربي في العصور القديمة. وكان من المهم إذاً الانطلاق من تقارب إما في المكان أو في الزمان. على التاريخ المقارني أن يسمح للمؤرخ بالوصول إلى الأسباب الأساسية للظواهر التي تمت ملاحظتها وتكشف له الدوافع الحقيقية لأوجه الشبه والاختلاف.

---

(63) Dumoulin, «Profession historien: 1919-1939,» p. 261.

(64) Marc Bloch, «Pour une histoire comparée des sociétés européennes,» dans: Fleury, ed., *Mélanges M. Bloch.*

والفائدة الكبرى الأخرى لمذهب المقارنة هي إخراج التاريخ من الحدود الاصطناعية التي أسست لبحوثه وتجاوز التقسيمات الطوبوغرافية مثل الحدود الوطنية للدول المطبقة على العصر الوسيط أو في عصور أخرى حيث يكون قد تجاوزها الزمن.

سمح مذهب المقارنة لمارك بلوخ بأن يتخذ أفقاً رحباً لتجريب فرضياته. وهكذا لم يفرق أبداً بين عناصر التاريخ الفرنسي وعناصر التاريخ الأوروبي وليس ذلك من أجل بناء مجموعة موحدة الشكل بل بالعكس كان ذلك من أجل اكتشاف العناصر المميزة والاختلافات. في دراسته للمجتمع الفيودالي وانطلاقاً من وجهة نظر أوروبية وباستثناء تلميحه إلى اليابان، فقد لاحظ قطيعة داخلية بين أوروبا الغربية وباقي أوروبا انطلاقاً من الإرث القديم المشترك. كان حدساً مهماً لمؤرخ ماقبل يالطا يشير إلى انقسام أوروبي أقدم من انقسام عام 1945. إن كل مخترع هو نبي إلى حد ما على طريقته الخاصة.

مؤرّخو الذهني

حاز مارك بلوخ ولوسيان فيفر، في إطار مشروعهما الاحتوائي، على منطقة أخرى من مناطق المعرفة تلك التي نسميها دراسة الذهنيات والتي أتت من علوم غريبة عن التاريخ: الإثنولوجيا وخاصة علم النفس. وقد استخدم لوسيان فيفر على هذا الصعيد أعمال صديقه وزميله في دار المعلمين، شارل بلونديل. استعمل هذا الأخير بالفعل، مفهوم الذهنية البدائية منذ عام 1926 التي كانت آنذاك حاضرة عند لوسيان ليفي برول (Lucien-Lévy Bruhl) عام 1910[65].

---

(65) Lucien Lévy-Bruhl, *Les Fonctions mentales dans les sociétés inférieures* (Paris: F. Alcan, 1910).

إن هذا التطعيم العلمي الجديد الذي سمح بأن يتكون تاريخ - نفسي أصبح ممكناً نتيجة لفقر اختصاص علم النفس الذي يتنازعه ميله للممارسة العملية ونشاطه النظري، لكنه لم ينل صدى كبير مباشرةً، لو لم يحدث هذا التوجه في أعمال مارك بلوخ ولوسيان فيفر. يؤسس هذا الانعطاف نحو الذهنيات للتطورات المستقبلية والازدهار الذي لا يقاوم في الستينيات. في هذه المرحلة الأولى من مراحل **الحوليّات** ظل نصيب التاريخ الثقافي بمفهومه الواسع محدوداً وحتى أقل مما هو عليه في **المجلة التاريخية**. نلاحظ هنا قطيعة واضحة بين اهتمامات لوسيان فيفر المعتمدة أكثر فأكثر على ما هو ذهني ومحتوى المجلة الذي بقي اقتصادياً واجتماعياً بالدرجة الأولى. ولكن تبقى أعمال مؤسسَي **الحوليّات** موسومة باهتمام شديد لاستقراء العالم الذهني. تغذى هذا الاهتمام من منبعين: من علم النفس الذي كان تأثيره هاماً بنوع خاص لدى المؤرخين في تلك الفترة، الذين كانوا يرغبون في تجديد علمهم: «إن التاريخ في مجمله هو علم النفس بالذات: إنه ولادة وتطور النفسانية»[66] لكنه تغذى أيضاً من علم الاجتماع الدوركايمي. إن هذا الإلهام المزدوج أثر في مديرَي **الحوليّات** بصورة مختلفة. كان لوسيان فيفر أكثر ميلاً إلى الاهتمامات النفسية الخالصة وإلى مقارنة الفرد بالعالم الذهني الذي يتدخل فيه، ففتح بذلك ثغرة حاسمة في تاريخ الأفكار التقليدي بوضعه عمل المؤرخ في مستوى التمفصل بين الأثر والظروف الاجتماعية والذهنية التي صنعته. وكان توجه لوسيان فيفر متأثراً كثيراً بالنزعة الإنسانية

---

(66) Henri Berr, *La Synthèse en histoire: Essai critique et théorique*, bibliothèque de philosophie contemporaine (Paris: F. Alcan, 1911),

ورد في: J. Revel, dans: Burguière, dirs., *Dictionnaire des sciences historiques*, pp. 450-456.

الكلاسيكية وبالنظرة للإنسان كفرد. فهو رد فعل على المبالغة العلموية التي تقصي الإنسان. والأفق التاريخي للوسيان فيفر والنقطة المحورية في بحوثه أصبحت إذاً المجال الذهني والنفسي. ولسبر أغوار العالم الذهني والنفسي اتخذ لوسيان فيفر بشكل متزايد من الفرد حقلاً لتحاليله سواء من خلال **لوثر** (*Luther*) أو **رابليه** (*Rabelais*) أو **مارغريت دو نافار** (*Marguerite de Navarre*) أي مجال الواعي، الواعي المفرد. وسلك مارك بلوخ مسلكاً آخر في مقاربته للذهنيات، فقد تشبث أكثر منذ عام 1924 من خلال كتابه **الملوك صناع المعجزات** بوصف الممارسات الجماعية والرمزية والتمثلات الذهنية غير الواعية لمختلف المجموعات الاجتماعية. وقد أفاد بلوخ من إضافات علم الاجتماع الدوركايمي أكثر مما أفاد من علم النفس لولوج عالم الذهني.

إن المسار الذي اتبعه ينتمي أكثر إلى البنيوية ويمهد لمناهج الأنثروبولوجيا التاريخية. ومن هذا المنظور لم يكن لوسيان فيفر، الذي يقدم عادة كمؤسس لتاريخ الذهنيات، هو الذي سيكون له العدد الأكبر من الورثة: «إن التوجه النظري الذي كان سائداً في العلوم الاجتماعية في الخمسينيات يدعو إلى اتباع المسلك الذي خطه مارك بلوخ»[67]. إن علم النفس التاريخي تجاوزه الزمن سريعاً في حين أصبح المستقبل زاهراً بالنسبة إلى البحوث التي استفادت من البنيوية والتي تتناول المنطق الداخلي اليومي والتمثلات الجماعية غير الواعية وظروف الإنتاج الثقافي والظواهر الذهنية في علاقتها بالحياة الاجتماعية وبالمجموعات الاجتماعية. إنه اهتمام واحد بما هو ذهني

(67) André Burguière, «Y a-t-il une nouvelle histoire?,» colloque de Loches, Institut collégial européen (1980), p. 28.

ولكن بطريقتين مختلفتين لمدرسة تاريخية واحدة. تبدو هذه الثنائية واضحة عندما قام لوسيان فيفر بعرض كتاب **المجتمع الفيودالي** لمارك بلوخ في **الحوليّات** عام 1940. على الرغم من الصداقة ومن الأخوة الفكرية والعاطفية التي تجمع الرجلين، فقد كان لوسيان فيفر شديد النقد لكتاب مارك بلوخ: لست راضياً تماماً... فما استرعى انتباهي شخصياً بعد الانتهاء من قراءة الكتاب، أن الفرد يكاد يكون غائباً تماماً... وأكاد أقول لو تجرأت، أن كتاب مارك بلوخ يعبر عن عودة إلى الشكلانية. ولنسمِّ الأشياء بأسمائها، إنها عودة إلى الاجتماعي الذي هو شكل جذاب من أشكال التجريد »[68].

لقد كان علم النفس إذاً هو الملهم الكبير للوسيان فيفر الذي ينادي بتاريخ العواطف والحب والموت والعطف والقسوة والفرح والخوف... ولكنه يوضح أن هذا التاريخ يجب أن يكون ضمن دراسة شاملة لحضارة، ويجب أن لا يكون مقتلعاً من جذوره كموضوع معزول عن سياقه مندمج في التعميمات التاريخية الكبرى أو تلك التي تتعلق بالطبيعة البشرية: «عندما أقول: إننا لا نملك تاريخاً للحب وللفرح، فافهموا من ذلك إنني لا أدعو إلى دراسة عن الحب أو الفرح عبر كل الأزمنة والعصور ومن خلال كل الحضارات»[69]. وعلم النفس يُتناول إذاً كمادة للمؤرخ ، يجب أن يندرج ضمن تحليل الحضارات التي لا ينفصل عنها. يعبر الثنائي فرد/ مجتمع عن

---

(68) L. Febvre, dans: *Annales d'histoire sociale,* tome 2, no. 1 (1940), pp. 39-43,
أُعيد نشره في: *Annales d'histoire sociale*, tome 3, nos. 3-4 (1941),
وأعيد نشره أيضاً في: Febvre, *Pour une histoire à part entière*, pp. 413-427.

(69) L. Febvre, dans: *Annales d'histoire sociale,* tome 3, nos. 1-2 (1941), pp. 5-20,
أُعيد نشره في: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 221-238.

نفسه في قلب إشكالية لوسيان فيفر على النحو التالي: «ليس الفرد أبداً إلا ما يسمح به عصره ومحيطه الاجتماعي»(70). وفي كتابه **لوثر**(71) وضع لوسيان فيفر وجهاً لوجه نفسية فرد، هو لوثر، مع المحيط الذهني لألمانيا في القرن السادس عشر. ومن جراء لقاء هذين العاملين، ظهر الإصلاح الديني والانشقاق عن روما. وعلى عكس الدراسات التقليدية لم يتم تفضيل أهمية الفرد لأن لوسيان فيفر يرفض بشدة هذا التصور للتاريخ ولكن الجو الذهني هو الذي يسود، حيث يتم الالتقاء بين الطموحات الفردية والجماعية. إلا أن لوسيان فيفر في هذه الدراسة النفسية - التاريخية يبدي ميلاً إلى التخلي عن الوقائع الاجتماعية، مع أنها حاضرة في أطروحته عن الفرانش كونتيه، من أجل ما هو ذهني. وعلم النفس الاستيعادي (المستعيد للماضي) أو علم النفس التاريخي، يرمي إلى إعادة بناء الأطر الذهنية للعصور الماضية، وإحداث قطيعة مع مفهوم لطبيعة إنسانية لا زمنية، ثابتة، وكذلك مع كل مفارقة تاريخية، أي هذا الميل الطبيعي الذي يدفعنا إلى إسقاط مقولات تفكيرنا وشعورنا ولغتنا على مجتمعات لا معنى لهذه المقولات فيها، أو ليس لها المعنى ذاته. هذا هو توجه كتابه **رابليه** (*Rabelais*) الصادر عام 1942: «تجنب الخطيئة الكبرى، الخطيئة التي لا تغتفر، وهي: المفارقة التاريخية»(72). لقد هاجم

---

(70) L. Febvre, dans: *Encyclopédie française,* «Histoire et psychologie,» tome 7, 1938,

أُعيد نشره في: Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 211.

(71) Lucien Febvre, *Un destin: Martin Luther*, collection hier; 3, avec une postf. de Robert Mandrou, 4ème éd. (Paris: Presses universitaires de France, 1968).

(72) Lucien Febvre, *Le Problème de l'incroyance au XVIème siècle: La Religion de Rabelais*, l'évolution de l'humanité; 53 (Paris: A. Michel, 1942), p. 15.

لوسيان فيفر من خلال هذا الكتاب أطروحة أ. لوفران (A. Lefranc) الذي جعل من رابليه رجلاً عقلانياً ومفكراً حراً، فهو يتساءل عن إمكانية عدم الإيمان في القرن السادس عشر ومن أجل ذلك يعيد تركيب الآليات الذهنية لتلك الفترة ليخلص إلى أن لوفران ارتكب خطيئة المفارقة التاريخية وقرأ نصوص القرن السادس عشر بعيون قارئ القرن العشرين. إن الآلية الذهنية للقرن السادس عشر لا تسمح في نظر لوسيان فيفر بظهور فكر منطقي كالذي سيولد في ما بعد خلال القرن السابع عشر: الديكارتي ومع غاليليه (Galilée) وقواعد (النحو) لـ بور رويال (Port-Royal). لقد بيّن إلى أي مدى كانت المسيحية تضبط بشكل كامل الحياة الجماعية والفردية في القرن السادس عشر: «فقد كانت الهواء الذي يتنفسه الناس»[73]. وإذا كان اكتشاف بنى القرن السادس عشر الفكرية حديثاً ومهّد لدراسة التشكيلات الاستدلالية التي قام بها ميشال فوكو (Michel Foucault)، فهو لا يخلو من جملة من المرجعيات التي تحيل إلى مذهب تطوري أوروبي مركزي تجاوزه الزمن، تضمنه كتاب لوسيان فيفر الذي يثير مسألة «قصور ونقائص الفكر» في القرن السادس عشر[74] عند الحديث عن نقائص لغة تلك الفترة وعن تركيب عبارات ينتج عنه «انطباع بالتذبذب والغموض»[75]. إن ديانة رابليه لا تُقرأ على ضوء الغنوصية المستقبلية، ولكن يجب إرجاعها إلى إراسم (Érasme) وإلى فكر عصر النهضة التي يجب بالنسبة إليها التأكيد على القيمة المطلقة للطبيعة و للإنسانية. و لن يكون في ما بعد هذا النهج حول

(73) المصدر نفسه، ص 308.

(74) المصدر نفسه، ص 328.

(75) المصدر نفسه، ص 332.

نفس الموضوع، رابليه، نهج ميخائيل باختين[76] (Mikhaïl Bakhtine)، فهو يقدم لنا قراءة لرابليه وكأنه تعبير وإعادة لثقافة شعبية بأكملها وخاصة في وضع خارجي بالنسبة إلى الثقافة الرسمية العالمة. تصبح الآلية الذهنية للوسيان فيفر منشطرة انطلاقاً من الثنائية الاجتماعية. ويقدم رابليه في هذا الإطار كالكاتب الذي نجح في استعادة عفوية ونقاوة ثقافة قمعتها دواليب الدولة الظالمة. إن الأهمية التي منحها رابليه للنشاطات الجسدية وللحياة المادية لم تفعل سوى إعادة إرث هذه الثقافة وهذا العالم الخاص الذي هو مجال المقاومة، فقد غاب هذا الأفق الاجتماعي عن لوسيان فيفر الذي كان منكباً على مشروع بناء علم نفس تاريخي.

أما الأداة الثانية لمقاربة الذهني التي نادى بها لوسيان فيفر فقد كانت تنبع من بناء تاريخ أدبي والذي يعد كتابه **رابليه** أحسن تعبير عنه. وهنا أيضاً هي محاولة استيلاء تتناول هذه المرة أحد الاختصاصات الأكثر تجذراً في الجامعة وهي الدراسات الأدبية، فقد احتوى العدد الأول **لمجلة التوليف التاريخي** لهنري بر عام 1900 مقالاً هو عبارة عن بيان كتبه غوستاف لانسون (Gustave Lanson) وبسط فيه طموحاته: تحريك بعض من جمود أهل الآداب، فهو يرغب في إدخال التاريخ في المقاربة الأدبية ولكن ليس له من شريك سوى مدرسة تاريخانية هدفها المفضل الثأر من الألمان أكثر منه العناية بالأدب، فإذا كان غوستاف لانسون بصورة ما شديد التأثر بمواقف شارل سينيوبوس وشارل لانغلوا اللذين يمدح أعمالهما ومنهجهما، فهو لا يقل تجديداً عندما يعلن عن رغبته في اكتشاف

---

(76) M. Bakhtine, *L'Oeuvre de François Rabelais et la culture populaire au moyen âge et sous la renaissance*, bibliothèque des idées traduit du russe par André Robel (Paris: Gallimard, 1970).

الواقع المغمور لأدب المقاطعات وهو أدب المغفلين والمنسيين. . . ولكنه يضع كذلك أسس علم اجتماع أدبي وتاريخ للذهنيات عندما يبحث في التعرف على ظروف الإنتاج والانتشار الأدبي، وفي العلاقة التي يقيمها القارئ بالأثر الذي يقرأه، وأسباب نجاح هذه القصة أو تلك. لقد أحدث قطيعة مع المونوغرافيات التقليدية للكتاب الكبار أو الأعمال الكبرى التي تُمتَدح باسم خلود الطبيعة البشرية: «توجد الكتب من أجل القراء.. من يقرأ وماذا يقرأ؟ هذان هما السؤالان الأساسيان»[77]. وإذا لم يتحقق هذا البرنامج من قبل المختصين في الآداب، فسيتبناه لوسيان فيفر الذي نرى أن اهتماماته الرئيسية هي نفسها اهتمامات غوستاف لانسون، فقد تعجب لوسيان فيفر عام 1941 من التخلي عن مشروع غوستاف لانسون وبيّن من خلال أعماله حول لوثر ورابليه أن المؤرخين قادرون على إنجازه: «تاريخ تاريخي للأدب في فترة معينة وذلك في ارتباطه بالحياة الاجتماعية لهذا العصر. . . وفي سبيل كتابته يجب إعادة تركيب البيئة والتساؤل عمن يكتب ولمن يكتب ومن يقرأ ولماذا يقرأ. . .»[78] أعاد حرفياً آفاق بحث غوستاف لانسون ولكن هذه المرة بإشراف المؤرخين. يمثل الأدب إذاً أداة فعالة لإعادة بناء الإحساس الماضي ولكنه لا يعدو أن يكون عنصراً من تركيب أكثر تعقيداً. وعلى المؤرخ أن يلج حقول بحث أخرى مثل الإيقونوغرافيا الفنية وكذلك علماً جديداً في أوج الازهار وهو الألسنية. في هذا المجال كان لوسيان فيفر متأثراً

---

(77) Gustave Lanson, «Programme d'étude sur l'histoire provinciale de la vie littéraire en France, 1903,» dans: *Essais de méthode, de critique et d'histoire littéraire*, rassemblés et présentés par Henri Peyre (Paris: Hachette, 1965), p. 83.

(78) L. Febvre, «De Lanson à Mornet: Un Renoncement?,» *Annales d'histoire sociale*, tome 3 (1941).

أعيد نشره في: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 263-268.

بأنطوان مَييه الذي كانت دراسته للغة الإغريقية مفعمة بالتاريخ. «إن دراسة اللهجات الإغريقية هي دراسة تاريخ الاستعمار الإغريقي»[79]. يمكن لهذا الاندماج العميق بين الفرضيات التاريخية والفرضيات الألسنية أن يدعم الموقع المركزي الجامع لعلم التاريخ. وإذا نجح التاريخ في استيعاب الأدب، والألسنية والإيقونوغرافيا، فيمكنه أن يأمل في مستقبل زاهر في مجال معرفة الثقافة.

يتقاسم مارك بلوخ مع لوسيان فيفر هذا الاهتمام بتاريخ الذهنيات، فهو يعطي من خلال هذا المنظور مكانة مركزية لعلم النفس. وهو لا يخلو من انحراف ذهنوي عندما يعتبر أن على التاريخ أن يجد للأحداث النفسية حالات سابقة في الدائرة النفسية ذاتها. وعندما يعلن مارك بلوخ تاريخاً للممارسات الغذائية[80]، فهو يجد نفس إلهام لوسيان فيفر الذي قام بتحقيق إثنولوجي حول «بقايا المطابخ» لمختلف المناطق الفرنسية، وهو تاريخ الحضارة المادية التي ستعرف في ما بعد نجاحاً كبيراً، وإن جاء متأخراً، في الستينيات. إلا أن مارك بلوخ لم يكتب نفس تاريخ الذهنيات الذي كتبه لوسيان فيفر. حيث إن مصادر إلهامه كانت مختلفة. لقد استفاد من الأنثروبولوجيا التاريخية الناشئة أكثر من استفادته من علم النفس، فقد زامل لويس جيرنيه (Louis Gernet) ومارسيل غرانيه (Marcel Granet) بدار المعلمين، اللذين التقاهما بعدها في مؤسسة تييه (Fondation Thiers) حيث كان مقيماً بها ما بين عامي 1909 و1912. تأثر مارك بلوخ عبر هذا الثالوث، تأثراً حاسماً بالدوركايمية المتفتحة

(79) Antoine Meillet, *Aperçu d'une histoire de la langue grecque* (Paris: Hachette, 1913), p. 174.

(80) Marc Bloch, «Technique et évolution sociale,» *Europe* (1938).

أعيد نشره في: Fleury, ed., *Mélanges M. Bloch*, pp. 833-838.

على التاريخ. كان لويس جيرنيه يتعاون مع فرانسوا سيميان في مجلة **سنة علم الاجتماع**، والذي سيصبح في ما بعد مختصاً لامعاً في اليونانيات. نشر أطروحته عام 1917 وكتابه الأساسي **العبقرية اليونانية في الدين** عام 1932 ضمن سلسلة هنري بر. كان يدافع عن تصور شمولي لدراسة الأحداث الاجتماعية والذهنية وحقق الاندماج بين الإثنولوجيا والتاريخ على خطى مارسيل موس (Marcel Mauss) وطريقته التي تتناول الحدث الاجتماعي الشامل. لم يؤثر لويس جيرنيه في مارك بلوخ فقط، بل جاء كمقدمة لميلاد المدرسة الفرنسية المتألقة في مجال الأنثروبولوجيا التاريخية لبلاد الإغريق القديمة التي ضمت: جان بيار فيرنان (Jean-Pierre Vernant) وبيار فيدال ناكيه (Pierre Vidal-Naquet) ومارسيل ديتيان (Marcel Détienne) وفرانسوا هارتوغ (François Hartog) ونيكول لورو (Nicole Loraux) ... وقد وجد نفسه إلى جانب مارك بلوخ في **الحوليّات** ورأى فيه «الوريث الحقيقي للتقاليد الدوركايمية أكثر من علماء الاجتماع»[81]. كان مارك بلوخ متأثراً كذلك بمارسيل غرانيه، المختص الكبير بالحضارة الصينية والذي ستصبح أعماله حجة بصورة سريعة بعد الحرب العالمية[82]. لقد جذب مارسيل غرانيه مارك بلوخ نحو اهتماماته بالطقوس والأساطير والنفسيات الجماعية المقارنة ومنظومات الاعتقاد، وكثير من المواضيع التي ستسمح بميلاد العمل الأساسي والمبكر لمارك بلوخ: **الملوك صناع المعجزات** (1924)[83].

---

(81) R. Di Donato, dans: *Annales* (1982), pp. 984-996.

(82) Marcel Granet: *Fêtes et chansons anciennes de la chine* (Paris: E. Leroux, 1919), et *La Religion des chinois*, science et civilisation: Collection d'exposés synthétiques du savoir humain (Paris: Gauthier-Villars, 1922).

(83) انظر تمهيد لوغوف في: Marc Bloch, *Les Rois thaumaturges: Etude sur le* = *caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en*

لم يقصر مارك بلوخ مقاربته للذهني على حقل التفكير الواعي المنظم، فكان يبحث عن العلاقات القائمة بين المواقف الدينية والوقائع الاجتماعية لفهم الخلفيات الاجتماعية للتاريخ الديني والخلفيات الدينية للتاريخ الاجتماعي. تنتمي الكنيسة ضمن هذه الكتابة التاريخية إلى خطوط التماس بين العالمين الفكري والمادي، فلم يكن مارك بلوخ يبحث عن علاقات سببية بين هذين النظامين ولكن عن علاقات تشابك ضمن البحوث التزامنية، فعلى عكس لوسيان فيفر لم يبتعد علم النفس التاريخي عند مارك بلوخ عن أرضيته الاجتماعية التي يحيلها إلى مختلف فئاتها. هو إذاً قريب مما نسميه الأنثروبولوجيا التاريخية، وهو عندما يهيئ الطريق إلى تاريخ الجسد ومراحل الحياة والانفعالات، فهو يعبر عن المواضيع المفضلة في المستقبل والتي سيتناولها الجيل الثالث من الحوليّاتيين واحداً واحداً، ولكن مع تناسي الرغبة الشمولية التي كانت تحدو مارك بلوخ. واجه مارك بلوخ مثله مثل لوسيان فيفر المفهوم السلبي للمؤرخ الذي كان سائداً لدى المدرسة التاريخانية، وأعلى من شأن المساءلة والفرضيات بوضعها على محك الأحداث ولكن دون أن يكون ذلك بإملاء من هذه الأخيرة. وعلى صعيد تاريخ الذهنيات فتح من هذه الناحية منظاراً آخر ثرياً جداً بدعوة المؤرخ إلى التنبه إلى المسكوت عنه في الوثائق: «لم يعد اليوم ما يعبر عنه النص بصورة حرفية موضوع اهتماماتنا المحبّذ»[84]. فقد بيّن من خلال سِيَر

Angleterre, bibliothèque des histoires, préface de Jacques Le Goff (Paris: = Gallimard, 1983).

(84) Bloch, *Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien*, p. 62.

انظر تمهيد لوغوف، في: Bloch, *Les Rois thaumaturges: Etude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre*, p. VII.

القدّيسين التي دونت في العصر الوسيط المتقدم، أن حياة هؤلاء القديسين لا تخبرنا بشيء عن الأشخاص الذين تريد أن تعيد تكوينهم، ولكنها تعدّ مناجم بالنسبة للمؤرخ الذي يتساءل عن أنماط الذهنيات في تلك الفترة. كما اعتمد مارك بلوخ مصادر جديدة ومواضيع جديدة للإحاطة بذهنيات العصر الوسيط ولم يكتف بالوثيقة المكتوبة ولكنه أثراها بالإيقونوغرافيا وبدراسة الطقوس وهي وسائل عديدة لبلوغ لاوعي الممارسات الاجتماعية.

نجد هنا سواء من خلال المواضيع المطروحة أو من خلال إرادة التفسير نهج الأنثروبولوجيا نفسه. هناك تجربة ولكنها وجودية هذه المرة قادت مارك بلوخ إلى درب دراسة البنى العميقة لهذه الأنماط الذهنية: إنها حرب 1914 ـ 1918 التي شارك فيها كجندي ولكن كمؤرخ أيضاً يفكر في ما يرى: «عن نفسية الجنود ورجال 1914 ـ 1918 ستساعد على فهم مواقف الناس في العصر الوسيط أمام المعجزة الملكية»[85]. هكذا نضج مشروع كتابه القادم بمسيرة تراجعية (1924) **الملوك صناع المعجزات** خلال الحرب، رغم أنه كان يحضّر أعمالاً أخرى مخصصة بأكملها لتاريخ إيل دوفرانس الريفي. كان أسَرّ إلى شارل إدمون برّان عام 1919: «عندما أنتهي من ريفيّاتي سأتناول التتويج الكنسي للملك في رامس[86] (Reims)»، بمَ استطاعت الحرب أن تدفع بمارك بلوخ إلى التساؤل عن قدرة الملوك على معالجة المسلوعين (المصابين بداء الخنازير)؟ بواسطة التفكير حول الشهادات

(85) Ch. E. Perrin, «Préface,» dans: Fleury, ed., *Mélanges M. Bloch*, pp. 10-11.

(86) Marc Bloch, «Réflexion d'un historien sur les fausses nouvelles de la guerre,» *Revue de synthèse historique* (1921),

أعيد نشره في: Fleury, ed., Ibid., p. 43.

والاشاعة والخبر الكاذب. ليس التاريخ الحقيقي والمحقق هو وحده الذي له نتائج واقعية «ملأت الأخبار الكاذبة حياة الإنسانية». معرفة آليات الانتشار والإحاطة بالأرضية الصالحة هو موضوع دراسة مارك بلوخ التي تدعو إلى تطوير علم النفس الجماعي، علم نفس الشهادات الذي لا يزال جنينياً. يزوي مارك بلوخ عملية أسر لعنصر دورية ألمانية من قبل كتيبة المشاة التي ينتمي إليها عام 1917 شمال مدينة برين (Braisne) وهو اسم وقع تصحيفه فأصبح بريم (Brême)، وسرعان ما تحول الألماني إلى جاسوس مستقر بمدينة برين. إن هذا التغيير لم يتم في أي مكان فهو لم يتم على الجبهة ولا في العمق الخلفي، وإنما بين الاثنين في هذا الخلف النسبي حيث يلتقي جنود الكتائب المختلفة، وحيث تكون الرقابة مطلقة وحيث يطارد الخوف من الموت الجنود الذين ينتظرون الذهاب إلى الجبهة ويتملكهم: «كانت الحرب تجربة لا حدود لها لعلم النفس الاجتماعي»[87]. وانطلاقاً من هذه التجربة ومن خلال مسيرة تكرارية كان يدعو إليها مارك بلوخ كنموذج، يسأل الاعتقاد الجماعي في قدرة الملوك على الشفاء ليستخلص بأن المسألة هي «خبر كبير كاذب». ولكن عندما يتناول بالدرس تاريخ الذهنيات، فهو يضعه في مشروع شمولي شاسع من خلال المكان الذي يمسحه، وطويل من خلال المدة الزمنية كما يدمج كل خصائص المجتمع دون أن يترك دراسة ما هو سياسي، بل هو في صميم الكتاب نفسه «ما أردت أن أعطيه هنا هو بالأساس مساهمة في تاريخ أوروبا السياسي بالمعنى المطلق والمعنى الدقيق للكلمة»[88]، فهو يتساءل حول القوة

(87) Fleury, ed., Ibid., p. 57.

(88) Marc Bloch, *Les Rois thaumaturges: Etude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre* (Paris: A. Colin, 1961), p. 21.

وحول الحيوية وحول تواصل الشعور بالولاء تجاه السلطة الملكية ويرى في طابعها فوق الطبيعي تفسيراً محتملاً. لا يكتفي بملاحظة هذه الممارسة الملكية الشفائية، فيتساءل أيضاً عن تقبل هذه المعجزة: «ها نحن بعيدون عن تاريخ الأفكار التقليدي ذي التقليد الوضعي أو المثالي»[89]. إلا أنه وكما هو الحال بالنسبة إلى لوسيان فيفر في كتابه **رابليه**، نجد بعضاً من علامات الحكم العقلاني من قبل مارك بلوخ في ما يتعلق بالمعجزة الملكية، فهو يحكم عليها باسم العقل المكتمل وينسب معجزة المسلوعين إلى «نظام نفسي يمكن أن ننعته لسببين بأنه بدائي: بدايةً لأنه يحمل مظهراً من مظاهر فكر قليل التطور ومنغمس في اللاعقلانية وكذلك لأننا نجدها في حالة صفاء لدى المجتمعات التي اصطلحنا على تسميتها بالمجتمعات البدائية»[90]. وهنا يستلهم مارك بلوخ الأعمال الأنثروبولوجية الموجودة كأعمال فرازر (Frazer) وليفي برول وهي أعمال مصطبغة بالمذهب الوضعي وهي تعارض الفكر المتفوق، منطق الغرب بالذهنية البدائية والميثولوجيا والتي ينظر إليها على أنها تعبير عن وهن ذهني وهي مقاربة عالجها كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) عام 1962 في كتاب **الفكر المتوحش.** تبقى الآلية الذهنية عند مارك بلوخ إذاً في هذا الميدان في تبعية للأنثروبولوجيا التي لا تزال في سن الطفولة ومنغلقة في الأحكام المسبقة الأوروبية المركزية، فقد وجد إذاً صعوبات كثيرة في تخطي التفسير المزدوج التقليدي للظواهر الدينية التي يرفضها: التفسير الفولتيري (Voltairienne) الذي يعطي قيمة للعمل الواعي والفردي

---

(89) انظر تمهيد لوغوف، في: Bloch, *Les Rois thaumaturges: Etude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre* (1983), p. XIX.

(90) المصدر نفسه، ص 52.

والتفسير الرومنسي الذي يعطي الأولوية للقوى العميقة والغامضة في المجتمع. ولكن تبقى هذه البرهنة المتفوقة لسلطة لا تقف شرعيتها عند التأكيد على صلاحياتها الملموسة القانونية والسياسية وإنما تعتمد على ما هو فكري وعلى أسس سحرية. وضع كذلك مارك بلوخ أسس تاريخ للأفكار المتجددة يتغذى من أحداث الحياة اليومية أكثر مما يتغذى من الآثار النظرية. إن طقوس الشفاء والتطويب والتتويج الملكي المقدس هي كلها عناصر صدامية بين الكنيسة والأمراء الزمنيين. والصراع مرير على هذه الجبهة لكسب السبق بين الطرفين المهيمنين في مجتمع العصر الوسيط: بين الذين يصلّون (رجال الدين) والذين يحاربون (الفرسان). لم ينجح الغريغوريون (Grégoriens) في إطار رغبتهم في الفصل بين المقدس والدنيوي، في اقتلاع صبغة السحر عن السلطة الملكية. ضاعفت السلطة الملكية نفوذها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بالاعتماد أكثر من أي وقت مضى على الخصائص الربانية لرئيسها. وسيصبح لويس الرابع عشر في فرنسا وعائلة ستيوارت (Stuart) على الضفة الأخرى لبحر المانش محل عبادة ما فتئت شعبيتها تتزايد: «السلطة المطلقة هي نوع من الدين»[91]. سيتغلب الرفض السياسي للسلطة المطلقة على هذا المعتقد سواء في إنجلترا مع ثورة القرن السابع عشر أو في فرنسا مع تطور عصر الأنوار (Lumières) في القرن الثامن عشر وثورة عام 1789. مع تطور العقلانية وانهيار السلطة المطلقة. لقد أصبح مارك بلوخ، الذي كان موضوع اهتمامه الأساسي موضوعاً أنثروبولوجيا، مؤرخاً بأتم معنى الكلمة وليس ذلك بجعل هذا المعتقد موضوعاً تاريخياً فقط ولكن أيضاً بتحديد موقعه ضمن النسيج الاجتماعي الذي نشأ وترعرع فيه. وبنفس

(91) المصدر نفسه، ص 345.

الطريقة وفي وقت لاحق عندما درس المجتمع الفيودالي فقد تناوله خاصة بعقلية فيودالية. ولا تستقيم تهمة لوسيان فيفر له حول نزعته الاجتماعية في هذا العمل الذي حاول فيه بنوع خاص إعادة تركيب بنية ذهنية مميزة. وقد أعطى كتابه الأول مكانة خاصة «لكيفية الإحساس والتفكير»[92]، فهو يبرز مجتمعاً لا مبالياً بالزمن وليس ذلك بسبب عدم تطور التقنيات ولكن من خلالها. ومن خلال هذه الخطوط العامة تبرز ذهنية الفلاح ورجل الدين والنبيل وعدد كبير من الطموحات وأساليب الوجود الشديدة الاختلاف ولكنها تتعايش في نفس المجتمع دون أن تتعدى جملة من خطوط الانقسامات والصراعات التي تتنقل عبر التطور الاجتماعي. إن محاولة مارك بلوخ لبناء علم نفس جماعي تقترب من أنثروبولوجيا في طور التكون وبنيوية قبل البنيوية أكثر مما تقترب محاولة لوسيان فيفر. وهي في هذا المجال علامة أساسية في تاريخ العلوم الاجتماعية وسيكون لها امتدادات خصبة جداً.

الإرث

عندما نقرأ بقلم فولتير: «لم نكتب إلا تاريخ الملوك ولكننا لم نكتب تاريخ الأمة. يبدو أنه لم يكن طيلة 1400 سنة في بلاد الغال (Gaules) إلا ملوكاً ووزراء وجنرالات، ولكن ألا تساوي تقاليدنا وقوانيننا وعاداتنا وفكرنا، شيئاً؟»[93] نتساءل ما الجديد الذي جاءت به **الحوليّات** حقيقة، سوى تحقيق برنامج كان موضوعاً منذ القرن الثامن عشر. لقد تناول فولتير هذا البرنامج في مقالته «تأملات جديدة حول التاريخ» (1744) وطبقه في بحثه «بحث حول تقاليد الأمم وفكرها» (1740 ـ 1756). كتب شاتوبريان (Chateaubriand) في ما

(92) Bloch, *La Société féodale*, tome 1, livre 2, chap. 2, p. 115.

(93) Voltaire, Lettre au marquis d'Argenson, 26 janvier 1740.

بعد في مقدمته لكتاب **دراسات تاريخية** (1831) ما وصفه جاك لوغوف ببيان حقيقي للتاريخ الجديد[94]: «فالتاريخ اليوم هو عبارة عن موسوعة يجب أن ندخل فيها كل شيء من علم الفلك إلى الكيمياء، ومن الفنون المالية إلى التقنيات الصناعية، ومن معرفة الفنان والنحات والمهندس المعماري إلى عالم الاقتصاد». ولكن الذي يبدو تصوره للتاريخ أكثر قرباً من تصور **الحوليّات** من دون الآليات الإحصائية وبإضافة الرومانسية، هو جول ميشليه (Jules Michelet) الذي يقدم اليوم وكأنه بابا التاريخ الجديد الذي كُرّس متأخراً، فقد تمايز هو أيضاً عن المدرسة التاريخية المهيمنة: «رأيت فرنسا. كانت لها حوليات ولكن لم يكن لها تاريخ»[95]، فقد كان ناقداً لغيزو، وتييري لأنه يأخذ عليهما، كما فعل مارك بلوخ ولوسيان فيفر، بالنسبة إلى لانغلوا ولافيس أو سينيوبوس أنهما يفضلان قشرة رقيقة من التاريخ: «يبدو لي التاريخ ضعيفاً من خلال هذين المنهجين: محدود المادية يأخذ الأجناس بعين الاعتبار دون الأرض والمناخ والغذاء وكثير من الظروف الطبيعية والفيزيولوجية. قليل الروحانية، يتحدث عن القوانين والأحكام القضائية ولكن ليس عن الأفكار والطباع ولا عن الحركة الكبرى المتطورة داخل الروح الوطنية»[96]. يريد ميشليه خلق تاريخ شامل يجمع كل الجوانب التي تهم الواقع في حركة واحدة. ومن هنا نفهم أكثر لماذا أعيد الاعتبار لميشليه في لحظة أصبحت فيها الظواهر المكبوتة موضة التاريخ الجديد. لأنه في الحقيقة هو الذي بدأ بالاهتمام بالسحرة وعالم اللامعقول وحركات الهرطقة والمهمشين والثقافة

---

(94) Jacques Le Goff, Roger Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire,* les encyclopédies du savoir moderne (Paris: Retz- C. E. P. L., 1978), p. 223.

(95) Jules Michelet, *L'Histoire de France,* préface (1869).

(96) المصدر نفسه.

الشعبية. هل هناك إذاً ثورة حولياتية أم استعادة بسيطة لموروث كان فولتير وميشليه قد وضعا أسسه الأولى؟ نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال مع أندريه بورغيار (André Burguière) والذي تبدو **الحوليّات** في نظره أكثر ابتكاراً في الطريقة التي أكد فيها مؤسسوها برنامجهم أكثر مما هي بالبرنامج نفسه. وما من شك أن هذا البرنامج كان برنامجاً رائداً مقارنة بالمدرسة المنهجية السائدة وبالنظر إلى هذه المدرسة يمكن الحكم على القطيعة الإبستيمية التي قنّنتها **الحوليّات**.

لكن سيظل مارك بلوخ ولوسيان فيفر في إطار رغبتهما في التجديد شديدي الوفاء إلى بعض التوجهات التي أسست للتاريخ كعلم متميز في حقل العلوم الاجتماعية، فهما لا يضعان التاريخ بصورة كلية في العلوم المجاورة له. وعلى عكس ذلك فقد نجحا في جلب العلوم الاجتماعية إلى حقل التاريخ. لذلك وجب علينا إذاً أن نتبين مواطن الوفاء إلى بعض التوجهات الأساسية وإلى مواطن القطيعة التي أحدثاها.

رأينا أن **الحوليّات** لم تكن حاملة فلسفة للتاريخ وهي ترفض كل نزعة يقينية (دغماتية) من أجل جلب دعم العلوم الاجتماعية المجاورة لقضيتها. نتجت عن هذا الغموض الفني بعض التناقضات في كلام مديرَيها في ما يتعلق بالشمولية التاريخية، فقد عبر لوسيان فيفر في نفس المقال عن هذا التناقض في عرض تحليله للروابط بين مختلف مراحل الواقع: «في كل مرحلة من مراحل التاريخ تحدد البنية الاقتصادية للمجتمع الأشكال السياسية وتتحكم أيضاً في العادات الاجتماعية وكذلك بالنسبة إلى التوجهات العامة للفكر وتوجهات القوى الروحية». وكما لو أننا نقرأ النسخة الستالينية الاقتصادوية لماركس، ولكنه يعدل ذلك بعد قليل: «الإصلاح الديني هو وليد الرأسمالية أو بالعكس الرأسمالية هي

نتاج الإصلاح الديني: لا وألف لا. يجب أن نستعيض عن هذا التأويل البسيط بالفكرة الحديثة القائلة بالتأثر المتبادل بين هذه الظواهر»[97]، فلا ماركس ولا يسوع أو بالأحرى لا ماركس ولا فيبر (Weber) اللذان يعارضهما لوسيان فيفر بمفهوم كليانية منصهرة يكون فيها الكل تابعاً للكل والعكس بالعكس. يصف مارك بلوخ الزمن التاريخي كأنه بلاسما (Plasma): «إن زمن التاريخ هو مادة البلاسما نفسها التي تسبح فيها الظواهر وهي بمثابة مكان توضحهما»[98]. إن تفكيك الواقع بالنسبة إلى مارك بلوخ هو الوسيلة لإدراكه وهو المرحلة الأولى من التحليل ولكن بشرط أن يكون ذلك من منظور شامل: «إن الخطر يبدأ فقط عندما يعتقد كل باعث للنور (Projecteur) أنه يرى وحده كل شيء، وتعتقد كل مقاطعة أنها وحدها هي الوطن»[99]. من جهة أخرى لا تستطيع المعرفة التاريخية أن تكون ناتجة عن تكديس جزئيات مختلفة للمعرفة تُدرس في ذاتها. وبنفس الطريقة التي لا يكون فيها الحشد من الناس مجرد مجموعة من الأفراد، لا يكون التاريخ مجرد جمع لمواضيع بحث مدروسة الواحد تلو الآخر. وهي لا يمكن أن تتم إلا بإعادة تركيب التفاعلات بين مختلف مستويات الواقع، فإذا كان مفهوم بلاسما عند مارك بلوخ يظل غامضاً في ما يتعلق بطبيعة العلاقات الداخلية لنظام اجتماعي، فهو لا يتصور هذا الأخير كمجرد ترصيف متتال «للإنسان الاقتصادي والإنسان الديني والإنسان السياسي...» ولكن كتخطيط لتوليف انطلاقاً من مفاهيم مثل مفهوم النظام الزراعي في كتاب **الخصائص**

(97) Febvre, *Pour une histoire à part entière*, p. 36.

(98) Bloch, *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien*, p. 62.

(99) المصدر نفسه، ص 126.

المميزة أو النظام الفيودالي الذي يشدد على وحدته في كتاب المجتمع الفيودالي.

لم يهتم مؤرخو **الحوليّات** كثيراً بالكشف عن القوانين التاريخية، فقد أدت بهم نزعتهم التجريبية العفوية إلى التركيز على «الكيف» أكثر من التركيز على «الأسباب» (لماذا) وذلك رغم قولهم بمفهوم التاريخ ـ المشكل. وهذه الخاصية تربط **الحوليّات** بتواصل الخطاب التاريخي. ظل مارك بلوخ ولوسيان فيفر من دعاة كتابة إنسانية مركزية إذ يظل الإنسان هو الاهتمام الوحيد للمؤرخ وهو معنى عمله بالذات. من المؤكد أن هذا الإنسان ليس هو نفسه إنسان المدرسة المنهجية التي تعطي مكانة خاصة للعظماء ولرجالات الدولة الكبار، فهنا يعني الإنسان العادي في عمله في كل يوم أي الإنسان المتوسط. ولكن رغم هذا التحول المكاني، فالتاريخ يظل تاريخاً إنسانياً: «ليس هناك تاريخ إلا تاريخ الإنسان... فالتاريخ، علم الإنسان والأفعال، نعم: ولكن الأفعال الإنسانية هي التي تكون عمل المؤرخ»[100]. إنها لازمة الخطاب الحوليّاتي في الفترة الأولى رغم توجهاته العلموية. لا شك أن مارك بلوخ ولوسيان فيفر لم يكونا ليرغبا بأن يحوّل حقل المؤرخ إلى مناطق يكون فيها الإنسان هامشياً أو ربما غائباً مثلما فعل ذلك إيمانويل لوروا لادوري[101] الذي قدم مشروعه كأنه إنجاز لثورة كوبرنيكية ـ غاليلية (Copernico-galiléenne) حقيقية في العلوم الإنسانية. لقد رفض مارك بلوخ أن يطلق على هذا المشروع صفة العمل التاريخي «إن التاريخ يجب أن يهتم بالناس

---

(100) Lucien Febvre, «Leçon d'ouverture au collège de France, 13 décembre 1933,» dans: Febvre, *Combats pour l'histoire*, pp. 12-13.

(101) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Histoire du climat depuis l'an mil*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1967).

وكل من لم يصل إلى ذلك، فلن يكون سوى عامل في حقل الإبحار العلمي»[102]. يظل الإنسان محور الخطاب الحوليّاتي فهو موضوع التاريخ كما يقول ذلك لوسيان فيفر في نفس درجة الحجارة بالنسبة لعالم الأحجار وفي نفس درجة الحيوان بالنسبة لعالم الأحياء أو النجمة بالنسبة لفيزيائي الفضاء: «هناك شيء يجب أن يفسر ويجب أن يتم توضيحه»[103]. إن إنسان **الحوليّات** هو الإنسان المتوسط وليس الإنسان الأبدي ولا الطبيعة الإنسانية، وإنما الإنسان الاجتماعي مأخوذاً في إطار المجتمع المحيط به لأن التاريخ الحوليّاتي في الثلاثينيات لم يكن ذلك البحر المنبسط أو ذلك الزمن الثابت الذي سيصبح في ما بعد. التاريخ إذاً هو علم التغيّر. سيتكرر هذا الموضوع بصورة مستمرة في كلام مديرَي **الحوليّات**. المجلة التي صدرت في عالم يشهد تقلبات عميقة، كانت ممارستها للتاريخ هي تفسير هذا التغيّر وجعله قابلاً للفهم. وفي عبارات شبيهة يؤكد مارك بلوخ ولوسيان فيفر هذا التوجه بالنسبة إلى التاريخ: «التاريخ، علم تغّير المجتمعات البشرية الدائم»[104]. «إن التاريخ في جوهره هو علم المتغيرات»[105]. يرفض مارك بلوخ أسطورة الثبات المزعومة في الحياة الريفية في كتاب **الخصائص المميزة**، فماذا يمكنه أن يقول عن الأطروحات الحالية حول توقف الزمن لمدة أربعة أو خمسة قرون؟

نفهم الآن جيداً بعد أن رأينا كيف ولماذا نجح المشروع الحوليّاتي. نجد في خطاب **الحوليّات** كثيراً من الانفتاح من أجل كسب العلوم الإنسانية لصالح هذا المشروع ولكن خلف هذه

(102) Bloch, *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien*, p. 35.

(103) Febvre, *Combats pour l'histoire*, p. 117.

(104) المصدر نفسه، ص 31.

(105) Bloch, *L'Etrange défaite*, p. 137.

التجديدات تظل أرضية التاريخ صلبة وتسمح بالصمود أمام أي انحلال قد يمس خصوصية التاريخ. يدين إذاً مارك بلوخ ولوسيان فيفر في نجاحهما الاستراتيجي لما جعل منهما مجددين أكثر من كونهما مدافعين عن الموروث في إطار مواجهتهما لمناهج أخرى ومفاهيم أخرى كثيراً ما كانت مرتبطة بآلية علمية متقدمة كثيراً. إن دراسة فترة زمنية شاملة يكون محورها الإنسان وتهتم أساساً بالتغيرات: هذا ما لا تستطيع أن تدعو إليه العلوم الاجتماعية الأخرى ما عدا التاريخ.

إلا أن خطاب **الحوليّات** اليوم في كثير من النقاط، في تناقض وتعارض مع خطاب مارك بلوخ ولوسيان فيفر. ولا يتوانى الجيل الحالي عن التخلص من الأرضية التاريخية التي حافظ عليها المؤسسان لمدرستهما وينحاز إلى حقل العلوم الاجتماعية لدرجة أن التاريخ يوشك أن يفقد هويته.

ومن شدة الحرص على الاحتفاظ بالسلطة ووضع اليد على كل العلوم الاجتماعية وصل الحوليّاتيون إلى قتل التاريخ، فماذا سيقول عن ذلك أبواهما الروحيان؟ ومن أجل إسكات ظلهما، تمّ تبجيلهما بصورة محمومة وكثرت الأكاليل على قبريهما، وجرى تمجيدهما، ولكن ألم يكن كل ذلك من أجل تغطية خيانة الإرث؟ هناك حلقة مفقودة وأساسية يجب أن تدرس قبل الحديث عن **الحوليّات** اليوم: إنها الفترة البروديلية.

II

سنوات بروديل



1 ـ الاستعراض

توسع العلوم الاجتماعية

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، برز على الأنقاض عالم جديد، فأحدث التاريخ في ارتعاشاته اضطراباً في الضمير التاريخي للغرب، فالوضع الجديد يشبه وضع ما بعد حرب 1914 ـ 1918، ولكن كان كل عنصر في أقصى ما يمكن أن يصل إليه، فقد شهد العالم تضخم الظواهر التي كانت موجودة في العشرينيات. لقد كان تدهور أوروبا الغربية جلياً وكان مصير العالم الذي يقرر في طهران ويالطا وبوتسدام هو بالأساس بين يدي الأمريكيين والسوفيات. وإعادة بناء أوروبا سوف تمر إما بنيويورك عبر مخطط مارشال أو بموسكو، وهكذا وجدت أوروبا نفسها مستتبعة. وتفوقها الذي بدأ يتآكل منذ الفترة بين 1914 و1918، انهار في منتصف القرن العشرين. علامة الاضطراب الأكثر بداهة توجد في عملية تحرير المستعمرات التي أدت قوتها إلى اهتزاز القواعد الإمبريالية القديمة. عبثاً أضفي على الإمبراطورية لفظ «الاتحاد» الجميل، لكنها تفتّتت قطعة تلو الأخرى أمام كفاح شعوب أفريقيا وآسيا من أجل التحرر. إن الخطاب التاريخي المبني على فكرة الدولة ـ الأمة وعلى التوجه الأوروبي نحو

رسالة تحضيرية كونية، لم يصمد أمام التطورات الجديدة التي عرفها العالم المعاصر حتى إن الطموح إلى تاريخ مختلف أصبح ملحاً. إن الوحشية التي استشرت أثناء هذه الحرب الثانية تجاوزت كل ما يمكن أن يتصوره الإنسان، فعند جمع الجثث، التي خلفتها ألمانيا النازية، بالجرافات تم اكتشاف فظاعة ما اقترف هؤلاء، وجسامة الجرائم ضد الإنسانية والقضاء على ستة ملايين يهودي. إن هذه الوحشية التي مارسها مجتمع متقدم مثل المجتمع الألماني هزت القناعات حول مفهوم التاريخ وحول سير البشرية باستمرار نحو حالة من التحضر. وطاقة التدمير المضاعفة التي كشف عنها قصف هيروشيما وناغازاكي قد دعمت الخوف من المستقبل: هل يمكن للعقل أن ينتصر على التوحش؟ ليس هناك ما هو مؤكد غداة الخروج من هذه الكوارث.

المعطى الجديد الذي ظهر بعد الحرب هو الثورة التكنولوجية الهائلة. النمو كان على الأبواب بعد فترة التطهير التي دامت أربع سنوات. ستغير «الثلاثينيات المجيدة» الاقتصاد والمجتمع وليس ذلك في أوروبا والدولتين العظميين فقط بل كل العالم الثالث لأن الاقتصاد يتعولم ويتفرع متجاوزاً الحدود والشعوب والحضارات المختلفة ليفرض عقلانيته الخاصة. في ظل هذه الأوضاع الجديدة، أصبحت هناك ضرورة ملحة في التاريخ لأشكال جديدة من التحليل لفهم التطورات التي كانت تحصل. لقد أدت العولمة، لا الاقتصادية فحسب وإنما كذلك عولمة الاتصالات والمعلومات بين الناس من مختلف القارات، إلى ضرورة إعادة توجيه الخطاب التاريخي ليتلاءم مع وعي جديد للزمن التاريخي. وقد نتجت عن هذه التحولات ظاهرة رفض التاريخ الوطني الضيق وفي نفس الوقت الاقتراب من العلوم الاجتماعية الأخرى. وهذه الظاهرة هي ظاهرة بديهية في مختلف الأصقاع في الولايات المتحدة كما في الاتحاد السوفياتي.

ومن الأكيد، في مثل هذا السياق، أن تكون القطيعة الإبستيمية التي حققتها **الحوليّات** عام 1929 كدليل على التطورات التي ستحصل في ما بعد، مؤهلة لأن تعرف نجاحاً متزايداً. لقد تغيرت المجلة عشية الخروج من الحرب تحت تأثير التساؤلات الجديدة لما بعد الحرب. واتخذت عنواناً: **حوليات**: **اقتصاديات، مجتمعات، حضارات**. يعبر اختفاء عبارة تاريخ عن الرغبة في المضي إلى الأمام على درب التقارب مع العلوم الاجتماعية الأخرى. عبّر لوسيان فيفر عن هذا التأقلم الضروري مع التطلعات المعاصرة: «تغيّرت **الحوليّات** لأن كل شيء تغير حولها: الناس والأشياء: وفي كلمة العالم تغير». «انتهى عالم الأمس. انتهى إلى الأبد. . .أقول لكم، إلى الماء لتسبحوا بقوة. . . ولنفسر العالم للعالم»[1]. انطلاقاً من هذه اللحظة يمكن **للحوليات** أن تؤرخ لانتصارها الحاسم على التاريخ التاريخاني الذي اندثر تحت أنقاض الحرب العالمية الثانية. وكما قال أرنالدو موميغليانو (Arnaldo Momigliano) عام 1961، «كانت مدرسة **الحوليّات** تأخذ المكان الذي كانت في الماضي تحتله المدرسة التاريخية الألمانية كمشتل للمؤرخين»[2]. وأدى هذا التوافق بين ذهنية ما بعد الحرب والمواضيع الحوليّاتية إلى الإشعاع العالمي للمجلة. وفي هذا المجتمع النامي ما بعد الحرب حيث مواضيع التحديث والتجهيز والاستثمار والتضخم المالي تسيطر على حياة الأمم، طغى العامل الاقتصادي، أكثر مما كان عليه الوضع في الثلاثينيات، على مجمل الجو الاجتماعي وقولب أطر التفكير. قام الجيل الثاني **للحوليّات**، الذي كان لوسيان فيفر مازال على رأسه، باختيارات في

---

(1) Lucien Febvre, «Face au vent,» *Annales* (janvier 1946).

(2) ورد في: Geoffrey Barraclough, *Tendances actuelles de l'histoire*, champ; 91 (Paris: Flammarion, 1980), p. 66.

الإرث. أعطى الأولوية للاقتصادي على حساب المسالك الأخرى التي جرى رسم خطوطها الكبرى: التاريخ الثقافي ودراسة الذهنيات وعلم النفس التاريخي، كل هذه المواضيع تم كبتها طيلة هذه الفترة لحساب الدراسات الاقتصادية البحتة. تفسر هذه الاقتصادوية من جهة أخرى لماذا بقي باحث مثل فيليب أرييس (Philippe Ariès)، وهو رائد في دراسة الجو الذهني، وحيداً ومعزولاً. لقد تم تجاهل دراسته حول «تاريخ السكان الفرنسيين ومواقفهم أمام الحياة» التي تعود إلى عام 1948. يظهر تحقيق **للمجلة التاريخية**[3] أن بحوث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي تمثل في حقل التاريخ الحديث والمعاصر عام 1961 نسبة 41 في المئة من مجموع الأطروحات و40 في المئة من مجموع دبلوم الدراسات العليا. وهذا التفوق لما هو اقتصادي يشير إلى نجاح الأطروحات الحوليّاتية لفترة ما قبل الحرب.

ينتقل التساؤل من دراسة الظواهر المتأزمة، وهي إشكاليات ناتجة عن أزمة 1929 مثل أعمال إرنست لابروس إلى التساؤل عن النمو الاقتصادي وازدهار القوى المنتجة. وتتركز هذه التساؤلات على الفترة الحديثة: القرن السادس عشر ـ القرن الثامن عشر، مهملة في نفس الوقت المجتمع المعاصر كحقل للدراسة والفترات القديمة التي يصعب فيها تطبيق المنهج الكمي والجداول الإحصائية، على فترات طويلة. وهنا يهمل التاريخ الحوليّاتي الحقل الذي تبناه الجيل الأول بقوة: حقل العالم المعاصر. كان لهذا التاريخ الاقتصادي الذي هو شعار الحقبة البطولية **للحوليات**، عصره الذهبي حتى زمن الستينيات مع تطور علم الإحصاء والتكميم. إذ كان في تلك الفترة مرتبطاً بعلم آخر في مرحلة ازدهاره: علم الديموغرافيا. ربط جان موفريه (Jean

---

(3) J. Schneider et Ph. Vigier, dans: *La Revue historique,* no. 225 (1961), p. 403.

(Meuvret في مجلة **سكان** عام 1946 بين أزمات الغذاء والأزمات الديموغرافية في ظل النظام القديم. ومن جهة أخرى أصبح للديموغرافيا فنها الخاص ومنهجية جديدة وفاعلة مع لويس هنري[4] (Louis Henry). سينقضّ جيل كامل من مؤرخي مدرسة **الحوليّات** على لوائح الأسعار وسجلات الكهنة ليحسبوا ويرسموا المؤشرات البيانية والأدوار. وأصبحت السلسلة الديموغرافية مثلها مثل سلسلة الأسعار شعار الخطاب الحوليّاتي في الخمسينيات. إنها الفترة الذهبية للمونوغرافيات المناطقية. لقد ناقش بيار بوُتروش (Pierre Boutruche) أطروحته حول مجتمع بوردو أثناء حرب المئة سنة وذلك عام 1947 وناقش جورج دوبي أطروحته حول منطقة لوماكونّيه (Le Mâconnais) في القرنين الحادي عشر والثاني عشر عام 1953، وبيار غوُبير (Pierre Goubert) حول منطقة لوبوفيزيس (Le Beauvaisis) من عام 1600 إلى عام 1730 وذلك عام 1960 وفي نفس العام ناقش بول بوا (Paul Bois) أطروحته حول فلاحي منطقة السارت (La Sarthe)، وقدم بيار فيلار أطروحته حول منطقة كاتالونيا (La Catalogne) في إسبانيا الحديثة عام 1962، وناقش إيمانويل لوروا لادوري أطروحته حول فلاحي منطقة اللانغدوك (Le Languedoc) عام 1966. كان التاريخ في تلك الفترة مزيجاً من الديموغرافيا والمؤشرات البيانية الاقتصادية وتحليل العلاقات الاجتماعية. يتحقق فيه التوليف، وهو رغبة عزيزة لدى مؤسسي **الحوليّات**، من خلال المجموعات

(4) Louis Henry, *Une Richesse démographique en friche: Les Registres paroissiaux* ([s. l.: s. n.], 1953), et Michel Fleury et Louis Henry, *Des Registres paroissiaux à l'histoire de la population: Manuel de dépouillement et d'exploitation de l'état-civil ancien*, [préface d'Alfred Sauvy] (Paris: Institut national d'études démographiques, 1956).

المناطقية حيث تكونت فرق عمل في جامعات المناطق من أجل دفع القدرة على فرز المعطيات: فتكونت فرق بحث في كل من جامعة كان (Caen) حول بيار شونو الذي أسس مركزاً للدراسات الكمية وفي تولوز حول أندريه أرمنغو (André Armengaud) وفي بوردو حول جان بيار بُوسُّو (Jean-Pierre Poussou). تستجيب القيمة التي أعطيت للديموغرافيا إلى إمكانية دمج المعطيات ضمن عملية تكميم مكثفة وهي تتناسب مع إطار مفهمة أصبح ممكناً بفعل تقنية الحاسوب. يفضل التكميم على مدى فترات طويلة في العصر السابق لاعتماد الإحصاء، العصر الوسيط والأزمنة الحديثة على فترة التاريخ القديم والفترة المعاصرة. أما السياسي، فهو منبوذ مثلما هو الشأن في فترة ما بين الحربين. تفضل الاقتصادوية المنتصرة استخدام الآلات وتصل إلى التقليل من شأن دور الإنسان وقدرته على فعل التاريخ وعلى أن يكون فاعلاً فيه بوعي: «التاريخ المتلقّى يغزو عالمنا، فليس لنا سوى رؤوسنا الطافية فوق الماء ... وبالكاد نصيب الحرية الإنسانية محدود جداً، هذه ملاحظتي خلال حياتي الطويلة كمؤرخ»[5]. تمّحي إنسانية مارك بلوخ ولوسيان فيفر إذاً أمام لعبة القوى الاقتصادية التي لا مفر منها، ويجد الإنسان نفسه خارج محور الدراسات التاريخية.

إن إعادة توجيه الخطاب التاريخي هذه، يغذيها تطور مدهش للعلوم الاجتماعية. يحتاج النمو إلى معرفة جملة من الدلائل التي تقدمها أجهزة تمتلك وسائل قوية. تصبح هذه الأجهزة هي الفاعل الجديد الضروري للسير الاجتماعي القويم. وقد تم تأسيس المعهد

---

(5) Fernand Braudel, «Y a-t-il une nouvelle histoire?,» débat à la FNAC organisé par *Les Nouvelles littéraires* (7 mars 1980).

الوطني للإحصاء عام 1946 والمعهد الوطني للبحوث الديموغرافية عام 1945 تحت سلطة وزارة الصحة التي كانت لها مجلتها الخاصة، **السكان** بإدارة ألفرد سوفي (Alfred Sauvy). وأصبح عندئذ الإحصاء والديموغرافيا مساعدين للسلطة السياسية. كما تنظم علم الاجتماع وتطور مع قيام المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) عام 1946 بتأسيس مركز الدراسات الاجتماعية (CES) تحت رئاسة جورج غورفيتش (Georges Gurvitch) وذلك نتيجة ضرورية للفشل الدائم الذي كان يعانيه هذا الاختصاص الذي لم يستطع أن ينجح في الوسط الجامعي نظراً لبقائه كاختصاص داخل حقل الفلسفة. كما أصدر جورج غورفيتش عام 1946 **الكراسات الدولية لعلم الاجتماع**. وأحرز علم النفس استقلاله داخل الوسط الجامعي عام 1947 بحصوله على إجازة تعليمية خاصة به. وفي عام 1948 انتخب جورج غورفيتش، وهو آنذاك أستاذ بستراسبوغ التي أصبحت المعبر الرئيسي، أستاذاً في السوربون، وهي من علامات الاعتراف بقيمة علم الاجتماع. وقد كان السبب في تفجر العلوم الاجتماعية دور الدولة الدافع ودور المنظمات الدولية المرتبطة بالإيونسكو التي أعطت دفعاً للبحوث نتيجة قيامها بالتحقيقات الاجتماعية. وبهذا العنوان كان لوسيان فيفر عضواً في لجنة استشارية عامي 1945 و1946 باسم العلوم الاجتماعية واقترح على الإيونسكو «أن تحرص على إعداد قائمة في المواضيع التي من شأنها أن تهم العلوم الاجتماعية»[6]، فضاعفت الإيونسكو المبادرات والمنشورات. ظهرت للوجود عام 1949 الجمعيات الدولية لعلم الاجتماع والحقوق المقارنة وكذلك الجمعية الفرنسية للعلوم السياسية. وقد أكد المسؤولون عن

---

(6) ورد في: A. Drouard, dans: *Revue française de sociologie* (janvier 1982), p. 58.

تأخر فرنسا في مجال العلوم الاجتماعية: «لقد آن الأوان لتدارك تأخرنا بتعاضد جهود الديموغرافيين وعلماء الاجتماع»[7]. إنها رغبة في تغيير المجتمع والتفكير في الاجتماعي ترتكز على النمو الاقتصادي في تلك الفترة.

لم يتوقف هذا الازهار للعلوم الاجتماعية على سنوات التحرير، فقد تواصل وتسارع خلال الستينيات. ارتفع عدد الباحثين في علم الاجتماع بالمركز الوطني للبحث العلمي من 56 عام 1960 إلى 90 عام 1964. يمكن عندئذ أن نتحدث عن «سياسة للعلوم الاجتماعية»[8] تقوم بها أجهزة متعددة مثل الدولة والشركات والنقابات. تترجم هذه السياسة في مختلف الجهات بتعدد المبادرات والتحقيقات والمؤسسات الجديدة، فهذا المجتمع في الخمسينيات والستينيات والذي يريد أن يكون أكثر عقلانية، والذي كان يطمح إلى التمكن من المعطيات الاقتصادية والاجتماعية في تخطيط الدولة، يتوجه للعلوم الاجتماعية ليحيط أكثر بموضوعه: «يطلب المخطط من علماء الاجتماع أن يضيفوا إليه ما ينقصه»[9]. ينتظر من عالم الاجتماع كفاءة تقنية، فيصبح بذلك خبيراً ومختصاً يمكن أن تكون معارفه عملية بصورة مباشرة في حسن مسار المجتمع. يُنتظر منه علمٌ محسوس صالح لصاحب المشروع الاقتصادي والإداري والمخطط. وأدى هذا الشغف بالعلوم الاجتماعية إلى مأسستها جامعياً في أواخر الخمسينيات. وتم انتخاب أساتذة في علم الاجتماع وعلم النفس

---

(7) Jean Stoetzel, «Sociologie et démographie,» *Population,* no. 1 (janvier 1946).

(8) Drouard, dans: *Revue française de sociologie* (janvier 1982), p. 70.

(9) Claude Gruson, «Planification économique et recherche sociologique,» *Revue française de sociologie*, vol. 5 (1964).

الاجتماعي وعلم النفس لدخول السوربون. وجرى استحداث إجازة ودكتوراه حلقة ثالثة في علم الاجتماع عام 1958. وفي السنة نفسها أصبحت كليات الآداب تحمل اسم كليات الآداب والعلوم الإنسانية، وفي عام 1959 أصبحت كليات الحقوق تحمل اسم كليات الحقوق والعلوم الاقتصادية، وجرى استحداث إجازة في العلوم الاقتصادية عام 1957. وفرنسا التي لم يكن في رصيدها إلا حوالي عشرين مركزاً للبحث في العلوم الاجتماعية عام 1955، أصبحت تعد، بعد عشر سنوات أكثر من 300 مركز. وأصبح عند ذلك ضغط العلوم الاجتماعية على التاريخ قوياً جداً وسيؤثر بصورة حاسمة على الخطاب التاريخي ومن ذلك الخطاب الحوليّاتي الأكثر تأثراً بالتغييرات الآتية من العلوم المجاورة، فكان المؤرخون يعيشون هذا الخطر حتى في علاقتهم بالجمهور العريض لأن العلوم الاجتماعية استحوذت على أوسع المنشورات واستقطبت الأحداث الثقافية. إنها فترة نجاح **دروس في الألسنية العامة** لفرديناند دو سوسور (Ferdinand de Saussure) الذي يعود تاريخه إلى عام 1928 لكن عدد نسخه المطبوعة لم يتجاوز 15000 نسخة طيلة ثلاثين عاماً، غير أنه خلال الستينيات بلغ 10000 نسخة مطبوعة سنوياً. وهو نفس الانتشار الذي عرفه **المدخل إلى علم النفس التحليلي** لفرويد (Freud) الذي تجاوز الـ 165000 نسخة بيعت ما بين أعوام 1962 و1967، في حين أن أقصى ما وصلت إليه هو 30000 نسخة بيعت خلال الثلاثين سنة السابقة. وفي عام 1955 اكتسب الجمهور العريض عالم أنثروبولوجيا أصبح مشهوراً بسرعة وهو كلود ليفي ستراوس (Claude Lévi-Strauss) بكتابه **المدارات الحزينة**. مركز الدفع الآخر للعلوم الاجتماعية قام في ما وراء المحيط الأطلسي. كانت الولايات المتحدة تشع على أوروبا بكل أنوار الحداثة، فلم تتدفق على أوروبا ما بعد الحرب دولارات مارشال فقط ولكن أيضاً تقنيات بحث العلوم

الاجتماعية الأمريكية. وجد علم الاجتماع التجريبي الأمريكي مجال تطبيقه في فرنسا[10] عبر جان ستوتزل (Jean Stoetzel) مدير مركز الأبحاث الاجتماعية الذي أسس عام 1945 المعهد الفرنسي للرأي العام (IFOP) بعد أن تلقى تدريبات في معهد غالوب (Gallup) بالولايات المتحدة. وجد البحث في العلوم الاجتماعية نفسه موظفاً ومركزاً حول أهداف إنتاجية وعقلانية من أجل تحصيل الفاعلية الأمريكية. وقد أصبح مطلوباً من علم الاجتماع وعلم النفس أن يكونا فاعلين داخل المؤسسات الاقتصادية في إطار الدين الجديد للخمسينيات: الحداثة. يجب عليهما مثل الموسيقى، تلطيف الطباع وتجنب الصراعات المحتملة في عالم العمل ودفع نسب المردودية إلى أعلى درجة. ظهرت بنية تقنية تحتاج إلى علم جديد يتغذى بالعلوم الاجتماعية وينشر في المدارس المختصة في إدارة الأعمال[11] والتي تضاعف عددها آنذاك. كانت العلوم الاجتماعية في موقع أفضل من التاريخ في الاستجابة إلى هذا المطلب الاجتماعي وكان يوشك التاريخ أن يرى قطار التغيير يمر وهو باقٍ على الرصيف. يمكن تكميم هذا الضغط على التاريخ في المجال الجامعي. لقد قام بذلك روجيه شارتييه[12] (Roger Chartier) الذي حدد نسبة تزايد عدد المدرسين ما بين أعوام 1963 و1967 في كليات الآداب (انظر الجدول). لقد أخذ في حسابه بعين الاعتبار الأساتذة الحاصلين على

---

(10) Michael Pollak, «La Planification des sciences sociales,» *Actes de la recherche*, nos. 2-3 (juin 1976), pp. 105-121.

(11) Luc Boltanski, «America, America: Le Plan Marshall et l'importation du management,» *Actes de la recherche*, no. 38 (mai 1981), pp. 19-41.

(12) انظر مداخلة روجيه شارتييه بالمدرسة العليا للبحوث في العلوم الاجتماعية في إطار ندوة حول تاريخ **الحوليات** عام 1980.

كراسٍ وكذلك الأساتذة المحاضرين والأساتذة المساعدين والمساعدين. يمكن أن نلاحظ هنا التمييز القائم بين العلوم ذات الشرعية المسيطرة على النصف الأول من الجدول والتي من ضمنها التاريخ، ولكن أيضاً الضغط الذي يمارسه النمو الواضح بسرعة للعلوم الجديدة والتي توشك أن تخلط الأوراق وتقلب الأوضاع القائمة وتحل مكانها تراتبية جديدة. وهذا الخطر المحتمل هو الذي يريد المؤرخون الحوليّاتيون تجنبه وهو الذي سيحدث ردة فعل حادة سواء في المستوى المؤسسي أو في مستوى تعريف علم التاريخ. أصبحت هذه العلوم الاجتماعية التي تتقدم تحتمل بصعوبة متزايدة هيمنة هذه العلوم الشرعية، أصبح علم الاجتماع يأمل في التخلص من وصاية الفلسفة وأصبح التاريخ كعلم أساسي لما هو اجتماعي موضع شك. أما ردة فعل العلوم الاجتماعية ستكون أكثر جذرية من ردة فعل فرانسوا سيميان والدوركايميين في العشرينيات والثلاثينيات. إننا نشهد ميلاد مدرسة ستصبح مهيمنة في مجال العلوم الإنسانية بما في ذلك الآداب: وهي المدرسة البنيوية. تعرف هذه المدرسة نفسها بأنها ضد النزعة التاريخية ووجدت في العالِم الإثنولوجي كلود ليفي ستراوس زعيماً ركز رمايته ضد التاريخ.

الجدول الرقم (2 ـ 1)

1963 ـ 1967

	عدد المدرسين	نسبة التزايد
الآداب	675	+200 في المئة
اللغات القديمة	300	+ 168 في المئة
الفلسفة	227	+183 في المئة
التاريخ	527	+170 في المئة
علم النفس	221	+325 في المئة

الألسنية	250	+250 في المئة
علم الاجتماع	98	+288

المصدر: روجيه شارتييه مداخلة بالمدرسة العليا للبحوث في العلوم الاجتماعية في إطار ندوة حول تاريخ **الحوليات** عام 1980.

كان فرناند بروديل قبل الحرب كسفير **للحوليّات** بكلية الآداب بساو باولو عايش الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس، استطاع أن يقدّر مناخ المنافسة والمصادمة النظرية ولا يتوانى عن السخرية[13] من الغرور العلمي لعلماء الإثنولوجيا والذين لا يستطيعون حل معادلة جبرية بسيطة. إذ إن كل واحد في هذه الكلية بساو باولو يؤكد على أفضلية اختصاصه ويترصّد نجاحات الآخرين. ومنذ تلك الفترة (1934)، حسب جان موغ (Jean Maugüe) الذي كان يصطحبه إلى الكلية في سيارته الشوفروليه الحمراء، كان متقدماً جداً في إعداد أطروحته حول البحر الأبيض المتوسط، فهو لم يكن يفارق أبداً صناديق جذاذاته والميكروفيلم التي كان يتفحصها في غرفة إضافية اكتراها في نزل الترمينوس (Terminus) ثم نزل الإسبلاناد (L'Esplanade) قبل أن يستقر في منزل كبير فيه طباخة وسخان. ساعد فرناند بروديل كلود ليفي ستراوس على العودة إلى فرنسا في أواخر الأربعينيات. وعندما عرّف كلود ليفي ستراوس الأنثروبولوجيا الاجتماعية عام 1949، أعطاها مكانة مهيمنة ليس فقط في حقل العلوم الاجتماعية بل في ما يتجاوز ذلك. يجب أن يمتد مجالها إلى قلب العلوم الطبيعية على حدود الطبيعة والثقافة[14].

---

(13) Jean Maugüe, *Les Dents agacés* (Paris: Buchet-Chastel, 1982), p. 118.

(14) François Dosse, «Les Habits neufs du président Braudel,» *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

يظل المؤرخ في نظر كلود ليفي ستراوس في مستوى التجريبي والملاحظ وهو عاجز عن إنشاء نماذج أي عن الوصول إلى بنى المجتمع العميقة. إنه محكوم عليه بأن يظل أعمى داخل كهفه إلا إذا تسلح باستنارة الإثنولوجي لأن النماذج الواعية تقف حاجزاً بين الملاحظ وموضوع الملاحظة. إن التاريخ والإثنولوجيا متقاربان من جهتين: من جهة وضعيتهم المؤسسية ومن جهة مناهجهما. وكلاهما حقل دراسته هو «الآخر»، سواء كان ذلك في المجال أو في الزمان. يعتبر كلود ليفي ستراوس أن لهذين العلمين موضوعاً واحداً وهدفاً واحداً وهو فهم المجتمعات البشرية بصورة أوضح ولهما أيضا نفس المنهج. إن الفرق الأساسي إذاً هو بين علم تجريبي من ناحية وبحث مفاهيمي من ناحية أخرى: «إنهما يتمايزان خاصة باختيار وجهات النظر المكمّلة لبعضها: ينظم التاريخ معطياته بالنسبة إلى التعبيرات الواعية والإثنولوجيا بالنسبة إلى تعبيرات الحياة الاجتماعية غير الواعية»[15]. حققت الإثنولوجيا بهذا الإنتقال نحو البنى غير الواعية تقدماً من الخاص إلى العام ومن العرضي إلى الضروري ومن الكتابة التصويرية إلى علم القوانين. استعمل كلود ليفي ستراوس مقولة ماركس الشهيرة التي تقول «إن الناس يصنعون تاريخهم ولكنهم لا يعرفون أنهم يصنعونه» ليعطي للجزء الأول من الجملة وظيفة التاريخ وللجزء الثاني حقل الإثنولوجي. طموح كلود ليفي ستراوس المتماشي مع مشروعه في نزع الصفة التاريخية، يندرج على مستوى اكتشاف طريقة عمل العقل البشري، وهو ثابت حقيقي وتواصل إنساني يتجاوز مختلف الحقب والمجالات. تكمن مهمة الأنثروبولوجي في تعداد الأسوار الذهنية انطلاقاً من الثوابت

(15) Claude Lévi-Strauss, *Anthropologie structurale* (Paris: Plon, 1958), p. 25

المكتشفة. وهكذا إن ما تعنيه الأساطير، في تحليل أخير، وبعد توضيح تغيراتها وتبدلاتها المتتالية أن العقل البشري هو الذي صنعها. يعيد كلود ليفي ستراوس الاعتبار من خلال منهجية مجددة وخصبة، لواحدة من أقدم الأفكار التي كنا نعتقد منذ عهود أنها دفنت: وجود طبيعة إنسانية، وهي معطى لا تاريخي لا يمكن تجاوزه وهي خارج الزمن أدركت هنا من خلال وجود بنى شاملة لا واعية ومستترة. قام بذلك على حساب دراسة المؤسسات وطريقة عملها وعلاقات الإنتاج أو السلطة. سواء كان ذلك بدراسة بنى القرابة أو الرمزية الأسطورية: فالأمر يتعلق باكتشاف الحتميات الكامنة وراء أوهام الحرية وصولاً إلى المجال الذي يبدو أقل تبعية للأحداث المادية العارضة مثل الميثولوجيا: «بتركها تحت تأثير البحث عن الإرغامات الذهنية تلتقي اشكاليتنا مع اشكالية كَنْت[16] (Kant)». تتلاشى الجدلية في هذا الأفق كمنطق للمضامين لتترك المكان لأرسطية جديدة تنزع إلى الجوهرية أو كما يسميها بول ريكور لكانطية بلا موضوع متعال حيث اللاوعي هو لا وعي يتعلق بالمقولات (بالمفاهيم الأساسية) أكثر مما هو اللاوعي الفرويدي. في هذا المنظار بدل أن تكشف الأساطير المواجهة بين الاجتماعي والحياة النفسية اللاواعية، فهي تبرز الثبات الأساسي للعقل البشري في ما يتجاوز مظاهره المتنوعة. واكب الموقف ضد التاريخ والثبات أعمال كلود ليفي ستراوس الذي ينظر إلى الميثولوجيا والموسيقى «كالآلات التي تلغي الزمن»[17]. وجد هذا التشكيك الجذري في التاريخ والذي وضعه في مرتبة مادة أساسية، وظرف يختص بالتقلب وتميزه الصدفة وعلم غير قابل للنمذجة، في

---

(16) Claude Lévi-Strauss, *Mythologiques; 1, le cru et le cuit* (Paris: Plon, 1964), p. 18.

(17) المصدر نفسه، ص 22.

فرناند بروديل الشخص الذي سيجيب عن ذلك بتغيير وجهة البحوث التاريخية وإعطائها طابعاً بنيوياً.

تعدد الأزمنة

عارض فرناند بروديل كلود ليفي ستراوس بموروث مارك بلوخ ولوسيان فيفر، ولكنه جدد بتغيير التوجهات الأولى لصد الهجوم البنيوي. وجد التاريخ الحوليّاتي في فرناند بروديل الشخص الذي سيعيد الحيوية لنفس الاستراتيجيا بجعله التاريخ علماً جامعاً للعلوم الإنسانية باستيلائه على برامجها. «اضطر فرناند بروديل أن يذهب بعيداً في تفكيره حول العلاقة بين التاريخ والعلوم الاجتماعية»[18]. يعترف من جهة أخرى فرناند بروديل بالإرث المباشر للعلوم الإنسانية في طريقة كتابته للتاريخ، فهو يستعيد مناهجها لخنقها أكثر، فهناك أولاً تأثير المدرسة الجغرافية الفرنسية: دومانجون ودو مارتون. وهو يأخذ من دروسهما النِيّة في إبطاء إيقاع التاريخ إلى أقصى ما يمكن[19]، فقد ألهمه مارسيل موس بصورة مباشرة توسيع المسيرة التاريخية من الاجتماعي إلى دراسة الحضارة وهي ميزة واضحة في ما بعد الحرب: «لقد كنت من المؤرخين القلائل الذين عرفوا مارسيل موس»[20]. يتذكر بروديل خاصة من ثورة العلوم الاجتماعية، والتي يعتبرها أساسية أكثر من ثورة التاريخ، ضرورة فتح الحدود بين الاختصاصات وتحطيم الجدران التي شيدها كل اختصاص حول

(18) J. H. Hexter, «Braudel and the Monde Braudélien,» *Journal of Modern History*, vol. 44 (septembre 1972), p. 499.

(19) Fernand Braudel, «Lundis de l'histoire,» *France culture* (3 janvier 1977).

(20) *France culture* (21 janvier 1977).

نفسه. إنه من دعاة حرية تبادل الأفكار والأفراد بين مختلف العلوم الإنسانية. وفي كل لحظة يذكر فيها فرناند بروديل العلوم الاجتماعية، يصفها بالإمبريالية ويعتبر أنه على التاريخ ألاّ يرفض المواجهة معها. ولا يمكن للتاريخ إلا أن يخرج شامخاً من هذه المواجهات، وفرناند بروديل لا يشك في قدرة التاريخ على الابتلاع والهضم والتحويل وفق مخطط أصبح طقوسياً. أثناء تقديمه لدرسه الافتتاحي في الكوليج دو فرانس الذي دخله عام 1950، يستذكر منافسيه: «لقد رأينا منذ خمسين سنة ميلاد وإعادة ميلاد وازدهار سلسلة من العلوم الإنسانية الإمبريالية»[21]. يدعو التاريخ في مقدمة أطروحته حول **البحر الأبيض المتوسط** إلى البقاء على اتصال مع «علوم الإنسان الحديثة جداً والشديدة الإمبريالية»[22]. لقد تم تحديد لهجة الخطاب، وهو خطاب الحنو الأبوي من طرف واحد كان مقتنعاً بأن الديمومة ستكون له بالدفاع عن علم متجذر كعلم التاريخ وعن تواصل مدرسة ما فتئت تؤكد وجودها كمهيمنة أمام الولادات وحركة الانبعاث الزائلة وفي وجه هذه النبتات الناشئة التي هي العلوم الإنسانية الأخرى، ولكن التنبه واجب أمام طموحات هذه العلوم، فستكون اللغة مزدوجة ضمن الاستراتيجيا البروديلية من أجل ترويض هذه الطموحات الشابة، فهو من جهة يؤكد على وحدة علوم الإنسان هذه، والتي لا شيء يفرّقها عن التاريخ: «علم الاجتماع والتاريخ كلاهما مغامرة واحدة للعقل فهما ليسا الوجه والقفا للنسيج ذاته بل هما هذا النسيج ذاته في كل كثافة خيوطه»[23]. ولكن ما إن يتمرد الحليف ويرغب في الإفلات من القبضة الحوليّاتية ويطالب بصوت عال باستقلاله، حتى

---

(21) Fernand Braudel, *Ecrits sur l'histoire* (Paris: Flammarion, 1969), p. 31.

(22) المصدر نفسه، ص 13.

(23) المصدر نفسه، ص 105.

يتناسى فرناند بروديل لهجة الحنو ليقارعه. تلك هي حال علم الاجتماع الرافض لعملية الضم، فينتقد ضعفه المتهجي: «لم ينجح في تحديد موضوعه. ما هو المجتمع؟»[24] «لا يمكن أن يكون زمن علماء الاجتماع زمننا، فالبنية العميقة لحرفتنا ترفضه»[25]. وفي ما يتعلق بمفهوم المجتمع الشامل لجورج غورفيتش: «فهو عبارة عن ظرف عام يحتوي ما هو اجتماعي، ولكنه رقيق كجرس من زجاج شفاف وهش»[26]. تبدو لهجة الجدال حادة لتكبح تقدم علم الاجتماع. في حين أن جورج غورفيتش كان يأمل في تجاوز التعارض بين الجمود والديناميكية الاجتماعية بإعادة إدخال الديناميكية الاجتماعية التي فهمت كعملية دائمة لتفكيك البنى وإعادة تركيبها: «إن ديمومة بنية اجتماعية ليست أبداً في حالة سكون، ولكنها صراع وحركة عبر مسالك ملتوية مفتوحة بفعل تعدد الأزمنة الاجتماعية»[27]. بإعادة اعتماد الحركة كانت مقاربة علم الاجتماع شديدة الخطر على التاريخ. أمام نجاح مدرسة بيار بورديو (Pierre Bourdieu) خصم ورفيق درب مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، ينتقد فرناند بروديل ميل علم الاجتماع المتطرف إلى الأفكار العامة وغياب المعنى التاريخي لديه وهو يلتقي مع لوسيان فيفر في رفضه لأعمال ماكس فيبر: «إنكم ضحايا تشتت الحاضر.. ما أحبه هو علماء

---

(24) Fernand Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, 3 vols. (Paris: A. Colin, 1979), vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 408.

(25) Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, p. 77.

(26) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 408.

(27) Georges Gurvitch, «Le Concept de structure sociale,» *Cahiers internationaux de sociologie*, vol. 19, no. 7 (décembre 1955), pp. 3-44.

اجتماع يعملون لفائدتي»[28]. إن حقلي المؤرخ وعالم الاجتماع متقاربان كثيراً حتى أنه لا يمكن تجنب العلاقات الصدامية، فكان بروديل حانقاً على حيوية علم الاجتماع المستقلة عن حيوية **الحوليّات**.

يريد التاريخ البروديلي أن يكون توليفاً قبل كل شيء، كالأنثروبولوجيا ولكن مع غلبة فكرة الزمان والمكان، يستعيد إرث جيل **الحوليّات** الأول. تتحكم الديمومة في كل العلوم الاجتماعية وتعطي للتاريخ الدور المركزي: «الزمن والمدة والتاريخ تفرض نفسها بالفعل، أو يجب أن تفرض نفسها على جميع العلوم الإنسانية»[29]. التاريخ يطمح إلى إعادة بناء شمولية للظواهر الإنسانية وهو الوحيد القادر على إعطائها مكانها المناسب وتقدير فاعليتها في مختلف العلوم المشتتة. إن إدراك كل ما هو اجتماعي في حركة واحدة هو الطموح الكبير للتاريخ البروديلي، فهو الوحيد الذي يمكنه أن يصل إلى ما يسميه «مجموع المجاميع»[30]. من خصائص هذه الشمولية في الخطاب البروديلي أن تكون في تبعية وثيقة لما هو محسوس، أي للوقائع المعاينة. وهي إذاً بعيدة جداً عن الأنظمة التي تكاد تكون رياضية التي وضعتها الأنثروبولوجيا البنيوية: «إننا نفضّل معاينة تجارب حسية على البحث عن تعريف مجرد»[31]. إن الهدف الأمثل والذي يستحيل تحقيقه، الذي كان بروديل قد حدده، يكمن في تقديم كل شيء على مسطح واحد وفي حركة واحدة. ولكن مفهومه للشمولية يشمل مجرد جمع لمستويات مختلفة من الواقع

(28) Fernand Braudel, dans: *Apostrophes*, A2, 21 février 1979.

(29) «Histoire et sociologie,» dans: Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, p. 105.

(30) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 408.

(31) المصدر نفسه، ج 3، ص 199.

دون أن يكون ذلك أداة مفاهيمية قادرة على إدراك ما هو مسيطِر وما هو محدِّد في اللعبة، فهو لا يتجاوز إذاً مستوى سرد وصفي طموح بالنسبة إلى الحقل الذي يرغب في التمكن منه ولكنه محدود من حيث القدرة على التفسير: «أليس من المستحسن أن يكون التاريخ وصفاً قبل كل شيء ومجرد ملاحظة وتنظيم بدون أفكار مسبقة؟»[32] الكليّة التي يدافع عنها لا ترجع إلى مفهوم سببي للتاريخ، ليس هناك نظام سببي مؤثر وفي كثير من الأحيان نصل إلى تراكم بسيط لمختلف الطوابق. أن نلاحظ وننظم ونقارن ونعزل تلك هي العمليات الجراحية الكبرى التي يمارسها فرناند بروديل. مثله مثل لينّيه (Linné) يراكم العديد من الترتيبات الكلية للظواهر الملاحظة والمنظمة بصورة منطقية بعد تعدادها. وراء مفهوم التاريخ الكلي على طريقة بروديل هناك مفهوم للتاريخ يلوح كمادة مصهورة، وهي البلازما الشهيرة، التي تحدث عنها مارك بلوخ. إن الكلمة الرئيسية في الخطاب البروديلي هي «العكس بالعكس» الكل يؤثر في الكل والعكس بالعكس. باعتماد شبكة قراءة الزمن هذه، نفهم أن بروديل وجد صعوبة في الارتفاع من الوصفي إلى التحليلي: «يمكن أن نكتب المعادلات التالية في أي الاتجاهات التي نريد: الاقتصاد هو سياسة وثقافة ومجتمع. والثقافة هي اقتصاد وسياسة ومجتمع...»[33]. التاريخ البروديلي هو بالضرورة تاريخ عالمي، له نظرة واسعة وهي تفترض السيطرة على المنهج المقارني عبر الزمن الأكثر طولاً والمكان الأكثر اتساعاً ما أمكن ذلك.

(32) Fernand Braudel, *La Dynamique du capitalisme* (Paris: Arthaud, 1985), p. 25.

(33) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 25.

الجواب الدقيق على التحدي الذي رفعه كلود ليفي ستراوس ضد التاريخ، في مقاله «التاريخ والإثنولوجيا»[34] جاء من فرناند بروديل في مقال ـ بيان آخر ظهر في **الحوليّات** عام 1958[35] في نفس السنة التي ظهرت فيها **الأنثروبولوجيا البنيوية**. يؤكد فرناند بروديل أنه طيلة عام 1958 كانت له نقاشات عديدة مع كلود ليفي ستراوس والذي يكن له إعجاباً كبيراً وبعض الغيرة كذلك. وهو وإن كان يظهر احتقاراً كبيراً لعلم الاجتماع كان يتجنب المواجهة مع كلود ليفي ستراوس ولم يهاجمه في أي وقت رغم حالة المنافسة النظرية الشرسة. وعلى عكس المعاملة التي خص بها جورج غورفيتش، كان يذكر «قدرة» كلود ليفي ستراوس[36] على فك رموز اللغة الخفية لبنى القرابة وللأساطير والمبادلات الاقتصادية. يقبل فرناند بروديل قائد الجوقة، المعتاد النظر من علوٍ إلى هذه العلوم الحديثة الإمبريالية، ولو لمرة، بترك مقعده ويشير في كلامه عن كلود ليفي ستراوس بالقول «موجّهنا» ولكن دون أن يسلّم له بالتفوق. وهذا دليل واضح على أنه فهم قوة وجاذبية الخطاب الأنثروبولوجي الذي تراءى له شاملاً، وهو مستند إلى آلة رياضية وإلى صياغة نماذج تسمح له ببلوغ لاوعي الممارسات الاجتماعية، وبالتالي الحصول وبسرعة على غلبة مبطلة للتاريخ في حقل العلوم الاجتماعية. يبدع فرناند بروديل إذاً بالاستعارة من كلود ليفي ستراوس، فهو يواجهه بورقة المؤرخ الرابحة: الديمومة، وليس بالثنائي التقليدي الحدث/ التأريخ، ولكن

(34) Claude Lévi-Strauss, «Histoire et ethnologie,» *Revue de métaphysique et de morale,* vol. 54 (1949),

أعيد نشره في: Lévi-Strauss, *Anthropologie structurale*, pp. 3-33.

(35) Fernand Braudel, «Histoire et sciences sociales: La Longue durée,» *Annales* (10 décembre 1958), pp. 725-753.

(36) المصدر نفسه، وأعيد نشره في: Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, p. 70.

بالأمد الطويل الذي يبلغ تأثيره البنى الأكثر ثباتاً والتي يبرزها الأنثروبولوجي: «إن مسألة تحريم استباحة المحارم واقع طويل الأمد»[37]. ويعترف بصحة نقد فرانسوا سيميان لخصوصية الحدث وزيفه بالنسبة إلى العلوم الاجتماعية: «إن العلوم الاجتماعية ترفض الحدث. وليس ذلك بلا سبب: الزمن القصير هو أكثر الديمومات تقلباً ومغالطة»[38]. وهو يقترح إذاً إعادة تنظيم مجموع العلوم الاجتماعية حول برنامج موحد تكون مرجعيته الأساسية فكرة الأمد الطويل. يجب أن تفرض على الجميع وبما أن الأمر يتعلق بالديمومة والتقسيم إلى عهود طويلة، فيكون المؤرخ هو الملك. يقدم فرناند بروديل هذا التغيير كأنه ثورة كوبرنيكية في علم التاريخ نفسه وتخطيط أولي لانقلاب جذري للتصور الذي يسمح لجميع علوم الإنسان بالتكلم بلغة واحدة. وهو يتخلى بشكل متسارع في مسار حياته عن الزمن القصير من أجل الأمد الطويل: «مع مرور الزمن، من عام 1960 إلى عام 1985، كان له ميل للالتصاق أكثر فأكثر بالتاريخ الطويل المدى»[39]. توجد طريقتان أمام العلوم الاجتماعية للإفلات من التاريخ ويجب أن تكونا متعاضدتين: من جهة يجب أن تكون هناك نظرة تحت ـ زمنية وتكون منحصرة في الحاضر ومنقطعة عن كل كثافة زمنية، وهي بالنسبة إلى بروديل حال علم الاجتماع الذي لا يزعج المؤرخ نظراً لمحدودية مسيرته. وبالعكس توجد نظرة فوق ـ زمنية تحاول بناء علم للاتصال حول البنى اللازمنية. نتعرف في ذلك على المحاولة البنيوية وهذه المحاولة تسائل المؤرخ وتضعه موضع اتهام. يجيب فرناند بروديل عن ذلك بالرجوع إلى البحث عن الأمد

(37) المصدر نفسه، ص 73.

(38) المصدر نفسه، ص 46.

(39) المصدر نفسه، ص 46.

الطويل: «حاولت أن أبين ولا أستطيع أن أقول أبرهن على أن بحوث كلود ليفي ستراوس لم تكلل بالنجاح إلا عندما كانت نماذجه تسبح في مياه الأمد الطويل»[40]. وهو يعيد تبني مفهوم البنية الذي استعاره من كلود ليفي ستراوس ولكنه يعني شيئاً آخر في نظام الخطاب البروديلي. على عكس ما تعنيه البنية عند كلود ليفي ستراوس، فهي تعني عند بروديل هندسة وتركيباً ولكنها يمكن أن تعاين في واقع ملموس، ويمكن أن تلاحظ. يظل تصوره تصوراً وصفياً وفياً في ذلك إلى كتابة تقليدية للتاريخ. ولكن يبقى له الفضل في أنه استعاد تبني مفهوم البنية وأعطاه بعداً زمنياً: «إن هذه البنى التاريخية قابلة للاكتشاف وبشكل ما قابلة للقياس: مدتها الزمنية قياس»[41]. وهكذا فإن البنى التي أبرزها في أطروحته عن **البحر الأبيض المتوسط** (*La Méditerranée*) هي مجموع شبكات العلاقات والمسالك والمعاملات، أي كل العلاقات التي كانت تنشط المجال الذي وصفه بطريقة عالمة وحدد تأثيراتها النسبية ولكن دون أن يهتم بالمنطق الداخلي لهذه العلاقات. ختم أطروحته بإعلان الاعتقاد في بنيوية تاريخية خاصة: «إنني بنيوي بطبعي غير مجذوب بالحدث وبصورة جزئية بالظرفية التي هي تجمّع لأحداث لها نفس المعنى. ولكن بنيوية المؤرخ ليس لها علاقة بالإشكالية التي تزعج، تحت نفس التسمية، علوم الإنسان الأخرى، فهي لا توجهه نحو التجريد الرياضي للعلاقات التي تترجم في شكل دالآت، ولكن في اتجاه منابع الحياة بما هو ملموس فيها وما هو يومي وما لا يمكن تحطيمه وما هو إنساني مجهول»[42].

(40) Marc Ferro, dans: *Espaces temps,* nos. 34-35 (décembre 1986).

(41) Braudel, «Histoire et sociologie,» p. 114.

(42) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 410.

إن البنية البروديلية بارزة وقابلة للإدراك مباشرة ومن خصائصها أنها تتحكم في بقية الأحداث وهو ما يعطيها الأولية على المدى الطويل بالنسبة للأنساق الزمنية الأخرى وخاصة بالنظر إلى ما هو وقائعي. إن مسيرة بروديل الفكرية منفتحة عمداً، وهي تضم كل المواقف لتعطي مكاناً للجميع داخل المختبر الكبير للعلوم الإنسانية الذي يتجاوز كل الانقسامات وكل الحدود لعله يحقق توحيد حقل البحوث حول المؤرخين، الاختصاصيين في المدة الزمنية.

لا يقتصر رد فرناند بروديل على ليفي ستراوس وعلى العلوم الاجتماعية بصورة عامة بمعارضتهم بالأمد الطويل كبنية ولكن بالتعددية الزمنية. كان قد حقق هذه التعددية في أطروحته عام 1949 وتحولت إلى نظرية تُتخذ كنموذج عام 1958. إن الزمن ينقسم إلى أنساق غير متجانسة تكسر وحدة الديمومة. يأخذ الزمن صبغة نوعية ليحصل على معقولية جديدة ذات مستويات مختلفة. تتمحور الهندسة البروديلية حول ثلاثة زمنيات مختلفة، أي ثلاث مستويات مختلفة: الوقائعي، الزمن الظرفي الدوري وأخيراً الأمد الطويل. يمكن أيضاً أن نميز بين طوابق مختلفة للزمن واختلافات بين مختلف الحالات الزمنية. تساهم هذه المقاربة بصورة إيجابية في قلب موقع التاريخ التاريخاني ولكنها ليست جديدة بالقدر الذي تدّعيه. فإذا كان فرناند بروديل يعدد الزمن، فهو ليس أقل دفاعاً عن نظرة تاريخية تطمح لإعادة علاقة جدلية بين هذه الحالات الزمنية وإرجاعها إلى زمن وحيد. الأحداث والظرفيات والأمد الطويل كلها تبقى متضامنة. وإذا كانت الوحدة الزمنية منقسمة إلى مستويات عدة، فهذه المستويات تبقى مرتبطة بزمنية شاملة توحد بينها في مجموعة واحدة. وهو بذلك يتمايز مع زمن علماء الاجتماع المتعدد والذي لا كثافة له. يبقى الآن أن نعطي محتوى للشكل البروديلي المثلث وتسمية درجات سرعة

مرور الزمن، فالزمن لم يعد يبدو، عندئذ كمعطى، بل كشيء يبنى. إن جدول قوانين فرناند بروديل المثلث، هو مبني بصورة اختيارية بدون أي مرجعية نظرية وهي قائمة في مستوى الملاحظة التجريبية فقط. ومنذ أطروحته أعطى لكل ديمومة حقلاً ومقراً خاصاً بها: «يمكن أن نميّز داخل الزمن التاريخي زمناً جغرافياً وزمناً اجتماعياً وزمناً فردياً»[43]. وهكذا فإن كتاب **البحر الأبيض المتوسط** ينقسم إلى ثلاثة أجزاء وثلاثة أزمنة وثلاثة حقول. وهو يبدأ «بتاريخ شبه جامد»[44] وهو تاريخ العلاقات بين الإنسان ومحيطه الجغرافي، وهنا تكمن إضافة فرناند بروديل وتتمثل في دمج المكان في الزمان. ثم يأتي التاريخ البطيء وهو تاريخ الاقتصاد والمجتمع وهو يأخذ على عاتقه تاريخ الدورات الاقتصادية وإضافات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الجديد على طريقة إرنست لابروس. وأخيراً، تاريخ وقائعي على مستوى الفرد، ذو تموجات سريعة ومأسوية مثلما هو الشأن في التاريخ التقليدي. هذا التقسيم الثلاثي للزمن وفق مجالات خاصة هو تقسيم اعتباطي لأن السياسي الذي أحيل إلى الزمن القصير يمكن أن يتجسد في مؤسسة طويلة الأمد. وعلى العكس يمكن أن تبين لنا الجغرافيا وغالباً في المأساة، أن التغيير لا يقع دائماً في المستوى الجيولوجي. لا يعني تتالي هذه الأزمنة الثلاثة أن فرناند بروديل يعطيها الأهمية ذاتها. لا شك أنه توجد زمنية سببية مؤسسة لتطور الناس والأشياء، إنه الأمد الطويل وبما أنه يعتمد الطبيعة كمرجعية، فإن هذه الأخيرة هي التي تؤدي الدور الحاسم في آخر المطاف. نجد عندئذ خطاباً تاريخياً على حدود الطبيعة والثقافة. وإذا

---

(43) «Préface,» dans: Fernand Braudel, *Civilisation matérielle et capitalisme, 1, XVème-XVIIIème siècle* (Paris: A. Colin, 1967), vol. 1, p. 17.

(44) المصدر نفسه، ص 16.

كان لكلود ليفي ستراوس طموح اكتشاف مجاهل الطبيعة البشرية بين هذا الثنائي الذي يسمح بالربط بين البيولوجي والنفسي، ففرناند بروديل يعارضه بعدم إمكانية اختزال الطبيعة الخارجية وبطء الزمن الجيولوجي. أهي الخلية العصبية أم الجيولوجيا؟ لقد تم ترك الوقائعي في ما لا معنى له رغم أن هذا المستوى يمثل ثلث أطروحته حول **البحر الأبيض المتوسط**. إذ ليس هناك حديث إلا عن «اضطراب الأمواج» «والزوابع الرملية» «شعاع الحشرات البراقة» و«الزخرف»...، فهنا نجد شيئاً ثابتاً في ذهنية خاصة **بالحوليّات** ضد التاريخ التاريخاني ونفور فرناند بروديل من الحدث الذي يصفه جاك هكستر (Jack Hexter) بأنه «مهووس وأحياناً لامعقول»[45]. وهو يبرر إذاً رفض العلوم الاجتماعية للحدث المفرد ويلتقي مع نقد فرانسوا سيميان عام 1903 ونقد كلود ليفي ستراوس عام 1962. وعوضاً عن وضع الحدث في إطار ديناميكية البنى التي أنتجته، يفضل فرناند بروديل إحالة الوقائعي إلى مستوى السطحية والظاهرية لينجح في تحويل نظر المؤرخ نحو التطورات البطيئة والثوابت، فقد يتمتع الأمد الطويل بالقياس إلى الديمومات الأخرى بمكانة متميزة، فهو الذي يحدد النسق الوقائعي والظرفي ويضع حدود الممكن وغير الممكن ويعدل المتغيرات تحت سقف معين. وإذا كان الحدث ينتمي إلى الهامش، فالظرفية تتبع حركة دورية، وحدها البنى ذات الأمد الطويل تنتمي إلى اللا متغيّر. تعطي هذه الزمنية ذات النفس الطويل إمكانية تفكيكها إلى جداول من الظواهر التي تتكرر ومن الثوابت التي تسمح بظهور توازنات ونظام عام كامن وراء الفوضى الظاهرية في المجال الوقائعي. وفي إطار السعي إلى البحث عن الثوابت تم إعطاء مكانة

---

(45) Hexter, «Braudel and the Monde Braudélien,» p. 507.

متميزة للمكان الذي يبدو أنه الأكثر تلاؤماً مع مفهوم الزمنية البطيئة: «إن هناك ما هو أكثر بطئاً من تاريخ الحضارات وهو ما يكاد يكون ثابتاً لا يتحرك، وهو تاريخ الناس في علاقاتهم الضيقة بالأرض التي تحملهم وتغذيهم»[46]. في هذا السياق تكون حرية الإنسان محدودة، فهو مأخوذ من غير شك في عرضيات البيئة الطبيعية والعادات والحركات المنتظمة التي تفلت من وعيه ومن سيطرته.

إن تحدي كلود ليفي ستراوس اضطر فرناند بروديل إلى وضع مفهوم تاريخ بنيوي ذي زمن يكاد يكون ثابتاً. لم يكن لوسيان فيفر من الذين يقدرون مفهوم البنية تقديراً مبالغاً فيه: «بنية؟ هي كلمة العصر، أعرف ذلك، فهي تمتد في بعض الأحيان في **الحوليّات** أكثر مما يجب حسب رأيي»[47]. ولكن لوسيان فيفر كان في آخر حياته، وفرناند بروديل فهم جيداً المطلوب. منذ ما قبل الأنثروبولوجيا البنيوية كان مؤرخو **الحوليّات** قد بنوا مجموعات ثابتة قابلة للملاحظة. كان يكفي وضع مفهوم لهذه المسيرة لمواجهة هيمنة الأنثروبولوجيا. وهو ما يعني أن حركة التاريخ كان ينظر إليها كتكرار والثابت يأتي قبل المتحول، وفي نهاية هذا التوجه الجديد يعترف كلود ليفي ستراوس بهذا التغيير العميق الذي يدخل التاريخ في نفس الحقل الإشكالي للأنثروبولوجيا: «ليس هناك ما يمكن أن يصدم المؤرخين في فكرة التاريخ البنيوي»[48]. إن هذه الكتابة التاريخية التي

---

(46) Fernand Braudel, «Leçon inaugurale au collège de France, 1950,» dans: Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, p. 24.

(47) Lucien Febvre, «Préface,» dans: Huguette Chaunu et Pierre Chaunu, *Séville et l'atlantique, 1504-1650* (Paris: S. E. V. P. E. N, 1975), p. XI.

(48) Claude Lévi-Strauss, «L'Anthropologie sociale devant l'histoire,» *Annales* (juillet-août 1960), p. 634.

تغوص في أعماق ما يمثل النظام البيئي من أولى تأثيراتها أنها تقلل من دور الإنسان كقوة جماعية. لقد وقع في الشبكة بعد نقله وتهميشه وأصبح يتخبط في العجز: «إن ما أقوم به، هو ضد الحرية الإنسانية»[49] هذا ما يؤكده فرناند بروديل. إن الإنسان لا يقدر على شيء ضد قوى وليدة عصور ضاغطة عليه، ولا ضد دورات اقتصادية ذات أمد طويل. وليس هناك مهرب من شبكة العنكبوت التي يتخبط فيها الإنسان: «أنت لا تصارع تيارات المد والجزر العنينة... وليس هناك ما يمكن فعله أمام ثقل الماضي سوى أن تعيه»[50]. من وراء هذا الإبعاد للإنسان عن المركز، هناك تصور في غاية التشاؤم لمصير العالم: «إنه يسحق الأفراد»[51]. «هكذا، أكون دائماً أمام أي إنسان، مدفوعاً لأن أراه مسجوناً في مصير بالكاد يكون هو صنعه»[52]. لقد فقد الإنسان كل سيطرة على تاريخيته فهو ذائب فيها ويتحملها كمشاهد هو موضوع زمنيته الخاصة. وتنحصر حريته في هذه الصورة التراجيدية لتلك البنية الكولومبية التي حوصرت وإلى الأبد في وحل ثورة بركانية والتي لم يكن ممكناً أن نخلصها منها إلا لتركها تموت...

في ما تجاوز وعينا تشكل عاداتنا المتكررة سجوننا التي قبلناها وتحدث قرارات شكلية ضائعة في غياهب حياة يومية ثابتة: «التاريخ الذي نتلقاه يغزو عالمنا، فليس لدينا سوى رؤوسنا الطافية فوق الماء»[53]. ونحن لسنا بعيدين عن «إنسان البنيوية الميت»، فهذا

(49) Fernand Braudel, *TF1*, 22 août 1984.

(50) المصدر نفسه.

(51) المصدر نفسه.

(52) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 2 vols. (Paris: A. Colin, 1976), vol. 2, p. 520.

(53) Braudel, «Y a-t-il une nouvelle histoire?».

الإبعاد عن المركز، وهو أمر مفارق بالنسبة إلى المؤرخ، هو نتيجة لعملية تفكك الزمنية إلى ثلاثة أنساق غير منسجمة بطبيعتها وبزمنها: الزمن الجغرافي والزمن الاجتماعي والزمن الفردي. ولهذا التراتب التاريخي نتيجة يعرفها فرناند بروديل نفسه، «تفكك الإنسان إلى موكب من الشخوص»[54]. يلعب الأمد الطويل هنا دور مسلك الهروب بالنسبة للإنسان وذلك بإدخاله لنظام خارج عن نطاق سيطرته. ولكن تظل البلاغة البروديلية بلاغة إنسانوية بقدر ما يكون فيها الإنسان مبعداً عن المركز ولكن غير غائب عن بنائه الزمني وهو في ذلك وفيّ إلى إرث لوسيان فيفر ومارك بلوخ الإنساني - المركزي. إنها إنسانوية عضوانية لا تتخذ الواقع الإنساني غاية وإنما تعدد أعضائه.

قلب فرناند بروديل، شأنه شأن كلود ليفي ستراوس، التصور الخطي للزمن الذي يتقدم نحو تكامل متواصل، ويستعيض عنه بزمن واقف لا يختلف فيه الماضي عن الحاضر وعن المستقبل وهي أزمنة تتكرر دون انقطاع. وحده نظام التكرار هو الممكن، وهو يفضل الثوابت ويجعل مفهوم الحدث وهماً: «في التفسير التاريخي، كما أراه، الزمن الطويل هو الذي ينتصر دائماً، فهو الذي ينفي مجموعة من الأحداث»[55]. إن الثبات الكبير الذي أبرزه فرناند بروديل والذي كان المجتمع الإنساني دائماً محوره، هو التراتبية الاجتماعية. إن المجتمع هو حتماً مجتمع غير عادل وكل اندفاع نحو العدل محكوم بالفشل إذاً لطبيعته الوهمية. وهو يتناسى نسبيته ليرتكز على هذا

(54) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 1, p. 17.

(55) المصدر نفسه، ج 2، ص 520.

الثابت عبر الزمن وفي اختلاف الأمكنة: «تكشف كل ملاحظة هذا الظلم الكبير الذي هو القانون المتواصل للمجتمعات»[56]. وهو يرى فيها قانوناً بنيوياً بدون استثناء على طريقة تحريم المحارم عند كلود ليفي ستراوس. نفهم إلى أي مدى يكون هذا الثابت نافياً للتاريخانية ولكل إمكانية للتغيير. إذاً كل واقع اجتماعي موضوع على نفس المستوى من حيث التراتبية والتفاوت. وحدها متغيرات هذا القانون الدائم تستطيع أن تغير وتنتج مجتمعاً مبنياً على العبودية والاستعباد أو الأجراء، ولكن هذه الحلول تحيل إلى نفس ظاهرة فرض الخضوع والطاعة على الجماهير. وهو أمر حسن من جهة أخرى بالنسبة إلى فرناند بروديل: «المجتمعات لا تصلح إلا إذا كانت تسيّرها نخبة»[57]. وهنا ينفي الأمد الطويل التاريخية ويعتبر كذلك أنه لا يوجد تقدم بين المجتمع العبودي والديمقراطيات الحديثة، فقمة الهرم الاجتماعي دائماً ضيّقة، فما الفائدة إذاً من تغيير شكل الاستغلال ما دام الاستغلال دائماً موجوداً؟ في حين أن التاريخ مصنوع من هذه التغييرات في مستوى النخب الحاكمة ولكن بنسبة «تسعة إلى عشرة تقريباً لإعادة إنتاج الحالات السالفة»[58] لأن المهمة الأساسية لأي مجتمع هي إعادة إنتاج بناه مثلما هو الشأن بالنسبة إلى «المجتمعات الباردة» لكلود ليفي ستراوس، فالنظام الموجود يتواصل حائلاً بين محاولات تغيير الناس. إن أي محاولة لتجاوز هذا الوضع هي مجرد إضاعة للوقت. إذا كانت التراتبية الاجتماعية أفقاً لا يمكن تجاوزه في

---

(56) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 415.

(57) Braudel, *TF1*, 22 août 1984.

(58) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 422.

كل المستويات، فإن فرناند بروديل لا يتوقف عند أي ثابت من الثوابت: «الدولة والرأسمالية والحضارة والمجتمع كلها موجودة منذ الأزل»[59]. الأمد الطويل يثبت الأشياء وتبرز التناقضات بوضوح ولكن ذلك لم يتم التأكيد عليه، و يفرغ المؤرخ فرناند بروديل التاريخية. إن تركيبة التنظيم الذاتي التي تعمل في مستوى بنى المجتمع تسمح بتكرار الشيء لذاته وتبطل أي محاولة للتحول والقطيعة أو حتى التغيير، فكل قطيعة تاريخية مآلها إلى الفشل، وإلى ما هو باق وراء الوهم. ونفس الشيء ينطبق بالنسبة إلى فرناند بروديل[60] على الصين التي حافظت على أسيادها والهند التي لها طبقاتها المغلقة بصورة دائمة وحتى أوروبا التي تتطور في الواقع ببطء، رغم أن مجتمعاتها هي الأكثر حراكاً. برز بوضوح في منطقة البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر اضطراب اجتماعي ولكن ليس له من وضع سوى «أنه حادث طريق»، «وغبار من الوقائع المختلفة »[61]. والأحداث التي ذكرت هي أبعد ما يكون عن الثورات الواعية ولكنها حركات صعلكة كاتالانية (Catalan) وكالابرية (Calabrais) وأبروزية (Abruzes)، فقد تم وببساطة حصر رغبة الثورة الاجتماعية في نوع من الانحراف القاتل. وصراع الطبقات لم يؤخذ من قبل فرناند بروديل إلا في شكل ثأر بين الأقارب يمارسه أناس تائهون ومشردون ومنحرفون ومن غير شك كلها حركات محكومة بأن تكون تمرداً لا نتيجة له. وبذلك يكون الأمر عبارة عن لعبة دائمة

---

(59) Fernand Braudel, «Entretien,» *Magazine littéraire* (novembre 1984), p. 20.

(60) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 48.

(61) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 2, pp. 76-77.

بين الشرطي واللص، فالتفقر الذي عرفته البروليتاريا بأسرها في القرن السادس عشر يغذي «قطع طرق، هو عبارة عن ثورة اجتماعية حقيقية طويلة الأمد ولكنها زائفة»[62].

إن الثورات مثلها مثل الجراح تلتئم بسرعة والجسد ينتج بنفسه المضادات الحيوية التي تطرد محاولات القطيعة، فالإنكساران الثقافيان الكبيران في أوروبا الحديثة، النهضة والإصلاح الديني، تمت إعادة استعمالهما وإعادة إقحامهما في النظام التكراري: «كل شيء ينحصر ويندمج في ما هو موجود»[63]. أدت النهضة إلى انتصار أمير مكيافيللي وأوصل الإصلاح الديني إلى سلطة الأمراء الفيوداليين في ألمانيا. وحدها الواجهة تأثرت خلال هذه الثورات الثقافية، بينما المجتمع والسلطة لم يُمسّا. والأمر نفسه جرى في التاريخ المعاصر والناشطون في أحداث أيار/ مايو 1968 «جرى استيعابهم من قبل مجتمع صبور»[64]. من جهة أخرى هذا الاستيعاب للجديد من قبل القديم هو أمر إيجابي بالنسبة إلى فرناند بروديل الذي هاجم مؤخراً حركة عام 1968 التي حطت، في رأيه، من قيمة العمل والقيم الأخلاقية وأدت إلى مصيبة، لأنه «لا يمكن للمرء أن يكون سعيداً إلا إذا كان منضبطاً ومتحلياً بقيم ثابتة»[65]. يبدو الأمد الطويل البروديلي ومختلف ثوابته هنا بوضوح، على ما هو عليه: قراءة لتاريخنا تسمح باستبعاد أي خطر للتغيير، لأنه من خلال علاقته بالحاضر يستعمل المؤرخ هذا المنظار أو ذاك مما يسمح له باستعادة الماضي.

---

(62) المصدر نفسه، ج 1، ص 417.

(63) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 415.

(64) المصدر نفسه.

(65) Braudel, *TF1*, 22 août 1984.

إن الاستعراض الذي قام به فرناند بروديل تجاه التحدي الذي رفعته الأنثروبولوجيا البنيوية نجح باعتبار أن التاريخ بقي القطعة المركزية في حقل العلوم الاجتماعية، لكن ذلك تم على حساب تحول أدّى إلى تغيير جذري. لم ينجح كلود ليفي ستراوس في زعزعة المؤرخين كمؤسسة، فقد رجع حديثاً إلى حقلهم ليستحوذ على ثيابهم القديمة المهترئة والمتروكة: «في الوقت الذي اعتبر فيه التاريخ الجديد أننا على حق في اهتمامنا بأشياء كثيرة كان عليه أن يأخذها في الاعتبار، فنحن أصبحنا نهتم بمجالات أهملها التاريخ الجديد مثل التحالفات السلالية وعلاقات النسب داخل العائلات الكبيرة والتي أصبحت اليوم من المواضيع التي يهتم بها الإثنولوجيون الشبان. هناك إذاً عملية تبديل حقيقية لكنها بلا جدوى»[66]. تحول التاريخ إلى أنثروبولوجي، وتحولت الأنثروبولوجيا إلى تاريخية. هكذا يكون فرناند بروديل قد هيأ تغيير اتجاهات الخطاب التاريخي لدى الجيل الثالث من **الحوليّات**. إنه حلقة لا بد منها في تطور سمح بتوسيع مجال النظر والبحث لدى المؤرخ. ولكن يمكن أن نتساءل أليست الأنثروبولوجيا هي التي سيطرت بصورة كلية على الخطاب التاريخي من الداخل. قد يكون إذاً حصان طروادة، «الرجل العاري» لكلود ليفي ستراوس، هو الذي جرد كليو من لباسها.

بروديل المؤسس

فرناند بروديل هو قبل كل شيء مؤسس الإمبراطوريات، خبير كبير في مجال التنظيم، يهتم خاصة بتدعيم وتوسيع حقل المؤرخ. بفضله يمكن **للحوليّات** أن تصمد، دون عناء، أمام الهجمة البنيوية

---

(66) مقابلة كلود ليفي ستروس مع المؤلف بتاريخ 26 شباط/ فبراير 1985.

لأنها ترتكز على دعامة مؤسسة ما فتئت صلابتها تشتد، فقد أجاب على التحدي المعارض للتاريخ في مستويين، في مستوى توجهات البحث وفي مستوى مواقع النفوذ. وهكذا «فإن الحرب بين التاريخ والبنيوية لن تقع»[67]. كسيد فيودالي سيهتم فرناند بروديل بتحصين أتباعه وبمنحهم سلطاته التي فرضها على قطع مختلفة من الأرض التي يسيطر عليها بلا منازع. وهذه الكارزمية يقر له بها تلامذته المقربون مثل مارك فيرّو (Marc Ferro) «إنه يقود مشروعه كصاحب سلطة، كرئيس دولة»[68]. غيرت مجلة **الحوليّات** غداة الحرب، عام 1946، اسمها وتخلت في عنوانها عن المرجعية التاريخية لتتخذ اسم **حوليات، اقتصاديات، مجتمعات، حضارات** منذ هذا التاريخ. يعبر هذا التغيير عن الرغبة في تحقيق الاندماج الداخلي بين مختلف العلوم الاجتماعية بسهولة، والمؤرخون بما أنهم أصحاب المشروع يخفون انتماءهم حتى لا يظهر بسهولة دورهم كأصحاب القرار. أعيد تنظيم إدارة المجلة نتيجة لغياب عدد من الكتّاب بفعل الحرب، ولصعود نجوم جديدة مرشحة. لم يعد هناك سوى مدير واحد هو لوسيان فيفر، ولكنه أحاط نفسه في هيئة التحرير بفرناند بروديل الذي سيخلفه على رأس المجلة عام 1947، وشارل مورازيه (Charles Morazé) وجورج فريدمان وبول لويّليو. يضم هذا الفريق مشاركين جدداً جاؤوا من مختلف آفاق العلوم الاجتماعية. وأضيف إلى المؤرخين: بيار شونو وبيار غوبير وموريس كروزيه وكلود فولين (Claude Folhen) وموريس لومبار (Maurice Lombart) وإيف رونُوار (Yves Renouart)، ومن الجغرافيين كل من: بيار غورو (Pierre Gourou) وديون (Dion)

(67) André Burguière, dans: *Annales,* numéro «Histoire et structure» (1971).

(68) Marc Ferro, «Le Laboratoire des Annales,» *Magazine littéraire* (novembre 1984), p. 25.

ومونييه (Menier) ومن علماء الاقتصاد: بتلهايم (Bettelheim) وفوراستييه (Fourastié)... احتفظت المجلة إذاً بدورها الجامع في ما بعد الحرب. ولكن الانتصار مازال لم يكتمل بالنسبة إلى المؤرخين الحوليّاتيين لأنه مازال أمامهم في مسيرتهم الطويلة نحو الهيمنة ذاك المنافس المستميت في عدم الاستسلام للضم والذي يحاول أن يصنع لنفسه مكاناً منذ زمن بعيد: إنه علم الاجتماع الدوركايمي. حقيقة إن مدرسة علم الاجتماع كانت عام 1945 قد وقع قطع الرؤوس فيها، فقد مات سيليستان بوغليه عام 1940 ونفي موريس هالبواكسس إلى بوشنفالد حيث توفي عام 1945 وكان مارسيل موس قد تقاعد عن العمل من كوليج دو فرانس عام 1942. إلا أن جورج غورفيتش الذي فر من النازية، أسّس عام 1942 بنيويورك في الجامعة الناطقة باللغة الفرنسية، المدرسة الحرة للدراسات العليا، وهي معهد لعلم الاجتماع. يقترب هدف جورج غورفيتش من **الحوليّات**، وهو تحقيق المواجهة بين مختلف العلوم الاجتماعية، و هو يعني بذلك إخضاعها لعلم الاجتماع، فتكونت شبكة منافسة تضم علماء اقتصاد وعلماء اجتماع وعلماء إثنولوجيا من بينهم كلود ليفي ستراوس، متمرسين على العمل الجماعي في ما وراء المحيط، سيزاحمون المؤرخين في احتلال موقع الزعامة في الوقت الذي طرحت فيه مؤسسة روكفلر (Rockefeller) نفسها عام 1945 لدعم البحوث في العلوم الاجتماعية بأوروبا. يبدو آنذاك أن جورج غورفيتش سبق المؤرخين بإنشاء مركز دراسات علم الاجتماع في آذار/ مارس 1946. كان في نيته تأسيس قسم للعلوم الاجتماعية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، أي تأسيس قسم سادس. وليست هي المرة الأولى التي يقع فيها التعبير عن هذا الطموح لدى علماء الاجتماع، فقد كان مارسيل موس قدم مشروعاً لتأسيس مركز للعلوم الاجتماعية بجامعة باريس تحت رعاية مؤسسة روكفلر عام 1929. بدا احتمال بعث قسم سادس في المدرسة

التطبيقية العليا آنذاك كحل تراجعي مؤقت، بالنسبة لمشروع أكثر شمولاً»[69]. فشل المشروع لأن الأمريكيين اعتبروا أن الظروف الفرنسية ليست سانحة لمثل هذا التأسيس وأن شخصية مارسيل موس الاشتراكية تزعج الممولين بعض الشيء. ويبدو أن جورج غورفيتش كان في موقع أفضل بالنسبة إلى ظروف ما بعد الحرب وفي إطار الحرب الباردة الناشئة. وقد فهم ج. هـ. ويليت (J. H. Willit)، مدير قسم العلوم الاجتماعية، في مؤسسة روكفلر الرهان بصورة جيدة، فكتب في أكتوبر عام 1946: «إن فرنسا جديدة ومجتمعاً جديداً في طور التشكل على أنقاض الاحتلال، بفضل جهود رائعة، ولكن المشاكل مذهلة. في فرنسا، بدا أن التأقلم بين الشيوعية والديمقراطية الغربية أو المَخرج من هذا الصراع بالغ الحدة. وكانت فرنسا إما حقلاً لهذا الصراع أو مختبراً له»[70]. لذا كان الوضع مناسباً لإنشاء هذا القسم السادس، وبدا أن علماء الاجتماع مؤهلين بشكل أفضل لإنجاح مشروعهم. ولكن ستفلت منهم القيادة لمصلحة المؤرخين الحوليّاتيين. إلا أننا نجد لوسيان فيفر ضمن الهيئة الإدارية لمركز دراسات علم الاجتماع إلى جانب باحثين من المرتبة الأولى مثل لويس جيرنيه وغبريال لوبرا وموريس لينهاردت (Maurice Leenhardt) وهـ. ليفي برول، وجميعهم التقوا حول جورج غورفيتش. ولكن المؤرخ شارل مورازيه الذي كان الملهم لمدير التعليم العالي آنذاك بيار أوجيه (Pierre Auger) في مشاريعه في مجال العلوم الاجتماعية، كان عضواً في هيئة إدارة **الحوليّات**. كان الرجلان متكاملين، لأنه من ناحية كان بيار أوجيه يريد إنشاء قسم جديد خاص بالعلوم الاجتماعية في المدرسة التطبيقية

---

(69) Brigitte Mazon, «Fondations américaines et sciences sociales en France: 1920-1960,» (Thèse de 3ème cycle, EHESS, 1985), pp. 54-56.

(70) «Archive de la fondation Rockefeller,» dans: Ibid., p. 103.

للدراسات العليا ولكن ينقصه اعتماد مالي لم تكن الحكومة الفرنسية قادرة على تقديمه، ومن جهة أخرى شارل مورازيه، أمين سر اللجنة الدولية للعلوم التاريخية، كان قد حصل على تمويلات هامة من مؤسسة روكفلر. وضع الاثنان القائمة الأولى لمديري الأبحاث التي تم تقديمها إلى مؤسسة روكفلر عام 1947: «منذ البداية كان المؤرخون يمثلون الأغلبية»[71]. يستمد هذا التطور المناسب **للحوليّات** والذي نجد فيه أهم المتعاملين معها، يعود أساساً إلى أهمية شارل مورازيه ضمن مشروع القسم السادس. وهذا الأخير لم يكن فقط ضمن هيئة إدارة المجلة، ولكنه أسس أيضاً عام 1947 جمعية أصدقاء **الحوليّات** والتي ستسمى لاحقاً جمعية مارك بلوخ. ولكن لوسيان فيفر لم يدرك على الفور القيمة الكبرى للدخول في هذه المغامرة ولم يقتنع من شارل مورازيه إلا في خريف عام 1947 عندما أعلمه هذا الأخير أنه ما لم تقم **الحوليّات** بهذه المبادرة، فإن جورج غورفيتش سيحول مركز دراساته لعلوم الاجتماع إلى قسم سادس: «فتوشك عند ذلك أن تسقط الإدارة المؤسسية للعلوم الاجتماعية بين يدي علماء الاجتماع»[72]. انتخب لوسيان فيفر رئيساً لأول مجلس للقسم السادس عام 1948. وفي ذلك الوقت تم تعيين فرناند بروديل كمنظم للهيمنة الحوليّاتية بصفته أمين سر للقسم السادس ومسؤولاً عن تنظيمه، كما أسندت إليه إدارة مركز البحوث التاريخية، فقد رأى فيه لوسيان فيفر بفطنته تلك القدرة على التنظيم والإدارة وإمكانية الحصول على ثقة ما وراء المحيط. يمثل القسم السادس بالنسبة إلى فرناند بروديل أداة حاسمة في مسار واسع لإدخال العلوم الاجتماعية لمصلحة المؤرخ، هناك وحشية في استراتيجيته: «يجب أن نفهم جيداً ما هو درس **الحوليّات**،

---

(71) المصدر نفسه، ص 128.

(72) المصدر نفسه، ص 123.

مدرسة **الحوليّات**. . . هو أن كل العلوم الإنسانية قد أدمجت في التاريخ وأصبحت علوماً رديفة له»[73]. أخذ فرناند بروديل، وهو رجل السلطة، الآلة الجهنمية التي تسمح بإعادة الجمع التي طمح إليها الجيل الأول وذلك بإرسائها على قاعدة مؤسسية، فلو لم يكن كما اعترف بذلك، رجل مجلات، فقد أبدع بالعكس كمؤسس وبانٍ لمدرسة. بالإضافة إلى ذلك كان يعطي الطمأنينة في عيون الأمريكيين بالانتساب إلى عالم أطلسي ينفصل أكثر فأكثر عن القوة السوفياتية الكبرى الموجودة في القارة (الأوروبية). قدمت خاتمة أطروحته التي كتبت في شهر كانون الأول/ ديسمبر 1948، الضمانات الضرورية: «يبدو لي مثلاً أن المحيط الأطلسي هو في قلب العالم الحالي ولكن إلى أي مدة من الزمن؟. . . ربما لن نتكلم عن الأمر ببساطة إلا في اليوم، والذي سيكون بعيداً ما أمكن وهو ما نتمناه، الذي يؤدي فيه إنهيار المحيط، ضد مصلحته، إلى قيام مصلحة مجالات مائية أخرى أو مصلحة اليابسة، وهو الأمر الرهيب»[74]. نفهم من وراء هذا الرهيب أن المقصود هو الاتحاد السوفياتي. ولكن باريس ليست نيويورك وفرناند بروديل ليس مارشال (Marshall). ولئن أعطى ضمانات للأمريكيين فهو لم يقبل التبعية لهم. وفي إطار بحثه عن اقتصاديين لصالح القسم السادس، ساند شارل بتلهايم عام 1948 وجعل منه أول مدير دراسات متفرغ منتخب في شهر آذار/ مارس 1948.

لا يمكن أن نقول في شأن هذا الأخير، المختص في الاقتصاد

(73) *Une Leçon d'histoire de Fernand Braudel: Journées Fernand Braudel, 18, 19 et 20 octobre 1985, Châteauvallon,* (conférence) [organisées par le centre de rencontres de Châteauvallon] (Paris: Arthaud-Flammarion, 1986), p. 222.

(74) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (Paris: Armand Colin, 1949), vol. 2, p. 1095.

السوفياتي والماركسي، إنه يستجيب لمواصفات المنخرط في الفكر الأطلسي ما بعد الحرب. يعبّر هذا التعيين عن استقلالية الفكر والسياسة العلمية التي مارسها فرناند بروديل بالقسم السادس، وهو لم يفرّط بها، حتى في خضم الحرب الباردة عندما كانت الضغوط الأمريكية تزداد قوة، فقد رفض الانفصال عن جان شينو (Jean Chesnaux) بل فرض أيضاً على الأمريكيين كلاًّ من آنّي كريجل (Annie Kriegel) وكلود فرِيُّو (Claude Frioux) وجورج هوبت[75] (Georges Haupt).

في نهاية عام 1951 طلب لوسيان فيفر وفرناند بروديل من جديد برنامجاً للتمويل من مؤسسة روكفلر. و كان الدعم المقدم حتى ذلك التاريخ متواضعاً: كان ربع الدعم فقط بتصرف المؤسسة الاقتصادية لشارل ريست. كان الهدف إذاً هو ضخ نفس جديد لقسم سادس لا يزال فقيراً وكان تبرير طلب الدعم قد تم بوضوح هذه المرة من أجل الأولوية الممنوحة للتاريخ، فكان المطلوب هو دعم بقيمة 13500 دولار (500000 4 فرنك) لفترة سنتين ونصف ابتداءاً من أول تموز/ يوليو 1952[76] لتمويل تنظيم ندوات اختصاصية وبرنامج مركز البحوث التاريخية الذي يديره فرناند بروديل والذي باشر بإعداد سلسلة دراسات حول الموانئ والتجارة والمسالك والمبادلات الاقتصادية العالمية في نهاية القرن الخامس عشر ونهاية القرن السادس عشر. لم يهمل فرناند بروديل خلال هذه السنوات الخمسين، تدريس التاريخ في المؤسسات الجامعية التقليدية التي

---

(75) Olivier Dumoulin, «Un Entrepreneur des sciences de l'homme,» *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

(76) Mazon, «Fondations américaines et sciences sociales en France: 1920-1960,» p. 154.

ترغب **الحوليّات** في تغييرها جذرياً. نتذكر المحاولة الفاشلة لتغيير التبريز في العمق والتي قام بها عام 1934 الأبوان المؤسسان. وقد استعاد الإرث وهو في موقف أفضل بما أنه تم تعيينه رئيساً للجنة التحكيم في التبريز من عام 1950 إلى عام 1955. من المؤكد أن مباراة الدخول لم تتأثر، لكن رئيسها استطاع أن يستخدم موقعه طيلة خمس سنوات كمنبر/ محكمة باسم معايير جديدة كانت معايير مدرسة **الحوليّات**. يروي ميشال فوفيل[77] (Michel Vovelle) أنه عرف عدداً من المرشحين الذين تقدموا لمباراة التبريز عندما كان فرناند بروديل يرأس لجنة الامتحان أنه قال لهم بنوع من الاحتقار، أن أبحاثهم المقدمة ليست فيها رائحة السماد كفاية مثلما نقد لوسيان فيفر **المجتمع الفيودالي** لمارك بلوخ لما قال بأنه لا تضوع منه رائحة الأرض بما فيه الكفاية. لقد بدا تغير النبرة وتغير المنظور واضحاً في التقارير التقليدية لمباراة التبريز. وهو عوض أن يلاحظ التدني المتواصل للمستوى يدعو إلى تغيير التعليم العالي وإلى انفتاحه على التاريخ الاقتصادي وإلى إعداد أفضل في مستوى التقنيات العلمية وإلى اسقاط الحواجز بين العلوم: «ما فتئ التاريخ يتطلب من حيث بنيته الأساسية، معرفة النتائج الكبرى ومناهج العلوم الاجتماعية المجاورة (وليس الجغرافيا فقط)»[78].

ولكن المشروع الكبير المتأثر بشخصية فرناند بروديل قد تم تقديمه في نهاية مدة رئاسته للجنة التبريز عام 1956، فقد اقترح في ذلك الوقت برنامجاً سيعطي القسم السادس هدفاً علمياً طويل الأمد ويؤمن له انطلاقة لا تقاوم. يعتمد هذا البرنامج على تجربة «مجالات

---

(77) Michel Vovelle, dans: *Espaces-temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

(78) Fernand Braudel, «Rapport du concours 1953,» *Bulletin de l'association des professeurs d'histoire et de géographie* (1954), pp. 226-284.

البحث» في الجامعات الأمريكية وهو يقتضي تنظيم البحث حسب هذا النموذج باعتماد المجالات الثقافية. وهذه المجالات تسمح بتجميع المناهج التاريخية والاقتصادية والاجتماعية. كان فرناند بروديل قد قام برحلة طويلة إلى الولايات المتحدة عام 1955 لدراسة تجربة «مجالات البحث»، وقد رجع منها مشككاً في قدرة الباحثين الأمريكيين على تحقيق المشروع، فبالنسبة إليه، تنقصهم ثلاثة أبعاد جوهرية: الفلسفة والتاريخ والجغرافيا التي يهملونها من أجل بحوث تهتم بما هو آني. وبالمقابل يمكن أن يتناول الباحثون الفرنسيون بنجاح هذه المحاولة في إطار القسم السادس بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا[79]. إن هذا البرنامج حول المجالات الثقافية تم وضعه بالتعاون مع كليمنس هيلر (Clemens Heller)، الذي انضم مبكراً (منذ عام 1952) إلى جانب فرناند بروديل لتطوير القسم السادس. بل يمكن القول إنه، وهو خريج هارفارد ومستقر بباريس منذ عام 1949، هو الذي كانت له فكرة ملاءمة نموذج «مجالات البحث» الأمريكي في فرنسا. ولا يسمح هذا البرنامج بالتعاون العضوي بين مختلف العلوم فحسب، بل يسمح أيضاً بالربط بين ضرورات فهم العالم المعاصر والماضي بواسطة الكثافة الزمنية التي يمكن أن يدخلها المؤرخون في فرنسا كمنظمين للعلوم الإنسانية أكثر مما يفعله المؤرخون في الولايات المتحدة. حظي البرنامج بقبول مؤسسة روكفلر بعد عام من المفاوضات الصعبة، لأن مؤسسة روكفلر قدمت إلى كليمنس هيلر وفرناند بروديل شروطاً صارمة في ما

---

(79) Fernand Braudel, «Rapport préliminaire sur les sciences humaines au ministère de l'éducation nationale, 1956,»

ورد في: Mazon, «Fondations américaines et sciences sociales en France: 1920-1960,» p. 167.

يتعلق بالتمويل، من بينها رفضها تمويل أعمال إيتيان بالاز (Etienne Balazs) حول تاريخ الصين الوسيط وأبحاث جان شينو والتي ستتبناها وزارة التربية الوطنية. رغم ذلك بعث مشروع المجالات الثقافية وحصل على تمويل قدره 60000 دولار في كانون الأول/ ديسمبر 1955 ولمدة سنتين، ثم أضافت مؤسسة روكفلر 80000 دولار عام 1958 لمدة ثلاث سنوات[80]. لقد أدّى برنامج المجالات الثقافية إلى ازدهار كمي حاسم بالنسبة إلى القسم السادس لأنه حصل ما بين عام 1954 وعام 1957 على حوالي أربعين إدارة بحوث جديدة نصفها لتحقيق برنامج المجالات الثقافية. حصل فرناند بروديل من وزارة التربية الوطنية على إنشاء ستين وظيفة لرؤساء أعمال مسجلين في ميزانية عام 1960، وهو دليل على النجاح المؤسسي للقسم السادس. كما يكون هذا البرنامج قد مهد الأرضية لأنثروبولوجيا هجومية. لقد حقق القسم السادس في ذلك التاريخ، عام 1960، قفزة جديدة إلى الأمام، فمن سبعة وستين إدارة بحوث عام 1958، أصبح العدد ثمانين عام 1960، مستفيداً من سياسة علوم اجتماعية حقيقية من قبل الدولة وكذلك المنظمات الاجتماعية التي أطلقت مبادرات كثيرة. يبدو أن القسم السادس كان المكان الأنسب للاستجابة لمطلب اجتماعي ملح لم تأخذه المؤسسات الاجتماعية التقليدية في اعتباراتها. ولكن فرناند بروديل لم يكتف بالإشعاع داخل فرنسا، فقد لعب ورقة التأثير العالمي. تبدو هذه العولمة لتوجهات **الحوليات** واضحة في الدراسة المقارنة للتوزع الجغرافي في المساهمات التي قدمت بمناسبة تكريم لوسيان فيفر والتي صدرت عام 1953 وبعد عشرين سنة، في الأعمال المهداة إلى فرناند بروديل[81] (انظر الجدول). ظلت منطقة التأثير

---

(80) Mazon, Ibid., p. 172.

(81) Hexter, «Braudel and the Monde Braudélien,» pp. 495-496.

بالنسبة إلى لوسيان فيفر فرنسية في أغلبها: سبعون مساهمة قدمها فرنسيون وخمس عشرة قدمها أجانب من ضمنها تسع مساهمات إيطالية. وعلى العكس بالنسبة إلى فرناند بروديل، فقد تشعب المجال الحوليّاتي كثيراً: أربعون مساهمة من فرنسا وخمسون لمؤرخين أجانب. ظهرت في الخمسينيات السلاسل الكبرى للقسم السادس بتأثير من فرناند بروديل: موانئ ومسالك وتجارة وعملات وأسعار وظرفيات، وأعمال ورجال أعمال وأناس وأراض ومجتمعات وحضارات. «إن حلم ف. سيميان... بمختبر للعلوم الاجتماعية على رأسه مدير يشرف على البحث» تحول إلى حقيقة[82]. يمكن أن نقدر، بالنظر إلى هذه النجاحات، كم تبدو حظوظ نجاح مشروع زعزعة التاريخ الذي قام به البنيويون، ضعيفة، رغم انتشاره في أوساط المثقفين. صمدت **الحوليات** باعتمادها على دفاعات قوية، أمام الهجوم الذي وقع ضد التاريخ في أواخر الخمسينيات مثلما كان ذلك في بداية القرن، فلم يكتف فرناند بروديل بإنعاش القسم السادس، فشارك في تحرير مخطط لونشامبون (Longchambon) عام 1958، يدعمه في ذلك غاستون بيرجيه (Gaston Bergé)، مدير التعليم العالي. واقترح ضمن هذا المخطط إنشاء جامعة جديدة مستقلة عن السوربون وكليات الحقوق وتكون مهتمة بالعلوم الاجتماعية. ولكنه اصطدم بمعارضة من كل الأطراف. وتمت إدانة المشروع الإمبريالي لفرناند بروديل في كليات الحقوق والآداب. واتحد الحقوقيون مع أساتذة الآداب، متجاوزين خلافاتهم الداخلية

---

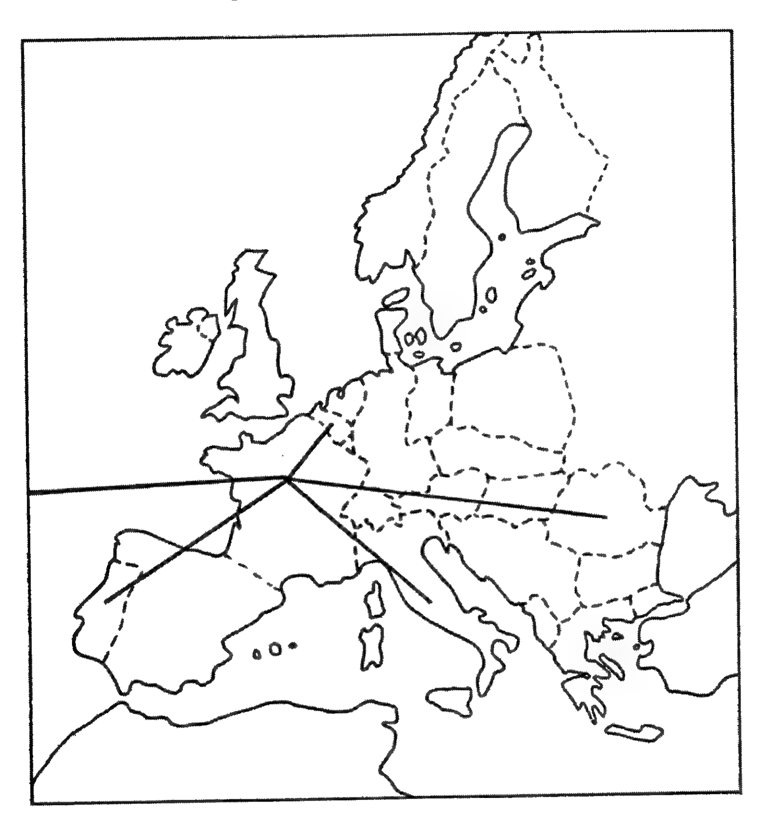
(82) Georg G. Iggers, *New Directions in European Historiography*, with a Contribution by Norman Baker (Middletown, Conn.: Wesleyan University Press, [1975]), p. 61.

لأول مرة، ليعارضوا جميعاً المحاولة البروديلية والتي نُعِتَ صاحبها هنا وهناك بلويس الرابع عشر الجديد. وقد رفضه اليسار واليمين واتهم بأنه خادم الإمبريالية الأمريكية ومشروع مارشال من قبل الحزب الشيوعي الفرنسي، وهو بنظر مؤرخي اليمين المتعلقين بالتاريخ التاريخاني ثوري، لذا ندد بيار رينوفان (Pierre Renouvin) «بمخطط بروديل». وسيفشل خصوصاً أمام مقاومة الوسط (الإداري) الجامعي. ولكنه لم يقف عند هذا الفشل فطلب تمويلات من الحكومة ومن مؤسسة فورد لإنشاء دار علوم الإنسان. فحصل على ذلك واستطاع تأسيس ذلك المختبر الجديد للبحوث مكان السجن القديم في محلة شيرش ـ ميدي (Cherche-Midi). وقد كانت إقامته شاقة بشكل خاص حيث نشأ خلاف استمر سبعة عشر عاماً بين وزارتي العدل ووزارة التربية الوطنية. كانت إقامة هذا الصرح مدينة بدون شك لمثابرة فرناند بروديل:

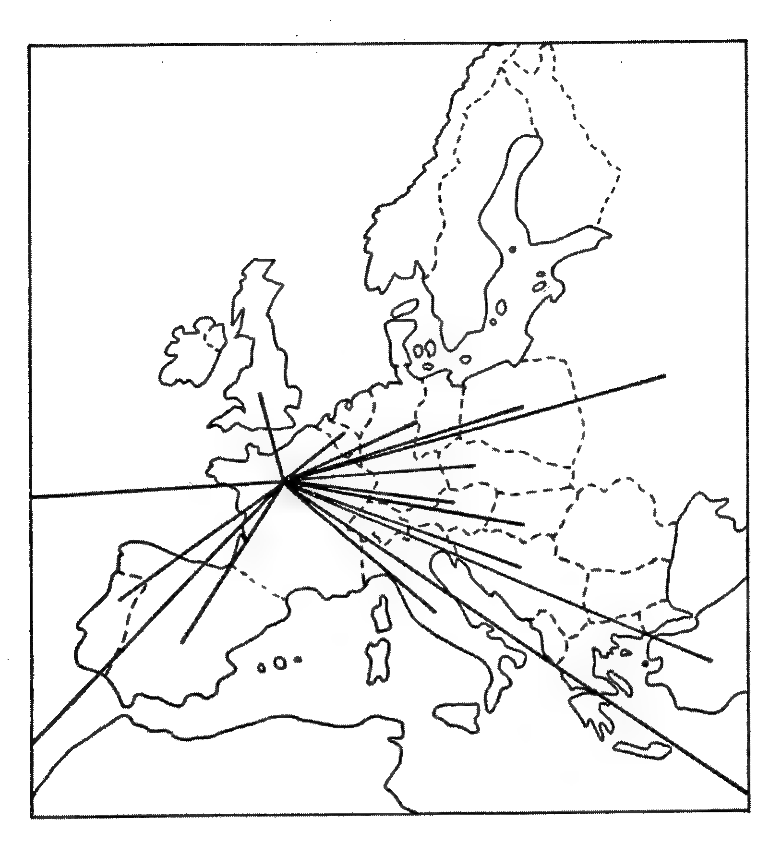
«أنا في بيت لولاي لما كان بني أبداً»[83]. كان فرناند بروديل معروفاً خاصة بكتاباته، لكنه كان يمكن أن يكون بانٍ بشكل خاص وأكثر فاعلية بصلابة بنيانه وبالمؤسسات التي كان يمكن أن ينشئها، مما هو بطرافة نظرياته.

(83) Fernand Braudel, «Entretien,» *L'Histoire* (septembre 1982).

خريطة
أصول المساهمات في الأعمال المهداة إلى لوسيان فيفر وفرناند بروديل



أصول المساهمات في الأعمال المهداة إلى لوسيان فيفر



أصول المساهمات في الأعمال المهداة إلى فرناند بروديل

وهو رجل عمل أكثر منه صاحب نظريات، ولكنه مع ذلك عدّل في مسار عدد من توجهات **حوليّات** الجيل الأول، فهو بهذه الصفة حلقة أساسية في تطور هذه المدرسة نحو عصرها الظافر.



2 ـ النموذج

التاريخ الجغرافي

عند ذكر الأبوين المؤسسين بمناسبة خمسينية مجلة **الحوليّات** عام 1979 في ستراسبورغ، حدّد فرناند بروديل توزيع الأدوار بينهما على النحو التالي: كان مارك بلوخ «رئيس القيادة» ولوسيان فيفر مكلفاً بالعلاقات الخارجية. وما لم يقله أنه هو كان الاثنين معاً، متحملاً هذه الأبوة المزدوجة وهذا الإرث الثنائي ليمنحه أكبر عدد ممكن من المهتمين ويدعم مواقفه النظرية ومواقعه المؤسسية. إنه أولاً وريث للوسيان فيفر الذي يمثل بالنسبة إليه الأب الروحي وسيكون هو خليفته الوفي عندما تولى إدارة مجلة **الحوليّات** بعده عام 1947، وهي السنة التي ناقش فيها أطروحته. كما خلفه أيضاً عام 1949 على كرسي التاريخ الحديث بكوليج دو فرانس حيث درَّس طيلة 23 عاماً (حتى عام 1972)، ثم خلفه عام 1956 تاريخ وفاة لوسيان فيفر على رأس القسم السادس بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

رأى فرناند بروديل لوسيان فيفر لأول مرة عام 1934 بمركز التوليف التاريخي لهنري بر، ولكن اللقاء الحقيقي والحاسم سيقع في

فترة متأخرة نسبياً. يعود ذلك إلى عام 1937 وذلك في إطار رحلة بحرية عبر المحيط الأطلسي إذ كان كلاهما عائداً من أمريكا اللاتينية. والحوار الذي بدأ آنذاك لم ينقطع أبداً بين الرجلين اللذين كان كل شيء يقرب بينهما. «بدخولي حياة لوسيان فيفر، أخذت مكاناً مافتئ يتوسع وهو مكان أحد أبناء البيت»[1].

ينحدر فرناند بروديل كغيره من سابقيه من التخوم الشرقية لفرنسا، فهو مولود في بداية هذا القرن عام 1902 في لونيفيل (Lunéville) في منطقة الباروا (Barois) على حدود مقاطعة شمبانيا (Champagne) واللورين (Lorraine). ولد مع بداية القرن العشرين مثلما ولد فيكتور هوغو (Victor Hugo) مع بداية القرن التاسع عشر عام 1802، وما يدعو للعجب انتهاء حياتهما عام 1885 وعام 1985. فرناند بروديل ابن مدرّس، أصبح مبرّزاً (Agrégé) في التاريخ بعد نيله شهادة البكالوريا بثلاث سنوات، وعمره 21 سنة! درّس من عام 1924 إلى عام 1932 في ثانوية قسنطينة ثم في ثانوية الجزائر واكتشف بكثير من الغبطة وهو ابن الشمال الشرقي الفرنسي، مفاتن البحر الأبيض المتوسط الذي كرّس له قسطاً كبيراً من حياته: «لقد أحببت البحر الأبيض المتوسط بشغف كبير»[2]. في عام 1923 اختار موضوع أطروحته الذي يبدو كموضوع تقليدي من حيث موضوع اهتمامه بما أنه سيتناول بالدرس دبلوماسية فيليب الثاني المتوسطية. واتصل بطبيعة الحال عن طريق المراسلة بمؤلف أطروحة آخر، هو لوسيان فيفر، حول فليب الثاني، فأعرب هذا الأخير عن

---

(1) Fernand Braudel, «Présence de L. Febvre,» dans: *Evantail de l'histoire vivante* (Paris: A. Colin, 1953), p. 5.

(2) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, 2 vols. (Paris: A. Colin, 1976), p. 13.

اهتمامه بالموضوع وعن استعداده للإشراف على إنجازه ولكنه اقترح تغييراً حاسماً سيكون بمثابة الثورة في الكتابة التاريخية: «فيليب الثاني والبحر الأبيض المتوسط موضوع جميل، ولكن لماذا ليس البحر الأبيض المتوسط وفيليب الثاني؟ موضوع كبير من زاوية أخرى؟ لأن العلاقة بين الطرفين فيليب الثاني والبحر الداخلي، علاقة غير متوازنة»[3]، فتغير الموضوع في التاريخ، فلم يعد فيليب الثاني هو الموضوع وإنما البحر الأبيض المتوسط، وهو موضوع جغرافي بالنسبة لمؤرخ، إنه منعطف حاسم سيحققه صاحب المشروع فرناند بروديل بتبني اقتراح لوسيان فيفر والاعتماد على إرثه. دخل تحرير الأطروحة ضمن أساطير القرن خاصة بفضل لوسيان فيفر الذي قال بأنه تلقى 1100 صفحة من فرناند بروديل الأسير المسجون في ألمانيا طيلة فترة الحرب في مايانس (Mayence) أولاً ثم في لوبيك (Lübeck) في ما بعد، كتبت عن ظهر قلب على كراسات صغيرة الحجم. إنه جهد كبير وحسب لكن جان موغ، زميل وصديق فرناند بروديل بساو باولو ما بين عامي 1935 و1937، إن أهم جزء منها كان قد حرر في تلك الفترة وفرناند بروديل نفسه يقول بمناسبة الطبعة الثانية لأطروحته عام 1963: «لقد كانت خطوطها الكبرى إن لم تكن قد حررت في أغلبها منذ عام 1939 في نهاية الفترة الأولى المبهرة **لحوليّات** مارك بلوخ ولوسيان فيفر، والتي هي من ثمارها المباشرة»[4].

---

(3) رسالة لوسيان فيفر إلى فرناند بروديل، في: «La Méditerranée et le monde méditerranéen,» *La Revue historique* (1950), pp. 216-224,
أعيد نشره في: Lucien Febvre, *Pour une histoire à part entière* (Paris: Service d'édition et de vente des publications de l'éducation nationale, 1962), pp. 167-179.

(4) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 1, p. 11.

من الثابت إذاً ودون أن ننفي أن جزءاً كبيراً من الأطروحة قد كتب بالسجن، فإن كل العمل المتعلق بهيكلية البحث قد أنجز قبل الحرب العالمية الثانية. وهو ما يضعف الفرضية التي تقول بأن بنية الكتاب كان الكاتب قد فكر فيها لتكون بمثابة مضاد لسموم الأخبار الألمانية المتعلقة بالحرب، وكنوع من الهروب إلى زمن بعيد بالنسبة للأحداث اليومية التي كانت تبثها الإذاعة النازية.

تبنى فرناند بروديل إرث لوسيان فيفر منذ أعماله الأولى ببناء جغرافيا تاريخية على خطى أستاذه. وهو لم يكن أقل تأثراً بإرث مارك بلوخ، إذ نجد في أعماله هذه الأبوة المزدوجة وهذا التوليف الذي بني طيلة مساره الفكري وحمله من التاريخ الجغرافي إلى دراسة البنى الاقتصادية إلى مفاهيم الاقتصاد ـ العالم وإلى التفكير في البنى الرأسمالية واقتصاد السوق وهو تفكير ولو كان ذو نزعة اجتماعية واقتصادية، فهو يقترب أكثر من **المجتمع الفيودالي** لمارك بلوخ. يمكن أن نسجل إذاً تغييراً في الاتجاه نقله من لوسيان فيفر إلى مارك بلوخ ليعود، في المراحل الأخيرة من حياته، إلى حبه الأول بكتاب **هوية فرنسا** (*L'Identité de la France*). ينخرط هذا الكتاب الأخير من جديد في خط لوسيان فيفر الذي كان له مشروع إعداد كتاب عن تاريخ فرنسا ولكنه لم ينجزه إلا في شكل مخطوط ضمن كتاب **الشرف والوطن** (*Honneur et Patrie*)، والذي فقد بصورة غريبة. إذاً فرناند بروديل هو الرجل ـ المفصل، رجل الوسط بين انتسابين حوليّاتيين، وهو ما ساهم في إرساء جاذبيته الشخصية بين مجمل أعضاء المدرسة. وهو يعترف بهذه الأبوة المزدوجة لحظة دخوله الأكاديمية الفرنسية: «أعترف بكل سرور بالمرتبة الأولى لكل من مارك بلوخ ولوسيان فيفر أكبر مؤرخين في هذا

القرن، وإن أبدعت فإن ذلك على إثرهما»[5].

إذاً اعتمد فرناند بروديل على إرث لوسيان فيفر عند تأسيسه التاريخ الجغرافي والبلوغ به إلى القمة بتحويل هوية التاريخ بالاعتماد على بديهيات فيدال دولا بلاش وقد تتلمذ على أيدي أسياد المدرسة الفيدالية في السنوات 1920 ـ 1923: «كانت أعمال فيدال دولا بلاش من الأعمال الخصبة في التاريخ وربما الأكثر خصوبة من بين العلوم كلها»[6].

اكتشف فرناند بروديل كذلك خلال العشرينيات كتاب لوسيان فيفر الأرض والتطور البشري (1922) (*La Terre et l'évolution humaine*) فكان «الحب الصاعق»[7]. أصبح البيئة أو المكان، وهما لفظان متساويان عند بروديل كما هما عند فيدال دولا بلاش، مفتاح الكتابة عنده وأساس مستقبل الحضارات إلى درجة أن فرناند بروديل، مناقضاً رفضه للمنظومات السببية، يستعمل المجال كعامل مفسر لمختلف مظاهر الحضارات: «إن الحضارة في الأساس هي مكان فعل فيه الإنسان والتاريخ»[8]. نجد هنا المصدر الذي ينير بإشعاعاته الواقع الإنساني انطلاقاً من قراءة جديدة: التاريخ الجغرافي. عندئذ تنتقل الزمنية إلى المجال حتى تندثر ولا نعجب من التاريخ كيف لا يتجمد عبر مساره فوق الأرض. الحضارة تتحدد وتنحصر في بعض الحالات في المكان: «ما معنى حضارة سوى أنها تركيز في مكان

(5) Fernand Braudel, «Discours du récipiendaire, académie française,» *Le Monde*.

(6) Fernand Braudel, *Ecrits sur l'histoire* (Paris: Flammarion, 1969), p. 31.

(7) Fernand Braudel, «Entretien,» *Magazine littéraire* (novembre 1984).

(8) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 2, p. 107.

قديم لنوع من الإنسانية في مكان ما»[9]. التاريخ الجغرافي يتحكم ويحدد ويؤسس الأفق الذي لا يمكن تجاوزه، فهو لا يسمح بالانحباس في مستوى من مستويات الواقع الإنساني وهو يشمل في نفس الوقت الظواهر ذات الطبيعة المناخية والأفعال الثقافية. التاريخ الجغرافي يبتلع كل شيء ويسمح بتحقيق ذاك التاريخ الشمولي الذي يتمناه فرناند بروديل بكل جوارحه. والعالم النباتي، الذي يوجد بين عالمين، محكوم بظروف التربة والمحيط البشري، هو الأرضية المثلى التي حرثها فرناند بروديل، فقد رأى فيه المثال التام «لحتمية الحضارة» التي يتحدث عنها بيار غورو[10]، فهو يتابع بالتناوب مسالك ومصير تلك النباتات الحضارية التي هي القمح والأرزّ والذرة التي سيطرت على الحياة المادية وشملت الكرة الأرضية من أدناها إلى أقصاها. وأصبحت هذه النباتات شخوصاً رئيسية في ملحمة مروية في الجزء الأول من كتاب **الحضارة المادية** (*Civilisation matérielle*). وهي تفرض أحكامها التي لا مرد لها على المجتمعات البشرية التي حكم عليها بأن تتلاءم أو تتفكك، فهي إذاً قادرة على إزاحة الجبال وتقليص حدود المستحيل. ويتعلق هذا الأمر بالذرة، هذه النبتة العجيبة: «لم يكن أي شيء ممكناً من دون الذرة من أهرام المايا (Mayas) أو الأزتيك (Aztèques) العملاقة إلى جدران كوزكو (Cuzco) الخرافية أو عجائب ماتشو بيتشو (Machu Pichu) المذهلة»[11]. إن الجغرافيا كلوحة قراءة للمجتمع وكصخرة صلبة يشد

---

(9) Fernand Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, 3 vols. (Paris: A. Colin, 1979), vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*, p. 495.

(10) Pierre Gourou, «La Civilisation du végétal,» *Indonésie*, vol. 1, no. 5 (1948), pp. 385-396.

(11) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-* =

إليها الناس أنفسهم، ذلك هو التاريخ الجغرافي حسب فرناند بروديل، إنه نظرة مكانية أكثر منها زمنية.

يكتسي التاريخ الجغرافي أهمية أخرى بالنسبة إلى فرناند بروديل الذي يقول بأنه فهم ذلك بعد ثمانية عشر عاماً من بداية عمله، أي عام 1941. سمحت له الجغرافيا بإعطاء قيمة للأمد الطويل والتقليل من أهمية الإنسان كصاحب دور في التاريخ وذلك بإحلاله موضوعاً مكانياً بديلاً عنه، أي البحر الأبيض المتوسط الذي رفع إلى مستوى موضوع التاريخ: «كانت الجغرافيا الوسيلة التي أبطأت سرعة التاريخ بامتياز»[12]. يمكن لفرناند بروديل من خلال تقسيمه الثلاثي للزمن أن ينفذ إلى ذلك التاريخ شبه الثابت والذي يعتبره أساسياً في هندسة يتماهى فيها التاريخ الجغرافي مع الأمد الطويل. كانت قد سبقته دراسة منظمة وشاملة للظواهر ذات الزمن المديد وللتكرارات ولكن الأساسي فيها يرتكز على نموذج إرنست لابروس، وهي الظواهر الاقتصادية والتطور الدوري للأسعار والمنتوجات. توسعت دراسة حالات التكرار مع فرناند بروديل والتاريخ الجغرافي لتشمل مجمل الظواهر ذات المسار الخفي لأنها لم تكن صاخبة. يجب إذاً إبراز هذا المستوى من التاريخ المستتر والذي ندركه سواء عند دراسة المكان أو عند دراسة الحياة المادية وهما المكانان المفضلان لمقاومة التغيير. ستحدد ملاحظة وتنظيم هذه التذبذبات البطيئة للتاريخ الجغرافي إيقاع الأزمنة، وكتابة التاريخ بحد ذاتها.

إن البعد الآخر للتاريخ الجغرافي يتمثل في التماهي مع ما

XVIIIème siècle, vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*, p. = 133.

(12) Braudel, «Entretien,» p. 18.

يسميه فرناند بروديل بنى التاريخ. وهي تحتل بهذه الصفة موقعاً مركزياً كمصدر لتفسير الظواهر الإنسانية. والبنية من منظور فرناند بروديل تنتمي إلى نظام الملحوظ وتنسجم مع حدود الممكن، ومع وجود المعوقات التي يبقى الإنسان سجيناً لها، والتي لا يحتّ الزمن حواشيها إلا ببطء. هذه البنية، السهلة البلوغ بالنسبة إلى المؤرخ، ليست سوى الإطار الجغرافي الذي تشكل مختلف عناصره المناخية والنباتية والحيوانية توازناً شبه دائم. ونجد نظام السببية عند مستوى الظروف الطبيعية وهو يرسم الحدود التي لا يمكن للإنسان أن يتحرر منها: «لنحتفظ في أذهاننا بهشاشة الإنسان الفطرية أمام قوى الطبيعة الجبارة»[13].

من الأكيد أن الإمكانوية الفيدالية التي استخدمها فرناند بروديل، سمحت بإعادة إدخال التغير على الثابت وتجاوز بعض العقبات. وقد تجاوز الإنسان تحت ضغط الحاجة في بعض الأحيان ما كان يبدو أفقاً لا يتزحزح. وهذا لا يمنع فرناند بروديل من إعطاء الجغرافيا بوصفها معوقاً، مكانة متميزة: «الجغرافيا أولاً» هكذا صاح في ما يتعلق بالشركات التجارية[14]. تؤدي الأولية الممنوحة للطبيعة تراجعاً في جمالية الكتابة التاريخية البروديلية، وغياب الجدلية والحركة لأن العلاقة لم تعد علاقة تناقض ولكن علاقة تكامل: «إن المشهد الطبيعي دائماً مملوء، فهو يتمركز حول ذاته دون علاقة أو صلة مع المشاهد الأخرى سوى علاقات التواجد والتلاصق»[15]. إن إضفاء

---

(13) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*, p. 33.

(14) المصدر نفسه، ج 2، ص 394.

(15) Blandine Barret-Kriegel, «Histoire et politique,» *Annales* (11 novembre 1973), p. 1444.

الصفة المكانية على الزمان والاقتصاد عند بروديل ينتج عنه تذويب القوى الداخلية المتناقضة، قوى التقسيم التي تعمل في التغيير. إن التقسيمات المختلفة التي أجريت على المكان تحدد موقع المجموعات الصغرى لهذا التعايش. وهذه المجالات تضغط على الإنسان وترسم منعطفات الثوابت الملازمة للحضارات. يمكن إذاً أن نقرأ الخطوط الثابتة للمفاصل الكبرى التي تقسم المجال بما يتجاوز التغييرات المرتبطة بما هو غير أساسي، وكذلك النقاط الثابتة التي منها تتشابك الحضارات. هكذا يذكر بروديل «خط اتصال أساسي بالنسبة للعالم المتوسطي»[16] يقع عند مستوى نهري الراين والدانوب، ندبة قديمة حيث نجد ليس فقط الحدود الأوروبية لروما القديمة ولكن أيضاً منطقة نفوذ الإصلاح الديني التي تقف عند هذا الخط الفاصل بين المياه.

كذلك الأمر ما بين الشرق والغرب هناك الحاجز الدائم الذي يمر عبر زغرب (Zagreb) وبلغراد (Belgrade) «وهو الندبة الأكثر إدهاشاً»[17]. في هذا المجال التكاملي يقوم فرناند بروديل باستخدام كبير للتعابير المجازية العضوانية. تكشف هذه التعابير المجازية مرة أخرى عن الإرث الفيدالي لجغرافيا تكونت مبادؤها انطلاقاً من مفاهيم البيولوجيا. هذه العضوانية تنشط ليس فقط على مستوى مجازي: «إن ضعف جنوة (Gênes) هو ضعف خلقي»[18]. «إن أوروبا الغربية صغيرة جداً وشديدة التوتر»[19]. «إن المقاطعات

(16) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 1, p. 107.

(17) المصدر نفسه.

(18) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 134.

(19) المصدر نفسه، ص 332.

المتحدة وإنجلترا أكثر عصبية وتوحدت بسهولة»[20]. «إنه سبب لكي ينبض قلب إسبانيا على إيقاع أبطأ من الآخرين»[21]. تمثل الحيوية نموذجاً في الكتابة البروديلية، وترتسم فرنسا أو إنجلترا كغيرهما من البلدان الأخرى كعنصرين عضويين بدورتيهما الشريانية وقلبيهما وأعضائهما وكذلك بوعييهما: «أصبحت إنجلترا جزيرة، دون أن تعي ذلك من فورها»[22]. أما فرنسا، فقد تجاهلت دوراً إمبريالياً ممكناً في القرن السادس عشر، والسبب الأكبر في ذلك مزاجها وحكمتها وميلها للقيم الثابتة. إن وظيفة الوسط الجغرافي هو أن يضم عناصر الجهاز العضوي العام المتفرقة، ويبقيها مجتمعة، وهو ينتج حياة مشتركة ويحدد ماهيتها.

إذا كان لوسيان فيفر ومارك بلوخ قد تبنيا لحسابهما الخاص دروس فيدال دولا بلاش، فإن فرناند بروديل يمكن أن يُقرأ بأكمله داخل الإرث الفيدالي. يعد آخر كتبه **هوية فرنسا** (1986) أحسن دليل على ذلك: «أن يقرأ الجغرافي المعاصر عام 1986 كتاب **هوية فرنسا** فإنه يشعر بسحر سقيفة قديمة تُكتشف فيها «اللوحة الجغرافية لفرنسا» (*Le Tableau géographique de la France*)»[23]. في الواقع، أنه بصفته وريث لجيل الآباء، تجاهل تطور اختصاص الجغرافيا الذي حيّره أكثر مما سحره. إن اعتبار الجغرافيا كمجال للمجتمعات أكثر منها علماً للأوساط الطبيعية والمشاهد الطبيعية لم يؤثر في الكتابة

---

(20) المصدر نفسه، ص 269.

(21) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 1, p. 343.

(22) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 302.

(23) C. Grataloup, «L'Appel des grands espaces,» *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

البروديلية. يعد النقاش الذي دار بين الجغرافي إتيان جوِيّار (Etienne Juillard) وفرناند بروديل في شاتوفالون (Châteauvallon) في خريف عام 1985، دليلاً من هذه الناحية على التفاوت الإبستيمولوجي للأجيال. قدم فرناند بروديل نفسه على أنه وريث للحتمية الجغرافية التي كان قد رفضها لوسيان فيفر بعنف عام 1922: «إذا لم تكن هناك حتمية جغرافية أين سيكون العلم الجغرافي؟»[24] إنه يتهم الجغرافيين بإفراغ التاريخ من المجال من خلال جعل المعوقات الفيزيائية نسبية، وبإعادة تحديد موقعها تاريخياً. وعلى عكس ذلك، تلعب هذه المعوقات بالنسبة إلى فرناند بروديل دور المرجع الأخير، والقاعدة الأكثر أساسية لتاريخ عميق. وهو يقبل بأن يكون ملحقاً بجغرافيا قديمة وذات نزعة حتمية إرادياً، إذ تلعب الظروف الطبيعية دور المكيف الأول لمختلف الحضارات. تظل طريقة تأقلمها وثيقة الارتباط بالمحيط وبالنظام البيئي. ويبدو أن جغرافية طبقات الأرض والظروف المناخية المختلفة على ضفتي حوض المتوسط، تحدد آلياً وجود حضارتين متعارضتين. وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد عمّرت أكثر من الإمبراطورية العثمانية فلأنها «كانت موجودة على الضفة الأفضل من البحر الأبيض المتوسط»[25]. إن الورقة الرابحة الأولى للإمبراطورية التركية والتي يقوم حكمها عليها، تبقى ممثلة في أبعادها المكانية، فهي مجال شاسع. والبحر الأبيض المتوسط، كموضوع، يبدو أنه مدفوع بالرغبة في الانعتاق. ولتعويض نقائصه، وهو المغلوب بفقره الطبيعي، فإنه ينطلق بحثاً عن عوالم بعيدة

---

(24) *Une Leçon d'histoire de Fernand Braudel: Journées Fernand Braudel, 18, 19 et 20 octobre 1985, Châteauvallon*, (conférence) [organisées par le centre de rencontres de Châteauvallon] (Paris: Arthaud-Flammarion, 1986), p. 175.

(25) F. Braudel, Châteauvallon, 18 octobre 1985.

لاستغلالها في إطار توسعات امبريالية «غريزية»[26]. من الأكيد أن معرفة معوقات المحيط ضرورية ومنيرة في بعض الأحيان عندما يقسّم فرناند بروديل السنة إلى فصلين بالنسبة إلى العالم المتوسطي. الفصل الجميل يسمح بزمن الحرب في حين يكون الشتاء فصل الهدنة لأن البحر في اضطرابه لا يسمح أبداً للقوافل العسكرية الكبيرة بالتنقل من جهة إلى أخرى داخل المجال المتوسطي. وعندها يكون زمن الإشاعات غير المعقولة وهو أيضاً زمن المفاوضات والقرارات السلمية. يتم التفاوض من أجل السلم في الشتاء ويوقّع عليه في فصل الربيع، ويُنقَض في فصل الصيف. في الواقع، إن هذا تقسيم زمني مرتبط أشد الارتباط بالتقلبات المناخية. وفي أغلب الأحيان تقوم الذريعة المجالية بدور حتمية مطلقة. والبحر الأبيض المتوسط مليء بهذه المسالك التجارية التي تخترقه وتربط المدن التجارية في ما بينها، ومن هنا جاء الاهتمام بالمبادلات عند فرناند بروديل الذي يتمسك بهذه الحتمية المجالية في مخططه التفسيري. إن البلدان المتوسطية تشكل واقعاً واحداً رغم انقساماتها، ومن خلال وحدة المناخ ساهمت في إنشاء حضارات زراعية: «لقد عمل الإنسان والطبيعة معاً»[27]. وغالباً، تستخدم الحتمية المكانية بمعنى ما وبعكسه بدون مبررات خاصة.

وهكذا يكون ازدهار المدن الإيطالية ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر نتيجة لتناسق المجال الضيّق المحيط بها والذي مكنها من اكتساب مسالك جديدة. وهذه الدويلات الحضرية كانت تنتصر بمقدار ما كانت قادرة على تجنيد كل إمكانياتها بسرعة. وعلى

(26) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 1, p. 224.

(27) المصدر نفسه، ص 215.

العكس، فإن الدول ذات المجالات الشاسعة تتحرك بصعوبة نظراً لغرقها في ريفيتها، واتساعها المعرقل. إلا أن هذه الحتمية المجالية انقلبت في القرن السادس عشر وأدت إلى هزيمة المدن التجارية التي اضطرت للتراجع أمام تفوق الدول شاسعة المجال مثل إسبانيا وإنجلترا أو فرنسا. في اللوحة المجالية لفرناند بروديل يدين ميناء جنوة في ازدهاره إلى جغرافيته الضاغطة التي فرضت عليه المغامرة، فمن جهة هناك حاجز جبلي قاحل ومن جهة أخرى ساحل خطير يمخر عبابه القراصنة البرابرة (Barbaresque). وقد حوّل الجنويّون هذا الإطار إلى مصدر قوة، مما يفسر «ليونة رجل الأعمال الجنوي وبراعته وحسن استعداده وخفة حركته»[28]. ولكن هل يكفي أن يكون الإنسان محصوراً وراء حاجز جبلي ليعرف الازدهار الذي عرفته جنوة؟ إن فشل الرأسمالية الجنوية سببه أيضاً الجغرافيا، أي الثورة الجغرافية التي أعطت أهمية للمجال الأطلسي وتسببت في هلاك المراكز الحساسة للرأسمالية المتوسطية. وكذلك الهيمنة الإنجليزية وجنيهها الإسترليني كان لها في الأساس قاعدة جغرافية مرتبطة «بالنزعة العدوانية لبلد تسيّره جزيريته»[29]. يمر الناس والمؤسسات والبحر الأبيض المتوسط باق، فمنطقة الآتيك (Attique) (في الغرب اليوناني) منطقة فقيرة بطبيعتها، وهي لذلك محكومة بتجاوز ذاتها، وهكذا ولدت المعجزة اليونانية. إن التاريخ الجغرافي يثير العوامل الحضارية دون وساطة. وينسب تخلف فرنسا في العصر الحديث إلى اتساع مجالها: «في الحالة الفرنسية، أليس المصدر الرئيسي للجمود هو اتساع مجالها بالذات؟»[30] يتمحور الوضع

(28) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 134.

(29) المصدر نفسه، ص 312.

(30) المصدر نفسه، ص 269.

التراتبي للعالم إذاً حول جدلية المجالات التي وحدها تظل الفاعل العقلاني. وإذا كانت فرنسا شاسعة جداً فهذا يعني بلا شك أن روسيا وآسيا وأفريقيا ليست في السباق. تعني الجغرافيا الاستعادية إذاً وجود لوحة لقراءة الواقع، تكون غالباً قراءة آلية. وهي في جميع الأحوال المقاربة المفضلة لدى فرناند بروديل الذي يعتبرها أكثر مصداقية «من علم اجتماع استعادي كثير الضلال»[31]، فالتعريف الذي يعطيه لهوية فرنسا يعطي أهمية أيضاً للعوامل الطبيعية. «الكتلة الجبلية الوسطى» (Le Massif central) في فرنسا ارتفع شأنها، ليس بمقياس العلو، إنما بالنظر إلى أهميتها في بناء الوحدة الوطنية بصفتها كتلة جبلية: «ختاماً، وبأكثر مما نتصور، تُفَسّر فرنسا من خلال أراضيها الوسطى المرتفعة»[32]. والأمثلة التي يتناولها لتدعيم نظريته حول فرنسا هي دلائل على مقاربة آلية. وفي ما يتعلق ببيزنسون (Besançon) وموقعها لا يتردد في التأكيد: «إن الحتمية الجغرافية ليست هنا بالتأكيد كلمة جوفاء»[33]. يسمح له استخدام هذه الحتمية بأن يتبين الضغط الذي يعيشه الإنسان ويجد جذوره في البيئة والطبيعة والأرض. وهو يزعم بهذه الصورة أنه يقدم درساً باسم جغرافيا الأمس إلى جغرافيي اليوم «أعلن الجغرافيون دائماً استسلامهم»[34]. لا، إن العامل الحاسم ليس التاريخ وليس الإنسان على عكس ما كان يعتقد لوسيان فيفر. ويستعيد استعمال ما تتمفصل حوله اللوحة الجغرافية لفرنسا عند فيدال دو لا بلاش كالبرزخ الفرنسي والمحور الروداني الذي يمثل

(31) Braudel, Ibid., vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 507.

(32) Fernand Braudel, *L'Identité de la France* (Paris: Flammarion, 1986), p. 49.

(33) المصدر نفسه، ص 169.

(34) المصدر نفسه، ص 237.

«ثباتاً ملحوظاً»[35] وهو الطريق الرئيسية للتجارة الفرنسية الحدودية وليس المركزية.

في أساس الحركات الصاعدة أو الهابطة للسكان، نجد نفس الحتمية الجغرافية مع التقلبات المناخية: «يعد عصر لويس الرابع عشر العصر الجليدي الصغير»[36]. هناك ظرفيات جغرافية مثلما هناك ظرفيات اقتصادية لها تأثيرات هامة على أوسع المجالات. ولكن هناك تفسير واحد يبدو أنه ممكن بالنسبة إلى فرناند بروديل لتفسير التزايد العام للسكان سواء في أوروبا أو في نقاط مختلفة من الكرة الأرضية في القرن الثامن عشر، وهو التغيرات المناخية ولطف المناخ بعد المرحلة الجليدية الباردة في القرن السابع عشر، فالأمد الطويل غير منفصل إذاً عن المجال الذي يرتكز عليه: «لنفهم الأمد الطويل من الأسهل علينا أن نذكر العائق الجغرافي»[37]. فرناند بروديل من دون أن يستعمل مفهوماً نظرياً، يعوم حسب أهواء الوصف لمختلف محطات الواقع حيث الشيء الوحيد الذي يمكن تأكيده هو أن الإنسان والطبقات والفئات الاجتماعية لا تؤدي إلا دوراً يسيرا جداً.

أما بالنسبة للباقي، فهو يطبق حتمية آلية في أغلب الأحيان انطلاقاً من الظروف الطبيعية (المناخ، التربة، طبقات الأرض) أو من حالة التقنيات. كل شيء يكون سبباً في روايته. وهذا يذكر في الواقع بخطاب المدرسة الوضعية التي طالما انتقدتها **الحوليّات** وشهّرت بها والتي تؤدي فيها مجموعة الأحداث وتنظيمها وترتيبها دور النظام

---

(35) المصدر نفسه، ص 241.

(36) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*, p. 30.

(37) Fernand Braudel, «Entretien,» *L'Express* (22/11/1971).

السببي. إن موضع الاختلاف هو أن المنظور لم يعد هو ذاته. في هذا الحقل المجالي حسب التقليد الفيدالي، تم تجنب ما هو سياسي كموضوع بحث. يعبّر بيار شونو جيداً عما يثير حماسته في قراءة أطروحة فرناند بروديل، المجال غير المسيّس: «كان اكتشافاً رائعاً، المجال المتخلص من الدولة، المجال الحقيقي، أي المشهد الطبيعي والحوار بين الإنسان والأرض والمناخ، وهو الصراع الأزلي بين الإنسان والأشياء دون الظهور على شاشة الدولة»[(38)]. أصبح التاريخ السياسي ديكوراً وممثلاً ثانوياً وملحقاً في حين احتل المشهد دور النجم (الشخصية الرئيسية). وحول تقسيم العالم المتوسطي في القرن السادس عشر إلى إمبراطورية تركية في الشرق وإمبراطورية إسبانية في الغرب، يقوم فرناند بروديل بمطابقة الثنائية المناخية للثنائية الحضارية بصورة آلية: «لا تعكس السياسة إلا واقعاً مستتراً»[(39)].

«مؤرخاني» أو «اقتصادياني»

كان الموضوع الثاني المفضّل لدى فرناند بروديل، بالإضافة إلى البحر الأبيض المتوسط، هو الرأسمالية في الفترة الحديثة (القرن الخامس عشر ـ القرن الثامن عشر). في البداية نجد خلف هذا التوجه نحو تاريخ اقتصادوي، معلمه لوسيان فيفر الذي كلفه عام 1952 بتحرير جزء من سلسلة «مصائر العالم» حول أوروبا ما قبل الصناعية، وهو «موضوع فرض عليه بصورة ودية»[(40)]. وتعهد لوسيان

---

(38) Pierre Chaunu, *Histoire, science sociale: La Durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne* (Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1974).

(39) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*, p. 125.

(40) Fernand Braudel, *La Dynamique du capitalisme* (Paris: Arthaud, 1985), p. 9.

فيفر بتحرير كتاب مكمل لكتاب فرناند بروديل حول أفكار ومعتقدات الغرب في نفس الفترة. يتمثل عمل فرناند بروديل في بسط الأطروحات التي كانت سائدة آنذاك في ما يتعلق بالاقتصاد الأوروبي. يحلل لوسيان فيفر الذهنيات ويحلل فرناند بروديل الاقتصاد، إنه تقسيم للعمل سيؤثر لفترة طويلة في توجهات فرناند بروديل الذي سينشر عام 1967 كتاب **الحضارة المادية** ضمن سلسلة «مصائر العالم»، ولكنه لن يتوقف عند هذا الحد لأن هذا التاريخ الاقتصادي سيشغله حتى عام 1979 تاريخ نشره لثلاثيته. سيضيف إذاً كتابين إضافيين إلى الأول بعد تنقيحه. وقد اتخذ في تلك الفترة من الاقتصاد وتاريخيته اختصاصاً يعترف له به علماء الاقتصاد أنفسهم ويذكرونه بتقدير. كان علماء الاقتصاد، المنغلقين غالباً داخل نمذجة رياضية معقدة رغم أنها غير قادرة على توضيح الاضطرابات الاقتصادية، قد لاحظوا فشل المعالجات المضادة للأزمات، فلجأوا مؤخراً إلى كليو (Clio)، حيث وجدوا فرناند بروديل. يمكن أن نميّز نوعين من الاستعمال لمؤلفات فرناند بروديل من قبل علماء الاقتصاد. هناك من جهة، الذين يبحثون من خلاله عن ضمانة تاريخية وعن كثافة زمنية لتحليلهم للحاضر، وهؤلاء هم علماء الاقتصاد «الأكثر بروديلية من بروديل»[41] بما أنهم دفعوا المنطق البروديلي إلى أقصاه حتى قوّلوا بروديل ما لم يقل. يمكن في هذا الإطار أن نذكر آلان مينك (Alain Minc)، والذي بالنسبة إليه مستقبل الرأسمالية موجود في أسفل البناء الثلاثي لفرناند بروديل، في مستوى البنى اليومية والمقايضة والمبادلات البدائية. ونذكر جاك أتالي (Jacques Atali) الذي اقترح جائزة نوبل في الاقتصاد لفرناند بروديل

---

(41) J. M. Goursolas, «Les Jeux de l'échange entre l'histoire braudélienne et l'analyse économique,» *Espaces temps,* nos. 34-35 (décembre 1986).

(1979)، فقد استعاد المخطط البروديلي للتوارث المتسلسل زمنياً لمراكز الاقتصادات ـ العوالم وتوقع انتقالها من هذه العوالم إلى المحيط الهادي. كما أصبح فرناند بروديل أيضاً مرجعاً إجبارياً لأولئك الذين يمكن أن نسميهم علماء اقتصاد التعديل[42] مثل ميشال أغليتا (Michel Aglietta)، وروبير بوايبه (Robert Boyer) وآلان لايبيتز (Alain Lipietz) الذين يرون في مؤلفاته تجذراً مزدوجاً، زمنياً ومكانياً، في تطور لايعادله شيء للرأسمالية، في أطول نمو لنظام عالمي. إذاً تعرض فرناند بروديل لمختلف التأويلات التي تعلقت بجذور الرأسمالية، فهو يذكر ويناقش الأطروحات الموجودة ولكن دون أن يتبنى إحداها بصورة خاصة. عمل ما دون النظرية، فهو يرفض الانحصار في أي انغلاق مفاهيمي ويفضّل عليه الملاحظة، وترتيب أو تصنيف الوقائع الاقتصادية، مفنداً حجج المنظرين، هنا وهناك، ليواجههم بالوقائع التي لا يمكن دحضها. ولأنه وفيّ لتوجهه العام، فهو يفضل بالتأكيد التوازنات طويلة الأمد. وبإدانته لتمفصل شمولي وسببي، غالباً ما كان مدفوعاً لممارسة نوع من التدقيق الوقائعي يستمده من تعريفه لبنية ما كوحدة قابلة للملاحظة والتجريب، فالاقتصاد كما رأينا لم يكن الحقل المفضل لبحوث فرناند بروديل الذي بالنسبة إليه ليس هناك سوى تاريخ شمولي. وعندما كتب ملخصاً لأطروحة بيار شونو[43]، هنأ صاحبه ولكن أنكر عليه الإنتساب المباشر إلى طموحات **البحر الأبيض المتوسط**، الذي يدّعيه. إن خطأ بيار شونو هو أنه يقتصر على التاريخ الجداولي الاقتصادي البحت، في حين أن الواقع التاريخي يفيض من كل

(42) المصدر نفسه.

(43) Fernand Braudel, «Séville et l'atlantique: 1504-1650,» *Annales* (1963), أعيد نشره في: Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, p. 137.

الجهات على هذا الحقل. ويؤاخذ بنفس الطريقة تلميذه إيمانويل لوروا لادوري الذي يمثل توجهات الجيل الحوليّاتي الثالث والذي انقاد وراء انبهار التاريخ المكمم: « أخاف، وأنا أستثير إيمانويل لوروا لادوري بالمناسبة، عند الحديث عن تاريخ إحصائي أن يكون هناك بعض الوهم أو بعض النسيان عندما نقول بأن مؤرخ المستقبل يكون مبرمجاً أو لا يكون. إن برنامج المبرمج هو الذي يهمني، ففي الوقت الحاضر يجب أن يسعى إلى تجميع علوم الإنسان»[44]. فإذا كانت أكثر من خمس وعشرين سنة من حياة فرناند بروديل ليس فيها إلا الأفق الاقتصادي، يجب أن لا ننسى رغبته المتجددة في تحقيق تاريخ كلي. ستتمثل مقاربته للاقتصاد في الترصيف الوقائعي أكثر من التفسير لهذا العامل المهيمن أو ذاك. إنه تكون مورفولوجي تندرج فيه الوقائع الاقتصادية. وهو يستعمل الأفق الاقتصادي ضمن مقاربة شمولية تسمح له بتنشيط ثلاثيته الزمنية. وفي الواقع، إنه لا يستطيع أن يقنع كمؤرخ بآخر تحليله الجغرافي الذي يكاد يكون ثابتاً ولا بزبد الأحداث. إن **الإنسان الاقتصادي** يمنحه إذاً زمنية ما بين بين، ظرفية ودورية ضرورية لإعادة دفع حركات ذات معنى، بين الأعماق السحيقة وزبد الأيام. إن الإمكانوية التاريخية على طريقة فرناند بروديل هي إذاً «نتاج الحتمية الجغرافية والضرورة الاقتصادية»، إلا أنه يوشك أن يصل إلى طريق مسدود، «وهو الثباتية الاجتماعية»[45]. والاقتصادي ليس فيه ما هو فاعل بالنسبة إلى فرناند بروديل إلاّ انطلاقاً من إعادة دمج الحركة ضمن الديناميكية التاريخية. يسلط هذا الموقف الضوء على النقد العنيف الذي كتبه حول أطروحة بيار غوبير حول منطقة البوفيزيس

---

(44) Braudel, *Ecrits sur l'histoire*, préface.

(45) Grataloup, «L'Appel des grands espaces».

والتي يعتبرها كمثال «الإبرة في كومة قش»[46]. إذ ليس فقط أن هذه الأطروحة لم تقنعه لأنه وجد أن المجال المدروس هو مجال ضيق ولكن أيضاً اتخاذ القرن السابع عشر المأسوي كحد زمني، إذاً فترة تراجع تصور اقتصاداً جامداً، في حين أنه يجدر بالمؤرخ أن ينكب على ظواهر النمو: «بالنسبة للفصل الثالث كان يمكن أن أسعى لإبراز نمو في منطقة البوفيزيس»[47]، على طريقة ما سينجزه في العام التالي رينيه بايريل (René Baehrel) حول منطقة البروفانس المنخفضة (Basse-provence) من نهاية القرن السادس عشر إلى 1789. غير أن فرناند بروديل اضطر، مواجهاً لجهاز التحليل النظري للاقتصاد الحديث، لمناقشة مختلف الأطروحات الموجودة. وفي هذا المجال عليه خاصة أن يحدد موقعه بالنسبة إلى تحليل ماركس لرأس المال. إنه يتمايز جوهرياً عن الماركسية في إطار فهمه للرأسمالية كظاهرة تتموضع خارجياً بالنسبة إلى تطور السوق. ومن جهة أخرى فإنه يحدد نشأة العصر الرأسمالي في فترة أسبق كثيراً من تحديد ماركس، الذي لا تحدث القطيعة النوعية بالنسبة إليه إلاّ عند زيادة إنتاج السلع اعتماداً على إستغلال عمل الأجراء المحرومين من ملكية وسائل الإنتاج. وبالعكس فإن فرناند بروديل، بتحديده للرأسمالية في دائرة تداول رأس المال، يستطيع أن يرجع أصل هذا النظام الاقتصادي إلى أبعد مصادره. إن الطرح الأكثر استعمالاً والذي ناقشه فرناند بروديل أكثر هو طرح فرنر سومبار[48] (Werner Sombart). وهذا الأخير هو الذي أدخل بعد

---

(46) Fernand Braudel, «C. R. de Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730 de Pierre Goubert,» *Annales* (juillet-août 1963), pp. 767-778.

(47) المصدر نفسه.

(48) Werner Sombart, *Der Modern Kapitalismus* (München: Duncker und Humblot, 1902).

مفهوم رأس المال لماركس، مفهوم الرأسمالية. لكنه ينتقد التصور المثالي لفرنر سومبار، حيث يحتج على الإمتياز الممنوح «للروح» الرأسمالية. إنه يرى في فائض القيمة للذهنيات هذا، الموجود عند فرنر سومبار كما عند ماكس فيبر، باب خروج زائف للهروب من نموذج ماركس. ويستبدله فرناند بروديل بصاروخه البعيد المدى ذي الثلاث طبقات. إن فرنر سومبار في نظره، هو ضحية للأدوات المفاهيمية لعصره، بداية القرن، والتي تميل لتقديم التاريخ الغربي على أنه النهاية المنطقية والطبيعية للتاريخ العالمي عبر نظام اقتصادي أكثر جدوى: «لقد فقدنا تلك الثقة»[49]. يقول لنا فرناند بروديل إن التاريخ العالمي كان يمكن أن يسير باتجاه آخر، لو أن السفن الشراعية الصينية تجاوزت رأس الرجاء الصالح سنة . . 1419. وفي وقت تعيش فيه الرأسمالية العالمية في خضم الأزمة، وأوروبا بعيدة عن مراكز المحركات الأساسية للسوق الدولية، قد فقدنا عقدة التفوق التي تحكمنا. وبالنسبة إلى أطروحة جوزف شومبيتر (Joseph Schumpeter) حول المراحل الأربعة المتتالية التي عرفها تطور الرأسمالية، متمحوراً حول عاملين اثنين، التجديد والسمعة، ينتقد فرناند بروديل الانتقاص من دور الدولة والمؤسسات. أما أطروحة ماكس فيبر[50]، التي ترى أن الإصلاح الديني قد حرر انطلاقة الرأسمالية، وهي تبدو قابلة للتأكيد نظراً للعلاقة المتماهية بين البلدان البروتستانتية ومناطق انتعاش الرأسمالية. ولكن المذهب الاجتماعي المتشدد لا يناسب هو أيضاً فرناند بروديل الذي، رغم إقراره له بالثراء الفكري، فإنه يعترف «بأنه

---

(49) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 517.

(50) Max Weber, *L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme* ([s. l.: s. n.], 1904).

شديد الحساسية مثلما كان لوسيان فيفر نفسه»[51]. تبقى أطروحة عالم الأنثروبولوجيا كارل بولانيي (Karl Polanyi) الذي يرى أن السوق ما كان ليوجد قبل عام 1834، وهو التاريخ الذي أصبح فيه مستقلاً ومعدلاً ذاتيا، ولكن لفترة قصيرة إنتهت عام 1929. أولاً وآخراً لا يمكن أن تكون هناك إلا تجارة خاضعة لإدارة، وهي أطروحة غير مقنعة لفرناند بروديل الذي يرفض أن يضم في تفسير واحد حقائق متنوعة كتنوع بابل القديمة وجزر تروبريان (Les Iles Trobriand) وأوروبا العصور الوسطى. على التاريخ أن يستعين بالعلوم الإنسانية الأخرى ويقبل اسهاماتها ليبني عرضاً تاريخياً للتبادل. وهنا أيضاً يمكن أن يكون المؤرخ وحده سيد الموقف ومفاهيم العلوم المجاورة كلها مخيبة للآمال: «فقد عودنا، بكل أسف، علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد بالأمس وعلماء الأنثروبولوجيا اليوم، على جهلهم شبه التام للتاريخ»[52]. وإذا لم يهتم علماء الاقتصاد بالتاريخ، فإن فرناند بروديل قد أهمل الآلية المفاهيمية لهؤلاء، ونجاحه الأخير يخفي في الواقع ما وصفه سيرج كريستوف كولم (Serge C. Kölhm) «باللقاء الكبير الفاشل»[53]، لأن علماء الاقتصاد، حتى الذين يتفقون منهم مع فرناند بروديل في إشكاليته العامة، إشكالية البحث عن الظواهر ذات الاتجاه الواحد، والإرهاصات الأولى للرأسمالية، فإنهم لا يجدون عنده المفاهيم التي يحتاجونها ولكنهم يجدون أفكاراً شديدة الغموض مما يجعلها لا تصلح لهم. هكذا يكون لفكرة التبادل اللامتكافئ، وهو مفهوم مفتاح في الاقتصاد، معنيان مختلفان. وهو من جهة يعني انتقال فائض القيمة من المحيط إلى المركز بالنسبة إلى أرغيري إيمانويل

(51) Braudel, Ibid., vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 506.

(52) المصدر نفسه، ص 139.

(53) Serge C. Kolhm, dans: *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

(Arghiri Emmanuel) ولكنه يحيل على تدهور شروط المبادلات على حساب البلدان المنتجة للمواد الأولية مثلما حلل ذلك بيار جاليه (Pierre Jalée) أو غونتر فرانك (Gunther Franck). يستعمل فرناند بروديل المصطلح دون تعريفه أبداً، وبذلك خيّب آمال علماء الاقتصاد على مستوى المفاهيم. عندما درس سيرج كريستوف كولم اقتصاد البندقية في القرن الثالث عشر واستعمال قرض الريالتو (Rialto)، لم يجد عناصر بحثه عند فرناند بروديل رغم أن هذا الأخير يعطي أهمية كبيرة لمدينة البندقية، ولكنه وجدها عند فريدريك لان (Frédéric Lane) الذي تتمحور دراسته انطلاقاً من مفاهيم اقتصادية[54].

يحصر فرناند بروديل الرأسمالية في دائرة التبادل، وفي التسويق وليس الإنتاج، وفي سوق العمل على عكس علماء الاقتصاد. غير أن كلمة رأسمالية يوجد فيها خاصة رأس المال، وهذا يعني وسائل الإنتاج. يمكن أن نلاحظ في هذا المستوى تضخيماً لحجم المبادلات على حساب تقدم الإنتاج. وهكذا يبدو أن التجارة التي تحدد نسق الدورات الظرفية، لا تمثل بالنسبة إلى إيمانويل فالرشتاين (Immanuel Wallerstein)، إلا جزءاً بسيطاً من الاستهلاك الأوروبي الذي تأتي 95 في المئة من المنتجات التي يستهلكها من محيط لا يتجاوز في أقصاه الخمسة كيلومترات. وهذا لم يمنع فرناند بروديل من التأكيد على: «إن الرأسمالية توجد بامتياز في محيطها بواسطة حركة التبادل»[55]. يوافق هذا التقديس للمبادلات توجهان للبحث، فمن ناحية لا يعرف الرأسمالية انطلاقاً من العلاقات الاجتماعية للإنتاج، ومن جهة أخرى

---

(54) Frederic C. Lane, *Venise: Une République maritime* (Paris: Flammarion, 1985).

(55) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 200.

يفضل ما هو قابل للملاحظة والقياس في الوثائق الأرشيفية التي يطلع عليها. إلا أنه وعلى عكس الإنتاج «يتمتع التبادل بميزة أنه يخضع للملاحظة بسهولة»[56]. تقود التجريبية البروديلية إذاً إلى نظرة خاصة لرأسمالية محدودة بصورة أساسية في حقل المرئيات، فهو يحصر ملاحظته في معطى أساسي هو تطور الأسعار، ليس في آلية ثبوتيتها ولا في تطابقها مع دائرة الإنتاج وإنما بوضع تغيراتها في علاقة مع الأسواق المتنوعة وفي فترات مختلفة. صحيح أنه قبل العصر الصناعي كانت المضاربات والتقنيات الرأسمالية الأكثر تقدماً، موجودة في التجارة البعيدة بكل تأكيد. أن نحدد حقل الرأسمالية في المبادلات، هناك خطوة لم يتردد فرناند بروديل في تخطيها. إنه لم ير في الفترة ما قبل الصناعية للقرن الثامن عشر إلا فقراً وبؤساً وتقاليد. يطمح الناس أن يكونوا تجاراً وهم على عكس ذلك في تلك الفترة، حرفيون بالضرورة: «هنا تكمن كل مشكلة القيمة المحركة للإنتاج التي هي موضوع الخلاف، أو كلها تقريباً»[57]. إن النظام السائد، العمل في البيت أو ما هو على شاكلته، يضع التاجر في وضعية مهيمنة بالنسبة إلى الحرفي الذي يمثل دور منفذ الأوامر. إن المحفز هو الرساميل التي تأتي من دائرة المبادلات التي تسيطر على الإنتاج. هناك فعلاً استغلال المناجم الذي يتطلب رساميلاً هامة والذي يحوّل الحرفيين إلى أيد عاملة، لكن المحاولات الاحتكارية التي قام بها كبار التجار مثل آل فوجر (Fugger) للاستحواذ على هذا القطاع المنتج فشلت وترتب عنها مساهمة نشيطة من جانب الدولة. وبقيت الأرباح الصناعية مسحوقة بصورة نهائية بفعل اقتطاعات التجارة: «إن ميزانية الرأسمالية ما قبل

(56) المصدر نفسه، ص 12.

(57) المصدر نفسه، ص 272.

الصناعية هي تقريباً سلبية»[58]. إن المجال الرأسمالي الكبير بامتياز هو في البحر، حيث توجد العائدات الخيالية، في قطاع توزيع الثروات، وهو قطب الربح الحقيقي. إن مخطط كتاب فرناند بروديل حول المبادلات[59] واضح، فهو يميز بين الرأسمالية في عقر دارها: علية المجتمع التجاري والشركات الكبرى والمؤسسات التجارية، والرأسمالية خارج أرضها: الأرض والحرف والنقل.... تبقى من وراء هذا التعتيم على دوائر الأنتاج، منطقة أساسية في الظل، وهي منطقة الاستغلال وانتزاع فائض القيمة. لم يتعرض فرناند بروديل، تحت بريق قصر دوقات البندقية ووراء أبهة مدينة مزدهرة كانت حلقة وصل بين الشرق والغرب، إلى نظام الاستغلال الفعال لمدينة تعتمد من بين ما تعتمد عليه العبيد للصناعة والتجديف فوق سفنها، فهو يستعيد في الواقع الأطروحة التقليدية لبول مانتو وهنري بيرّان والتي تقول بأن التجارة هي التي تقود وتدفع كل المبادرات الاقتصادية. ويقوم بدراسة مفصلة لمختلف تراتبيات المجتمع التجاري من البزّازين وتجار الحبوب والبائعين الصغار البؤساء، إلى المضاربين مروراً بجموع الباعة والعطارين والحمالين. إن مجتمع التبادل هذا اختار موقعاً في أماكن مميزة مثل السوق اليومي والأسواق الدائمة التي تتزايد في المناطق الحضرية والأسواق الموسمية التي بدأت تتراجع في القرن الثامن عشر أمام المستودعات والمخازن. أدّى ظهور أسواق الأسهم (Bourses) إلى مضاعفة فرص المضاربة والسيولة وشيوع المعاملات. مجموعة من الحمالين تحاول رأب الصدوع التي بقيت في هذا الجهاز التجاري الممأسس بتنقلهم من مكان إلى آخر لدعم الحركة التجارية. ولكن محاور التبادل هذه التي تبنى اكتفى فرناند بروديل بوضعها لنا في كثافة

(58) المصدر نفسه، ص 327.

(59) «Les Jeux de l'échange,» dans: Ibid., vol. 2: *Les Jeux de l'échange.*

حياتها دون ذكر النظام الإنتاجي الكامن وراءها، والقيمة المضافة إلى كل سلعة تم تبادلها أو كذلك حالة تقسيم العمل في المواقع المعنية بالمبادلة. في هذا التداول للقيمة في الفترة الحديثة، يعطي مكانة جوهرية للعملة. الآلية النقدية، وهي من ثوابت التاريخ الإنساني، تظهر خاصة في الكتابة البروديلية كأنها شيء وكأنها جهاز حامل وغالباً ما تندمج ضمن مسالك المعادن الثمينة. وهو يصف بصورة مفصلة الصراع الذي قام بين أكبر المعادن النفيسة: الذهب والفضة. يبدو أنه منبهر بهذا الصراع ويبالغ في تقدير أهميته وهو ما يدعم توجهه العام الذي يميّز دائرة التبادل. وبنفس الطريقة التي يهمل فيها الإنتاج لصالح التبادل، تغيب الممارسات النقدية لصالح وصف للنقود كسند ضمن مقاربة غالباً ما تكون أدواتية أو وظائفية. وهكذا لم تكن هناك عملة قبل التعدين ولم تظهر العملة إلا «حيث الناس هم في حاجة إليها»[60]. وهنا أيضاً يوجد غالباً، خلط في الأهمية المعطاة للعملة ما بين حقل الرؤية والتمثلات والذهنيات التي يمكن اكتشافها في زمن ما وما كانت عليه فعلاً: «لم يبد أبداً أن دور المعادن الثمينة أكثر اعتباراً إلا في القرن السادس عشر. وبدون تردد منحها المعاصرون المكان الأول»[61]. ستكون الأنساق الدورية للاقتصاد الأوروبي مرتبطة بإنتاج المعادن الثمينة، مما أثار أول تباطؤ في بداية القرن السابع عشر سببه انخفاض ملحوظ في إنتاج الفضة في المناجم الأمريكية، وبالعكس سيؤدي إلى الازدهار في نهاية القرن عندما عاد كل شيء إلى النشاط في البوتوزي (Potosi). وغالباً

---

(60) Braudel, Ibid., vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*, p. 386.

(61) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 1, p. 420.

ما يستسلم فرناند بروديل لسحر المعدن الثمين، وهو المادة المفضلة بامتياز في نقل الأملاك النادرة في العصر الحديث. إلا أنه واع جداً أن هذا التبادل لا يكفي عندما يرى أن شبه الجزيرة الإيبيرية، المكان المتميز الذي تصل إليه كل تلك الكنوز، لا تزال بلاداً فقيرة نظراً لعدم استثمار تلك الأموال، أي إنتاج ما يكفي من أجل إرساء قواعد صلبة لازدهار اقتصادي وهو ما سينقص إسبانيا بتقوقعها في دور خزان الماء بالنسبة للمعادن الثمينة التي يعاد توزيعها في كل أوروبا وخارجها: «إن الملاحظة المتميزة لتدفق الموارد والمخزون تفترض التوفيق بين الوظائف والعلاقات النقدية، وتجعل الفعل النقدي مجرد تمرير للمعدن الثمين»[62].

إن الشكل الذي يقترحه فرناند بروديل هو بناء ثلاثي، فكما أن هناك أزمنة ثلاثة، هناك ثلاث طبقات للنشاط الاقتصادي. «على سطح الأرض توجد الحياة المادية»[63]، وهي طبقة الركود وبنية لحياة يومية تنتشر خارج الوعي الجماعي وتاريخ صنع من عادات متكررة الأزمان، وهي مجال الديموغرافيا والأعمال والأيام التي تستجيب لحاجات الناس البسيطة. التبادل البدائي وهو المقايضة، يندمج في هذه المنطقة الكثيفة التي لا تطولها السوق. إنها سلسلة من الواقع مؤلفة من أحداث صغيرة. يمكن تصور هذه الطبقة على طريقة اللاوعي الفرويدي مثل البناء التحتي الذي يحرك الأساسي من السلوكيات ولكن على خلاف هذه الأخيرة، هذه البنية للحياة اليومية سهلة البلوغ، فهي موضوع محسوس قابل للكشف من قبل المؤرخ

---

(62) Jean-Marie Baldner, «La Monnaie et l'historien,» *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

(63) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*, p. 8.

على شرط أن يتجاوز خطوط الأحداث الهامة التي يقدمها تسلسل الزمن ويبحث عن حياة متلقاة أكثر مما هي مصنوعة، حياة الصامتين في التاريخ الذين يحيون في عالم روتيني.

فوق ذلك يوجد الاقتصاد بامتياز، السوق كأنه اقتصاد طبيعي، «إنه تحرر وإنفتاح وولوج إلى عالم آخر. إنه الظهور على السطح»[64]. تنقسم حركة المبادلات هذه إلى مستويين. من ناحية يوجد اقتصاد السوق الأصيل في مستوى المبادلات المحلية وهي تجارة ضمن مسافات قصيرة ومكان واضح تمثل القرية إطاره المناسب. والقانون فيه هو قانون المنافسة بلا قيود ولا وساطات بما أن العلاقة بين المنتج والمستهلك هي علاقة مباشرة، إلا أن إشعاع هذه الطبقة الثانية هو بالضرورة إشعاع محدود. يضم اقتصاد السوق هذا طبقة علوية. وهو مستوى دائرة التبادل التي يقوم بها التجار الجوالون الذين تجاوزوا العلاقات المباشرة بين المنتجين والمستهلكين. في هذا المستوى نحن على مشارف الطبقة الثالثة، الرأسمالية. وهي تفرض نفسها في التجارة البعيدة وهي سوق مضادة ومعقدة تمد جذورها إلى قمة حركة المبادلات. ولكن الرأسمالية لا تبرز في تواصل اقتصاد السوق والتراكم الذي تحقق، ولكنها كنفي للسوق ذاته، فهي نوع من السوق المضادة تتكون آليتها الأساسية من الاحتكار الذي يخرق قواعد المنافسة الحرة. يؤدي التصور البروديلي إلى مفارقة[65]، فلا تكون السوق الحقيقية إلا مبادلات مباشرة بين منتج ومستهلك والتاجر يفسد القوانين الطبيعية للسوق. لا يمكن أن تكون هناك سوق حقيقية إلا في غياب التجار.

---

(64) المصدر نفسه، ج 2، ص 12.

(65) Alain Caillé, «Comment on écrit l'histoire du marché,» dans: Alain Caillé, *Splendeurs et misères des sciences sociales: Esquisses d'une mythologie*, pratiques sociales et théories; 3 (Genève: Droz, 1986).

يعمل هذا التصور انطلاقاً من قطبين غير شفافين، قطب ما هو تحت الاقتصاد، أي المقايضة والحياة المادية اليومية وفي أقصى الطرف الآخر يوجد قطب الشركات الكبرى والاحتكارات والمضاربات الدولية. في الوسط عالم شفاف يبدو إنه يتمتع بموقع متميز، هو السوق. في مواجهة مفهوم المبادلات ولتفسير واقعه المزدوج المتعادل وغير المتعادل، يوافق فرناند بروديل على السوق، مكان الشفافية ويرفض الرأسمالية التي ينظر إليها كأنها ورم خبيث وجسم غريب عن السوق، بنية فوقية هي على أساس التبادل اللامتكافئ. وهذا التركيب الدخيل الذي هو الرأسمالية، هو صورة خارج الزمن موجودة في عصر آل فوجر (Fugger) وفلزر (Welser) في القرن السادس عشر كما هي موجودة في الوقت الحاضر في الشركات العابرة للأوطان. من جهة، هناك «اقتصاد مبادلات عادية» ومن جهة أخرى «منطقة ظل تحجب الشمس وهي مجال لأنشطة سرية وهي نوع من التطفل الاجتماعي»[66].

يمتلك التجار الكبار تقنيات معقدة ويتمتعون بتواطؤ السلطات السياسية والاجتماعية. وهم يفسدون لعبة المبادلات الطبيعية الحرة بنفس أسلوب الدولة. هذه الصورة تقدم كبديل في نفس الوقت للنظرة الماركسية والنظرة الليبرالية لليون فالراس (Léon Walras) أو آدم سميث (Adam Smith) لرأسمالية تكونت كامتداد منطقي لاقتصاد السوق. أدت المواجهة التي طرحها فرناند بروديل بين خصوصية الرأسمالية وجوهرية السوق، إلى المبالغة في تقدير درجة الثراء التجاري للمجتمع الأوروبي الحديث ما قبل الصناعي. نستطيع أن نقرأ في هذا التصور لسوق شفاف، فوق كل الشبهات، حكماً

---

(66) Braudel, Ibid., vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 18.

أخلاقياً يُعلي من قيمة تبادل أثيري خاضع للقاعدة بلا تاجر يفسد لعبته الطبيعية، هو تبادل المؤسسات الصغرى. دون أن نقلل من شأن أطروحة فرناند بروديل بجعلها بمثابة بدائية جديدة متقادمة، إلا أنه يمكن أن نقرأ من خلالها مدحاً للتجار الصغار أو كما رآها آلان لايبيتز، تأثراً بروديا وهي خاصية محتملة تضع كذلك فرناند بروديل كسليل مباشر للمواقف الأولى لمعلمه لوسيان فيفر. لم يقصر فرناند بروديل في أن يطرح سؤالاً مركزياً على العلوم الاقتصادية بالتمييز بين اقتصاد السوق والرأسمالية، فهو يسمح بالفصل بين منطقين في المبادلات: منطق رأسمالية عالمية تهدف إلى تحقيق فائض ومنطق رأسمالية محلية وظيفتها تلبية حاجات قادرة لدفع المقابل[67]. يعتبر إيمانويل فالرشتاين زيادة على ذلك أن الهندسة البروديلية خصبة. وهي تسمح بتجاوز التحليل التقليدي المبني على تتابع مراحل ودرجات معينة: الفيودالية التي أعقبتها الرأسمالية والرأسمالية التي تجاوزتها الاشتراكية. يعتقد إيمانويل فالرشتاين أن مثل هذه المقاربة لم تعد ممكنة اليوم، عندما نعرف الدور الهام للسوق في بداية الرأسمالية وفي فترة أوج النظام الفيودالي الأقل انغلاقاً كما كنا نعتقد، وفي مساره من الأسفل حيث يبدو أن المجتمعات التي تنتسب للاشتراكية أصبحت مضطرة في جزء كبير، لإدخال قوانين السوق، من ليبرمان في الاتحاد السوفياتي إلى دينغ سياو بينغ (Deng Xiao Ping) في الصين. ومن المزايا الأخرى للقطيعة بين اقتصاد السوق والرأسمالية بالنسبة إلى إيمانويل فالرشتاين، هو إبطال التمييز المغلوط لرأسماليين لهم اختصاص خاص وهم التجار والصناعيين وأرباب المال... يسعى كبار الرأسماليين إلى القيام بكل شيء ما عدا أصحاب

(67) Goursolas, «Les Jeux de l'échange entre l'histoire braudélienne et l'analyse économique».

الإمكانيات المحدودة فهم مجبرون على الالتزام بحقل استثمار واحد. والتمييز الذي يجب أن يقام إذاً هو بين مختصين وغير مختصين. معنى القطيعة التي تم القيام بها بين اقتصاد السوق والرأسمالية بيّنها لنا فرناند بروديل نفسه بوضوح في خاتمة ثلاثيته بعدما قام بوصف لطوابقه الثلاثة: «ألا يمكن في النهاية أن يجنبنا التسليم بالتفرقة بين اقتصاد السوق والرأسمالية، الكل أو اللاشيء الذي يقترحه علينا رجال السياسة باستمرار؟»[68] إن الرسالة واضحة، يحسن بنا أن نحتفظ بالنظام مع اصلاحه وتعديله. ولكن ما الذي يسمح بالاعتراف بهذه التفرقة؟ يوجد فوق التحت ـ اقتصادي اقتصاد السوق الذي يتميز بالدرجة الأولى كواقع واع. إن المعيار الذي اعتمده فرناند بروديل للتعرف على وجود اقتصاد للسوق هو التزامن مع تغيرات الأسعار: «تاريخياً، يمكن الحديث، في رأيي، عن اقتصاد سوق ما إن بدأت تغيرات في الأسعار وتوافق بين أسواق منطقة ما»[69]. إلا أن هذا العامل لا يبدو مقنعاً بالنسبة للفترة التي يدرسها فرناند بروديل لأن تغيرات الأسعار بين المناطق هامة جداً حتى نرجعها إلى كيان اقتصادي موحّد. إن اللحظة الوحيدة التي يوافق فيها الواقع الاقتصادي تقريباً اقتصاد السوق حسب بروديل قائمة في نهاية العصر الوسيط، وهي لحظة استطاعت فيها طبقة من التجار تحقيق استقلاليتها عن النظام الإنتاجي. ولكن مثلما بيّن آلان كاييه (Alain Caillé): «إن تأسيس السوق هو تأسيس للرأسمالية أيضا»[70]. إن هذا التواصل في ازدهار هذا وذاك وتشابكهما الحتمي يناقض أطروحة فرناند بروديل التي تقول بأن الرأسمالية برزت كأنها نمو اصطناعي من الخارج

(68) Braudel, Ibid., vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 547.

(69) Braudel, Ibid., vol. 2: *Les Jeux de l'échange*, p. 195.

(70) Caillé, «Comment on écrit l'histoire du marché».

غريب عن السوق. بالعكس، تبدو الرأسمالية كأنها مآل ضروري لاقتصاد السوق. وقد سبق لريكاردو أن لاحظ هذه العلاقة الوثقى عندما اعتبر أن أي سوق هو بالضرورة احتكاري، في حين أن الشكل البروديلي ينطلق من عزلة هؤلاء الأعوان الرأسماليين الذين أصبحوا احتكاريين والذين انفصلوا عن المرحلة الطبيعية عن مرحلة المنافسة ذات العيار الجيد كما لو أن الاحتكار لم يكن نقطة انتهاء قوانين السوق التي لا مفر منها.

أما الجزء الثالث الذي يتوج هذه الثلاثية حول الاقتصاد في الفترة الحديثة، فقد خصص إلى تتالي مراحل الاقتصاد ـ العالم في الزمن. لقد جاء هذا المفهوم إلى فرناند بروديل انطلاقاً من صعوبات ترجمة الكلمة الألمانية (weltwirschaft) فترجمها بالاقتصاد ـ العالم وليس الاقتصاد العالمي. وهو مدين في هذه المفهمة إلى الذي نقدمه على أنه تلميذه: إيمانويل فالرشتاين[71]. يقدم هذا المفهوم كثيراً من المزايا لفرناند بروديل ويسمح له بالبقاء وفياً لمقاربته الخاصة للتاريخ منذ أطروحته. في البداية يمكن القول بأن الاقتصاد ـ العالم يوجد في مجال معين، وهو جزء مستقل عن الكون. وبالتالي يمكن التفكير فيه انطلاقاً من جغرافية معينة. ويمثل هذا المجال وحدة عضوية ممفصلة ووظيفية. وهو يتميز بثلاثة فضاءات (دائماً رقم ثلاثة السحري): مركز ضيق ومنطقة وسطى متطورة حوله وأخيراً محيط خارجي بأكمله. تلعب الثورات الجغرافية دوراً رئيسياً في تطور العالم انطلاقاً من هذا الشكل حيث تتنقل المراكز حسب الفترات وحيث تحدث تراتبيات

(71) Immanuel Wallerstein, *Le Système du monde du xvème siècle à nos jours,* nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1980-1985), tome 1: *Capitalisme et économie-monde: 1450-1640* (1980) et tome 2: *Le Mercantilisme et la consolidation de l'économie-monde européenne: 1600- 1750* (1985).

جديدة تقسم المجال حسب مختلف التركيزات وانفكاكها. وهذه الاقتصاديات ـ العالم تعيد تركيب مراكز ثقل جديدة بلا نهاية، فهذه الأجسام لا يمكن لها أن تحيا بدون دفع حاسم من القلب. يجد فرناند بروديل، في بحثه عن الثوابت، مع مفهومه الاقتصاد ـ العالم مفهومه للأمد الطويل الذي لا يتزحزح: «لقد كان هناك اقتصاد ـ عالم منذ الأبد»[72]. وهو يختلف في هذا عن التحليل التاريخاني لإيمانويل فالرشتاين الذي يرى أنه لم يوجد إلا اقتصاد ـ عالم واحد: الرأسمالية الأوروبية الناشئة في القرن السادس عشر، وبقية المجموعات السابقة مسماة بالإمبراطوريات ـ العالم نظام توزيعها للعمل وفترة انتشار المبادلات، توافق نظام الهيمنة السياسية.

في حين أن الاقتصاد ـ العالم يمتد على فضاء سياسي مشتت. نجد كذلك عند فرناند بروديل كل استيحائه العضواني في ما يتعلق بتصوره لنمط نشاط الاقتصاد ـ العالم «كنظام الشرايين الذي يوزّع الدم في جسم حي»[73]. نجد من خلال إعطاء قيمة كبيرة للمبادلات في مجال مفصلي وأمد ثابت وعضوانية، ضمن مفهوم الاقتصاد ـ العالم كل المواضيع البروديلية. تسمح له هذه الأطروحة إضافة إلى ذلك بتدقيق نموذجه في مواجهة التفسير الماركسي الذي يرى أن هناك أنماطاً للإنتاج ذات طبيعة مختلفة يتلو بعضها بعضاً، في حين أنه يوجد في الاقتصاديات ـ العالم تراكب وآنية وتزامن أكثر مما هو تتابع زمني. يتبع إذاً فرناند بروديل خطوة خطوة في الجزء الثالث، من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر مراكز الاقتصاد ـ العالم ويجعل التفوق الجنوي متبوعاً بالتفوق البندقي ثم الهولندي

(72) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p. 14.

(73) المصدر نفسه، ص 66.

وأخيراً الإنجليزي ويقوم في كل مرة بنقل المناطق المركزية وأطرافها. يعيد هذا التتابع في مجمله الربط مع تدرج زمني شديد البساطة وكثير الوقائعية حتى أن ميشال مورينو (Michel Morineau) كتب ساخراً: «يمكن أن نتساءل، بصورة كاريكاتورية، ألا يعني هذا أننا نشتم رائحة هالفاين وسانياك، حيث حل الاقتصادي محل السياسي»[74]. يبدو أن الوقائعي في المستوى الدبلوماسي في الفصل الثالث من **البحر الأبيض المتوسط**، قد وجد نظيره من خلال تتابع مراكز الاقتصاد ـ العالم على مستوى الاقتصاد في الفصل الثالث من كتاب **الحضارة المادية**. تسمح هذه الجغرافيا التفاضلية، الممفصلة انطلاقاً من الاقتصاد ـ العالم الذي يراكم الثروات ويستغل المناطق الطرفية، بشبكة قراءة صالحة لكل العصور. هكذا يكون الاختلاف الثقافي بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة حقيقة بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. وبنفس الطريقة التي كانت الإمبراطورية الرومانية تجلب عبيدها من أطراف الإمبراطورية، تجلب مراكز الاقتصاد ـ العالم يدها العاملة غير المختصة من الأطراف. يبدو أن هذا الاستنتاج صحيح وهو يسمح بالفعل بالقيام بتاريخ مقارن ولكن يسمح أيضاً بالوقوع في المفارقات التاريخية لأنه يلغي التطور التاريخي ونشأة أنماط إنتاج جديدة ذات قوانين عمل مختلفة. يعني هذا الشكل أنه يجب محو تفرد الرأسمالية من التاريخ الأوروبي والإمبريالية كفترة تاريخية ويعوض ذلك بقانون جغرافي عنيد لا يتزحزح ولا تاريخي.

رجل الوسط

«إن معجزة المؤرخ هي أن كل الناس الذين نمسهم هم أحياء

---

(74) Michel Morineau, dans: *Revue d'histoire moderne et contemporaine* (octobre 1981), p. 665.

بصورة خارقة للعادة. إنه انتصار للحياة على الموت»[75]. فعلاً إنه ذلك الموت الذي يسعى إلى إخراجه، هو الذي فاجأ سيد **الحوليّات** الذي لا ترد له كلمة في عز النشاط واختطفه من مشروعه البروموثي لكتابة تاريخ لفرنسا الذي بدأه في عمر الثلاثة والثمانين. كانت وفاته فرصة لمعرفة القيمة التي اكتسبها في الأوساط الفكرية التي عبرت عن احترامها له بكثير من التأثر. كتب بيار غوبار في الصفحة الأولى من جريدة لوموند «أمير التاريخ». وكتبت جريدة **ليبيراسيون** «أبيقوري (épicurien) مبحر في العلوم». وهو «أول المؤرخين» بالنسبة إلى بيار شونو في صحيفة لوفيغارو. «إنه الرجل الذي أعاد كتابة التاريخ» بالنسبة إلى جريدة لو ماتان. «الرجل الذي غير مجرى التاريخ» بالنسبة إلى لو كوتيديان دو باري. «ملحمة الملك بروديل» بالنسبة إلى النوفيل أوبسرفاتور. «بروديل المجدد» كتب إيمانويل لوروا لا دوري في مجلة **الإكسبريس**. يمكن أن نستنتج من هذه العناوين وجود «حالة بروديل» التي جرى الانتساب لها بكثافة في الثمانينيات، وهذا الانتساب يعكسه الخط البياني الصاعد لمبيعات أعماله منذ عام 1979. هذا النجاح هو نجاح مؤرخ كان سبباً في نجاح مدرسة **الحوليّات**، تاركاً لها إرثاً فكرياً ومؤسسياً غير مسبوق مكنها من كسر جدار سوء الفهم بين البحوث التاريخية والجمهور بفضل المواقع الإعلامية التي يحتلها الجيل الجديد. بتسليمه المشعل بعد عام 1968 إلى فريق شاب، انسحب من تلقاء نفسه نوعاً ما من المشهد الفكري الفرنسي، على الأقل في الظاهر، لأن شهرته لم تتوقف عن النمو في الخارج. وكيف نفسر إذاً عودته القوية إلى المسرح في الثمانينيات؟ نرى ذلك من خلال الشاشة وهي تروي حياته في نكهة خاصة، فقد نظم اثنتي عشرة

---

(75) Fernand Braudel, «Les Méthodes de l'histoire,» *France-culture* (30 juillet 1985).

حلقة تلفزيونية مدة كل منها ساعة واحدة حول البحر الأبيض المتوسط، يتهافت الناس على كتبه لإهدائها أكثر من قراءتها لأنها ضخمة الحجم، باستثناء كتيبه الجديد الذي وضع بطريقة جيدة في المكتبات قرب صناديق الدفع وهو كتاب **ديناميكية الرأسمالية**. هكذا يمكن لأي مغرم بالكتب أن يحصل على بروديله الصغير في سلسلة الجيب. يوافق هذا الصدى الذي حصل عليه لدى جمهور عريض في الساعات الأخيرة من حياته، من غير شك مطلباً اجتماعياً ولا يمكن أن يعزى فقط لدخوله الأكاديمية الفرنسية أخيراً.

يبدو وهو في سن الثالثة والثمانين في هيئة كبير العائلة بين ورثته يدفعهم تنافر متمايز ولكنهم يجتهدون في تحنيطه حياً. تجاوزت هذه الشهرة حدود فرنسا حيث ظل المعلم غير معروف تماماً لدى الجمهور العريض. تلاقي البروديلية رواجاً كبيراً في جميع أنحاء العالم ويفسر البعض ذلك بأن هذا النجاح هو عبارة عن رجع صدى للنجاح الذي لقيته في ما وراء المحيط الأطلسي. كان يطمح إلى معانقة الآفاق الشاسعة للمتوسط في نظرة واحدة، ومؤخراً إلى معانقة العالم بأسره. وهو بذلك يرغب في امتلاك مصير العالم بفضل مقاربة كليانية تقصي بعناية كلية فكرة المنظومة. وفوق كل المعارف المجزأة وكل المختصين، كان يشعر بعض الشيء بأنه سيد هذا العالم المشوَّش الذي يريد أن يعيده إلينا. لا شك أن في طموحه بعض الإفراط. وهو لا يعترف بأحد مساوياً له ولا بنظير له من جيله فليس له إلا بعض التلامذة المتواضعين «والذين لا يفهمونه»[76]. إنه الاستثناء الذي يؤكد القاعدة كما هو الحال دائماً. هناك رجل تجرّأ أن يفوقه في الشهرة ونجح أكثر منه في تمثيل عصره، وهو الوحيد الذي

---

(76) Fernand Braudel, Châteauvallon, 18 octobre 1985.

يعترف له بهذا التفوق: إنه جان بول سارتر. فعلاً يقبل فرناند بروديل بذلك: «إنه مخطئ تماماً بالنسبة إليّ، ولكنه اندمج بصورة ناجحة في الحياة الفرنسية»[77]. إن جان بول سارتر هو ضمير جيل، وهو ما لم ينجح في أن يكونه فرناند بروديل، قليل الانخراط في الحياة العامة، فهو رجل المؤسسات المنهمك في بناء قلعة لا تطال، إمبراطورية المؤرخين الفرنسيين. إن قدر فرناند بروديل له حظوظ كبيرة ليكون أكثر ثباتاً لأن المؤسسات التي أدارها ووجهها في مختلف الاتجاهات أو التي أسسها بكل أجزائها، ستبقى حية من بعده. ورغم بعض المواقف التي كانت على نقيض مواقف جان بول سارتر، فهو يعترف له بسبق، وفي خاتمة ثلاثيته الحديثة، يناقش الموقف السارتري: «يمكن أن يحلم جان بول سارتر بمجتمع تزول فيه اللامساواة ولا تكون فيه سيطرة إنسان على إنسان. ولكن ليس هناك مجتمع في العالم الحالي قد تخلى عن التقاليد وعن استعمال الامتياز»[78]. لا يمكن بالنسبة إلى فرناند بروديل أن يوجد مجتمع بدون تراتبية، فهذا عنصر من العناصر الثابتة. يمكن أن تتغير التراتبية من حيث الشكل وتمر من الاستعباد إلى القنانة أو إلى الإجارة، فهي تظل دائماً مظهراً من مظاهر سيطرة بعض الناس على بعض. وبعكس جان بول سارتر حاول أن يبيّن أن حرية الإنسان باب ضيّق وما زال يضيق شيئاً فشيئاً. في البداية لتوضيح هذا النجاح يجب أن لا نغفل أن فرناند بروديل لم يفارق مقدمة المسرح إلا ظاهرياً، فقد ظل حاضراً بالنسبة لمؤرخي التاريخ الجديد الذين سيجنون الثمار الطازجة لانتصار سيدهم، وزعيمهم الذي لا ينازع. يروي مارك فيرّو (Marc Ferro) تلميذه سابقاً والمدير

(77) المصدر نفسه.

(78) Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*, vol. 3: *Le Temps du monde*, p.544.

المساعد **للحوليات** إنه في كل مرة يكون فيها خيارات داخل المجلة تتساءل بغصّة: «ماذا كان يمكن أن يقول فرناند؟»[79] تكفي مشاهدته وهو يتبختر بتلذذ طيلة الأيام الثلاثة التي خصصت للاحتفاء به في شاتوفالون لمعرفة مدى سلطته: «ليس لي سوى أصدقاء وأحاول أن أبيّن لهم أنني على حق»[80]. هناك كثير من الفكاهة في هذه اللعبة وكثير من التآلف ولكن يبرز من وراء تلك الابتسامة الجذابة لشيخ أبيض الشعر، الاعتقاد بأنه زعيم ذو جاذبية. وفي اللحظة التي يتعرض فيها خطاب **الحوليّات** التاريخي لضغط القوى النابذة حيث ينطوي كل واحد على معرفته المجزأة، يبدو كأنه الوجه الرمزي الوحيد القادر على جمع وتوحيد الشخصيات الأكثر اختلافاً. وهو يستطيع بسهولة أن يستضيف في نفس الوقت مؤرخين مختلفين مثل جورج دوبي وبيار شونو واللذين لا يجمع بينهما إلا اعترافهما بأنه أستاذهما. لقد حازت ظاهرة بروديل انتساباً كثيفاً واعترافاً تستفيد منه اليوم المدرسة التاريخية الفرنسية بمجملها، فقد كان ملكاً في هذه الإمبراطورية الوسطى وحلقة أساسية ورابطاً بين أجيال مدرسة **الحوليّات**، جيل الأبوين المؤسسَين في الثلاثينيات: مارك بلوخ ولوسيان فيفر والجيل الحالي، جيل الورثة. وبهذه الصفة فإن فرناند بروديل هو في نفس الوقت الوريث المباشر والمجدد، وهو الذي سمح من خلال توجهاته بجملة من الانزلاقات التي ستؤدي إلى تفجر الحقل التاريخي. بتفضيله لتاريخ متجه نحو الطبيعة وطويل الأمد، فتح الباب أمام التاريخ الجامد. وباستيعابه سلسلة مقولات من مختلف العلوم الاجتماعية أعلن الاصطفاف الكلي للتاريخ في صدارتها. وبتفكيك الوحدة الزمنية، سمح بدراسة مواضيع غير

(79) Marc Ferro, dans: *Magazine littéraire* (novembre 1984), p. 26.

(80) Fernand Braudel, Châteauvallon, 18 octobre 1985.

متجانسة، انكسار الزمن والتاريخ المفتت. ولكنه بقي وفياً للمحافظة على قاعدة تاريخية سيرفضها الذين سيخلفونه. الشمولية ووحدة المرجعية الزمنية والتفاعل بين مختلف مستويات الواقع والمكان الذي يحتله التاريخ الاجتماعي في أبحاثه، كل ذلك سيجعل منه في هذه الميادين وريثاً وفياً لأبويه الروحيين، مارك بلوخ ولوسيان فيفر. لقد كان رجل الوسط ما بين الجيل الأول **للحوليات** والجيل الثالث، وبهذه الصفة كان المرجع الضروري للجميع. العامل الثاني الذي يسلط الضوء على نجاحه في الثمانينيات، هو في وضعية الأزمة الاقتصادية الطويلة الأمد. أدّى فشل علماء الاقتصاد وعجز حلولهم سواء كانت كاينزية (Keynésiennes) أو تحررية، إلى التساؤل حول ماضينا الاقتصادي البعيد من أجل فهم المظاهر الحالية للأزمة والمساعدة على قراءتها. أصبح مؤرخ الاقتصاد الذي هو فرناند بروديل، مرجع الاقتصاديين. يفسر جانب خاص من الأزمة اللجوء إلى فرناند بروديل، القدرية والتشاؤم اللذان يؤثران على فاعلية النشاط الإنساني الخاضع لظواهر لا يسيطر عليها الإنسان وهي تتجاوزه. فالحكومات لم تعد تراقب اقتصادها الوطني واضطراب السوق العالمية يتزايد ومؤرخ، هو فرناند بروديل، يرى أنه ليس هناك من موقف سوى الانتظار: «نتحمل دورة كوندراتياف (Le Cycle Kondratieff) كما نتحمل دوران الأرض»[81]. الإنسان البروديلي عاجز، خاضع للظواهر الجغرافية والاقتصادية التي تزيله عن موقعه: «ما أفعله هو ضد حرية الإنسان»[82]. يبدو أن جاذبية الأمد الطويل تضغط بكل قواها على الجنس البشري الذي يتخبط كفأر في قفص ضيق. يطمئن فرناند بروديل إذاً عندما يبين أن العجز الحالي هو

(81) Fernand Braudel, *TF1*, 22 août 1984.

(82) المصدر نفسه.

صدى لنفس العجز الذي كان موجوداً في الماضي. يبدو بمقياس الأمد الطويل أن أي نزعة إرادية إنسانية، محكومة باللامعنى. كان نجاح بروديل نجاحاً لرائد مدرسة ولكنه في نفس الوقت نجاح رجل فريد من نوعه، فلئن خلف إرثاً زاهراً فهو لم يترك تلامذة يتبنون نظرته العالمية والكليانية. ومن هذا المنظور لم يترك فرناند بروديل وهو الأثر الأخير للنزعة الموسوعية، وريثاً. وهذا معنى اعتبار نفسه رجلاً وحيداً. لقد صور نفسه في شاتوفالون في صورة شهيد. كان الاعتقاد أن هذا الرجل في وضع جيد يسمح له بإعطاء نفس جديد **للحوليات**، حتى إنه يشبه نفسه بأخ مسيحي مبشر، هو دون فرناندو (Don Fernando) الذي كان يدخل الناس في المسيحية على هامش ما تقوم به الكنائس الرسمية، لا يفهمه جميع الناس ولكنه واثق من حكم الآخرة. في رده على سؤال تيودور زلدين (Theodor Zeldin) الذي سأله من الشخص الذي فهمه، فأجاب: «شخص واحد، مؤرخ روسي - أرجنتيني - يهودي، ولعل ذلك راجع إلى هذا المزيج». «عشت حياتي ولم يفهمني أحد»[83]. يجب ألاّ نخطىء، فالأمر لا يعني لهذا الرأس المتوّج، التعبير عن غيظ وإنما هو تأكيد، بعيداً من انتمائه إلى مدرسة، لعظمته الديغولية. وهو يريد تجسيد «التاريخ» كما تجسد الجنرال في فرنسا. بسرده لمختلف مراحل سيرته الفكرية لم ير فيها إلا مؤامرات تحاك ضده. لقد احتفظ من جيل أساتذته بتلك الذهنية المناضلة ضد المؤسسات في حين أنه كان في قمة التمأسس والتتويج: «لقد عشت حياة صعبة جداً»[84] وعند ذكره لمرحلة عودته من البرازيل، حيث حاول التجديد في السوربون قبل أن يبعد عنها. وهو يعتبر تعيينه في مؤسسة كوليج دو فرانس العريقة أنه

---

(83) Châteauvallon, 18 octobre 1985.

(84) المصدر نفسه.

«اقصاء»[85]، وأنه بمثابة Colombey-les-deux-églises الخاص به (إشارة إلى القرية التي أنهى ديغول حياته فيها بعد اعتزاله العمل العام). وقد حاول في ما بعد إنشاء كلية للعلوم الاجتماعية، لكن تكتل ضده المختصون في الآداب والحقوق الذين ردوا على مبادرته بإنشاء كليات الآداب والعلوم الإنسانية وكليات الحقوق والعلوم الاقتصادية. ولتعزية نفسه، انكفأ لتأسيس دار لعلوم الإنسان وهي أيضاً عبارة عن «مكان للعزلة» شأنها شأن القسم السادس عندما كانت شهاداته غير معترف بها على المستوى الوطني، فهو إذاً عبارة عن مسار عذاب وعبارة عن عبور في الصحراء كان قد عانى منهما شهيدنا في العلوم الإنسانية. بالطبع إن هناك بوناً بين هذه اللوحة المريعة وواقع معلم مبجّل ومكرّس في حياته، ولكن كل شيء جاهز للسيرة المكرّمة. فعلاً كان فرناند بروديل يبشّر على خطى لوسيان فيفر مع التمني بتجاوزه والذهاب بعيداً في غزو حقل المؤرخ: «كان لوسيان فيفر يقول: التاريخ هو الإنسان. أما أنا فأقول إن التاريخ هو الإنسان والبقية. كل شيء تاريخ، الأرض والمناخ والتحركات الجيولوجية»[86]. نشهد إذاً تحويلاً للإنسان عن المركز وهو ما يبدو له أنه إضافته الشخصية بالنسبة إلى ما كتبه الجيل الأول. ولكنه يتحسر على هذه المرحلة الأولى البطولية من تاريخ **الحوليّات** وهي مرحلة مناضلة قبل أن ترتقي إلى مرحلة الهيمنة في مجال الكتابة التاريخية الفرنسية. لقد أصبحت **حوليّات** اليوم «غريبة عني»[87] هكذا صرح في حديث لمجلة **التاريخ**، متحسراً على مرحلة التهميش لمجلة كانت تسائل وتقلق في وقت كان نجاحها قد جعل منها

---

(85) المصدر نفسه.

(86) Braudel, «Entretien,» p. 22.

(87) Fernand Braudel, «Entretien,» *L'Histoire* (septembre 1982).

مؤسسة وجعل منها مجلة تقليدية كغيرها من المجلات. إن هذه النظرة لمدرسة قد تكون خارجة عن القانون تعد من باب البناء الأسطوري لماض يحتفي به فرناند بروديل بما أنه واحد من الأبطال الأساسيين لهذه الأسطورة. وقد ميّز في شاتوفالون بين تصوره الشخصي للتاريخ الجديد وتصور الجيل الثالث اليوم والذي في رأيه يبني تاريخاً جديداً مختلفاً عن توجهاته هو «لأن التلاميذ لم يتبعوا مبادئي... فهناك قطيعة كبرى مع الذين خلفوني»[88]. ما يأخذه خاصة على تلاميذه هو تخليهم عن الطموح لإنجاز تاريخ كلي واعتكافهم في حقل الذهنيات دون ربطها بالكل. وفي ذلك، حسب رأيه، يفقد التاريخ دوره الأساسي في أن يجمع حوله كل العلوم الاجتماعية. إن ذلك يساهم في تشظي التاريخ حسب تقطيع يتم تحديده من المواضيع المتنوعة المدروسة. لا يمكن لهذا التشتت إلا أن يكون مرفوضاً من قبل فرناند بروديل مؤرخ الكليانية. كوريث لمارك بلوخ ولوسيان فيفر، قام بالتحضير إذاً بتفكيره حول الأمد الطويل ومختلف الأزمنة، لبحوث الجيل الحالي متمسكاً بتحفظاته تجاهه.

إن موقعه كرجل الوسط، وهو موقع وسطي، يستمده كذلك من وجوده في نقطة تقاطع المصطلح والنموذج دون القدرة على اختيار أحد المسلكين بصورة مفردة، فلئن كان، لمقاومة هجوم العلوم الإنسانية، يبحث عن لا وعي الممارسات الاجتماعية والبنى وأعماق التاريخ، فلم يكن أقل من ذلك في نشر تاريخ ـ رواية هو الأكثر كلاسيكية ودون أن يكون ذلك مرتبطاً ببقية الرواية، فلا يوجد في الفصل الثالث من كتابه **البحر الأبيض المتوسط** إلا الوقائع بالمعنى الأكثر تقليدية للكلمة. حقيقة يجب أن نفهم أن هذا القسم

(88) Braudel, Châteauvallon, 18 octobre 1985.

الوقائعي يبقى ضمن الكتاب كرواية متبقية من مشروع أولي لأطروحة جد تقليدية وقع تركها لآخر الفصل ورميها في سلة التفاهة. وليست هذه الرواية سوى زبد الأيام التي تدور في ظلها أحداث التاريخ الأصيل على حقيقتها، فلم ينظر إلى الحدث على أنه تعبير عن مجموعة الظواهر الأكثر عمقاً ضمن جدلية الأزمنة القصيرة والأزمنة الطويلة، فهذا المعطى غائب عن هذا العمل. بل بالعكس ليس هناك إلا ملحق لا علاقة له ببقية الكتاب إلا بالتسلسل الزمني. زد على ذلك أن فرناند بروديل لا يخفي هذه القطيعة بين النسق والموضوع: «ينتمي هذا الفصل الثالث إلى نظرة تقليدية صريحة. قد يجد فيه ليوبولد فون رانكه (Léopold von Ranke) نصائحه ومنهجه في الكتابة والتفكير»[89]. ولئن حافظ على هذه الرواية الأكثر تقليدية والجديرة بأن تكون من أحسن مظاهر التاريخ ـ الحدث الذي ترفضه **الحوليّات**، فلأنه فهم جيداً أن التوقف عند التاريخ الذي لا يكاد يتحرك هو نفي للتاريخ ذاته. لذلك وجب إعادة إدخاله بطريقة أو بأخرى. بانعدام جدلية تلعب دور الرابط بين الزمن القصير والزمن الطويل، لم يبق إلا تقديم لوحة من «الغبار» الوقائعي للفترة المدروسة حتى ولو كان لها طابع وهمي، فهي على الأقل الوهم الذي يتقاسمه المعاصرون للأحداث المروية، فنجد إذاً ملذات كابو (Capoue) للمؤرخ التقليدي. لا يعفينا فرناند بروديل من أي تفصيل من تفاصيل التاريخ الدبلوماسي عاماً بعام إلى تاريخ معركة ليبانت (Lépante) وما بعده. الحتمية تترك المجال عندئذ، للصدف، لما لا يمكن تقديره، فالسلم الذي عرفه البحر الأبيض المتوسط ما بين عامي 1545 و1550 كان نتيجة انعدام التمويل ولكن «أيضاً نتيجة

(89) Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, vol. 2, p. 223.

لبعض الصدف: فقد اختفى كبار متناحري النصف الأول من القرن الواحد تلو الآخر»[90]. ندخل إذاً في تاريخ تكون فيه الحالات النفسية لعظماء هذا العصر والمصاهرات السلالية خطوطه الأساسية. وهذا الترابط الذي ينطلق من نفسية فيليب الثاني ينتج من المصاعب البديهية للتاريخ التاريخاني. يتصارع الناس في هذا التاريخ وفرناند بروديل لا يتردد في إبداء إعجابه. وحول الصراع الذي دار في مالطا عام 1564: «قد استمات السيد الكبير، جان دو لافاليت باريزو (Jean de la Valette Parisot) وفرسانه في الدفاع دفاعاً رائعاً، وأنقذت شجاعتهم كل شيء»[91]. ومثل التاريخ التقليدي يعتبر فرناند بروديل أن تدهور الإمبراطورية العثمانية بدأ مع وفاة سليمان القانوني (5 سبتمبر/أيلول 1566) بما أن العرش قد آل إلى «رجل ضعيف»، هو سليم الثاني المتذوق لنبيذ قبرص. نقدّر إلى أي مدى يترك فرناند بروديل نفسه مأخوذاً بتاريخ يعطي للإنسان كفرد ذي نفسية معينة وزناً أساسياً في مصير الحضارات. وهو التاريخ الذي حاربته **الحوليّات**. لنستنتج ذلك من المسؤولية الملقاة على عاتق دوق آلب (duc d'Albe). لم يفهم أن الخطر الذي يتهدد هولندا الخاضعة للسلطة الإسبانية يأتي من إنجلترا أكثر من ألمانيا: «فكر ضيّق، لقد اعتمد هذا الرجل العظيم المزيّف سياسة قصيرة النظر، تضرب ما تطال يدها. حيث ترك ملكة إيكوسيا (إسكوتلندا) تهرب إلى إنجلترا، وهكذا تحولت إيكوسيا إلى البروتستانتية»[92]. وعلى عكس ذلك تحدى بعض كبار الوجوه القدر، مثل البابا بيوس الخامس (Pie V) الذي تبنى القرار الذي أدّى عام 1571 إلى تكوين تكتل مقدس بين

(90) المصدر نفسه، ص 226.
(91) المصدر نفسه، ص 322.
(92) المصدر نفسه، ص 355.

البندقية وروما وإسبانيا، ونجح في ذلك بفضل شخصيته الفريدة، إذ بدونه لم يكن ممكناً تكوين كتلة مقدسة وما كانت معركة ليبانت لتقع عام 1571. وهكذا يمكن أن نقدّر أهمية شخصية البابا القوية. أما في ما يتعلق بمعركة ليبانت نفسها، وهي تمثل تصادماً كبيراً بين المسلمين والمسيحيين، إلى من يعود فضل الانتصار المسيحي فيها؟ «هل يعود إلى القائد، دون خوان؟ بدون أدنى شك»[93]. إلا أن هذا الحدث بعيد كل البعد عن التفاهة التي رآها فيه فولتير عندما يسخر من تبعاته. كان الأثر المباشر لهذا الانتصار عظيماً. يجب أن ننتظر وفاة البطل، فيليب الثاني عام 1598، حتى يشير فرناند بروديل في النهاية إلى ضعف الروابط بين موضوعه الأصلي وأطروحته التي أنجزها، بما أن أفول الملك الفطن لا يعد حدثاً تاريخياً حقيقياً بالنسبة إلى التاريخ المتوسطي، وهو الأفق الذي لم يشغل أبداً فيليب الثاني الذي اقتصرت سياسته على الحدود الإسبانية. يبدو أن كل طابق من طوابق البناء البروديلي كان منغلقاً على ذاته. من أفق الزمن المكاني الذي يكاد لا يتحرك إلى أفق التاريخ الدبلوماسي المتسارع، يظل الإنسان، كقوة جماعية، غائباً بصورة جوهرية، فهو مأخوذ بين أحداث عسكرية لا تعني إلا عظماء العصر ووطأة نظام بيئي وعادات الحياة اليومية التي تشكل جميعها محيطه الذي لا يمكن تجاوزه.

هذه الوضعية الوسطية لفرناند بروديل تسمح له بأن يكون في نفس الوقت مقدّراً لدى جمهور مختص لتبحره العلمي، ولدى الجمهور العريض أو لدى مختصين في علوم أخرى لتميز كتابته: «أحب أعمال فرناند بروديل ليس فقط لإضافتها العلمية وإنما كذلك لجماليتها»[94]. هذه الوضعية المفصل لرجل الوسط، قد غذاها فرناند

---

(93) المصدر نفسه، ص 395.

(94) A. Lipietz, dans: *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

بروديل على المستوى السياسي كذلك. لم يلتزم أبداً، فقد حافظ على الغموض بين اليسار واليمين ودون أن يرتهن لهذا أو ذاك، فقد كان هنا أيضاً المؤسس لعدم التزام الجيل القادم. كان في الخمسينيات والستينيات بيار رنوفان عن يمينه وإرنست لابروس عن يساره والكل يعرف أن أحسن وضعية هي الوضعية الوسطى التي يحتلها فرناند بروديل، الذي كان وقتها رئيساً للجنة التبريز. هاجمه الحزب الشيوعي عام 1951[95] بحدة، باعتباره مزود فرنسا بأطروحات الإمبريالية الأمريكية ضد معسكر الاتحاد السوفياتي والعمال، ولم يكن أقل تحقيراً من قبل المؤرخين التقليديين باعتباره مروجاً لتاريخ ماركسي. نعرف ماذا يمكن أن توفر مثل هذه الوضعية من مزايا، فهي تبين مدى استقلالية الرجل الفكرية. إضافة إلى ذلك، وضعه كعالم بسير الشهداء الوسطي تسمح له بالسيطرة بلا منازع، فهو معبر إجباري لمؤرخي اليمين واليسار على حد سواء. كان يرمي شباكه بعيداً لصالح مدرسة تأخذ من كل شيء والتي ستسيطر مع الجيل الثالث، دون أن تستعمل السيف الذي استعمله فرناند بروديل لمقارعة الحديد بالحديد قبل أن يحمله بصفته أكاديمياً وهو في قمة مجده.

(95) J. Blot (J. Chambaz), «Le Révisionnisme en histoire ou l'école des *Annales*,» *La Nouvelle critique*, no. 30 (novembre 1951).

III

تاريخ مفتّت

1 ـ الأنثروبولوجيا التاريخية

استفاد رواج البنيوية، رغم المواجهة البروديلية، من ظرف ملائم: تحرر المستعمرات. اكتشف الضمير الإثنولوجي الأهمية التي تمثلها الحضارات الأخرى. كان الاهتمام آنذاك بما يمثل قوة المقاومة لدى هذه المجتمعات وبتواصل بناها وقيمها التي تبدو صامدة أمام النموذج الغربي. إنه اكتشاف الآخر في المجال القائم كمثال لحقيقة إنسانية تبيّن نسبية النزعة الأوروبية المركزية. أصبح الغرب يشعر بأنه لا يصنع تاريخ الإنسانية وإنما تاريخ إنسانية معينة. في العالم الثالث الذي يرفض هذا التاريخ في صراع غالباً ما كان جذرياً، كان المثقفون الغربيون تراودهم الرغبة هم أيضاً بإلقاء ماضي شعوبهم في البحر والقيام بنظرة مكانية حول العالم أكثر منها زمنية. إن مثل هذا الانقلاب، يعزز الخطاب الأنثروبولوجي والإثنولوجي والبنيوي. رجع علماء الإثنولوجيا إلى فرنسا واكتشفوا المستعمرات الداخلية للعالم الغربي حواجز صامدة في وجه التغيير. السلبية تؤدي إلى الصمت وإلى العجز. على هذا الإيقاع الزمني يموت الماضي ولا يعود يذكر إلا ليعاد دفنه من جديد أو يُشعَر حياله بحنين غامض.

هكذا سيبحث المؤرخون في المكان وفي الحاضر عن بقايا وآثار ماض دائم الحضور. ونكتشف الغريبيب قريباً منا، وبيننا، كما

بيّن ذلك تحقيق أندريه بورغيار في منطقة بلوزيفيه (Plozévet) حيث تعرّض السكان البريتانيون المحليون لموجات الباحثين من مختلف العلوم الإنسانية يتنازعون بقايا تاريخهم وآثارهم. نجد هنا نقطة انطلاق موجة الذاكرة الشعبية من الزواج الوهمي بين الأم دونيس (mère Denis) وآلة الغسيل.

نجح الخطاب الأنثروبولوجي حول إعادة إنتاج البنى وحول الثوابت الفاعلة في المجتمعات الباردة في التأقلم مع مناخ الغرب المعتدل، ولم يعد مجبراً على تحديد موقعه في مستوى المناطق المدارية. ازداد توجه البحوث نحو المعوقات ونحو مراحل التوازن في المجتمع انطلاقاً من السبعينيات عندما بدأ الازدهار والنمو يتراجع ولمدة طويلة، تاركاً مكانه لأزمة عالمية عميقة بشكل خاص دفعت بالعالم الصناعي نحو الركود والبطالة والتضخم المالي. اكتشف الغرب المفاتن الخفية للزمن القديم والعصر الذهبي المفقود، والزمن الجميل الذي يجب أن يستعاد. وهذا الزمن المستعاد هو الذي تكفل المؤرخون بإعادة إنتاجه باستعارة أدوات تحليل وقواعد علماء الإثنولوجيا. أصبح المكبوت حاملاً لمعنى. كل شيء أصبح محل فضول لدى المؤرخ الذي نقل نظره إلى الهوامش وإلى عكس القيم المعلنة وإلى المجانين والساحرات والمنحرفين.. وانغلق أفق المؤرخ على حاضر جامد ولم يعد هناك صيرورة: «هناك علامة تبدو مشجعة... إنها نهاية التقدمية»[1].

ضاعفت فكرة أزمة التقدم إحياء ثقافات ما قبل التصنيع، فانغمس التاريخ الجديد في البحث عن التقاليد وأعطى قيمة للزمن

---

(1) Philippe Ariès, *Un Historien du dimanche*, avec la collaboration de Michel Winock (Paris: Editions du Seuil, 1980), p. 212.

الذي يتكرر وجولات الأفراد ودوراتهم المتكررة. يتم هذا البحث بصورة أكثر شخصية وأكثر محلية نظراً لانعدام مشروع جماعي. ويتم فيه إهمال الأزمنة القوية واللحظات الإرادية للتغيير من أجل الذاكرة اليومية للناس البسطاء. وهو ما أدّى إلى عودة رومانسية جديدة تذكر بالقيم الجمالية لبداية القرن التاسع عشر، العصر الذي أعاد فيه شاتوبريان (Chateaubriand) وبروسبر ميريميه (Prosper Mérimée) وأغسطين تييري (Augustin Thierry) الاعتبار للعالم الوسيط وأسلوب «شعراء التروبادور» (الجوّالين). واليوم، مازالت مرجعية العصور الوسطى تدرّ أموالاً هامة، لذلك تعددت سلاسل الكتب المنشورة من أجل استعادة النصوص القديمة المتعلقة بهذه الفترة بأصالتها. كذلك حالياً، تأخذ طبوغرافيا جمالية جديدة موقعها سواء كان الحديث عن قرية أو عن النساء أو المهاجرين أو الهامشيين. إن جيل **الحوليّات** الثالث، وهو حساس كسابقيه تجاه التساؤلات حول الحاضر، حوّل وجهة خطابه بتطوير أنثروبولوجيا تاريخية. وكجواب على تحدي الأنثروبولوجيا البنيوية، ارتدى مرة أخرى مؤرخو **الحوليّات** لباس خصومهم الأكثر جدية وعبروا عن مواقعهم المهيمنة. والثمن الذي يجب دفعه مقابل هذا التحول هو التخلي عن المجالات الاقتصادية البروديلية الكبرى، وارتداد الاجتماعي على ما هو رمزي وثقافي. وولد تاريخ جديد سماه دانيال روش (Daniel Roche) «التاريخ الاجتماعي الثقافي»[2]. فعرف التنظيم الداخلي لمجلة **الحوليّات** آنذاك تغييراً هاماً، إذ بعد إدارة فردية طبعت المجلة منذ بداياتها، حل مكانها إدارة جماعية عام 1969، فقد تخلى مديرا الجيل الثاني، فرناند بروديل وشارل مورازيه، عن السلطة لمجلس مكون من أندريه

---

(2) D. Roche, *Mélange de l'école française de Rome* (Paris; La Haye; New York: Mouton, 1979), p. 19.

بورغيار ومارك فيرّو وجاك لوغوف وإيمانويل لوروا لادوري وجاك ريفيل، مع بقائهما في مجلس الادارة. أُتبِعَ تهميش الخطاب البروديلي بإزاحة الرجل عن مستوى السلطة رغم التكريم الإجماعي الذي كان يحظى به، فهذا التاريخ الاجتماعي الثقافي ليس سوى تاريخ وقد استعار ثوب الإثنولوجيا وهو ما سمح لكلود ليفي ستراوس بالملاحظة التالية: «لدي شعور بأننا نقوم بالعمل نفسه، فكتاب التاريخ الكبير هو محاولة إثنوغرافية حول المجتمعات الماضية...»[3] ساهم هذا التاريخ الإثنوغرافي أو الأنثروبولوجيا التاريخية في زيادة إبطاء حركة الديمومة التي درسها فرناند بروديل حول زمن المكان، فالزمن هنا هو زمن إنساني تماماً ولكنه شبيه بثباته بالتطور الجيولوجي. تخلصت المقاربة الإثنولوجية من اندفاع الحدث لصالح الثبات أي الرزنامة المتكررة للملحمة اليومية لإنسانية انحصرت نبضاتها في الأحداث البيولوجية أو العائلية لوجودها: الولادة، العماد، الزواج، الموت. أصبح المؤرخ الحوليّاتي مختصاً في زمن ثابت في حاضر لا يتحرك، يسيطر عليه الرعب أمام مستقبل مجهول، فهو نبراس في مجتمع مصاب بالقلق يبحث عن حقائق تعيده إلى الماضي كما لو أنه دين جديد.

يمكن أن نرى كذلك في هذا الاصطباغ الإثنولوجي للخطاب التاريخي خلال السبعينيات، رداً على أيار/ مايو 1968، ورغبة في التخلص من الخطر، والحدث القطيعة الذي يمكن أن يكون سبباً في الانقلابات، ولكن هو احتواء أيضاً لمواضيع الرفض لدى مجتمع استهلاكي نسائله من خلال المادية الحسية لماضيه. وكما كتب جاك

(3) Claude Lévi-Strauss, «Lundis de l'histoire,» *France culture* (janvier 1971).

لوغوف: «يبدو لي أن هذا النجاح (للتاريخ لدى الطلبة) ناتج خاصة عن صدمة خيبة أمل ما بعد أيار/ مايو 1968. حاول البعض سنة 1968 وبعدها، أن يصنعوا التاريخ ولكنهم فشلوا بشكل ما. وفي الحال أصبحت هناك حاجة لفهم أوضح لكيفية صنع التاريخ. والقصد من ذلك هو معرفة كيف يمكن التأثير في مجرى الأحداث. الفهم من أجل التغيير. بما أنه لم تتسنَّ صناعة التاريخ: فلندرس التاريخ»[4]. ومن هنا كان اللقاء مع كليو وهي ملهمة تأخذ شكل شبح يخيم على عقول عالمنا الحديث...

ساهم سياق سياسي مؤاتٍ في تغيير وجهة الخطاب التاريخي في سبعينيات ما بعد الديغولية حيث هناك صورة للتغيير دون وجود إرادة للتغيير مع الرئيس جورج بومبيدو (Georges Pompidou) ثم مع الرئيس فاليري جيسكار ديستان (Valéry Giscard d'Estaing). كان التصرف والمحافظة على النظام يمران عبر بعض التغييرات التي منحتها السلطة في مستوى الحياة اليومية والعادات وعلاقات الزواج... استجابة لتمنيات عميقة دافعت عنها بين من دافع الحركة النسوية التي هي من بين الموجات التي أحدثتها حركة أيار/ مايو 1968. كانت السلطة تصدر التشريعات التي تهتم بالحقوق المتبادلة بين الزوج والزوجة وحول منع الحمل والإجهاض وحول سن الرشد في مستوى سن الثامنة عشرة، لذا فإن الخطاب التاريخي يستجيب لتحول ملموس في المجتمع ويعطي كثافة زمنية لهذه القرارات الدقيقة بالتساؤل حول كيفية تصرف العائلة وحول موقع وصورة الطفل وحول دور التربية وحول الممارسات المتعلقة بتحديد النسل في الماضي البعيد. والشعب الذي تم إقصاؤه كقوة سياسية ممكنة،

---

(4) J. Le Goff, dans: *Le Monde de l'éducation* (mai 1980).

وغيابه كقوة اجتماعية قادرة على قلب موازين النظام القائم من أجل مجتمع آخر، عاد فبرز من جديد في هذا الخطاب الأنثروبولوجي كموضوع جمالي في حركاته وتصرفاته اليومية. لقد بعث الناس البسطاء في تفردهم كعالم خاص ولكن ضمن أطر الأقوياء التي لا يمكن تجاوزها. برز اصطباغ الخطاب التاريخي بالإثنولوجيا كخطاب إدماج لمكونات مختلفة وقيم أخرى في المجتمع التقني، وذلك بمنحها الحق بالوجود. وقد أعطى اصطباغ الخطاب التاريخي بالإثنولوجيا المجتمع خاصية ثنائية أقرب إلى الواقع وأكثر صلابة في أسسها. إن الحضور الدائم لوسائل الإعلام في المجتمع الحديث أدى كذلك دوراً في تغيير وجهة الخطاب الحوليّاتي، فقد أعطى قيمة من خلال الإعلام الشفوي للتاريخ غير المكتوب، تاريخ العادات والتقاليد، التقاليد الشفوية. بفعل مختلف هذه التأثيرات، انفتحت مدرسة **الحوليّات** في السبعينيات على آفاق جديدة، تتمثل في دراسة الأحاسيس والثقافة المادية. وقد حذا المؤرخ الحوليّاتي حذو الإثنولوجي وتخلى عما هو اقتصادي واجتماعي وما هو تغيير.

حوّلت الأزمة المنظار، فبقدر ما كان الاهتمام بأسس النمو وبالتقدم التقني وبالانفتاح المكاني في الخمسينيات، انتقل الاهتمام إلى البحث عن المعوقات والجمود وثوابت الأنظمة الاجتماعية. العدد الخاص **للحوليّات** عام 1948 حول أمريكا اللاتينية أعطى الأفضلية للنمو في البرازيل والأرجنتين والمكسيك وترك جانباً المنطقة الآندية (les Andes) من القارة. يمكن أن نقرأ في ذلك العدد نظرة أطلسية لأمريكا اللاتينية تؤدي إلى علاقة دائماً وثيقة بأوروبا وذلك في إطار تطور المبادلات والإنتاج. يظل عدد **الحوليّات** لعام 1948 عدداً أوروبياً مركزياً بصورة عميقة، فقد تركزت مقالات المجلة على دراسة حركة النقل والموانئ والتجارة وعلى المنطقة الساحلية

من القارة الأمريكية كما لو أنها مفتاح الازدهار الأوروبي. تجد هذه النظرة للعالم نظيراً لها على الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي، في أوروبا مع أعمال بيار شونو حول أشبيلية وبيار فيلار حول منطقة كاتالونيا وهي أعمال تعطي قيمة هي أيضاً لظواهر النمو. الفترة الحالية مختلفة جداً والنظرة إلى نفس القارة الأمريكية الجنوبية قد تغيرت بصورة ملموسة، فخصصت لها مجلة **الحوليّات** عدداً خاصاً جديداً عام 1978، فقد تركزت البحوث التي أشرف على تنسيقها ناتان فاشتيل (Nathan Wachtel) حول مظاهر الثبات في إمبراطورية الإنكا (Inca) في إطار استعماري، وحول مظاهر التثاقف وحول المنطقة الآندية القارية من أمريكا اللاتينية وحول دراسة التمثلات الرمزية للمجتمعات الأمريكية الهندية والتحولات التي عرفتها. وأصبحت المقاربة مقاربة أنثروبولوجية. نجد تطوراً شبيهاً في ما يتعلق بإيطاليا، فبعد أن أعطيت الأفضلية لدراسة المدن التجارية في الخمسينيات ودراسة النمو والمبادلات والرأسمال انكبت **الحوليّات** في منتصف الستينيات على معوقات النمو وتم التركيز في منطقة الجنوب الإيطالي على دراسة عالم الأرض والأرياف. والنظرة الاقتصادية إذا ما بقيت فقد ارتدت إلى المعوقات.

ولكن وبصورة عامة ترك التاريخ الاقتصادي والاجتماعي مكانه لتاريخ ثقافي. وهذا التاريخ تطور بصورة مذهلة في الفترة الأخيرة. يسمح التحقيق الذي قام به جان لويس أوسترهوف[5] حول محتوى **الحوليّات** ببروز هذا الدعم للتاريخ الثقافي الذي يمثل 22,4 في المئة من المقالات في الفترة ما بين عامي 1957 و1959 وارتقى هذا العدد بعد ذلك إلى 32,8 في المئة في الفترة ما بين عامي 1969 و1976.

(5) انظر الجدول رقم (1 ـ 1) من هذا الكتاب.

وفي نفس الوقت تراجع التاريخ الاقتصادي بنسبة 39 في المئة بالنسبة إلى نفس الفترة وإلى 25,7 بالنسبة إلى الفترة الثانية. تعكس مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، مختبر **الحوليّات**، عبر مركز بحوثها التاريخية، تطور البحث الاقتصادي نحو الأنثروبولوجيا التاريخية. قد توصل التحقيق الذي قام به جاك هكستر[6] (Jack Hexter) خلال عامي 1972 ـ 1973 إلى هذا الاستنتاج المتمثل في تزايد أهمية التاريخ وتراجع الاقتصاد. كان نصيب التاريخ في تلك الفترة من بين الأحد عشر اختصاصاً في المدرسة، 35 في المئة. وارتفع هذا التوجه بما أن التاريخ أصبح يحتل حوالي 40 في المئة من الندوات خلال عامي 1985 ـ 1986. أما بالنسبة إلى الاقتصاد، الذي بلغت قوته ثماني عشرة ندوة عام 1972 مقابل أربع وثلاثين بالنسبة إلى المؤرخين، بقي راكداً في حدود تسع عشرة ندوة مقابل خمس وسبعين بالنسبة إلى المؤرخين عام 1986. وتأكد هذا التراجع لصالح الأنثروبولوجيا التاريخية. وكتعبير ذي مغزى عن هذا التحول العميق، انتخاب أنثروبولوجي يوم 29 حزيران/ يونيو 1985 لرئاسة المدرسة هو مارك أوجيه (Marc Augé) الذي خلف فرانسوا فوريه (François Furet) لمدة خمس سنوات. ولو أن الرئيس الجديد للمدرسة لا يرى في انتخابه بعد سلالة المؤرخين الحوليّاتيين، تحولاً جذرياً، فهو لا يتردد بالاعتراف إذ يقول: «تبدو هيئتي رغم كل شيء كأنني بابا بولوني»[7]. وقد أُتبع إبعاد الاقتصادي باحتوائه من قبل الخطاب الأنثروبولوجي. التفكير في ما هو اقتصادي من وجهة نظر الأنثروبولوجيا، ذلك كان هدف إدارة المدرسة: «يمكن أن نقول إننا نتساءل أكثر حول المعنى وحول النظام الثقافي، وهذا يوافق شيئاً ما،

---

(6) Jack Hexter, in: *Journal of Modern History*, no. 4 (1972), p. 481.

(7) M. Augé, «Entretien,» *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

أما أن يمثل ما هو اقتصادي جزءاً لا يتجزأ من هذا المعنى أو من هذا النظام الثقافي، هو ما نحن بصدد اكتشافه»[8]. لقد أصبح التقاط الموضوع الإثنولوجي من طرف المؤرخين ممكناً بفعل تمفصل هذا الموضوع مع المقولات السائدة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. استفاد مستوى الذهنيات والسلوكات من العمليات الكمية التي كانت مستعملة آنذاك في مجال الديموغرافيا أو الجداول الخاصة بالأسعار والدخول. وهذا الموضوع كان الموضوع المفضّل لما هو كيفي أصبح مطوّعاً من قبل الدراسات الكمية التي تقود تقسيماته وتمنح الأفضلية للأمد الطويل مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الديموغرافيا. إن تاريخ الذهنيات بطابعه الإدماجي هو الموضوع المثالي لمعارضة كلود ليفي ستراوس، فهو مفهوم غامض، ويغطي كثيراً من الأبعاد المختلفة. وبالنسبة إلى الذين يضعون التاريخ في موضع الوصف البسيط للظواهر الواعية، تجيب **الحوليّات** بتكوين تاريخ الذهنيات الذي يرتكز على المستوى اللاواعي للممارسات الاجتماعية، والفكر الجماعي والآلي بالنسبة إلى عصر أو مجموعة اجتماعية. إن مفهوم الذهنيات هذا بالنسبة إلى **الحوليّات** هو قريب أولاً مما هو نفسي (وهو إرث ثلاثي من دوركايم وليفي برول وجان بياجيه) أكثر مما هو ذهني على عكس مفهوم الأيديولوجيا التي يتضمنها ويتجاوزها. اتخذ هذا التاريخ لعلم النفس الجماعي أو الاجتماعي الخاص بالجيل الأول من الحوليّاتيين، اسم تاريخ الذهنيات من خلال مقالين برنامجيين، مقال جورج دوبي عام 1962 ومقال روبير ماندرو[9] (Robert Mandrou). وفي مرحلة ثانية تحول هذا التاريخ إلى

---

(8) المصدر نفسه.

(9) Georges Duby, «L'Histoire des mentalités,» dans: Charles Samaran, ed., *L'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la pléiade; 11 (Paris: Gallimard, 1961), =

أنثروبولوجيا تاريخية. ومن موصوف تحول التاريخ إلى صفة، فأصبح الباحث إذاً يتساءل عن كيفية العمل أكثر من التساؤل عن أسباب التغيير. وتم التركيز على حالات الاستمرار. اعتمدت مدرسة المؤرخين الوسيطيين الفرنسيين هذه النظرة الجديدة تحت التأثير المزدوج للمدرسة الألمانية والمدرسة الأنجلوساكسونية[10]، فترتب عن ذلك تقليل من شأن فترات القطيعة وتحول من الاجتماعي إلى الثقافي، فتخلى البعض عن مفهوم الذهنية الغامض واعتمد أشكال ونماذج الأنثروبولوجيا. مثال حالة جان كلود شميت (Jean-Claude Schmitt) المختص في التاريخ الوسيط[11] والذي انطلق لدراسة الانتحار من مقال أنثروبولوجي حول فكرة الموت لمارسيل موس. وبنفس الطريقة كانت الأنثروبولوجيا هي الدافع عند ميشال سو (Michel Sot) في دراسته لتنظيم الكنيسة ما بعد الكارولنجية، وذلك من خلال **أدب المناقب**: «ما الذي سيزوّد مقاربتي بالمعلومات أكثر وما الذي زوّدها منذ سنين؟ إنه حضور الأنثروبولوجيا»[12].

كان من تأثير المقاربة الإثنوغرافية للتاريخ «دفع الحضارة (أو الثقافة) المادية»[13]. تناولت **الحوليّات** المجتمع الفرنسي مثلما استولى

et R. Mandrou, «Histoire des mentalités,» *Encyclopedia Universalis* (Paris: [s. n.], = 1968), vol. 11.

(10) *Histoire de France*, 6 vols., [sous la direction de Jean Favier] (Paris: Fayard, 1984-1988), vol. 1: *Les Origines (avant l'an mil)*, et Karl Ferdinand Werner et Peter Brown: *Genèse de l'antiquité tardive*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1983), et *La Société et le sacré dans l'antiquité tardive*, trad. de l'anglais par Aline Rousselle (Paris: Gallimard, 1985).

(11) Jean-Claude Schmitt, «Le Suicide au moyen âge,» *Annales* (janvier 1976).

(12) Michel Sot, dans: *Espaces temps*, no. 7 (1978), p. 76.

(13) J. Le Goff, dans: *L'Historien entre l'ethnologue et le futurologue: Actes* =

كلود ليفي ستراوس على المجتمعات البدائية في كتاب **الفكر المتوحش**، مع الفارق البسيط، أنه تناول الماضي. تمثل مفاهيم الأنثروبولوجيا التاريخية أو الثقافة المادية في كثير من الأحيان مقاربة وصفية تاركة بعداً من أبعاد **الحوليّات** في بداياتها وهو : التاريخ ـ المشكل. يوجد في قلب الخطاب الحوليّاتي وصف الحياة اليومية، المادية منها والذهنية، للناس العاديين في مجتمعات الماضي وهو بذلك ينتمي في النهاية إلى المدرسة الوضعية في مظهرها الوقائعي ولكن في حقل بعيد عما هو سياسي، فالتكرار والعادة هي من أسسه المركزية، «العادات الجسدية، والحركية والغذائية والعاطفية والعادات الذهنية»[14]. اكتسى تاريخ الثقافة المادية دور الباعث للإنسان المغمور تحت أنقاض جداول الديموغرافيا المتداخلة ومنحنيات الاقتصاد ذات الأمد الطويل: «فمن فرط دراسة أسعار الحبوب تناسينا في بعض الأحيان من كان يستهلكها»[15]، فالمسألة هي مسألة إنسان مستهلك لأشياء مادية وثقافية وليست مسألة الإنسان المنتج لهذه الأشياء وليست مسألة الإنسان الفاعل في محيطه، فالطابع الوصفي لهذا التاريخ هو كذلك متبنى من جانب كتّابه: «لازلنا في مستوى الوصف في مرحلة جمع الوقائع»[16]. ليست المسألة إذاً مسألة ترابط بين

---

du séminaire international organisé sous les auspices de l'association internationale pour la liberté de la culture, la fondation Giovanni Agnelli et la fondation Giorgio Cini, Venise, 2-8 avril 1971, le savoir historique; 4 (Paris; La Haye: Mouton, 1972), p. 241. =

(14) André Burguière, dans: Jacques Le Goff, Roger Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire*, les encyclopédies du savoir moderne (Paris: Retz- C. E. P. L., 1978), p. 45.

(15) Jean-Michel Pesez, dans: Ibid., p. 130.

(16) المصدر نفسه، ص 129.

مختلف مستويات الواقع الأخرى، فقد طالب جان ميشال بيزيه (Jean-Michel Pesez) باستقلالية أكثر عن الجوانب الاجتماعية المتخفية لدراسة مسائل تتعلق بالثقافة المادية، لأنها كثيراً ما تحجب هذه الأخيرة. لقد تمت تلبية رغبته من قبل باحث دقيق التخصص في مسألة المواضيع الجديدة والذي يطالب بتاريخ للذوق وهو جان لويس فلاندران (Jean-Louis Flandrin)، فقد اقترح في نفس اتجاه أعمال جان جاك هيماردنكيه[17] (Jean-Jacques Hemardinquer)، تاريخاً للذوق في مجلة **التاريخ**[18]. وبذلك مرت آداب المائدة من حقل الملاحظة الإثنولوجية إلى مجال تاريخ مطعّم بالأنثروبولوجيا، فقد ترتبت على ذلك عدة اعتبارات لا شك أنها هامة في ما يتعلق بتطور مقاييس التمييز الاجتماعي المبنية على حسن التعبير في القرن السادس عشر للتحول في القرن السابع عشر إلى ثنائية الذوق السليم والذوق الرديء. أصبح الذوق الغذائي محل صراع بين الأرستقراطية التقليدية والأرستقراطية الجديدة الناشئة من رحم البورجوازية. الرائد الذي بدأ بالبحث في مجال الثقافة المادية والذي ينسبه الحوليّاتيون إلى **الحوليّات** قبل الولادة، هو نوربير إلياس[19] (Norbert Elias)، الذي نشر كتابه حول تطور الطباع عام 1939. يدور الوصف الذي قام به حول أطروحة مركزية، فهو يريد أن يبين التطور المتزايد الذي حصل منذ العصر الوسيط في مستوى تحكم الإنسان في جسده. انصب اهتمام **الحوليّات** على وصف العادات وتطور المهارات وآداب

(17) Jean-Jacques Hémardinquer, *Pour une histoire d'alimentation,* cahiers des annales; no. 28 (Paris: A. Colin, 1970).

(18) J. L. Flandrin, dans: *L'Histoire,* no. 25 (janvier 1986), pp. 12-19.

(19) Norbet Elias, *La Civilisation des mœurs,* archives des sciences sociales ([Paris]: Calmann-Lévy, 1974).

السلوك الذي قام به نوربير الياس، فتطور الاحتشام والتحكم في الذات من أعلى المجتمع إلى أسفله والتخلي عن تبرج الجسد والابتعاد عنه شيئاً فشيئاً من مظاهر الحياة اليومية التي هي في تطابق تام مع فكر الحوليّات اليوم. وعندما كتب إيمانويل لوروا لادوري كتاب **مونتايّو** (*Montaillou*) سرد الحياة اليومية للراعي المتوسط في القرن الرابع عشر في قرية معزولة في منطقة الأرياج العليا (Haut-Ariège) وأعاد الحياة لهذا الغائب الكبير وهذا الصامت الكبير في التاريخ الذي هو الإنسان العادي. وقد سمح بتحديد موقع الممارسات العادية في عالم تصورها في ذلك العصر، فأمكن إبراز انقطاعات معبرة حسب الفترات: تم تصوير الأمراض في عصر موليير (Molière) على أنها جسم فاسد تسلل داخل جسم سليم. كان هدف الطب إذاً استخراج الشر بالحجامة. وكانت المآدب إذاً فرصة للوقوف ضد إمكانية حدوث أمراض بابتلاع الأغذية الطيبة بكميات كبيرة وبابتلاع أكثر ما يمكن ابتلاعه.

ينحصر التاريخ المجهري الذي عرفه كارلو جينزبورغ (Carlo Ginzburg) في حقل التاريخ الإثني: «نقترح أن يكون تعريف التاريخ المجهري والتاريخ بصورة عامة كعلم المعيش»[20]. تذهب الثقافة المادية إذاً إلى تغطية المستويات الأخرى من المجتمع والتي تمّحي أمام تقدمها. ومع ذلك يبقى انفتاح جديد وهام للحقل التاريخي على شرط تأريخ الاكتشافات والحال لم يكن دائماً كذلك، خاصة عندما نقف عند حد الوصف. تم تحقيق هذه التأرخة للمواد الإثنوغرافية على عكس ذلك من قبل جان بول آرون الذي بيّن كيف أصبح فن المائدة والتبجح الاستهلاكي في المطاعم مجال استثمار محبذ لدى

---

(20) Carlo Ginzburg, dans: *Le Débat* (décembre 1981).

البورجوازية[21] التي تقلد في ذلك طبقة الأرستقراطية مبرزة من خلال رهافة مآكلها، تميزها بالنسبة لعامة الناس. تؤكد البورجوازية ذاتها عبر التكديس المادي لما هو زائل. إن تاريخ الثقافة المادية غني بالاكتشافات من غير شك ولكن على شرط أن تكون مكاناً «لتقاطع»[22] التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. وفي هذا المستوى يكتسب أهمية كبرى ولكنها تمثل اليوم غطاء يطمس الواقع. هكذا يبدو المجتمع شفافاً من خلال ثقافته المادية حسب اعتقاد تجريبي تجاوزه الزمن، ولكن يبدو أنه استرجع حيويته.

إن الاندثار التدريجي للحدث، ونهاية كل انطلاق للتاريخ والمونوغرافيا الإثنوغرافية لمجتمع ثابت كانت سبباً بالنسبة إلى المؤرخين الحوليّاتيين في إعادة بعث مقاربة ديناميكية للواقع حتى تتميز المقاربة التاريخية عن غيرها من العلوم الاجتماعية. إن الحقل الثقافي الذي لقي حظوة كبيرة وحضوراً دائماً في الدراسات الحوليّاتية في السبعينيات كان يعمل في ارتباط مع ثنائية الفصل بين الثقافة العالمة والثقافة الشعبية: «إنه خاصة عندما يكون التعارض بين الثقافة العالمة والثقافة الشعبية قد أخذ كمحور للإشكالية، عندها يصبح المؤرخ عالم أنثروبولوجيا»[23]، فعندها ينعكس الصراع الاجتماعي والسياسي بين السيد والمسود على المستوى الثقافي في مجال لا يمكن فيه للتطور الحديث والتقدمية أن يأتيا إلا من الأسياد ومن الثقافة العالمة التي تجر وراءها كل ما هو اجتماعي. هذا الفصل في

(21) Jean-Paul Aron, *Le Mangeur au XIXème siècle,* bibliothèque médiations; 142 (Paris: Denoël Gonthier, 1976).

(22) Burguière, dans: Le Goff, Chartier et Revel, dirs., *La Nouvelle histoire,* p. 48.

(23) Paul Ricœur, *Temps et récit* (Paris: Le Seuil, 1983), p. 156.

القراءة التاريخية يسمح بإعادة إدخال نوع من الجدلية الداخلية في عمل الديمومة ولكن لفائدة النخب الاجتماعية فقط. إن هذا التعارض من جهة أخرى هو تعارض شكلي لأن هذين الصنفين من الثقافة الموجودين في الكثير من الأعمال الحوليّاتية هما أبعد ما يكون عن أن يكونا غريبين الواحد عن الآخر. لقد كانت قاعدة الحظوة التي نالها المستوى الثقافي في مرحلة أولى تعتمد على استقلالية هذا المستوى بالنسبة إلى غيره من مستويات الواقع إلى درجة أنه كان ينظر إليه كما لو أن له زمنية خاصة به وديناميكيته الداخلية بعيداً عن بقية المكونات الاجتماعية. قد يكون المستوى الثقافي هو الذي خلق الاجتماعي. لم يتوقف انتقال الخطاب الحوليّاتي عند توسيع الاجتماعي ليشمل الثقافي ولكنه ترجم بإحلال الواحد مكان الآخر. فأصبح المجال الثقافي، صانع الاجتماعي، محل نزاع ومجالاً للتناقضات ومركزاً لفهم المجتمع. عارضت الجدلية الحوليّاتية الجديدة زمن وثقافة الشعب الذي لا يتحرك ولا يقدر على التخلص من عاداته وهو زمن تكراري إثنوغرافي، بزمن وثقافة النخب وهو زمن مبدع نشيط ومصدر التجديد وبالتالي بذلك مصدر للتاريخ. والقدرة على التغيير لم تعد في ما هو اجتماعي أو سياسي وإنما في ما هو ثقافي، فهنا يمكن للتاريخ أن يبعث من جديد ويتجاوز الوصف الإتنوغرافي لتكرار الشيء ذاته: «إن التغيير موجود أساساً في العالم الثقافي، ففي يوم من الأيام ستقلب الثقافة كل شيء»[24]. وأصبحت إذاً ثنائية ثقافة عالمة/ ثقافة شعبية مجالاً لإعادة الحياة لمجتمعات الماضي، فقد عارض إيمانويل لوروا لادوري في كتابه حول فلاحي اللانغدوك بين عالم المدينة حيث ما فتئت الأمية تتراجع

---

(24) Emmanuel Le Roy Ladurie, «Entretien avec l'auteur,» *Maintenant* (août 1979).

وينبذ الناس العنف ولم يعد الدين يحتل المكان الأول وبين جموع الريفيين ذوي الثقافة الشفوية المتسمة «بالعنف البدائي أو بتعصب ديني له سمات هذيانية»[25]. قد تكون هناك إذاً ثقافة خارج الزمن قريبة من الحياة الطبيعية ومن الحيوانية وإلى جانبها ثقافة عالمة. إن الثقافي هو الذي يصنع الاجتماعي وحركة التاريخي توجد إلى جانب النخبة والجمود إلى جانب الشعب. تبدو القطيعة بين هذين العالمين صعبة التجاوز، فهاتان الثقافتان أجنبيتان عن بعضهما رغم تقاربهما في المكان والزمان. نجد وراء إنقسام واحد نوعين من الأحاسيس: واحدة تعتمد على ثقافة النخب الحاملة للتقدم وهي القراءة التي قام بها إيمانويل لوروا لادوري والأخرى تتكئ بمرارة على أنقاض ثقافة شعبية ضائعة وهي النظرة المتحسرة لفيليب آرياس. ولكن تصعب ملاءمة هذا الانقطاع مع الواقع التاريخي لأن ما يُنفض التراب عنه من عناصر الثقافة الشعبية توجد أصوله في كثير من الأحيان في الثقافة العالمة. والمطابقة التي أقيمت بين نوع من الثقافة والشعب هي مطابقة مزيفة لأن هذه الثقافة هي في عمومها ثقافة مقترحة أو مفروضة من طرف الطبقات المهيمنة في أشكال ذليلة وخاصة وموجهة للشعب، ولكنها لا تستمد جذورها من الفئات الشعبية. إنه من غير المعقول جعل هاتين الثقافتين تعملان كحقيقتين خارجيتين. إنه تقطيع مبسط خاصة وأن مفاهيم «شعب» أو «نخبة» تتناول فئات أكثر تعقيداً من ذلك، فقد حذر روبير ماندرو أو جورج دوبي من هذا التعميم الجديد والمبني على فرضية مغلوطة: «لست مقتنعاً بأن الشرائح الشعبية كانت لديها الإمكانيات لإنتاج ثقافة»[26]. إن ثقافة

---

(25) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Les Paysans de Languedoc*, champs; 7 (Paris: Flammarion, 1969), p. 367.

(26) Georges Duby et Guy Lardreau, *Dialogues* (Paris: Flammarion, 1980), p. 79.

المجتمع بالنسبة إلى جورج دوبي، هي ثقافة واحدة وهي تعمل كأيديولوجية مهيمنة أنتجتها أجهزة السلطة وانتشرت بجاذبيتها وبانخراط الناس فيها بتأثير الواحد في الآخر حتى تعم مختلف الشرائح الاجتماعية. الثقافة تنبع بصورة عفوية من أحاسيس شعبية تندفع من أسفل المحيط الاجتماعي بلا وسطاء ولا وساطات وهي في أغلب الأحيان أسطورة موجودة في الخطاب التاريخي اليوم. هناك كثير من التردد في استعمالها اليوم، فقد بيّن فيليب جوتار (Philippe Joutard) أن أسطورة الكاميزار (Camisards) لئن اعتمدت على رواية شفهية فقد ألفها ونشرها قصّاصون شعبيون ومحترفون، واستفادت من مصادر مكتوبة[27]. قام بيار بورديو (Pierre Bourdieu) بتحليل هذه السياق التراتبي الذي يمتد من الثقافة الشرعية إلى الثقافة الشعبية، فلم تكن هذه الأخيرة إلا تكراراً ضعيفاً للأولى وقد تحولت إلى نابذ لها، وهو يؤكد عن حق: «المجال الوحيد الذي تكونت فيه ثقافة مضادة هو المجال السياسي، فتقاليد الصراع تنتمي إلى الثقافة الشعبية»[28]. إن التعبير الحقيقي عن هذه الثقافة الشعبية قد تم طمسه بصورة كاملة من قبل **الحوليّات** بما أنه قد تم تغييب البعد السياسي عن خطابها منذ الثلاثينيات وتغييب البعد الاجتماعي منذ السبعينيات. على العكس من ذلك فعندما درس مارك سوريانو (Marc Soriano) **حكايات بيرّو** (*Les Contes de Perrault*)، فلم يكن ذلك ليرى فيها تعبيراً عن ثقافة شعبية وقد أعيد اكتشافها. وقد بيّن أسطورة النموذج الذي ينتقل كما هو من جيل إلى جيل، فقد كانت مقاربته للحكاية الشعبية تاريخية بالأساس. وأعطى بعداً تاريخياً لموضوعه فبيّن أن كل تغيير يطرأ على الحكاية له

(27) Philippe Joutard, *La Légende des Camisards: Une Sensibilité au passé,* bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1977).

(28) Pierre Bourdieu, «Lundis de l'histoire,» *France culture* (25 février 1980).

ما يقابله في الحياة الاجتماعية لتلك الفترات[29]. هناك طريقتان إذاً لتناول الأدب الشعبي: مواجهة قضية إنتاجه مثلما فعل مارك سوريانو وهو ما يسمح بالقول بأنه ليس أدباً شعبياً أو الاكتفاء بتأثيره في مستهلكي هذا الأدب والوصول عندئذ إلى نتيجة عكسية: إنه أدب موجه إلى الوسط الشعبي، فهو إذاً أدب شعبي، ولكن عندها نترك جانباً تحليلاً تاريخياً يتمثل في ربط الخطاب في حيّز اجتماعي وجغرافي معيّن من أجل تحديد كيفية تكوينه وطريقة صنعه.

نجد هذا النقاش وهاتين المقاربتين بالنسبة إلى مكتبة تروي الزرقاء (La Bibliothèque bleue de Troyes) في بحثي كل من جنفياف بولّيم (Geneviève Bollème) وروبير ماندرو اللذين كان موضوعهما واحد، ولكن تم تناوله بطريقتين مختلفتين[30]. اعتبر روبير ماندرو أن هذا الأدب الشعبي هو أداة استعباد واستلاب للفئات الشعبية. وهذه المكتبة المكونة من كتيبات مغلّفة بورق أزرق معد للف قطع السكر هي مكتبة موجهة للشعب: «لقد ألفت هذه الكتيبات للطبقات الشعبية»[31]. ولكن صناعتها ومضمونها وأهداف كتاباتها ليس فيها شيء شعبي. لقد غرف أصحاب المطابع من منشورات القرن السادس عشر لمطابع مدينة تروا، فأخرجوا للنور ثقافة عالمة تخطاها الزمن، خاصة بأرستقراطية العصر الوسيط: كتب التقوى وروايات الفروسية ورسائل في السحر.. تمثل كتب التقوى ربع

(29) Marc Soriano, *Les Contes de Perrault: Culture savante et traditions populaires*, bibliothèque des idées (Paris: Gallimard, 1977).

(30) Robert Mandrou, *De la culture populaire aux XVIIème siècle et XVIIIème siècle: La Bibliothèque bleue de Troyes* (Paris: Stock, 1964), et Geneviève Bollème, *La Bibliothèque bleue; littérature populaire en France du XVIIème au XIXème siècle,* collection archives; 44 (Paris: Julliard, 1971).

(31) Mandrou, Ibid., p. 21.

رصيد المكتبة الزرقاء. المجتمع غائب داخل هذه الكتيبات إلا كنظرة اجتماعية حسب تركيبة تقسمه إلى ثلاث فئات: الخارجون عن القانون (قطاع الطرق والمتسكعون والجنود والساحرات واليهود)، شعب المدن والأرياف، والكبار، خاصة أولئك المتحدرون من أصل نبيل. لاحظ روبير ماندرو الطابع المحافظ لهذا الخطاب: «تنمي المكتبة التروريانية (troyenne) الامتثال الاجتماعي»[32]. ولم تعارض جنفياف بولّيم الأصل العالم لمحتوى هذه الكتيبات، ولكن ذلك بالنسبة إليها ليس الأساس. بما أن هذه المكتبة قد جذبت جمهوراً عريضاً، فهي تعتبرها شعبية. لقد وضعت هذه المكتبة نظاماً معيناً للكتابة والقراءة وصفتها جنفياف بولّيم بالشعبية. وبالنسبة إليها ليس هناك خداع أو استلاب، فالمكتبة التي تقدمها إلينا هي مكتبة ملتفتة إلى الواقع. ويتساءل روجيه شارتييه (Roger Chartier) وهو محق في ذلك عن مدى شرعية مثل هذه الازدواجية: «قد يكون المؤرخون الفرنسيون اتبعوا طريقاً خاطئاً بسعيهم لوصف محتوى نوع من الثقافة وهو الثقافة الشعبية دون مساءلة مسبقة عن مدى ملاءمة هذا التقسيم»[33]. ويقترح تعويض البحث الخائب عن ثقافة شعبية أصيلة بالبحث عن تشخيص الأعراف المختلفة للمواد المشتركة.

إن المجال الثقافي هو مصدر للرهانات والصراعات. ومن واجب المؤرخ أن يبيّن نقاط القوة ونقاط الضعف فيه. ولكنه لا يستطيع ذلك إلا بالإمساك بطرفي التحليل: الاجتماعي والثقافي، لأن انتشار الثقافة يمر عبر المجموعات الاجتماعية وبالتالي عبر مجموعة من الوساطات والوسطاء الذين تعد معرفتهم ضرورية لتعريف أي

---

(32) المصدر نفسه، ص 162.

(33) Roger Chartier, dans: *L'Histoire*, no. 8 (mai 1981), p. 95.

ثقافة. إن التحليل الاجتماعي في هذا المستوى يجب أن يكون بالغ الدقة لأنه كثيراً ما يؤدي الوسيط الثقافي دوراً فاعلاً من خلال ثغرات البنى الاجتماعية. هناك أماكن مختصة لنشر الثقافة وهي أماكن رسمية مثل الكنيسة أو المدرسة، وغير رسمية مثل الخمارات القديمة التي كثيراً ما حاربتها الكنيسة لأنها أماكن لثقافة لا تخضع للرقابة. وقد انتقلنا من الشعائري إلى الثقافي أما الواقع فقد بقي حبيساً في هوامش غير الأساسي. نجحت **الحوليّات** اليوم مرة أخرى في ملاءمة خطابها للسلطة وخطابها المهيمنين.

يتوافق الاصطباغ الإثنولوجي للخطاب التاريخي مع هذه السلطة الإعلامية السائدة والتي تفرض قوانينها ونماذجها والحاملة لتاريخ ثقافي. والإنسان المنتظم في سلسلة والخاضع لسلطة الإعلام، هو إنسان عاجز وسلبي وانتماؤه الاجتماعي يتلاشى. هذا الإنسان ليس له مصير سوى أن يكون سلبياً. نجد في **الحوليّات** مثالاً جيداً على هذا التأقلم مع مجتمع الإعلام. وهو يبرز كموضة ثقافية تقدم تاريخاً مفتّتاً في مجتمع مافتئ يتجزأ. وهذا التراجع نحو الفرد ونحو أزمنة قديمة لا تتحرك هو دلالة على مصير متروك لمنطق وحيد وفي بعض الأحيان مجنون لانطلاق قوى إنتاج غير متحكم فيها. إن إعجاب الجمهور بالمؤرخ الحوليّاتي خلال السبعينيات/ الثمانينيات يلتقي مع تلك الروح الإضافية الضرورية لبقاء النظام وإعادة إنتاجه. بلغت تجزئة الجسم الاجتماعي مبلغاً من التجزئة حتى إنه لم يعد ممكناً أن يفكر المرء في ذاته إلا من خلال تاريخية خاصة هي تاريخية الفرد، إنه عصر تمجيد مقولة كل فرد لنفسه والسوق للجميع، فالسينمائي الأكثر فطنة في عصرنا لتفكيك رمزية مجتمعنا هو جان لوك غودار (Jean-Luc Godard) الذي لاحظ في نهاية فيلمه **كل شيء على ما يرام** عام 1972 أن البطلين جين فوندا (Jane Fonda) وإيف

مونتان (Yves Montand) «بدآ يفكران في ذاتهما تاريخياً». إن خلفية هذا التراجع ناتجة عن تثبيط العزائم وخيبة الأمل السياسية. أصبح الالتزام مظهراً من مظاهر القديم البائد، فمجتمعنا المأخوذ في تناقضات شمال ـ جنوب وشرق ـ غرب يفضّل التوجه نحو تمجيد القيم الفردية ونحو الغرائبية التي تركتها الأجيال السابقة والتي أعيد إنعاشها عبر الذاكرة الشعبية ونحو تاريخي إتنوغرافي ثقافي لم يعد له معنى بما أنه ينفي علاقته بالصيرورة.



2 ـ تاريخ جداولي

كان التاريخ يكتب إلى عهد قريب بحرف غليظ في بدايته وبصيغة المفرد. كان قوياً بقدم عهده وبقدرته على تحقيق التوليف وعقلنة مختلف أبعاد الواقع، كان يبحث إن لم يكن عن المعنى فعلى الأقل عن معنى للمدة الزمنية. قامت مدرسة **الحوليّات** مؤخراً بعملية تفكيك حقيقية للتاريخ الذي أصبح يكتب منذ ذلك العهد بصيغة الجمع ويبدأ بحرف صغير. ولم يعد التاريخ وإنما تواريخ. إنه تاريخ هذا الجزء أو ذاك الجزء من الواقع ولم يعد تاريخ الواقع. وهكذا يشرف بيار نورا على «مكتبة التواريخ» في دار غاليمار للنشر، وهو يؤكد هذه القطيعة الإبيستيمية بالنسبة إلى الطموحات الأولى للمؤرخين في تقديمه للسلسلة التي يشرف عليها: «إننا نعيش تفكك التاريخ». هل يعد ذلك إثراء لآفاق المؤرخين؟ فعلاً إن تعدد المواضيع الجديدة وتمدد الحقل تبدو كعلامات على صحة التاريخ الجيدة. ولكن المؤرخ وهو يريد ابتلاع كل العلوم الاجتماعية، يخشى أن يفقد الأس الذي ترتكز عليه خصوصية وأهمية نظرته، أي قدرته على التوليف التي يبدو أنه تخلى عنها. من وراء توسعية خطاب المؤرخ يبدو أن هناك إقراراً بالعجز عن جعل كل الواقع مفهوماً، وهو ثمنٌ مدفوع لمسألة الهروب إلى الأمام. لم يعد المؤرخ

مدافعاً عن مجتمع يتقدم وفق قيم صلبة وعالمية، فهو مرتج مثل العالم الذي يحيط به بفعل نسبية القيم التي جاء بها الغرب. كما أدّى تشابك الأمكنة من جهة أخرى إلى نسبية المدة الزمنية. إنه في هذا العالم المبني على الفردانية والذي مافتئ تناسقه يتضاءل شيئاً فشيئاً، تطور تاريخ مفكك نتيجة لتغير منظور الفرد المؤرخ، فهذا المؤرخ لم يعد يبحث عن فهم كل الواقع: «إنه يسعى لاكتشاف كل التاريخ من خلال هدفه»[1]. إنها براعة تسمح **للحوليّات** بإثبات انتسابها المباشر **لحوليّات** الأمس، وذلك بمواصلة الحديث عن التاريخ الكلي وتاريخ الكل، ولكن يجب أن نفهم هنا أن الكل هو الموضوع الذي لا يعدو أن يكون إلا جزءاً من الواقع. ولم تعد المسألة تتعلق بربط مواضيع التاريخ المتعددة ضمن كلٍّ معقلن. هناك فعلاً في هذا المجال قطيعة جوهرية مع طموحات مارك بلوخ ولوسيان فيفر أو فرناند بروديل: «إن هذا المفهوم، مفهوم التاريخ الكلي هو الذي يبدو لي أنه يطرح مشكلة اليوم... نحن نعيش تاريخاً مفتّتاً انتقائياً متمدداً نحو قضايا فضولية يجب أن لا نرفض تناولها»[2]. يقر ميشال دو سيرتو بوجود تغيير في التوجه مقارنة **بحوليات** الأمس: «يجب أن نتخلى عن التاريخ الشمولي الذي كان مطمحاً للوسيان فيفر»[3]. يندرج مجال بحث المؤرخ في المدة الزمنية، التي تعرضت لعملية تفكيك. الزمن الواحد تعدد إلى أزمنة غير متناسقة. تم تقديم مقاربة جديدة للزمن التاريخي، التاريخ الجداولي كما عرّفه بيار شونو تحت تأثير إمكانية

(1) Pierre Nora, «Lundis de l'histoire,» *France culture* (12 août 1974), et Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires, 3 vols. (Paris: Gallimard, 1974).

(2) Pierre Nora, dans: *Le Nouvel observateur* (7 mai 1974).

(3) M. de Certeau, «Les Discours de l'histoire,» *France culture* (31 juillet 1978).

تكميم المادة التاريخية اعتماداً على الحاسوب. وقد ولدت هذه المقاربة من إمكانية وضع جداول لوقائع منتمية إلى مجموعات متناسقة يمكن قياس تغيراتها داخل زمنيتها الخاصة. في هذه المرحلة «لم يعد الزمن متناسقاً ولم يعد له معنى شمولي»[4]. قام كريستوف بوميان (Krystof Pomian) بوضع تصوّر لهذا التطور نحو التعدد الزمني، مادحاً تخلي المؤرخ عن أي فلسفة تأريخية (Chronosophie) وعن أي اتجاه موضوع مسبقاً: «إنها المسارات المدروسة هي التي تفرض شكلاً محدداً على الزمن من خلال مسارها»[5]. بالنسبة إلى جاك ريفيل يجب على التاريخ أن لا يرتدي الحداد على التاريخ الكلي. وهو يعتبر أن تجزئة المعرفة التاريخية مرتبطة بوجود فضاء علمي مختلف عن ذاك الذي نشطت فيه **الحوليّات** خلال فترة الثلاثينيات ـ الستينيات: «فلم يعد الأفق أفق التاريخ الكلي ولكن أفق بناءات تتمحور حول مواضيع معينة»[6]. لا يمكن أن يصلح التاريخ الكلي إلا في حدود خطة برامجية، ولكن بمرورها عبر التجربة، تتجزأ الكليانية إلى عدد لا يحصى من المواضيع المفردة التي يجب تحديدها وبناؤها. يعتبر هذا التغير في الخطاب التاريخي بالنسبة إلى جاك ريفيل، القطيعة الأكثر جوهرية مع عصر بلوخ ـ فيفر ـ بروديل الذين لم يكفوا عن النداء بالوظيفة الكليانية للتاريخ، فقد أعطى مارسيل موس لعلماء الأنثروبولوجيا وهو نموذجهم، من خلال بناء الحدث الاجتماعي الكلي، المؤرخين كمثال لأنهم استطاعوا التوفيق بين ما هو مكتمل وما هو محسوس. أما اليوم فكثير من المؤرخين

---

(4) F. Furet, dans: *Le Débat* (décembre 1981),
أعيد نشره في: François Furet, *Atelier de l'histoire* (Paris: Flammarion, 1982).

(5) Krzysztof Pomian, *L'Ordre du temps* (Paris: Gallimard, 1984), p. 94.

(6) Jacques Revel, «Entretien,» *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

يميلون نحو الخلط بين الموضوع التجريبي والموضوع الفكري ويصلون إلى تشتت متزايد يجعل أي محاولة للدمج ضمن تفكير عام، أمراً غير ممكن.

رحب ميشال فوكو في كتابه **حفريات المعرفة** بالتحول الإبستيمولوجي الذي أنجز في التاريخ مع مدرسة **الحوليّات.** وقد اعترف لها بهذا العمل التفكيكي الذي نظّر له منذ **الكلمات والأشياء** وطبقه على تحاليل تاريخية ملموسة وعلى الطب السريري والجنون والسجن والجنس. نجد نفس الرفض لفكرة الواحد و للمركز وللقطيعة المعبرة وللكل العقلاني: «إن وصفاً شاملاً يجمع كل الظواهر حول مركز واحد ـ مبدأ، معنى وفكر ونظرة للعالم وشكل عام، إلا أن تاريخاً عاماً يقوم بتهيئة مجال للتشتت»[7]. لا يهدف ميشال فوكو إذاً إلى التوليف الشمولي وإنما يفضّل عليه أجزاء من المعرفة، المؤسسات والممارسات الاستدلالية التي يدرسها كما هي كمعزولات. أعطت توجهات أبحاثه مدرسة **الحوليات** الأساسي من القوانين النظرية لتوجهاتها الحالية. «إن المدخل إلى **حفريات المعرفة**، هو أول تعريف للتاريخ السلاسلي»[8]. فبعد أن أنزل ميشال فوكو بطل ثقافتنا من عليائه أي الإنسان والموضوع، هاجم التاريخانية والتاريخ كأمر كلياني وكمرجعية متواصلة. يجب اتخاذ القرار بتجنب كل «التواصلات غير الواعية والتي بواسطتها يتم بصورة مسبقة تنظيم الخطاب الذي نريد تحليله»[9]. على التاريخ أن يتخلى عن إعداد التوليفات الكبيرة ويهتم على عكس ذلك بتجزئة

(7) Michel Foucault, *L'Archéologie du savoir*, bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, 1969), p. 19.

(8) Emmanuel Le Roy Ladurie, dans: *France culture* (10 juillet 1969).

(9) Foucault, Ibid., p. 36.

المعارف، فلن يكون التاريخ وصفاً لتطور وهو مفهوم مستعار من علم البيولوجيا، ولا علامة لتقدم وهي فكرة إيتيكية ـ أخلاقية، بل القيام بتحليل التحولات المتعددة في العمل والتعرف على الانقطاعات كما لو أنها ومضات خاطفة. يعتبر انقلاب التواصل التاريخي نتيجة طبيعية لإخراج الفاعل من المركز: «لم يعد للكائن البشري تاريخ، أو بالأحرى بما أنه يتكلم ويعمل ويحيا، يجد نفسه متشابكاً مع تواريخ ليست خاضعة له وليست متناسقة في ما بينها... فالإنسان الذي برز في بداية القرن التاسع عشر هو كائن مجرد من التاريخ»[10]. يذوب وعي الذات في الخطاب ـ الموضوع وفي تعدد التواريخ غير المتجانسة. قام ميشال فوكو بعملية تفكيك للتاريخ محدثاً كوكبة لا شكل لها ومجردة من الإنسانية. يترجم انحلال الموضوع التصويري عند الفنانين التكعيبيين مفهوم التقطع عند ميشال فوكو. ولا تعود الوحدة الزمنية تبدو إلا كلعبة مفتعلة وزائفة. إلا أنه لا يلغي التاريخ لأنه يتخذه كحقل أساسي لأعماله. ولكن التقطعات التي يعاينها بما أنه لم يأخذ بعين الاعتبار أي شكل من أشكال التطور، فهي إشكال ملغّزة. فهي تعني انبثاقات حقيقية وتمزقات لا نلاحظ إلا كيفية وأماكن وقوعها دون أن نطرح السؤال الحقيقي حول تكوينها، فتبقى هذه الأحداث ـ الحوادث ملغّزة بصورة جوهرية. إنه عمل تجريد من التاريخ: «إن عملاً كهذا يتطلب أن تقع مراجعة كل ما هو منتسب للزمن وكل ما تكون داخله بصورة تبرز التمزق بدون تسلسل تاريخي وبدون تاريخ لمن أين جاء الزمن»[11]، فتبرز القطيعة عندها في صورتها المفردة غير القابلة للتحول إلى نظام سببي بما أنها

---

(10) Michel Foucault, *Les Mots et les choses; une archéologie des sciences humaines,* bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, 1966), p. 380.

(11) المصدر نفسه، ص 343.

مقطوعة عن جذورها، إنها صورة أثيرية خرجت من ضباب فجر خلق العالم. تقضي مسيرة ميشال فوكو إذاً أن نقطع البحث في نظام سببي. وهو يحلّ مكانه التخفيف السببي، أي نوع من تعدد الأشكال يجعل أي درجة شاملة من درجات الواقع وأي شمولية مستحيلة: «لسنا ويجب علينا أن لا نضع أنفسنا تحت شعار الضرورة الواحدة»[12]. وهو يضع نفسه في تواصل مع الفكرة التي عبر عنها ريمون آرون (Raymond Aron) منذ عام 1948 في كتابه **مقدمة لفلسفة التاريخ**: «ليس هناك محرك أول لحركة التاريخ الشامل»[13]. يرفض ريمون آرون هو أيضاً أي مقاربة شمولية للواقع. وهو يميّز داخل هذا الواقع التاريخي أبعاداً بالغة الغموض ولا تستنفد حتى إنه لا يمكن أخذها في الحسبان ضمن عقلنة شاملة. وعلى التاريخ إذاً أن يتراجع نحو مواقع أكثر تواضعاً وأن يتخلى عن طموحه في أن يكون علماً: «ليس التاريخ موضوعياً أبداً»[14]. لن تكون للخطاب التاريخي إلا قيمة جزئية ومحلية وفردية. أما بالنسبة إلى معنى التاريخ، فهو بالنسبة إلى ريمون آرون معنى ممتنع أو دائري. يقسم ميشال فوكو الواقع في شكل قطع تحليل يكون لكل سلسلة منها نسقها الخاص وانقطاعاتها المعبرة خارج السياق العام: «فالمشكل الآن هو تكوين السلاسل»[15]. وكل سلسلة منها تكون وحدة خاصة مع تسلسل تاريخي خاص، فلم يعد هناك مركز ولكن طبقات. لم يعد هناك

---

(12) *L'Impossible prison: Recherches sur le système pénitentiaire au XIXème siècle*, l'univers historique, réunies par Michelle Perrot; débat avec Michel Foucault (Paris: Seuil, 1980), p. 46.

(13) Raymond Aron, *Introduction à la philosophie de l'histoire*, bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, 1984), p. 316.

(14) المصدر نفسه.

(15) Foucault, *L'Archéologie du savoir*, p. 15.

محرك في عملية تطور ولكن انقطاعات ضمن ثورات. يجب على الخطاب التاريخي أن ينحصر في وصف الأشياء والسلسلة، ويصبح حفريات في المعرفة. إن هذه العودة للوصف وهذا الرفض للكليانية الواضحة تعتمد بوضوح خطاباً علمياً لتفكيك المادة التاريخية. إن تعابير فوكو مثل السلسلة والانقطاعات والمدونة والمجموعة والحقل ونظام العلاقات والتحول تنحدر من جهة معينة من المعرفة العلمية: الرياضيات والمنطق الفيزيائي. ولكن على الرغم من جهاز لغوي مستعار من العلوم الصحيحة، لا تترك هذه المقاربة للتاريخ أي مجال لأي إمكانية لعقلنة الواقع بصورة شمولية. جعل ميشال فوكو نفسه منظّراً لما أصبح مبدأً لجيل **الحوليّات** الثالث: التاريخ الجداولي: «المهم هو أن لا يأخذ التاريخ حدثاً في اعتباره دون تحديد السلسلة التي ينتمي إليها»[16]. من الأكيد أن ميشال فوكو بمنحه الأفضلية للانقطاعات، يختلف عن التاريخ الذي لا يتحرك لإيمانويل لوروا لادوري، فهو يعمل في اتجاه إعطاء شأن للحدث في حين أن التيار السائد في الكتابة التاريخية ينحو إلى تهميش وزن ودور الحدث. ولكن يلتقي هذا الجانب الحدثي مع البحوث التاريخية الحالية لأنه يتموقع ضمن جداول ويستمد معناه من الموقع الذي يحتله في هذه السلاسل. من المهم أن لا تقبل الوثيقة بصورة سلبية ولكنها تتحول إلى معلم يجب بناؤه انطلاقاً من تقسيم يقع في النسيج الوثائقي العام للعلاقات والوحدات. ولكن التاريخ يفقد وظيفته الشمولية: «ليس هناك تاريخ إلا التاريخ الإقليمي»[17].

---

(16) Michel Foucault, *L'Ordre du discours; leçon inaugurale au collège de France prononcée le 2 décembre 1970* (Paris: Gallimard, 1971), p. 57.

(17) Michel Foucault, «L'Histoire et les historiens,» *France culture* (17 juillet 1969).

إن صورة مؤرخ الأزمنة الحديثة حسب ميشال دو سيرتو هي صورة المتسكع الذي يبحث في هوامش الاجتماعي عن أشباح الماضي، إنه خطاب الأموات. لم يعد هدفه بلوغ المركز وإنما محيط الواقع. أُبعد إلى الأطراف بعدما كان يحتل القلب الموزع للأوعية الدموية التي تسقي المجتمع. في منطلق هذا التاريخ السلاسلي: هو التاريخ الاقتصادي ولكن في الوقت الحاضر انفتح هذا التاريخ على أبعاد أخرى من تاريخ الإنسانية. لقد دخلت الذهنيات وعلم النفس الاجتماعي والعواطف بقوة في المعالجة السلاسلية وهو ما يسمى بالمستوى الثالث.

ذلك هو مسار التاريخ السلاسلي: «من الدهليز على ما فوق السطوح» مثلما عبر عن ذلك ميشال فوفيل. إن هذه السلاسلية مع اعتمادها على تقنيات أكثر علمية مثل العد والحاسوب، فقد توصلت إلى دراسات وصفية صرفة، وتجريبية حيث عوضاً عن البحث عن نظام سببي يمكّن من فهم الكل، تستخدم هذه السببية أو تلك بصورة آلية واعتباطية حسبما يوحي به الظرف. إن عدم تمييز أنظمة السببية هذا، يكون ممكناً بقدر ما تتطور هذه السلاسل بصورة مستقلة بعضها عن بعض. عند ذلك يحال التاريخ على التقاعد ليحتل حقل التجريبية: «لم يعد هدفنا البحث عن حقيقية ما... لقد اخترنا أن نضع الحقيقة في علاقة بين الذي ينتج حدثاً والموضوع الذي تم إنشاؤه»[18]. هذا التاريخ السلاسلي والجزئي هو أيضاً تاريخ بول فاين. وعندما درس نظام الهبات البلدية في العهد الروماني[19]، رفض كل تفسير غائيّ. وضع الظاهرة في مختلف أبعادها ولكنه امتنع عن البحث عن عامل

---

(18) Jacques Revel, «Lundis de l'histoire,» *France culture* (12 août 1974).

(19) Paul Veyne, *Le Pain et le cirque: Sociologie historique d'un pluralisme politique,* l'univers historique (Paris: Seuil, 1976).

رئيسي ومحرك مركزي داخل المجتمع الروماني الشامل. في كتابه حول إبيستيمولوجيا التاريخ، **كيف نكتب التاريخ**، أوضح بول فاين أن التاريخ لا يمكن أن يكون إلا حبكةً ورواية. هنا بلغت النزعة التجريبية القمة بعدم الاعتراف للتاريخ إلا بوظيفة وصفية: «ليس التاريخ علماً لأنه ينتمي إلى التخمين»[20]. لا تسمح أي محاولة لبناء تراتبي ووضع حزم في نقطة التقاء، بالعقلنة. كل طبقة من الأحداث تستدعي تقسيماتها الزمنية الخاصة بها وهي لا تقع ضمن سلم من تراتبية الحتميات. يهرب الواقع بمنطقه عن مؤرخ اليوم. ومقاومة المخطط التفسيري نجدها عند فيليب أرياس: أظل متمسكاً بمقاربة انطباعية... يهمني مشهد العالم وتنوعه أكثر مما تهمني في الواقع التفسيرات التي أنا مجبر على تقديمها[21]. لتعذر التفسير فإن فيليب أرياس يروي ويعلق ويصف. وهو يبدع كذلك بما أنه اقتحم مجال الذهنيات غير المعروف ولكن دون أن يقوم بدمجه ضمن تخطيط عقلاني، فهو يفسر أنه عندما تكون هناك أسباب عديدة لظاهرة ما، فهذه الظاهرة ليس لها أي سبب وبذلك تبقى دون تفسير[22]. وهو يواجه التاريخ الكلي والكثيف بتاريخ الخصوصيات والموروثات[23]. يوجد في أصل هذا التفكك فقدان الإنسان للمركز لأنه لم يعد يُنظر إليه على أساس أنه الذات الفاعلة النشيط وأصل التطور التاريخي وإنما على أساس أنه غير قادر على التحكم بمجمل تاريخه، فقد نقد

---

(20) Paul Veyne, *Comment on écrit l'histoire, essai d'épistémologie* (Paris: Seuil, 1971).

(21) Philippe Ariès, *Un Historien du dimanche*, avec la collaboration de Michel Winock (Paris: Editions du Seuil, 1980), p. 131.

(22) Philippe Ariès, dans: *Magazine littéraire* (septembre 1980).

(23) Philippe Ariès, *Le Temps de l'histoire*, l'univers historique, préface de Roger Chartier (Paris: Editions du Seuil, 1986), p. 244.

آلان بوزنسون «سراب الكليانية التاريخية»[24] التي كانت سمة جيله.

أمام تواصل التطور التاريخي تمسك المؤرخون الحاليون بالانقطاعات بين سلاسل جزئية لأجزاء من التاريخ، فهم يعارضون شمولية الخطاب التاريخي بتعدد المواضيع في تفردها وقد أخرجت من حظر السلطة لها، وهكذا ثأر المجنون والطفل والجسد والجنس من عالم العقل الذي كان قد أخفاهم. ومن المفارقات أن هذا الرفض لما هو عقلاني، جرى تبنيه في الوقت الذي يطمح الخطاب التاريخي إلى مزيد من العلمية. يبدو تعظيم الكمي كأنه ستر لعورة التراجع نحو التجريبية. يبدأ كل شيء بالنسبة إلى بيار شونو مع هذا التاريخ السلاسلي الكمي. هناك ما قبل وما بعد والذي يفصل بينهما خط يحدّد الحاسوب الذي يرد الأعمال القديمة إلى مجال علم الآثار. والمقولة الشهيرة لإيمانويل لوروا لادوري: «إن مؤرخ الغد يكون مبرمج حاسوب أو لا يكون»[25].

تكشف بوضوح عن هذا الإيمان المطلق في القدرة العجيبة للأداة التكنولوجية، فإيمانويل لوروا لادوري باقتراحه المنهج الأمريكي للمؤرخين الفرنسيين يُعد أحسن من نظّر لنفي دور المؤرخ كصاحب مشروع هادف لتحقيق توليف للواقع: «إن المؤرخ مثله مثل عامل المناجم الذي يعمل في العمق. إنه يبحث في عمق الأرض عن المعطيات ويستخرجها إلى السطح ليستغلها مختص آخر مثل عالم الاقتصاد وعالم المناخ وعالم الاجتماع»[26]. لا يمكن أن نصف

(24) Alain Besançon, *Histoire et expérience du moi,* science (Paris: Flammarion, 1971), p. 71.

(25) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien,* bibliothèque des histoires, 2 vols. (Paris: Gallimard, [1973-1978]), vol. 1, pp. 13-14.

(26) المصدر نفسه.

وصفاً أحسن من هذا (استقالة) المؤرخ من رسالته، ووضعه في دور العامل اليومي والذي يعمل في إطار مقاولة من الباطن، متخلياً عما هو أساس لخصوصيته. إننا بعيدون عن **معارك من أجل التاريخ** للوسيان فيفر أو **تمجيد التاريخ أو صناعة المؤرخ** لمارك بلوخ ولكن هناك خطر في البيت يجبر على التأقلم وهو «التحدي الأمريكي»[27] الشهير الذي يجب الرد عليه باعتماد عناصر الثورة التكنولوجية، الملاذ الوحيد لمؤرخ اليوم. العد والعد دائماً أبداً ذاك هو نصيب المؤرخ، من كميات القمح المنتجة في هذه الجهة أو عدد التضرعات للعذراء في وصايا هذه القرية أو عدد السرقات المقترفة في مكان ما: «ففي حد أقصى... ليس هناك تاريخ علمي إلا إذا كان قابلاً للتكميم»[28]. يعبّر هنا إيمانويل لوروا لادوري بنفس العبارات تقريباً عن رأي فرانسوا فوريه وآدلين دومار (Adeline Daumard) السابقين له: «بلغة علمية، ليس هناك تاريخ اجتماعي إلا كمياً»[29]، فهذا الشغف بالحاسوب، عرّاف العصور الحديثة، سيعزز التوجه نحو تفكيك التاريخ وتحويله إلى سلاسل. ولكن لا يمكن أن نقوم باحتساب كل شيء لذلك سيتمسك المؤرخ بحقل صغير ليستطيع وضعه في معادلات. أما النتيجة الثانية لاستعمال الحاسوب، وهي نتيجة سيئة، هي تفضيل تكرار الظواهر ذات الطبيعة الواحدة أي الأمد الطويل، الدائم والذي لا يتحرك. والجمود الذي هو من خصائص ما نسميه «بالمجتمعات الباردة» يحدّد عندئذ الحضارة الغربية. وبالمقابل سيقوم بعض المؤرخين الآخرين على غرار ميشال

---

(27) Emmanuel Le Roy Ladurie, dans: *Le Nouvel observateur* (8 mai 1968).

(28) Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, vol. 1, p. 20.

(29) François Furet et Adeline Daumard, «Méthode de l'histoire sociale: Les Archives notariales et la mécanographie,» *Annales* (1959), p. 676.

دو سيرتو بتفضيل الانقطاعات داخل هذه السلاسل المتكررة «التباعدات» ويقومون بإعادة بعث مجالات التيه فضلات الحاسوب ومكبوتات التكميم: المجانين والسحرة والأعياد والثقافة المحلية... وذلك كرد فعل على هذا الخطاب المبني على المنحنيات المتوسطة للسلاسل الإحصائية، فجاك لوغوف وجورج دوبي رغم اعترافهما بأن استعمال الحاسوب يقدم البحث التاريخي بصورة حاسمة، ولكنهما يحذران من أي تأليه يتمثل في الاتكال على الحاسوب لصناعة التاريخ: «ليس الحاسوب سوى أداة ما تزداد ضرورتها أكثر فأكثر. وهو يجعل التاريخ أكثر علمية لأنه موثق بدقة أكثر ولا ينزع عنه صفته الفنية» كما كتب جاك لوغوف[30]. أما جورج دوبي فقد أشار إلى «وهم العلموية» الذي يعطيه التكميم والمعالجة الحسابية[31].

نشهد مع هذا التحلل الشاسع للواقع في مستوى الأوصاف، بعثاً لمذهب وضعي جديد ليس بالمعنى الكونتي (Comtien) الذي يبحث عن القانون من وراء التكرار، وإنما في مستوى المدرسة التاريخية الفرنسية في بداية القرن بانبهارها أمام الفعل الخام وأمام الحدثي باعتباره نقطة البدء والمستوى الوحيد للمعقولية والذي أنشئت لمواجهته عام 1929 مجلة، هي مجلة **الحوليّات**. التاريخ الجديد يخفي وراء خطاب حداثي وتقنوي، عودة المقاربة التاريخية للوصفي. نرى ريجين روبان (Régine Robin) وراء هذا الشغف، «انبثاقاً جديداً للتجريبي - النقدي»[32]. تعبر هذه المقاربة السلاسلية عن عجز مزدوج، عجز المؤرخ عن أن يصبوا إلى نظرة شمولية وعجز الإنسان

(30) J. Le Goff, dans: *Le Monde* (25/1/1969).

(31) Georges Duby et Guy Lardreau, *Dialogues* (Paris: Flammarion, 1980).

(32) Régine Robin, dans: *Dialectique* (1975).

الفاعل في التاريخ والممزق بين سلاسل إحصائية لا يتحكم فيها. فقد كل فاعلية وكل قدرة على التأثير في الواقع. إن السلاسلية هي تعبير عن استلاب جديد يحطم كل ممارسة في بنى العملي الجامد. يبدو هذا التهميش للإنسان، وهو متغير صعب المعالجة بالنسبة إلى تاريخ كمي، واضح بصورة خاصة عند إيمانويل لوروا لادوري، فالفصل الرابع من كتابه، **حقل المؤرخ، 1**، يحمل عنواناً معبّراً هو التالي: «التاريخ بدون الناس»[33]. يحدث هنا أيضاً نقطة انقطاع جديدة وأساسية بالنسبة إلى **حوليات** 1930. لا يرى مارك بلوخ التاريخ إلا تاريخاً إنسانياً وأنثروبولوجياً. يرد عليه إيمانويل لوروا لادوري: «جعل المؤرخ اختصاصياً في الإنسانية فقط، تشويه له»[34]، فقد أنجز بحثاً تاريخياً حسياً وهو دراسة المناخ منذ عام 1000 دون أن يكون الإنسان موضوع بحثه المركزي أو الهامشي، فقد أعد تقسيماً زمنياً للتغيرات المناخية في حد ذاتها دون أن يهتم بانعكاساتها على المجتمع. تعود تأثيرات تاريخ المناخ على الإنسان إلى مستوى اللامعنى: «تبقى هذه التأثيرات هامشية»[35]. يعطي إيمانويل لوروا لادوري لهذا الإبعاد عن المركز، كل الاهتمام بما أنه يصفه بالثورة الكوبرنيكية الحقيقية في علم التاريخ. إن مفهوم التاريخ السلاسلي قليل الحضور عند إيمانويل لوروا لادوري الذي يفضل عليه المجاز الجيولوجي باستعمال عبارة التنضيد. يكون التاريخ إذاً مقسما حسب طبقات منضّدة مستقلة عن بعضها مثل السلاسل الإحصائية في واقع تراكمي توضع فيه عبر الزمن كل مرحلة تاريخية فوق الأخرى في صيرورة متواصلة تحمي من الحركة ومن

---

(33) Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, vol. 1, p. 423.

(34) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Histoire du climat depuis l'an mil*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1967), chap. 1.

(35) Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, vol. 1, p. 513.

التقلبات ولا تحدث فيها إلا عمليات حتّ تبايني.

من تأثيرات وضع الحقل التاريخي في سلاسل إحصائية إعطاء كل موضوع استقلاليته بالنسبة إلى بقية عناصر الواقع. بفصله عن تأثيرات الواقع يتحرر الموضوع ويوجد في حد ذاته، مغطياً أبعاد الواقع الأخرى. يبدو هذا الموضوع وقد تحرر من أغلاله، كأنه شكل لا زمني. حتى وإن تتبعنا تغيراته في الزمن، فهذه التغيرات لا تخضع أبداً للقاعدة التي تسمح لها بالوجود وتصبح علاقاتها ببقية مستويات الواقع لا معنى لها. أصبح الخطاب التاريخي خطاباً مثالياً. مع ذلك يبقى الجانب الإيجابي هو الانكباب على توجهات جديدة للبحث واكتشاف مواضيع جديدة ولكن دون أن تكون هناك دائماً رغبة في عقلنة شاملة أو حتى مجهرية.

وصف جان شينو الديانة الجديدة للعصر الحاضر، الحداثة[36]، فبيّن كيف يحقق الحاسوب هذا التفكك للزمن، فالمستقبل يتحول فيه إلى صورة تكون معطياتها القابلة للبرمجة هي نفسها لا تتغير، فلا تتغير إلا التركيبة. لم تعد القطيعة قابلة للتفكير فيها: «فككت الحداثة العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل»[37]. يُظهر جان شينو فرنسا في ظل الجمهورية الخامسة، وهي تميل «إلى ماهو خارج أرض الحداثة وما هو خارج عن زمنها»[38]. يفرغ الحاسوب المحتوى الواقعي لهذا التظاهر ويعمل وفق تجزئة مفرقة غير مترابطة. لم يعد فيه الإنسان سيد التقنيات فهو يخضع لها، وهو مبعد عن المركز ودوره ثانوي. نجد في هذه الخصائص التي تميّز الحداثة كل مشاغل

(36) Jean Chesneaux, *De la modernité,* cahiers libres; 379 (Paris: La Découverte; Maspero, 1983).

(37) المصدر نفسه، ص 48.

(38) المصدر نفسه، ص 71.

الخطاب الحوليّاتي الذي يتأقلم مع مجتمعنا الحديث فيعيد إلينا تاريخاً مفتّتاً كميّاً وذلك بتفكيك الكليانية التاريخية في شكل مواضيع غير متناسقة وبتقديم عالم جامد لا يكون فيه التغيير إلا تقنياً أو ثقافياً وليس اجتماعياً أو سياسياً أبداً. لا توجد عقلانية تعمل في الديمومة في هذا التاريخ الجديد. ومن غير شك، توجد الجذور العميقة لهذه الأزمة في العلوم التاريخية، في ما يتجاوز توجهات مدرسة **الحوليّات**، في الحداثة التي تنتهي بتشكيل نظرتنا إلى العالم وإلى الزمن في ظل رأسمالية متعددة الجنسيات تجمد كل قطيعة ممكنة باسم ضرورات السوق الإنتاجية. ولكن مدرسة **الحوليّات** تعبّر جيداً، من خلال مواضيعها ونماذجها، عن هذا التخلي عن المطمح التاريخي في إعادة بناء ذاكرة جماعية.

أدى عامل آخر دوراً لا يستهان به: مواصلة الدفاع عن اختصاص التاريخ ضد النجاح المتزايد للعلوم الاجتماعية الأخرى الأكثر حداثة والأكثر تجديداً. وتم استنفار جميع المؤرخين مهما اختلفت مشاربهم وبعثهم إلى الجبهة تحت راية مدرسة **الحوليّات** لتكوين جبهة موحدة واللعب على العدد وعلى الأقدمية، ضد علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد والديموغرافيين والألسنيين... تمثل هذا الهجوم المضاد لأهل الاختصاص في تجريد العلوم الاجتماعية من مهامها ومناهجها وخطابها في سبيل تملكها. يبدو أن طريقة الاختطاف قد نجحت بالنسبة لتاريخ يتربع اليوم على العرش في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية أمام علوم اجتماعية مشدوهة. لقد لبست كليو الحاسوب والسلسلة الإحصائية إذاً بالدقة الرياضية. وهكذا استطاعت أن تتجدد وتعرض نفسها على جمهور متعود على التجدد مثل تاريخ جديد. قد أصبحت كليو ملهمة مرحبة.

أعدّت نادين فريسكو (Nadine Fresco) دراسة كمية للمؤلفين

المذكورين في كتاب **صناعة التاريخ**: فبينت مدى انفتاح التاريخ على العلوم الاجتماعية الأخرى: فقد ذكر ميشال فوكو، ولوسيان فيفر ولويس ألتوسر (Louis Althusser) ست مرات، وذكر ماكس فيبر وكلود ليفي ستراوس وفرناند بروديل وإيمانويل لوروا لادوري خمس مرات، وذكر ماركس وفرويد أربع مرات، ويأتي بعدهم ريمون آرون وبول فاين ثلاث مرات وميشليه مرتين. وهذا يعني خمسة مؤرخين من جملة اثني عشر مؤلفاً. وهي ليست من النسب المرتفعة في كتاب ألفه مؤرخون عن التاريخ. وهذا الانفتاح الآني عن لغات العلوم الاجتماعية الأخرى وهذه الاستعارة لإجراءاتها يدفع ثمنها باهظاً بتفكيك الوحدة الزمنية الخاصة بالمؤرخ وبذوبان التاريخ في العلوم الأخرى. إذا كانت المواجهة والإثراء ضروريين، الم يكن هنا نوع من التخلي الأعمى عن الوظائف التاريخية خاصة ذلك المنحى في اتجاه نظرة شمولية للواقع نتيجة لغياب أي نقد للمناهج الرديفة المستعارة. من الذي انتصر في هذه المبارزة؟ يبدو أن علم التاريخ هو الذي خرج منتصراً بإشعاعه الجديد ولكن إذا كان ثمن هذا الانتصار نفياً لما يؤسس معرفته، فيكون انتصاراً مشابهاً لانتصار بيرّوس (Pyrrhus).

يبدو أن تفكيك الواقع الذي يحدث اليوم مرتبط جوهرياً بالفترة الحالية: فترة الأوهام الضائعة. وفي الوقت الذي كانت تهب فيه رياح التاريخ من أجل بناء مجتمع جديد، أي في القرن الثامن عشر وفي منتصف القرن التاسع عشر، كان المفكرون يبحثون عن معنى لمصير الإنسانية وكانوا يسجلون حاضرهم في منطق عقلاني. من كانط إلى ماركس مروراً بهيغل، كان تفهم أسس المعارك الدائرة من أجل الحرية. وبالعكس عندما انتصرت مقاومة التحول في الوقت الذي خدعت فيه الآمال، وتجذّرت خيبة الأمل، نشهد رفضاً لعقلنة شاملة للواقع. بما أن الواقع لا يحقق آماله فلا يمكن أن يكون عقلانياً.

عندها يفقد التاريخ معناه وينقسم إلى أجزاء عديدة. الواقع لا يكون عقلانياً إلا إذا كان للإنسان عليه سلطة. وهو يفقد هذه العقلانية عندما يُفلت من إرادة الإنسان.

إلا أن عدداً كبيراً من بين المؤرخين الجدد لم يتخلّوا عن التاريخ الكلي وهم يتحفظون على الحركة النابذة للمركز الحالية ويواصلون من وراء الأنماط بحثاً في اتجاه معقولية أفضل لشمولية التاريخ، فلو توقفنا عند مسيرة بعض المؤرخين مثل جورج دوبي، نلاحظ أن مساره المعبر عن مسار جيل كامل، يقوده إلى تخطي ثلاث مراحل متتالية: انطلق من الاقتصادي فوصل إلى المتخيل مروراً بدراسة الاجتماعي. تبقى هذه المستويات الثلاثة بالنسبة إليه متلازمة عند مقاربته للأزمنة الفيودالية: «إن أي مجتمع يكون كلاً. لا أعتقد أنه يمكن فصل السياسة عن الاقتصادي أو الثقافي. إن هذا الالتحام هو الذي يجبرنا على استعمال كل أنواع المعلومات»[39]، فهو يقر بأن فكرة «التحديد فاعلة في نهاية المطاف»[40]، فقد كان لها من جملة ما كان لها، الفاعلية في حثه على بدء أعماله بالظواهر الاقتصادية وليس ذلك بصورة اعتباطية ولكن لأنها بالنسبة إليه هي التي تمكن من الوصول إلى مستويات أخرى من المجتمع. ولكن جورج دوبي مثل موريس غودولييه (Maurice Godelier) يحذر من الشكل المبسط لبنية فوقية تكون انعكاساً لبنية تحتية. وعلى عكس ذلك، فهو يحدد الموضوع المفضل للممارسة التاريخية في مستوى التداخل بين الذهني والمادي. وعوضاً عن السببية البسيطة اختار جورج دوبي مفهوم العلاقات المتبادلة: «أحاول التخلص من آلية

(39) Georges Duby, dans: *Le Magazine littéraire* (novembre 1982).

(40) Georges Duby, dans: *Dialectique*, nos. 10-11 (1975), p. 121.

سببية وأتكلم عن علاقة تبادلية وليس عن سبب ونتيجة. وهذا يحملني على التفكير أن الكل محكوم بالكل وكل شيء يحدد كل شيء، فمفهوم الشمولية الضرورية هذا، يجعلني أفكر في ذلك»[41]. وعلى المؤرخ إذاً أن يحدد الوزن المناسب للعادات الذهنية والضغوط الاقتصادية وإدراك علاقتهما التبادلية لتحليل فترة ما. يبين جورج دوبي أن الموقع داخل علاقات الإنتاج هو من غير شك موقع أساسي ولكن الأخلاق تؤثر هي أيضاً في الاقتصادي. في المجتمع الوسيط، يسري نموذج الإسراف الأميري داخل كل الطبقة النبيلة وهو ما ساهم في دفع ازدهار الحرف المترفة وتطوير دور التجار. وساهم في مثل هذه الحالة نمط سلوكي في تغيير قاعدة النشاط الاقتصادي. والعلاقات الدموية وعلاقات النسب هي أيضا قاعدة لمجتمع وسيط لاحظ جورج دوبي إلى أي مدى تحيل التعابير المجازية باستمرار إلى العائلة[42]. على المؤرخ إذاً إعادة بناء واقع متعدد الأبعاد ومساءلة جانب من النشاط الإنساني وليس انطلاقاً مما يمكن أن نعرف عن هذا النشاط ولكن انطلاقاً كذلك من أبعاد الواقع الأخرى. هكذا تم دمج الضغط الجبائي في العصر الوسيط من قبل جورج دوبي ضمن فصل «المواقف الذهنية» وإعادة وضعه في إطار الهبة والهبة المقابلة لمجتمع لم يعرف النقود بعد، ففي هذه الحالة لم يقع النظر إلى الاقتصادي كنشاط منفصل تماما عن بقية المستويات، وهو قد يكون مغالطة تاريخية. وفي نفس المعنى، تفرض القراءة، التي يقوم بها بعض المؤرخين اليوم للظواهر الدينية، نظرة جديدة تستجيب لرغبة في الشمولية. لا ينحصر التاريخ الديني لدى البعض، في فقه النصوص الدينية وحدها، في مواجهتها، على اختلافها، لحقيقة

(41) Georges Duby, «Entretien avec l'auteur,» *Vendredi* (4 janvier 1980).

(42) Duby et Lardreau, *Dialogues*, p. 180.

أولية. فعلى العكس وضعت هذه الإقرارات الدينية في علاقة مع المجتمع الذي تمثل فيه أساس السلوك والتراتبية الاجتماعية: «فقد أصبحت دليلاً على شيء آخر وليس ما تريد التعبير عنه»[43]. أصبحت المساءلة خارجية فهي حوار بين ما هو حسّي وتمثلاته الأيديولوجية. فعندما عمل بيار فيلار على اللاهوتيين الإسبان في القرن السادس عشر فذلك للبحث من خلالهم عن العناصر الأولى لنظرية ماكرو ـ اقتصادية كانت في طور التبلور. وعندما درس آلان كوربان الدعارة في القرنين التاسع عشر والعشرين[44] كان تقييمه للحقب يتمحور حول تطور البنى الاجتماعية والاقتصادية. في مجال التاريخ القديم، إن الذين جدّدوا أكثر من غيرهم مناهج المقاربة، مستلهمين من الأعمال الأنثروبولوجية، من جان بيار فيرنان (Jean-Pierre Vernant) إلى بيار فيدال ـ ناكي (Pierre Vidal-Naquet) مروراً بمارسيل ديتيان (Marcel Détienne) وبيار ليفاك (Pierre Lévêque) وموزس فينلي (Moses Finley)... يؤكدون على ضرورة مقاربة كليانية للتاريخ. اعتماداً على مثال الدين في بلاد الإغريق، نقد جان بيار فيرنان[45] التصور التقليدي للدين والذي يجعل منه حقلاً خاصاً، في حين أنه لفهم هذا الدين «يجب التفكير معاً» أي السياسي والديني والأخلاقي في الحياة اليومية في نفس الوقت. إنه السبيل الوحيد ليس فقط لفهم التمفصلات الأساسية لمجتمع في تطوره الجدلي ولكن الوسيلة أيضاً لتجنب كل تحليل تجاوزه الزمن يكون انعكاساً لأطرنا الفكرية على مجتمع كانت دوافعه مختلفة. بيّن جان بيار فرنان كيف

---

(43) D. Julia, dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, vol. 2, p. 140.

(44) Alain Corbin, *Les Filles de noce: Misère sexuelle et prostitution: 19ème et 20ème siècles*, collection historique (Paris: Aubier Montaigne, 1978).

(45) J. P. Vernant, dans: *Le Nouvel observateur* (5 mai 1980).

بني السياسي في بلاد الإغريق واحتوى كل علاقات الإنتاج. فلئن اعتمد أدوات تحليل الإثنولوجيا و الأنثروبولوجيا، فكان ذلك دائماً في اتجاه عملية تاريخية وديناميكية لأن: «الإثنولوجيا بلا تاريخ هل يمكن أن تكون إلا سياحة علوية؟»[46].

وعلى عكس هذه المقاربة الشمولية، أفقرت السلاسلية العمل التاريخي عوضا عن إثرائه، ولحسن الحظ أنها لم تكن معتمدة من قبل الجميع. التاريخ السلاسلي يحصر المقاربة التاريخية في مستويين، فهو يطمس البنى تحت السلاسل الوقائعية ومن ناحية أخرى لا يحل مشكل الانتقال من سلسلة إلى أخرى. وهو يكتفي بسببية خاصة بهذه السلسلة أو تلك. الطريق الذي يشقه عدد من المؤرخين، هو على عكس ذلك، بحث من وراء تعدد الزمنيات والمواضيع التاريخية عن تعانق جدلي لهذه الزمنيات في تمفصل أفضل موافقة لما يميز فترة تاريخية عن الأخرى.

---

(46) P. Vidal-Naquet, dans: Le Goff et Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, vol. 3, p. 162.

3 ـ شبكة جديدة للزمن

التاريخ من خلال مالتوس

من وراء نافذة تاريخ مفكك إلى تواريخ، يمكن أن ندرك، مع ذلك، تطبيقاً لطريقة تفسير للتطور التاريخي. يستعيد التاريخ الجديد نموذج التحليل المالتوسي. يعتبر إيمانويل لوروا لادوري وبيار شونو من هذه الناحية الشخصيتين البارزتين في إعادة إحياء فكر كنا نعتقد أن الزمن قد تجاوزه. نشهد نوعاً من «إعادة الاعتبار العامة لمالتوس في الكتابة التاريخية المعاصرة. لقد عرف هذا المؤلف كيف يقدم ... النماذج الأساسية التي سمحت بتشكل التاريخ الاقتصادي وخاصة الديموغرافي ـ الريفي من 1340 إلى 1720»[1]. يتبع تقطيع الزمن آنذاك التطور المزدوج لتغيرات السكان والثروات. وتنحصر التركيبة التاريخية في وجود نظام بيئي محتوم فيه عنصران متغيران يؤثران على مجراه ويكشفان نقاط القطيعة فيه. لم تساير الثروات نسق النمو الديموغرافي في فترات تزايده مثلما هو الشأن في القرن الثالث عشر أو القرن السادس عشر. حدثت عملية إفقار، إذ ضاقت مساحة

(1) Emmanuel Le Roy Ladurie, «Y a-t-il une nouvelle histoire?,» papier présenté: colloque de Loches, institut collégial européen, 1980, p. 5.

الأرض الزراعية وتجزأت تحت تأثير عمليات التقسيم، وضربت ثلاثية المجاعات ـ الحروب ـ الأوبئة مجموعة سكانية بدأت في طور الركود. وهو ما حصل في القرن الرابع عشر أو السابع عشر، فترات حيث يتدنى الطلب فينتج عن ذلك تحسن مستوى عيش السكان وهكذا يعود التوازن بين الثروات والديموغرافيا في فترات الأزمات.

وأصبح محرك التاريخ هو تلك الآلية المرتبطة بالتغيرات خلال قرون متعددة. تم تحييد التحولات الحاسمة بين مختلف الفترات بسبب التشابه في عدد السكان. يضع هـ. نوفو (H. Neveu) في كتاب **تاريخ فرنسا الريفية** (*Histoire de la France rurale*) بنفس المرتبة بداية القرن الرابع عشر ونهاية القرن السادس عشر بما أن الانحناء المالتوسي يميز هاتين الفترتين: ارتفع فيهما عدد السكان بنسبة 50 في المئة وكذلك الأسعار والإنتاج ولكن ذلك لم يكن بنسبة تزايد عدد السكان. إن تموج هذه المتغيرات في هبوط وارتفاع تدور فوق واقع ثابت أو بالأحرى لم يؤخذ بعين الاعتبار. البعد الاجتماعي تم إبعاده عن هذه المنحنيات متعددة القرون. من القرن الرابع عشر إلى بداية القرن الثامن عشر الوضع قائم في «اقتصاد بارد»[2]. يعترض ميشال مورينو على هذا التصور. وهو يرفض وجود ثورة فلاحية في القرن الثامن عشر مبنية في الواقع على فكرة جمود عالم الريف قبل ذلك التاريخ: «كثيراً ما نعجب بالقرن الثامن عشر لأننا في الواقع نلغي ما كان حاصلاً قبل ذلك»[3]. يفرض النظام البيئي على الإنسان معوقاته الحتمية، فيؤخذ المجتمع في شباك دورة فلاحية. وتفرض

(2) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Histoire de la France rurale* (Paris: Seuil, 1975), vol. 2.

(3) Michel Morineau, *Pour une histoire économique vraie,* économies et sociétés ([Lille]: Presses universitaires de Lille, 1985), p. 356.

هذه الدورة على الإنسان ليس نسقها فقط، ولكنها تقود الاقتصاد التابع للمحور المركزي للإشكالية المالتوسية: التطور الديموغرافي. ولا يبقى لنا إلا قراءة التاريخ مكتفين بتصفيف الأرقام العامة للسكان على مر السنين. مع ملاحظة أن عدد سكان فرنسا لم يتجاوز العشرين مليوناً خلال هذه الفترة الطويلة، نستنتج بسهولة أنه «بقدر ما تحدث الحركة تبقى الأمور على حالها: في كلتا الحالتين: 1320 أو 1680»[4]. أصبح إذاً التاريخ الاقتصادي والاجتماعي متفرعاً بصورة مباشرة عن التاريخ الديموغرافي الذي أصبح انعكاساً له. بمحاولة الاعتراض على فاعلية مفهوم نمط الإنتاج وجد التاريخ الجديد ملجأً عند مالتوس وطبق خطة آلية أدّى أفقرت نظرة المؤرخ إلى أبعد الحدود. وهكذا يصبح التاريخ قابلاً للتكميم بسهولة وخاضعاً إلى معادلة مركزية تضع إنتاجاً راكداً في علاقة مع سكان عددهم متغير. من المفارقة أن نرى هؤلاء أنفسهم الذين ينتقدون الأهمية الكبيرة المعطاة للتفسير الاقتصادي في الفكر الماركسي، اتخذوا لأنفسهم نظاماً محدوداً تلتقي فيه كل التفسيرات. يمتد حقل المؤرخ بصورة ضيقة بين شفرتيِ المقص الذي ينفتح تارة وينغلق أخرى على مجتمع عاجز حسب علاقة ثروات ـ سكان وحدها. فلم تعد إذاً هناك حقب لها قوانين عمل خاصة، فكل فترة ينظر إليها على ضوء هذين المتغيرين وحدهما. وهكذا «يتم ترميم النظام البيئي الوسيطي»[5] في القرن السادس عشر. تم دمج القرن الثامن عشر بداية من عام 1720 والقرن التاسع عشر والقرن العشرين إلى حدود عام 1973 في نفس الإطار، إطار النمو. بالمقابل أعادت الأزمة العالمية منذ عام 1973

(4) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien,* bibliothèque des histoires, 2 vols. (Paris: Gallimard, [1973-1978]), vol. 2.

(5) المصدر نفسه، ص 165.

إلى الدورة متعددة القرون من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر. أصبح القانون المالتوسي البداية والنهاية بالنسبة للتحليل التاريخي. ارتفاع الريوع العقارية وانخفاض الأجور وسوء التغذية، أصبحت كلها تفسر بالنمو الديموغرافي: «الحضارة الريفية، في القرن السابع عشر مثلاً، هي ديموغرافيا أولاً»[6]. ذهب لوروا لادوري في أطروحته **فلاحو منطقة اللانغدوك** للبحث عن ماركس، فوجد مالتوس. عندئذٍ حاد عن الطريق الذي سطره مارك بلوخ الذي تركز اهتمامه على تكوين الرأسمالية العقارية في الأرياف وعلى نظام توزيع الأراضي والبنى الفلاحية. فقد نقل موضوعه نحو ثوابت ومتغيرات أخرى.. وأصبحت «الشخصية المحورية»[7] في أطروحته دورة فلاحية متعددة القرون تمتد من القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر. وتراكم رأس المال الذي كان يبحث عنه لم يلقه بما أن النبضات الديموغرافية كان لها بعض التأثير الذي له دلالة. هكذا لم يكن تجمع الأراضي في القرن الخامس عشر شيئاً في انطلاقة الرأسمالية وبداية مجتمع جديد ولكن «تشتت للأرض، لا مفر منه، كان قد رافق تقلصاً ديموغرافياً من عام 1350 إلى عام 1450»[8]. أعقبت مرحلة التراجع التي تقلص فيها عدد السكان، مرحلة ازدهار في القرن السادس عشر، بلغت نضجها في حدود عام 1600 قبل أن تتقهقر في القرن السابع عشر وهكذا دواليك إلى القطيعة الحاسمة في القرن الثامن عشر والمتمثلة في وضع خطة للتحكم في الولادات في الغرب لتحديد حاجيات مجتمع محكوم بسقف لا يمكن تجاوزه نظراً

---

(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 147.

(7) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Les Paysans de Languedoc*, champs; 7 (Paris: Flammarion, 1969), p. 135.

(8) المصدر نفسه، ص 24.

لحالة تقنياته. تقترح علينا الديموغرافيا التاريخية إذاً تقسيمات طويلة الأمد انطلاقاً من نظرة تطورية للتوازن وحده دون اعتبار الثوابت الأخرى للتطور التاريخي. عند بيار شونو أيضاً الديموغرافيا هي في قلب نظام التفسير التاريخي. تكمن قوة الحضارة الغربية في كونها «عالم ملآن»، فالضغط الديموغرافي يدفع الغرب للعب دور عالمي.
إن مخطط مالتوس الذي يبدو أنه رجع بقوة قد تبين خطأه منذ القرن التاسع عشر، إذ عوضاً عن جلب البؤس، ساهم التزايد الديموغرافي الأوروبي في نمو غير مسبوق بدعمه للثورة الصناعية. إذا كان لا يمكن أن نعيب على مالتوس أنه لم يكن متنبئاً جيداً، يمكن أن نتساءل عن صلاحية حساباته التي لا تتناسب حتى مع العصر الوسيط. إن الطاعون الأسود الذي قضى على ربع سكان أوروبا ما بين عامي 1347 و1350، كان الحدث التاريخي الذي من خلاله قام مالتوس ببناء مخططه التحليلي. في حين أن هذا القطع الواضح في منتصف القرن الرابع عشر كانت له نتائج عكسية، إذ من جهة كانت إنجلترا قد عرفت فترة ازدهار في حين أن المجتمع الغربي في القارة الأوروبية قد تراجع نحو الفيودالية والتقاليد والجمود. إذاً هناك عناصر أخرى يمكن أن تدخل في الاعتبار لأنه بدونها لا يمكن أن تكون آلية مالتوس آلية عملية. يصبح السكان من خلال هذه المقاربة تجريداً بلا قيمة. إلا أن السكان لهم دور خاص حسب نوعية المجتمع، فهم يتوزعون إلى طبقات وإلى فئات اجتماعية متمايزة. إن الزائد السكاني في الريف والذي يمكن أن يكون مصدر أزمة ومجاعة، أصبح في النظام الرأسمالي قاعدة للازدهار الاقتصادي وتراكم رأس المال الذي يرتكز على وجود ما سماه ماركس جيش الاحتياط الصناعي. إن معالجة مسألة السكان دون الرجوع إلى ظروف الإنتاج والمبادلات والتقسيم الاجتماعي للعمل والأسعار والمداخيل. . . يصبح الأمر ضرباً من الخداع. نسي مالتوس ببساطة القدرة على الإبداع

التكنولوجي وإمكانيات التقدم الاقتصادي التي تسمح بنمو سريع للثروات. ينهار كل المخطط المالتوسي لأنه بني على عدم مرونة الإنتاج أمام تزايد سكاني مقلق. وعوضاً عن استعمال سقف رياضي يصطدم به عدد السكان، يجب البحث عن أسس الجمود الاجتماعي والتقني الذي يولد البؤس في حين يمكن أن يندمج تغير العلاقات الاجتماعية في اكتشافات جديدة تسمح لعدد السكان المتزايد أن يجدوا مكاناً في صيرورة النمو. لا يمكن أن نقوم بتقسيم زمن اقتصادي دون أن نقوم بإدخال تطور الإنتاجية والعمل وأشكال الجباية العمومية أو الخاصة... فعندما درس غي بوا (Guy Bois) في أطروحته، أزمة النظام الفيودالي[9]، حلله ليس كحصيلة مقابلة بسيطة بين الثروات والسكان وإنما كأزمة مجتمع شاملة. اقترح منهجية كبديل عن المقاربة المالتوسية من خلال تمييز ثلاثة مستويات للتحليل. دراسة أولى تنكب على الخطوط الكبرى الاقتصادية والديموغرافية في نظرة وصفية بحتة تعتبر النتائج أكثر من الآليات. وبعد هذا التحليل الكبير ننتقل إلى مستوى ثان وهو التحليل الضيق. ويجدر إذاً أن تتم دراسة العلاقات الاجتماعية وعلاقات الإنتاج بين الفاعلين الاقتصاديين، وفي النهاية تتم العودة إلى تأريخ التطور الديموغرافي والاقتصادي لتقديم فرضيات تحليل حول عوامل هذا التطور: «لا يتم تقديم الاستنتاجات المتعلقة سواء بالنظام الاجتماعي ـ الاقتصادي نفسه أو في ما يتعلق بالحركة الاقتصادية والديموغرافية في المجتمع موضوع الدراسة إلا في نهاية هذه المقاربة الثلاثية»[10]. تبدو المهمة

---

(9) Guy Bois, *Crise du féodalisme: Economie rurale et démographie en Normandie orientale du début du 14ème siècle au milieu du 16ème siècle*, cahiers de la fondation nationale des sciences politiques; no. 202 (Paris: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1976).

(10) المصدر نفسه، ص 23.

أكثر تعقيداً لأنها لا تقف عند شكل تبسيطي وآلي. نفهم غي بوا عندما يثور على الانزلاق السريع من مستوى الوصف إلى مستوى تفسير «غير مقبول من الناحية المنهجية»[11].

فالإنسان ـ الفاعل المسلوب من خلال المقاربة المالتوسية التي أصبح سجيناً لها والمحصور في نظام بيئي يتجاوزه هو في تبعية أكثر للظواهر البيولوجية التي لا يتحكم فيها هي الأخرى. أصبح التوحيد الجرثومي للعالم بالنسبة إلى إيمانويل لوروا لادوري بعد وودرو بورا (Woodrow Borah) محركاً أساسياً للتطور الإنساني. ولم تعد أزمة القرن الرابع عشر تعبيراً عن أزمة اجتماعية ولكن أبسط من ذلك، فهي من تأثيرات طاعون عام 1348: «إن التناقص السكاني الناتج في مرحلة أولى من أوبئة الطاعون كمحرك أول، يولّد أزمات الكساد والركود الاقتصادية»[12].

أما بالنسبة للكارثة التي أدت إلى انهيار عدد السكان في أمريكا الوسطى في القرن السادس عشر (انخفض عدد سكان المكسيك الأوسط من 25,2 مليون نسمة عام 1518 إلى 1,1 مليون نسمة عام 1608) فقد قدمت إلينا على أنها دليل آخر على الوحدة الجرثومية: «يظل العامل المركزي جرثومياً»[13]. كما قُدّم إلينا الاستعمار الإسباني، وتحطيم بنية مجتمعات الأزتيك (Aztèque) والإنكا (Inca) والمايا (Maya)، كما لو أنها ثانوية مقارنة بالصدمة الجرثومية. تنزع

(11) Guy Bois, dans: Jacques Le Goff, Roger Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire*, les encyclopédies du savoir moderne (Paris: Retz-C.E.P.L., 1978), p. 387.

(12) Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, vol. 2, p. 85.

(13) المصدر نفسه، ص 90.

هذه النظرة عن المجتمعات المسؤولية فيما تقوم به، فالمحرقة اليهودية ليست إنسانية بل أصبحت جرثومية خارجة بذلك عن الإرادة الإنسانية. يسمح لنا هذا بتنظيم التناقضات الداخلية لأي حضارة لتفسير تدهورها وانهيارها: «فالعملية التي حطمت المجتمعات القديمة يبدو أنها جرثومية»[14]. إن هذا الاستعمال المكثف للبيولوجي كعامل محرك للتطور التاريخي يسمح بمضاعفة النقل الاعتباطي والموجز للسلوكيات الحيوانية إلى الحقل الاجتماعي. وهكذا، لينير السلوك المالتوسي، يعيد إيمانويل لوروا لادوري استعمال أعمال الباحثين الأمريكيين ستريكر (Strecker) وإملن (Emlen) التي أنجزت حول فئران أخضعت عام 1947 لنظام جماعي. بينت التجربة أن الفئران تقلل من نسبة خصوبتها عند مواجهتها لأزمات الجوع. يقر إيمانويل لوروا لادوري بسلوك الإنسانية المالتوسي.

يتراءى له وجه الشبه مع عالم الحيوان كاملاً: «توجد عند المرأة كما هو الشأن عند الجرذة أو الفأرة آليات جاهزة للعمل في أي لحظة»[15]. إنها الرغبة في القطع مع المركزية الإنسانية مهما كان الثمن. يتجه التاريخ على هذا النحو إلى أن يصبح اشتقاقاً بيولوجياً بعدما كان اشتقاقاً ديموغرافياً. يمدح كريستوف بوميان هذا الزواج الجديد في دائرة معارف التاريخ الجديد. ويضع فيليب أرياس نفسه، من خلال بحوثه حول العائلة والموت، في مستوى «التمفصل بين البيولوجي والاجتماعي»[16]، فهو يفضل هذا المستوى الذي يعتبره أساسياً لفهم تطور سلوكيات الناس: «بحثت عن المواقف في أدنى

(14) Pierre Chaunu, *Histoire, science sociale: La Durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne* (Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1974), p. 111.

(15) Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien,* vol. 1, p. 346.

(16) Philippe Ariès, *Radioscopie,* France-inter, 4 janvier 1974.

مستوى السلم الثقافي، أي في المستوى البيولوجي»[17]. إن الرغبة في الوصول بالتطور الإنساني إلى واقع بيولوجي، أدت إلى تفضيل عنصر ثابت انطلاقاً منه تصبح التبدلات والتحولات بلا معنى. نقول كما قال جاك روفييه (Jacques Ruffié) «إننا نعيش مرة أخرى على غموض سلفي يتمثل في الخلط بين البيولوجي والثقافي ويؤدي إلى نقل عدد من قوانين البيولوجيا إلى الحقل الاجتماعي بصورة اعتباطية»[18]. يسجن هذا الانزلاق الإنسان في جمود طبيعة لا يمكن تجاوزها، فتصبح حركاته خبطاً عقيماً وعجزاً كعجز الفأر يتخبط في الفخ لا أمل له في إنقاذ نفسه.

الذهني خارج دائرة الاجتماعي؟

انتقل مؤخراً حقل المؤرخ نحو الكشف عن أغوار نفسية الإنسان عبر تطور السلوكيات والحساسيات والتصورات. يجب احتساب هذا التوسع المعرفي لصالح مدرسة **الحوليّات**، التي لعبت دوراً محركاً بلا منازع، فقد أصبح تطور الذهنيات موضوعاً محبذاً لدى التاريخ الجديد. وإذا كان البحث من خلال بعض الأعمال بحثاً عن التفريق بين حتميات الواقع وتصورات العالم، يجب أن نعترف أن الذهنيات في كثير من الأحيان تخترق التاريخ على أريكة من الهواء كأنها وحدات بعيدة عن أية عوارض. في أغلب الأحيان، يكتفي المؤرخ الجديد برسم تطور التمثلات والطريقة التي يرى بها الناس عصرهم دون أن يهتم بإيجاد علاقة بين هذه التمثلات وما

---

(17) Philippe Ariès, *Un Historien du dimanche*, avec la collaboration de Michel Winock (Paris: Editions du Seuil, 1980), p. 172.

(18) Jacques Ruffié, *De la biologie à la culture*, nouvelle bibliothèque scientifique (Paris: Flammarion, 1976), p. 501.

أحدثها في الواقع. هذا الذهاب والإياب بين الذهني والاجتماعي يترك في كثير من الأحيان مكاناً لعملية إبدال وحجب المحيط الاجتماعي وراء المحيط الذهني. يتركز النظر على أمد طويل لا ينفي الانقطاعات، ولكن هذه الانقطاعات لا تندمج إلا في القليل النادر ضمن مجموع اجتماعي شامل. يتم تطبيق السلاسلية هنا، كما هو الحال بالنسبة للبحوث ذات الطابع الديموغرافي، على دراسة الموت والعيد والخوف والعائلة... يرتكز نمط المقاربة هذا على الفكرة التي تقول بأن الطبيعة الإنسانية تنكشف في طابعها الدائم. في إعادة تحويل النظر نحو حقل الذهني، كان ملتقى دار المعلمين العليا في سان كلو (Saint-Cloud) الذي أقيم عام 1965 بإشراف إرنست لابروس، لحظة أساسية. كان إرنست لابروس يشعر بالقوة بوجود مجموعة هامة من طلابه الذين يعدون مونوغرافيات مناطقية تعتمد التكميم لكتابة تاريخ اجتماعي أكثر علمية يتمحور حول الفئات والمجموعات والطبقات الاجتماعية، فرسم توجهاً جديداً للبحث وهو ما يقوم به علماء الاجتماع، يتمثل في دراسة مقاومة التغيير وكل ما هو غير قابل له: الذهنيات: «أتريدون أن أعترف لكم... إن ما قمنا به إلى الآن هو تاريخ الحركات وما لم نقم به كفاية هو تاريخ المقاومة... إن المقاومة لدى الذهنيات من أكبر عوامل التاريخ البطيء»[19]. إننا في صميم الموجة البنيوية وهي تلطم المؤرخ بقوة مغيرة في نفس الوقت نسق الزمنية واختيار مواضيع التاريخ. انطلاقاً من هذه اللحظة[20]،

---

(19) E. Labrousse, dans: *L'Histoire sociale* (Paris: Presses universitaires de France, 1967), p. 5, introduction au colloque de l'ENS de Saint-Cloud, 15-16 mai 1965.

(20) انظر مقابلة مع ميشال فوفيل (M. Vovelle)، في: *Espaces temps*, nos. 34-35 (décembre 1986).

تخلى عدد هام من الباحثين البروسيين عن مشاغلهم المونوغرافية الاجتماعية لتوجيهها نحو دراسة الذهني. تخلى تلامذة إرنست لابروس عن البرنامج الكبير الذي كان أعده عام 1955[21]، لأن التصنيفات والتراتبيات الاجتماعية لم تقنعهم. لم يساهموا في كتابة تاريخ فرنسا الاجتماعي مثل بيار غوبير (Pierre Goubert) حول منطقة البوفيزيس (1960) ولكن ضاعفوا في نفس الحدائق المزروعة منذ فترة، الأعمال المهتمة بتاريخ الذهنيات مثل أعمال موريس أغولون (Maurice Agulhon): **التوابون والبناءون الأحرار في منطقة البروفانس القديمة** (1968) أو ميشال فوفيل: **التقوى الباروك وتراجع المسيحية في منطقة البروفانس في القرن الثامن عشر** (1978). هذا المسلك الذي يؤدي من الأسفل إلى الأعلى، من دراسة البنى الاقتصادية والاجتماعية إلى تاريخ الذهنيات كان مسلك جيل بأكمله، فوجد الأمد الطويل ملاذاً مثالياً في البنى الذهنية. حاول أغلب المؤرخين البروسيين المتأثرين بمعرفتهم الدقيقة للبنى التحتية، أن يحافظوا على الإمساك بطرفي السلسلة وركزوا جهودهم في اتجاه البحث عن التوافق بين الظواهر الاجتماعية والذهنية. هذا الوضع بعيد كل البعد عن أن يشمل كل المؤرخين الجدد.

فيليب أرياس وهو مثل القناص، كان رائداً في فرنسا في سبر أغوار الذهنيات. نشر عام 1948 كتابه **تاريخ السكان الفرنسيين ومواقفهم أمام الحياة**، ولكنه رغم ذلك بقي مجهولاً من قبل **الحوليّات** إلى فترة متأخرة لأنه وجب الانتظار إلى عام 1964 حتى يستشهد به جان لويس فلاندران (Jean-Louis Flandrin) في المجلة

---

(21) E. Labrousse, «Voies nouvelles vers une histoire de la bourgeoisie occidentale aux XVIIIème siècle et XIXème siècle (1700-1850),» papier présenté: *Congrès international des sciences historiques de Rome* (Roma: [s. n.], 1955).

في دراسته حول «الطفل والحياة العائلية في النظام القديم»[22] ولكن بقي نظره شديد الحنين إلى مجتمع الماضي التقليدي وإلى العائلات الكبيرة إلى درجة إنه في بعض الأحيان يقدمها كأنها العصر الذهبي. عندما يذكر[23] السلطة الاقتصادية للمرأة في العائلة الوسيطية وهي سلطة فقدتها في القرن الثامن عشر لصالح نظام تربوي، نجد أنفسنا بعيدين عن المجتمع الوسيطي الذي صوره جورج دوبي حيث تبدو المرأة كموضوع مبارزة بين أصحاب الهيمنة: الرهبان والفرسان. تغيرت العائلة في القرن الثامن عشر وظهر في تلك الفترة شعور الطفولة بأنها فترة عمرية خاصة، فضاقت الدائرة. لا ينسب فيليب أرياس الانتقال من نموذج إلى آخر بتحول شامل للمجتمع، وإنما «يفسر ذلك بظاهرة نفسية قلبت سلوك الإنسان ابتداءاً من القرن الثامن عشر»[24]. نجد في عمق هذا التفسير اللاوعي الجماعي كعامل فعّال يحدد التغيرات الذهنية حسب الفترات من خلال مقاربة فيليب أرياس. تنتمي دراسته إلى التنويعات حول محور واحد وهو محور التطور الداخلي لفكرة الطفولة والعائلة والسلوكيات التي تترتب عليها. مساهمة فيليب أرياس في هذا المستوى مساهمة لا يستهان بها، فهو يفتح توجهات جديدة للبحث التاريخي حتى ولو بقي في مستوى وصفي للعالم الذهني، رغم تجنبه طرح سؤال السببية أو على الأقل لم يقدم لها جواباً إضافياً، وله الفضل في أنه عرفنا بالكيفية. ونفس المقاربة الجيدة في مستوى الوصف ولكنها هي أيضاً منحصرة في مجال الذهنيات نجدها عند جان لويس فلاندران حول تطور العائلة والسلوك الجنسي في الفترة الحديثة. يلاحظ مثل فيليب أرياس نفس

(22) Jean-Louis Flandrin, «Enfance et société,» *Annales* (1964), pp. 322-329.

(23) Philippe Ariès, *Radioscopie,* France-inter, 4 janvier 1974.

(24) Ariès, *Un Historien du dimanche,* p. 136.

تطورات الحياة الخاصة وتخصص الأعمار والتمييز بينها والوظائف والأماكن[25]. ننتقل إلى القرن السابع عشر من الغرفة المتعددة الوظائف إلى تمييز وظيفي لمختلف غرف المسكن الحديث. لم يعد البيت في امتداد لألفة اجتماعية مفتوحة على الشارع، فقد أصبح التنبيه مفروضاً قبل أية زيارة لعدم إحداث تشويش لجو لعائلة الحميم. ولم يعد الحب والزواج يعيشان في وفاق. إلا أنه في القرن الثامن عشر سيقوم انتشار الاقتران الزوجي والعائلة الضيقة بالمصالحة بين الزواج والحب. أما نظرة جورج دوبي للعائلة والحب والزواج فهي نظرة أخرى. وهي تتمثل في وضع السلوكيات والحساسيات في العصر الوسيط في صلب ما تمثله كرهانات متناقضة بالنسبة إلى الفئات الاجتماعية المهيمنة، فهو يرى في الخلية العائلية «وعاءً مولداً»[26] للمجتمع الوسيطي. أغلب العبارات المجازية المستعملة في تلك الفترة للحديث عن المجتمع تستلهم العائلة. الرهبان إخوة ورئيسهم هو والدهم، ويشكل الأسياد حول زعيمهم عائلة موسعة... لم يغرق جورج دوبي أمام هذا الامتداد العائلي في توجه سلاسلي تكون فيه العائلة والزواج موضوع تحليل منقطع عن الجوانب الأخرى من الواقع. فقد نظر إلى الزواج كنقطة تلاقٍ بين المادي والروحي: «فهو يدعم البنى التحتية، وهو لا يمكن أن ينفصل عنها»[27]. فقد بنى من خلال أطروحته حول المجتمع

(25) Jean-Louis Flandrin, *Familles: Parenté, maison, sexualité dans l'ancienne société*, le temps et les hommes (Paris: Hachette, 1976).

(26) Georges Duby et Guy Lardreau, *Dialogues* (Paris: Flammarion, 1980), p. 181.

(27) Georges Duby, *Le Chevalier, la femme et le prêtre: Le Mariage dans la France féodale* (Paris: Hachette, 1981), p. 23.

الماكونيزي (La Société mâconnaise) في العصر الوسيط[28] علاقة بين نسق تحولات النظام السياسي والخصائص الضعيفة نسبياً للعلاقات والضغوطات العائلية. يُنظر إلى الحب والزواج كرهانات. وهو يبين كيف أن الغرام والحب كانا معتبرين كمصدر للفوضى يجب التخلص منهما ويجب التحكم فيهما لتحويلهما نحو شرعية النموذج المؤسسي. وسرعان ما أصبح الزواج يحتل وظيفة السور الحامي للنظام. فقد كان ينظر إليه بطريقتين مختلفتين في البداية: نظرة رجال الدين ونظرة الفرسان. يرى رجال الدين في العصر الوسيط في الزواج وقاية من الزنا والفسق. واجتماع كائنين يجب أن يلغي المتعة الجسدية. ولكن الزواج هو شر منذ البداية لأنه يفترض الممارسة الجنسية التي هي شر لا بد منه للحفاظ على الجنس البشري. لذلك وجب تقنينه وإحاطته بجملة من المحاذير المضبوطة للوصاية عليه وبسط نفوذ رجال الدين على المجتمع العلماني: «الزواج هو أداة مراقبة. استعمله مديرو الكنيسة لمجابهة العلمانيين أملاً في إخضاعهم»[29]. هذا هو رهان القرن الحادي عشر، وهو جانب هام في الثورة الفيودالية، في زمن حيث غياب السلطة السياسية المركزية وتفتت الجسم الاجتماعي يميلان لتحقيق مصلحة رجال الدين. لم تكن دراسة جورج دوبي حول الزواج لتعوض المجتمع الوسيطي وإنما تسمح بجعله شفافاً. إن هذا الغوص في الاجتماعي من خلال الذهنيات لا تكون ممكنة إلا بطرح السؤال عن أسباب هذه التحولات التي ندركها، وبتجاوز مقاربة وصفية بحتة

---

(28) Georges Duby, *La Société aux XIème et XIIème siècles dans la région mâconnaise* (Paris: A. Colin, 1953).

(29) Duby, *Le Chevalier, la femme et le prêtre: Le Mariage dans la France féodale*, p. 303.

وربط مختلف جوانب النشاط والفكر الإنسانيين. نجد نفس التعارض بين مقاربة سائدة ذات صبغة سلاسلية قائمة في مستوى اللاوعي الجماعي ومقاربة شمولية في الدراسات حول الموت. وعندما درس فيليب أرياس تغيرات السلوك أمام الموت، لم يفرق بين الموت الكاثوليكي والموت البروتستانتي، ولم يأخذ بعين الاعتبار لا آليات تمرير الثقافة السائدة ولا التأثيرات الديموغرافية والاجتماعية: «حسب رأيي، إن الانحرافات التي تنتج الذهنيات والمواقف من الحياة والموت، تخضع لمحركات أكثر سرية وغائرة في الأعماق، ما بين البيولوجي والثقافي أي في اللاوعي الجماعي»[30]. نتابع إذاً مع فيليب أرياس تموجات اللاوعي الجماعي حسب آليات التأقلم وانقلاب المفردات وانعكاسها. يبدو المرجع الأساسي هنا أيضاً مثلما هو الشأن بالنسبة إلى العائلة «ذلك العالم الذي فقدناه» وذلك الزمن الجنيني الأصلي الذي كانت تعمه السعادة. إنه زمن «الموت المدجّن» خلال العصر الوسيط، تسود في هذا العصر الذهبي إلفة كبيرة مع الموت الذي لم يكن مصدر خوف لا بالنسبة إلى الذات ولا بالنسبة إلى الآخرين. كانت المقبرة مكاناً للإلفة الاجتماعية يرقص الناس ويتاجرون بين الجثث دون أن يؤثر مشهد الموت في الأحياء، فالمحتضر، منظم الاحتفال العمومي بموته، يتهيأ لتلك اللحظة بين أهله بدون مأساة. إنها لحظة موت بلا زمن وبلا خوف تكاد تكون لحظة فرح. من وراء أهمية دراسته التي لا شك فيها، فهي تكشف لنا كثيراً من السلوكيات، يمكن أن نتساءل عن مشروعية نظرة زمنية تمتد إلى قرون مختلفة في نفس واحد حول معطى مركزي، هو الموت، دون أن نبحث البتة عن أسس تغيراته. لا يشعر فيليب أرياس من جهة أخرى بالحاجة إلى تحديد

---

(30) Philippe Ariès, *Essais sur l'histoire de la mort en Occident: Du Moyen âge à nos jours* (Paris: Editions du Seuil, 1975), p. 222.

موقع هذه الحساسيات المتتالية أمام الموت لأنها لا تمثل بالنسبة إليه إلا تغيرات للاوعي جماعي يسمو فوق محيطه. فإذا كان هناك فعلاً استقلالية في تطور موقف الغربيين أمام الموت هل يمكن بسبب ذلك أن نسير على درب استقلالية كاملة تجاه مجتمع معين في أبعاده المادية والروحية؟ إن المواقف أمام الموت من خلال هذه النظرة المثالية تكون في حالة انعدام للجاذبية، فهي تتحرك بفعل ديناميكية خاصة وغير عقلانية. رغم ذلك يمكن أن نجد منطقاً داخلياً لتطور مجتمعنا الذي تخلص من الموت عبر مراحل ليحوله إلى قيمة محرمة. اتبع ميشال فوفيل منهجاً مختلفاً عن منهج فيليب أرياس ليجعل تطور المواقف أمام الموت يدرك عقلياً، فتتمحور شبكة قراءته بطريقة عمودية وتدرس على التوالي «الموت الذي يتلقى والموت كما يعاش والخطاب حول الموت»[31]. فهو يتجنب أي تفسير آلي بالتمييز في نفس الوقت بين العوامل التحت - بنيوية والتطور الديموغرافي وتطور البنى الاقتصادية والاجتماعية والوزن النسبي للفرد والعائلة في «الموت المتلقى». في الطرف الآخر، طرف «الخطاب حول الموت»، فهو يعيد توجهات الأيديولوجيات المتناسقة أمام الموت وموقعها بالنسبة إلى الكنيسة، والسلطات. . . وأخيراً بين هذين القطبين، يحدد مستوى ذهنيات الفترة مع «الموت المعيش» ضمن وصف يأخذ بعين الاعتبار التمايزات الاجتماعية. تسمح شبكة التحليل هذه لميشال فوفيل بإدراك نقاط الالتقاء والاختلاف التي تبرز في هذه المستويات الثلاثة. فلا يمكن أن نتحدث عن «موت معيش» في العصر الوسيط دون تحديد موقعه اجتماعياً. وهذا ما فعلته كوليت بون[32] (Colette Beaune) بوصفها

---

(31) Michel Vovelle, *Idéologies et mentalités*, fondations (Paris: F. Maspero, 1982), p. 103.

(32) C. Beaune, «Mourir noblement à la fin du moyen âge,» papier présenté: =

لمواكب دفن النبلاء في أواخر العصر الوسيط، في القرن الخامس عشر. لحظة يعرض فيها جثمان السيد لفترة طويلة في القصر، يكون وجهه مطليّاً ويكون معطراً قبل أن يستبدل بصورته. إن هذه المسرحة للموت وهذا الميل إلى الإشهار لا يمكن إلا أن يزيد في التفاوت أمام الموت. موريس بيرت (Maurice Berthe)، في نفس ملتقى ستراسبورغ، حلل الرقص الجنائزي كتعبير عن معالجة أيديولوجية لتغطية تفاوت ما فتئ يتزايد. يمكن إذاً لدراسات حسية أن تتخذ الموت موضوعاً دون أن تتعامل معه من منظار مثالي. ينطبق الحال على دراسة ميشال فوفيل حول العشرين ألف وصية في منطقة البروفانس في القرن الثامن عشر. حيث لاحظ تحولاً في الذهنيات في عصر الأنوار: «عاشت الأبّهة الغريبة الأشكال طويلاً»[33]، فقد تراجعت طلبات الصلاة في الوصايا بنسبة النصف، واندثر الاحتفال الجنائزي، ولم يعد القبر في قلب الاهتمامات. لم يتوقف ميشال فوفيل عند هذه الملاحظة: «ماذا يمثل التطور الملحوظ على مر القرون؟ تحت ضغط أي عوامل حدث؟ وفي النهاية ما الاسم الذي يمكن أن نطلقه عليه؟»[34]، وهو يدحض صورة النخب التي تتعارض مع الشعب البسيط ويبين دور البورجوازية الحضرية النشيط في هذا التحول في الذهنيات والذي يتباين مع رد الفعل الدفاعي للنبلاء والأعيان: «لا

= *La Mort au Moyen âge, colloque de l'association des historiens médiévistes français, réunis à Strasbourg en juin 1975*, collection recherches et documents; t. 25, 2 vols., publications de la société savante d'Alsace et des régions de l'est (Strasbourg: Librairie Istra, 1977), pp. 125-145.

(33) Michel Vovelle, *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIème siècle; les attitudes devant la mort d'aprés les clauses des testaments*, civilisations et mentalités (Paris: Le Seuil, 1978), p. 275.

(34) المصدر نفسه، ص 305.

نحب أبداً عبارة «نخبة»، لأنها مصدر غموض واختزال مشوّه»[35].
بالنسبة إلى ميشال فوفيل، تراجُع المسيحية المذكور لا يكفي لاستكمال أسباب هذا التحول ولكن لا يسعنا أن ندرس بنية تحليله في دراسة «الموت المعيش».

هناك حظيرة أخرى فتحت بالنسبة إلى تاريخ الذهنيات: الخوف، وهو موضوع مفضّل لدى الرائد جورج لوفيفر الذي كتب عام 1932 كتاباً حول الخوف الكبير لعام 1789. مؤخراً خصص جان دولومو (Jean Delumeau) كتاباً عن الخوف في الغرب من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر[36]، إلا أن جان دولومو ابتعد عن الخط الذي رسمه جورج لوفيفر: فلم يعد الأمر دراسة لحظة والتفاف عاطفي حول حدث معين وإنما استقصاء عن اللاوعي الجماعي وعن الطبيعة الإنسانية تعبر عنها دراسة سلاسلية، وهي دراسة مختلف أشكال الخوف عبر الزمن. إنها دراسة تهتم بالخوف كبنية ملازمة دائماً للإنسان: «إن الخوف طبيعة»[37]: «الإنسان محافظ بطبعه»[38]. نجد نفس الإنسان ـ الذهني عند فيليب أرياس متشبثاً بالنظام وببقائه بصورة بنيوية، ولكن نتساءل مع ميشال فوفيل: «هل الخوف حقيقة غير مرتبط بالزمن؟»[39]، فهذا الإنسان المتعطش للأمن والمعادي للتغيير هو وليد

(35) Michel Vovelle, *La Mort et l'Occident: De 1300 à nos jours,* bibliothèque illustrée des histoires ([Paris]: Gallimard, 1983), p. 216.

(36) Jean Delumeau, *La Peur en Occident, XIVème-XVIIIème siècles: Une Cité assiégée* (Paris: Fayard, 1978).

(37) المصدر نفسه، ص 9.

(38) Jean Delumeau, «La Peur hier et aujourd'hui,» Dialogue, *France-Culture,* 7 mars 1979,

(39) Michel Vovelle, dans: *L'Histoire,* no. 22 (avril 1980).

تاريخ جامد. المقاربة السلاسلية التي اتبعها جان دولومو قادته إلى موضوعه: الخوف هو مصدر كل الظواهر منذ نهاية العصر الوسيط إلى الفترة الحديثة. ربما لم تكن حركات العصيان إلا نتيجة لنوع من الهيجان العصبي الناتج عن الخوف، كذلك قد تكون أعمال التعذيب التي يمارسها أهل السلطة مبنية على الخوف. كان من المفضّل أن يقع ربط حُمّى الخوف عند مختلف مكونات المجتمع الغربي في نهاية العصر الوسيط بالمكان الجديد والمهمش للمسيحية. لقد انفصلت اليد الزمنية آنذاك عن الكنيسة ويبدو أن السلطة أفلتت من أيدي رجال الدين الذين قاوموا ذلك بزرع أنواع متعددة من الخوف في قلوب المؤمنين بإقحام الخوف في المنظور الديني حول ثلاثة رموز: المهرطق والساحرة واليهودي وبالإعلان عن قرب اليوم الآخر.

لقد برز الإنسان ـ الذهني كموازن ضروري للتاريخ الكمي. إنه صنو له، فهو يسمح بالنزول داخل واقع أكثر إنسانية ويندرج ضمن منطق وصفي. إن الذهني يميل إلى تغطية الحقل الاجتماعي ويندمج فيه ضمن تواصل الطبيعة الإنسانية التي لا تتزحزح. وكما يلغي الأمدُ الطويل التوتراتِ الاجتماعية، تضفي دراسة الذهني طابعاً نسبياً على الوعي بهذه التوترات والتناقضات التي تترتب عنها. والإنسان المنحصر في ذهنيته هو موضوع لتاريخه بدلاً من أن يكون فاعله. لقد كان موضوعاً للتعداد وموضوعاً للتكميم، فأصبح موضوعاً لعلم النفس وموضوعاً للذهنيات، فتحلل نفس الفعل الإنساني عبر القرون في ما يقوم به المؤرخ من أوصاف. وبإغراق الإنسان في عملية التكميم ثم إعادة الاعتبار إليه من خلال ذهنيته، يتم فسخ الخطاب التاريخي للإنسان الاجتماعي الذي في علاقته الفردية بالمجتمع يرمز إلى صيرورة السيطرة والتمفصل مع عالم الإنتاج.

هناك مشروع جديد حاول في الفترة الأخيرة تجاوز مصطلح

الذهنيات الغامض لتفضيل موضوع الحياة الخاصة التي تنتمي إلى ما كان يسمى قديماً تاريخ الحضارات أو تاريخ الطباع. إن ميشال وينوك (Michel Winock) هو الذي كان وراء تحقيق هذا المشروع. عرض الفكرة على فيليب أرياس وجورج دوبي: «اختار الثالوث أرياس - دوبي - وينوك المشرفين على كل جزء من الأجزاء الخمسة»[40]. يندرج هذا المبحث الجديد المتعلق بالحياة الخاصة ضمن حركة تفكك موضوع التاريخ والقطيعة الجذرية مع التاريخ الاجتماعي الذي كان يمارس في الستينيات. إنه يقدم على أنه آلية أكثر عملية من التاريخ الذهني في الالتصاق بالمناخ الاجتماعي بالتركيز على دائرة الحياة الخاصة المتحررة من السياسي. ويعرّف بول فاين، المشرف على الجزء الأول، أسس المشروع على أنه جاء نتيجة لفتور الشغف بالسياسي وكبحث عن أخلاقيات ما بعد - مسيحية.

هناك وسيلة جديدة أخرى للهروب من الواقع ولقطع كل صلة تربط البنى التحتية والفوقية هو اللجوء إلى عالم المتخيل. بما أن إعادة بناء الماضي أسطورية، فإن التخيلات لها نفس فاعلية المؤسسات والعلاقات الاجتماعية الحسية. وهكذا كان لجيلبير دوران (Gilbert Durand)، مؤسس مركز بحوث المتخيل في مدينة شامبيري (Chambéry) مشروعاً لتكوين تحليل الأساطير: «اعتقد مثل نيتشه (Nietzsche) أن أي ثقافة هي تداخل أساطير»[41]. إن المتخيل بالنسبة إلى جيلبير دوران هو بنية خفية ملازمة للإنسان. قد يكون هناك عدد محدود وضيق من المواضيع الأسطورية مرتكزة على قاعدة مشتركة

(40) P. Veyne, dans: *Magazine littéraire* (décembre 1985), pp. 106-109.

(41) Gilbert Durand, dans: *Le Monde* (15/6/1980).

بين جميع الناس، فالأساطير تبرز تارة إلى السطح وتارة أخرى يكبتها الإنسان في اللاوعي. بذلك تعود الصورة البروميثية لتضرب الغرب في القرن التاسع عشر. ما إن يصبح المتخيل شخصية تاريخية دائمة ببنيتها ووظيفتها، يمكن آنذاك أن يغطي كل الأبعاد الأخرى ويعطي لنفسه وظيفة المفتاح لما نعيشه في العصر الحالي. أعاد جيلبير دوران استعمال مفهوم كنا نعتقد أنه فقد مصداقيته بصورة نهائية، وهو مفهوم النموذج المثالي لكارل يونغ (Carl Jung) وذلك لاكتشاف بنى المتخيل وتكرره، فهو يعود إلى مقاربة تثبيتية للتاريخ مثالية ولا زمنية: «نكتشف في غالب الأحيان أن الأيديولوجيات... كثيراً ما تقود العالم أكثر من الأفعال الإيجابية»[42]. وفي روحية مختلفة بعض الشيء يفضل كذلك جاك لوغوف تاريخ المتخيل الذي تكمن أهميته بالنسبة إليه في امتداد الحقل التاريخي وفي إمكانية تعدد مواضيعه. فقد دخل المناخ والحيوانات كمواضيع تاريخية مع إيمانويل لوروا لادوري وروبير دولور (Robert Delors)، فلماذا إذاً يهرب المتخيل من المؤرخ؟

العامل الآخر الذي يمكن أن يساهم في نجاح هذا التاريخ ويؤمل من ورائه أن يستجيب مؤرخو المتخيل إلى طلب اجتماعي، هو ظهور مجتمع الصورة مع وسائل الإعلام. لقد بيّن بول ألفانديري (Paul Alphandéry) وألفونس دوبرون (Alphonse Dupront) إلى أي مدى يمكن أن تكون الصورة محركة للطاقة. إن المصدر الرئيسي للحافز للحروب الصليبية يكمن بالنسبة إليهما في قدرة القدس السماوية[43]. وهذا التاريخ المتخيل، النفس الجديد لتاريخ الذهنيات،

(42) Gilbert Durand, dans: J. Le Goff [et al.], *Histoire et imaginaire* (Paris: Poiesis, 1986), p. 143.

(43) Paul Alphandéry, *La Chrétienté et l'idée de croisade*, l'évolution de =

هو لباس فضفاض، يعطي للمؤرخ طموحات جديدة تتمثل في اقتطاع الوثائق الأدبية والإيقونوغرافية: «أخيراً سيكون هناك دخول أصيل للتاريخ في عالم الفن والأدب»[44]، فهذا الإبعاد للمقاربة التاريخية عن المركز يسمح لها إذاً من خلال خصائصها متعددة الوجوه بأن تغرف من ثراء التعبيرات المجاورة، ولكن فشل هذا التوسع يمكن أن يؤدي إلى التخلي عن أي مرجعية يغطيها عالم التصورات المتخيلة وحده. وهذا التخلص من الواقع لم يقم به مؤرخون مثل جورج دوبي أو جاك لوغوف اللذين يمثل المتخيل بالنسبة إليهما تعقيداً ممكناً لمعرفة مجتمع وسيطي يتحكمان في معطياته الاقتصادية. إنهما في حالة قطيعة مع المسار المهيمن لدى مؤرخين من نفس المدرسة والذين يريدون أن يعطوا لتاريخ الذهنيات والمتخيل دوراً يجعله يحل محل الاجتماعي. لقد بقي مفهوم الذهنية مفهوماً مبهماً، فهو ينفتح في الواقع على أبعاد مفتوحة ولكنه يتطلب بالمقابل معالجة دقيقة ومنهجية. إن خطر الكتابة التاريخية الحالية هو في الاكتفاء بوصف تغيرات التقديمات دون الاهتمام بتوضيح فيما ترتكز هذه التغيرات على الواقع التاريخي. يعتبر جاك لوغوف من هذه الناحية أن هذا الشكل في المقاربة لم يعد تاريخاً: «لا يمكننا القول إننا نكتب التاريخ عندما نكتفي بالتمثلات»[45]. بالنسبة إلى جاك لوغوف يأخذ تاريخ الذهنيات مكانه في شمولية تاريخية تغطي في الوقت نفسه الحضارة المادية والثقافة. ويتداخل المستويان ضمن إشكالية تقطع علاقتها بالميكانيكية المعهودة لنظرية انعكاس البنى الفوقية بالنسبة

---

l'humanité, synthèse collective, 2. sect.; no. 38, 2 vols., texte établi par Alphonse = Dupront (Paris: A. Michel, 1954-1959).

(44) J. Le Goff, dans: Le Goff [et al.], *Histoire et Imaginaire*, p. 13.

(45) J. Le Goff, «Lundis de l'histoire,» *France culture* (19 août 1978).

للبنى التحتية. وهو يعتبر أن العلاقات بين الاجتماعي والذهني هي علاقات أكثر تعقيداً من العلاقات التي يمكن أن توجد بين الاقتصادي والمجتمع ولكنها تظل مرتبطة بنفس البنية. من خلال تعريفه لدراسة الذهنيات[46]، فإن جاك لوغوف يدمجها ضمن الحركة التاريخية الشاملة، وذلك على عكس أغلب المؤرخين الحوليّاتيين الذين يرون في الذهنيات وسيلة لأخذ الحرية في التحرك، والانطلاق نحو متخيل آخر، موجِّهين نظرهم إلى تظاهرات اللاعقلاني ونحو هوامش جسم اجتماعي ينظر إليه في نقائصه. وبالعكس لا يرى جاك لوغوف في الذهني مهرباً ورحلة إلى آخر الليل وإنما وسيلة لإبلاج النهار، فهو يضع تاريخ الذهنيات في قلب الجسم الاجتماعي وليس في ملاجئ بعيدة عن أي عقلنة.

حدّد جورج دوبي أيضاً موقع تاريخ الذهنيات[47]، فهو لا يراه كوحدة مستقلة ولكن يعتبر أنه بالعكس لا يمكن أن نبحث في علاقة ما يسميه الماركسيون بنية تحتية وبنية فوقية. بالنسبة إلى جورج دوبي، إن للذهني زمنيته الخاصة، وهو يقسمها حسب الشبكة البروديلية إلى ثلاثة أنساق: **النسق السريع**، وهو نسق لحظة وظرف، ثم **تطور السلوكيات والمعتقدات**، المتقاسمة بين مجموعة اجتماعية محددة، وأخيراً عبر أمد طويل، **الأطر الذهنية** الأكثر مقاومة للتغيرات، والموروث الثقافي ونظام المعتقدات أو نموذج السلوكيات التي تتواصل ما بعد الحدث. اضطر جورج دوبي لتطوير تاريخ

(46) J. Le Goff, dans: Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires, 3 vols. (Paris: Gallimard, 1974), vol. 3.

(47) Georges Duby, «L'Histoire des mentalités,» dans: Charles Samaran, ed., *L'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la pléiade; 11 (Paris: Gallimard, 1961).

الذهنيات إلى صرف نظر المؤرخ عن رواية الأحداث الماضية والبحث عن حقيقة الآثار التي تركتها انطلاقاً من الأنساب والمناقب والروايات التاريخية ولكن ينطلق منها لدراسة تمثلات فترة لذاتها ولتاريخها في ذاتيتها. لم يعد المصدر حاجزاً بين واقع على المؤرخ إعادة بنائه ولكن أصبح موضوعاً للإيضاح: «أحاول كتابة تاريخ التكوينات اللفظية»[48] هكذا كتب جورج دوبي الذي عرّف المرحلة الضرورية الأولى لإرساء قاعدة لدراسة التمثلات التي ظلت مهملة لفترة طويلة أو ظلت معتبرة كانعكاس لا غير. وسرعان ما يضيف، معلناً تميزه عن تصور اسماني (Nominaliste): «إن هذه السيميائية الاجتماعية التي انطلقت، تحتاج إلى معرفة كيفية تمفصلها مع الظروف الاقتصادية»[49]. وهو لا يقوم بتوظيف تاريخ الذهنيات كوسيلة لتعويض البنى الاجتماعية. حيث عرف كيف يعطي وضعاً تاريخياً لعالم رمزي تخترقه الصراعات الداخلية للمجتمع الذي أنتجه. في كل مرة يقع إرجاع أنظمة التمثل إلى مكان المتكلم. يتحفظ جورج دوبي على اللوحات السلاسلية الكبرى التي تهتم بتطور سلوك أو مفهوم أو تمثل عبر الأمد الطويل: «إن المقاربة القائمة على التطور الزمني تبتعد عن الواقع في كثير من الأحيان»[50]. وعلى العكس، يكمن عمل المؤرخ في مواجهة الزمنيات المختلفة باستمرار وإبراز التفاوت وعدم التطابق بين الواقع الاجتماعي والتصور الأيديولوجي التي لا تتطور بصورة تزامنية، فلم ينظر إلى الذهنيات كموضوع إضافي يسمح لحقل المؤرخ بالتفكك إلى أجزاء متفرقة، فهي تجعل شروط إعادة بناء مجموعة ذات تناسق أكثر صعوبة وأكثر إثارةً للحماسة.

---

(48) Duby et Lardreau, *Dialogues*, pp. 136-137.

(49) المصدر نفسه.

(50) G. Duby, «Entretien avec l'auteur,» *Vendredi* (4 janvier 1980).

يضع ميشال فوفيل عمل المؤرخ أيضاً في مستوى التمفصل بين ما هو ممتد في الزمن وما هو متزامن. وأحسن وضعية من هذه الناحية هي تحليل مراحل الأزمة والتحولات الاجتماعية الجذرية والحركات البنيوية العميقة. إنه في هذه المراحل الوسطى يمكن التعرف بكل تأكيد على الانتقال من نموذج ذهني إلى آخر. وميشال فوفيل مع تخصصه في تاريخ الذهنيات لا يجذب رغم ذلك التاريخ في اتجاه الجمود وانعدام الحركية، فهو يميّز بين ما هو تاريخي وما هو أنثروبولوجي. وهو يعطي كذلك تعريفاً لتاريخ الذهنيات يجعل منه جزءاً من التاريخ الشمولي. إن مفهوم الذهنية الرائج اليوم يغطي بعداً أوسع من مفهوم الأيديولوجيا، فهو الانتقال من دراسة ما هو واع وما هو تشكل بوضوح لدى المؤسسات أو الأفراد إلى ما هو غير معبر عنه وإلى المواقف والتمثلات اللاواعية. على العالم الذهني أن يأخذ الأيديولوجي بعين الاعتبار مع تجاوزه في نفس الوقت، في حين أنه يقدم غالباً على أنه مادة مائعة بلا شكل وبدون تمفصل. تتطور زمنية الذهنيات بصورة عامة بنسق أكثر بطئاً من المجتمع كما رآها ماركس، فتم وصفها «بالسجون الطويلة الأمد» مثلما فعل ذلك فرناند بروديل أو «مقاومة» عند إرنست لابروس. ولكن ميشال فوفيل يؤكد من جهة أخرى على الطابع المجدد لأنظمة التمثلات: «بالعكس يمكن أن نتحدث عن إبداعية حقيقية لهذا المتخيل»[51]. إن التعقيد كبير في هذه المجموعة التي نريد إعادة بنائها حيث تكون الحركة مزدوجة تتمثل في الفعل ورد الفعل ما بين الواقع والمتخيل. نلاحظ في كل منعطف أساسي أزمة شاملة للمجتمع. وهذه هي الحال في نهاية القرن الثامن عشر، انقلب كل شيء من الاقتصادي

---

(51) Vovelle, *Idéologies et mentalités*, p. 93.

إلى السياسي ولكن أيضاً في مستوى المواقف أمام العائلة والدين والموت. إن الازدهار المأتمي في القرن الخامس عشر يعبر عن أزمة المجتمع الفيودالي وليس عودة ما هو مكبوت ولا كنتيجة لتأثير الطاعون الأسود. إن تغيرات ذهنيات المجتمع هي امتداد لتطور المجتمع وهي تارة تكون متعارضة معه وتارة متناسقة. هكذا تناول ميشال فوفيل تاريخ الذهنيات، فهو «يظل القمة الدقيقة للتاريخ الاجتماعي»[52]، وتتمثل وظيفة المؤرخ في «طرح التساؤل الأساسي بالنسبة إلينا، حول تراتبية الأفعال المتبادلة والأسباب والنتائج»[53].

لم تعد الذهنيات تتناول إذاً على أنها مكونات وصفية منفصلة عن الواقع ولكنها تمثل جزءاً لا يتجزأ من دراسة المجتمع، ففي هذا الاتجاه يمكن إثراء التاريخ مع الحفاظ على طموحه في الشمولية برفض تفكك حقله التحليلي.

(52) المصدر نفسه، ص 101.

(53) Vovelle, *La Mort et l'Occident: De 1300 à nos jours*, p. 23.

4 ـ ما وراء تاريخ الغولاغ

«التاريخ يصنع المؤرخ بقدر ما يصنع المؤرخ التاريخ»

ج. ميشليه

خطاب اجتماعي ـ ليبرالي

ربط كثير من مؤرخي التاريخ الجديد في الخمسينيات مصيرهم بمصير الحزب الشيوعي الفرنسي في زمن الحرب الباردة، فالعالم ينظر إلى نفسه بطريقة مانوية، هناك الخيّرون في الحضن السوفياتي والشريرون على يمينه و يساره. ونفهم خيبة أمل الذين كانوا يجعلون من الاتحاد السوفياتي مثلاً أعلى لهم من خلال ما يتسرب شيئاً فشيئاً من المعلومات إلى عهد سولجينيتسين مروراً بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، وأدت التدخلات المتعددة للجيش الأحمر الذي أصبح جيش قمع، دوراً في الكشف المعبر عن النظرة الخيالية لهؤلاء المؤرخين المنضوين في الحزب الشيوعي الفرنسي. كانت مجموعة المنضوين في الحزب الشيوعي الفرنسي الذين اجتازوا مباراة التبريز في التاريخ عام 1952، غنية بصورة خاصة بالشخصيات. نجد فيها كلود ميليان (Claude Mesliand) رئيس جامعة أميان (Amiens) في ما بعد، وبيار دايون (Pierre Deyon) رئيس جامعة ستراسبورغ في ما

بعد، وجان نيكولا (Jean Nicolas) وفرانسوا فوريه (François Furet) وروبير بونّو (Robert Bonnaud) وجاك شامباز (Jacques Chambaz) ودنيس ريشيه (Denis Richet) وإيمانويل لوروا لادوري. وعند الإعلان عن النتائج كان فرانسوا فوريه وجان شينو وهما يعدان الناجحين، يعلقان على ذلك في ساحة السوربون بالقول: «تركنا بعض المقاعد للبورجوازيين»[1]. في ذلك الوقت كانت علاقات أستاذ الثورة الفرنسية ألبير سوبول (Albert Soboul) سيئة مع الجناح المتعصب في الحزب الشيوعي الفرنسي والذي كان المؤرخ الشاب فرانسوا فوريه ناطقاً باسمه. مقدمات جدال بين الرجلين لم تنته أبداً رغم انتقال خط الاختلاف بينهما بصورة جدية. ومن بين مؤرخي الحزب الشيوعي الفرنسي يمكن أن نضيف ألان بوزنسون (Alain Besançon) وجاك أوزوف (Jacques Ozouf)... وكثير منهم وجد على منابر مدرسة **الحوليات** المسموعة كثيراً، واضعين قدرتهم على التنظيم لفائدة غزوات المدرسة وليس لفائدة الحزب.

انخرط فرانسوا فوريه، المدير السابق لمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية، في الحزب الشيوعي عام 1947. تبقى هذه الفترة المتميزة بالنضال، الأفق الذي لا يمكن تجاوزه لتأسيس خطابه التاريخي عبر ممارسته الستالينية في تلك الفترة وما ترتب عنها من حقد. وقد أكد مؤخراً مرة أخرى على أهمية تلك الفترة وما تمثل له ولرفاقه: «عندما أحاول أن أفهم بعد مضي خمس وعشرين سنة، ماذا بقي مشتركاً بيننا، بعيداً عن الذكريات والعواطف، أتساءل إذا كانت مراهقتنا المتأخرة في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي لم تؤدّ

(1) Robert Bonnaud, «Entretien avec l'auteur,» 16 janvier 1986.

دوراً أكبر من نشاطنا كمؤرخين في إطار مدرسة الدراسات العليا»[2].
لقد لفحته هذه التجربة وعلمته المفاتن الخفية لليبرالية إلى درجة أنه دخل بعد أيار/ مايو 1968 وزارة إدغار فور: «أشعر بأنني قريب جداً من ممثلي الفكر الليبرالي المتنورين»[3]. لا يوجد منفذ آخر إلا السلطة القائمة والنظام الموجود وقبول الوضع السائد: «أريد أن أقول إنه ليس هناك صراع في القرن العشرين لا يمكن أن يكون مشبوهاً»[4]. اعتنق فرانسوا فوريه مؤخراً الآرونية (Aronisme) وهو يشرف منذ عام 1984 على معهد جديد أنشأته مدرسة الدراسات العليا: معهد ريمون آرون.

أصبح رفيقه في النضال إيمانويل لوروا لادوري معشوق جمهور المؤرخين، الذي لا بد أنه يعتمد خطاباً ممثلاً للتوجهات الحالية لمدرسة **الحوليات**، فهذا الرحالة داخل الحقل التاريخي أتى من أرض النورمان (Normand)، ابن وزير الزراعة والتموين في حكومة فيشي (Vichy) عام 1942. كانت طفولته تهدهدها التراتيل الدينية إلى درجة أن إيمانويل كان يحلم بأن يكون راهباً. ولكن عندما وصل إلى باريس وهو شاب متخرج من دار المعلمين العليا، انضم للحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1949 وبقي فيه ثماني سنوات:

«كنت خارجاً من قوقعتي كمناصر للملكية. ولكنني أصبحت على الفور ستالينياً صلباً»[5]. بفضل الصلابة الأيديولوجية كان إيمانويل لوروا لادوري يبتلع كل الممارسات الستالينية بدون عسر

---

(2) François Furet, dans: *Le Débat* (décembre 1981), pp. 113-114.

(3) François Furet, dans: *Le Nouvel observateur* (20 novembre 1978).

(4) المصدر نفسه.

(5) Emmanuel Le Roy Ladurie, dans: *Le Débat* (novembre 1981).

هضم من أجل التطهر من أخطاء والده في فيشي. في عام 1956 دق المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي الناقوس لزمن تطهره، وكان قد كسب التطهر لوالده، فأعاد بطاقته الحزبية بعد المؤتمر بعام واحد. إن الحزب الشيوعي الفرنسي يؤدي إلى كل شيء شرط أن تخرج منه. ولكن الفترة كانت عصيبة في الخمسينيات، فقد وجب شن حملة ضارية ضد «تيتو ـ المخبر» فساهم إيمانويل لوروا لادوري بكل جوارحه بصفته رئيس تحرير الصحيفة الطلابية الشيوعية **وضوح** (*Clarté*). فيما يتعلق بقضية سلانسكي (Slansky) كان يقول[6] بأنه عليه أن يبين كيف يجب على الولد أن يشي بوالده إذا تعرضت مصلحة الحزب للأذى. وصل هذا الهذيان الستاليني إلى أن طلب من لويس ألتوسر، رفيق خليته، الانفصال عن زوجته هيلين (Hélène) التي اتهمتها قيادة الحزب بالهرطقة. وبرغم الود الذي كان يكنه لشارل تيون (Charles Tillon) إلا أن لادوري تركه يسقط في فخ المرتدين من الطبقة العاملة دون أن ينبس ببنت شفة. كيف يكون ذلك ممكناً؟ لقد فسر ذلك فيما بعد: «كنت أعتقد بوجود الجنة»[7]. وكانت هذه العقيدة ترشده، ولكن هناك أيضاً حياته الشخصية كلها، المتجذرة في هذه العائلة بالمعنى الواسع: «في الحزب الشيوعي التقيت أخيراً، الآخر والرفيق والعامل. كان ذلك وهماً بلا شك ولكنه ليس كاملاً: ألا تعود علاقتي مع بعض أعز أصدقائي الحاليين، فرانسوا فوريه ودنيس ريشيه وآلان بوزنسون وغيرهم إلى تلك الفترة؟ وأنا مدين للحزب أيضاً بزواجي وبعائلتي الحالية...»[8]. كيف لا يمكن بعد هذا أن يلوي العصا في الاتجاه الآخر؟ كان الإغراء كبيراً

---

(6) المصدر نفسه.

(7) المصدر نفسه.

(8) المصدر نفسه.

آنذاك، وكما يقال في الحزب الشيوعي الفرنسي، ألقوا الطفل في مياه الاستحمام. وهو ما فعله إيمانويل لوروا لادوري بحماس. لماذا القطيعة؟ «كان أبي يمتلك 120 بقرة كنت أحبها كثيراً، قرأت مجلة في الخمسينيات قيل فيها أن الروس يمتلكون أبقاراً أقل مما كانوا يملكون عام 1913. واعتبرتهم تعساء مع هذا العدد الضئيل من الأبقار»[9]. اتخذ موقفاً واضحاً ضد البرنامج المشترك لليسار عام 1976، وبالمقابل كان ضعيفاً أمام النظام الجيسكاردي: «جيسكار هو أولاً رجل ليبرالي وتوكفيلي (Tocquevillien)».

وهو واع بالتأكيد، لعزلة وضعف مواقفه اللبرالية في القرن العشرين قرن التعصب... بين اليمين التقليدي الذي يريد أن يكون وطنياً وقوياً والماركسيين من كل صنف»[10]. انضم عام 1978 في منظمة جديدة يرأسها أوجين إيونسكو (Eugène Ionesco) وهي لجنة المثقفين من أجل أوروبا الحريات، التي تريد أن تتجند أمام أزمة القيم الغربية، لمعارضة أية محاولة لثورة شاملة لمجتمعنا. وهي تقدم الماركسية كأنها محشر لكتائب الموت، فهي إذاً العدو رقم 1 الذي يجب القضاء عليه. أصبح عندها الضامن للنظام، وكتابته أصبحت واقياً من الانزلاق بعدما كانت تعبيراً عن الجنون الستاليني. وقد اتكأ على فيلسوف أصبح موضة للتنديد بخطر الكليانية السياسية: «طرح كارل بوبّر (Karl Popper) المسألة جيداً: الثورات لا يمكن التحكم فيها لأنها تطلق عمليات غير منتظرة وتتناول كل المجتمع وتأخذ طابعاً كليانياً لا مفر منه»[11]. وانتهى به الأمر أن

---

(9) Emmanuel Le Roy Ladurie, dans: *Apostrophes*, 12/3/1982.

(10) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Nouvel observateur* (23 mai 1977).

(11) Emmanuel Le Roy Ladurie, «Entretien avec l'auteur,» *Maintenant* (août 1979).

غادر Le Nouvel observateur إلى الـ Express.

إن الخمسينيات سنوات حاسمة لتحديد جيل لا يعترف اليوم بما تملقه بالأمس في حماس مطلق. لقد أصبح رب الأمس شيطان اليوم. يكفي أن نقرأ آلان بوزنسون، رفيق آخر من نفس الفترة، عالم بشؤون الاتحاد السوفياتي بعد أن كان محباً للسوفيات، لنفهم الدوافع المشتركة لموقفهما الجديد. كانت سن هذا الأخير عام 1950 ثمانية عشر عاماً: «أنتمي إلى جيل كان شديد التأثر بالفكر الشيوعي»[12]. واليوم يعد رفضه للاتحاد السوفياتي أكثر من متطرف: «يبدو لي النظام السوفياتي على نقيض ما هي الحضارة. .. أن نصف الاتحاد السوفياتي بأنه بربري فهذا أمر غير عادل ليس له وإنما للبرابرة»[13].

التاريخ يتلعثم. إن هذه الظاهرة للانتماء الزاهد، كمقدمة لفترة تطهرية، قد تكررت بالنسبة إلى جزء من جيل أيار/مايو 1968، خاصة من بين أولئك الذين انضموا إلى الماوية. إذ خيّب القائد الكبير ظنهم، وأمام ما أصابهم من الغم، خلقوا فلسفة جديدة مبنية حول «الملاك الزاهد». اعتبرت هذه الفلسفة أن الثورة مستحيلة أو ذات طبيعة شمولية. غي لاردرو (Guy Lardreau) وكريستيان جامبيه (Christian Jambet) وبرنارد هنري ليفي (Bernard-Henri Lévy) يطاردون في مسار تراجعي، نوعاً من القوارض المؤذية في حقول الفلسفة، والتي تحمل اسمماركس وهيغل وروسو أو أفلاطون. نظف جيداً ولكن يبقى دائماً بعض الشيء. إن انحراف البعض يؤدي إلى انحراف الآخرين في اتجاه غير متوقع يترك مرارة من جراء الخيبات تخيم على البحوث التي هي بصدد الإنجاز وعلى النشاط الفكري للمؤرخين. لم يعد الوقت

(12) A. Besançon, dans: *L'Express* (1978).

(13) A. Besançon, dans: *Le Quotidien de Paris* (18 décembre 1981).

صالحاً للالتزام السياسي وعندما بعث بيار نورا المسؤول عن المنشورات التاريخية في دار غاليمار للنشر، مجلة **نقاش** (*Débat*) عام 1980، حدد طبيعة المشروع: «مجلة **نقاش** هي العكس تماما لمجلة **الأزمنة الحديثة** (*Les Temps modernes*) وفلسفتها عن الالتزام»[14]. ترعب الإيدولوجيا كل الذين جربوا استعمالها كنفي للواقع باسم مصالح عليا. إن نظر هؤلاء المؤرخين ينشط انطلاقاً من موشور المعتقلات المشوّه فهو متأثر بما بعد بوزنام (Poznam) وبودابست والمؤتمر العشرين وبراغ وانقلاب جاروزلسكي (Jaruzelski) في حين أنهم يزعمون أنهم يعتمدون خطاباً موضوعياً وعلمياً بعيداً عن أي شكل من أشكال الالتزام من أجل ازدهار العلوم التاريخية فقط. فعلاً تتطلب الشمولية الستالينية من المؤرخ محاولة للشرح ولكن لا نشهد هذا الجهد الضروري وإنما على انطواء خائف على الماضي لاتقاء المستقبل. إن الاختيارات التي تقع داخل الفترات والإضاءات والنسق المختلف لأي لحظة، كل ذلك تحدده في كثير من الأحيان المواقف السياسية لكل مدرسة تاريخية. يفسر بيار فيدال ناكيه[15] أسباب اختياره بلاد الإغريق القديمة كحقل تخصص، دفعه تطلعه الديمقراطي بصورة طبيعية نحو دراسة تكون المدن. كان كلود نيكوليه (Claude Nicolet)، وهو يستعد للانضمام إلى الحزب الراديكالي، مدفوعاً أكثر نحو دراسة روما القديمة حيث كانت السياسة السياسوية أكثر تدرجاً لإن لم تكن أكثر شبهاً يالمراتب الكهنوتية. في القرن التاسع عشر اهتم غيزو (Guizot) وتييري (Thierry) أو تييه (Thiers) بالثورة الفرنسية لتبرير ثورة عام 1830 والليبرالية والدور المجدد والرسالة العالمية للبورجوازية الفرنسية، فتوقفوا إذاً عند حدود

(14) Pierre Nora, dans: *Le Monde*, 2/5/1980.

(15) Pierre Vidal-Naquet, dans: *Le Nouvel observateur* (18 avril 1977).

عامي 1789 ـ 1790. في حين أن ميشليه أو لويس بلان من مناصري الجمهورية الاجتماعية، أعطوا قيمة في تاريخهما للثورة الفرنسية للعام 1792. وكما كتب جورج دوبي: «نكتشف أن كل جيل من المؤرخين قام باختيار»[16]. ذهب جيل **الحوليّات** الشاب، وريث خيبة أمل أساتذته، بعيداً أكثر لتزيين كليو بدور الفتاة الطاهرة لخدمة النظام القائم. هاجم إيمانويل طود (Emmanuel Todd) تلميذ إيمانويل لوروا لادوري وعضو الشباب الشيوعي عام 1968 «مرحلة المراهقة»[17]، وهاجم أي شكل من أشكال الالتزام، وهو يعني الالتزام اليساري. هاجم «الخمول العقائدي»[18] للحزب الاشتراكي لاستعماله اللغة الماركسية ـ اللينينية واعتبر انضمامه للحزب الشيوعي كأنه «تعبير نفسي مرضي كنوع من ازدواج الشخصية». وبالنسبة إلى لوران تيس (Laurent Theis) من نفس الجيل، التاريخ هو قيمة كملجأ في هذا العالم الذي لا يوجد فيه لا قانون ولا عقيدة. فهو يشعر باليتم أمام فقدان الأيام الزاهية للفترة الجميلة التي كان فيها «أسلافنا سعداء على ضوء شموعهم وفي أحذيتهم الخشبية...»[19]. فهو يتمنى لمستقبلنا أن يعود إلى تلك الأزمنة الغابرة: «ما يهمني: هو المجتمع الذي تكون فيه التقاليد والقواعد هي التي تتحكم في كل شيء»[20]. إن هذا الحنين إلى الماضي هو من الخصائص التي توحد عدداً من البحوث التاريخية

---

(16) Georges Duby et Guy Lardreau, *Dialogues* (Paris: Flammarion, 1980), p. 40.

(17) Emmanuel Todd, *Radioscopie*, France-inter, 12 novembre 1976.

(18) Emmanuel Todd, *Le Fou et le prolétaire*, libertés 2000 (Paris: R. Laffont, 1979).

(19) L. Theis, *Radioscopie*, France-inter, 11 avril 1979.

(20) المصدر نفسه.

الحالية. إنه باسم استرجاع الماضي وبإعطاء قيمة لأزمنة الأسلاف، استطاع الشيوعيون القدامى الملقحون أن يلتقوا مع مؤرخين محافظين في نفس الممارسة التاريخية ومنتسبين، رغم التزاماتهم المختلفة، إلى نفس المدرسة وإلى نفس المنهجية.

وجد ناجون من الستالينية في منعطف الطريق، المؤرخ الأوفر إنتاجاً من بين مجايليه: بيار شونو، رسول البروتستانتية، كاساندر (Cassandre) العصور الحديثة، يحذر إنسانيتنا المسيحية. إن القلعة الغربية كانت في الماضي حصينة ولكن الخطر يتهددها. إن الصليبية بيننا. الحذر من تحويل الغرب إلى صحراء تغزوها قريباً جحافل العالم الثالث السمراء. وهو يأمل في أن يقينا من الكوارث الكبرى قبل عام 2000. أب لستة اطفال يحثنا على تطوير نسبة ولادات السكان البيض، وهو يرفض الإجهاض باشمئزاز والذي يعدّ في نظر هذا المناضل من أجل «دعه يعيش» من الجرائم. إن بقاء الجنس في خطر: «نحن بصدد تكوين مخزن للبارود، سنتسبب في الحروب الأهلية بصناعة رجال في العالم الثالث وإرسالهم للعمل في منطقة الرور (Ruhr) أو في باريس. كمؤرخ مهمته إنارة الحاضر أقول لكم: «إنه جنون»[21]. تمتاز مواقف بيار شونو الأيديولوجية بالشفافية. يقول بعد تنديده بالمستشفيات ـ المجهضات: «لا نريد نحن آباء الثلاثة والأربعة أطفال أن نكون ماسحي أحذية وعبيداً وكسكان أفريقيا في نظر البيض (bougnoule) وكنّاسي الشوارع ولا خدماً للغير»[22]. يريد أن يبين تفوّق حضارتنا التي تسمى بالمسيحية التقليدية، حضارة «العالم الملآن»، تحت غطاء نظرة المؤرخ ذات المستوى العلمي

(21) Pierre Chaunu, discours à l'occasion du prix de la fondation Louise Weiss, décerné le 17 janvier 1977 pour son livre, *La Peste blanche*.

(22) Pierre Chaunu, *France-inter* (14 décembre 1978).

الرفيع[23]. كان للمسيحيين البيض الفضل في جعل الزهد اجتماعياً والتحكم في الغرائز الجنسية، واستطاعوا أن يجعلوا التعفف في مستوى قاعدة عامة ثمنها المجهود الإرادي المحمود. تترتب على هذا النموذج خاصيتان بارزتان في الفترة الحديثة: تأخر سن الزواج (25 ـ 28 سنة) وتثبيت العائلة الأمومية الضيقة. سمحت ممارسة التعفف بتفتح الذكاء الغربي: «شجعت روح العداء والتطور الدماغي، وأحدثت توترات إبداعية. العنف والإبداع متصلان صلة وثيقة»[24]. إذاً استطاع الغرب بفضل قمع غرائزه الجنسية أن يتمكن من دور قيادة الشعوب التي فرضت عليه باسم الرب والإنجيل ورسالته الكونية «الوحيدة». يمثل بيار شونو صورة البابا بين إخوانه في **الحوليّات**. محافظ مسيحي آخر، وهو كاثوليكي، تم تتويجه مؤخراً في نظام **الحوليّات**، إنه المختص في تاريخ الذهنيات، فيليب أرياس. ينحدر من عائلة ملكية، وبقي ملكياً ومناضلاً في حركة العمل الفرنسي منذ أن كان تلميذاً ثانوياً، كانت له الشجاعة بعدم إخفاء ميوله المحافظة لمحاوره ميشال وينوك: «أنا رجل يميني، رجعي حقيقي... أنا مع التواصل. هذا هو الأساسي»[25]. وجد فيليب أرياس نفسه في **الحوليّات** كالسمكة في الماء بما أن المواضيع التي كانت رائجة تمثل صدى لقلبه المحافظ. إلا أنه كان لفترة طويلة منسيّاً، رغم مدحه للخطاب الحوليّاتي الذي كتبه عام 1954[26]. منذ 1946 يروي لماذا

---

(23) Pierre Chaunu, *Histoire, science sociale: La Durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne* (Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1974).

(24) المصدر نفسه.

(25) Philippe Ariès, *Un Historien du dimanche*, avec la collaboration de Michel Winock (Paris: Editions du Seuil, 1980), p. 202.

(26) Philippe Ariès, *Le Temps de l'histoire*, l'univers historique, préface de Roger Chartier (Paris: Editions du Seuil, 1986).

لم يقتنع بالتاريخ السياسي الضيق والخرافي على طريقة بنفيل (Bainville) الذي كان تاريخ طفولته وهو في المهد. يعارض جدول الوقائع التاريخية للمذكرات التي تبنى بتاريخ يستعيد روح الإلفة الاجتماعية والتضامن البسيط في إطار حرص مزدوج، علمي وروحاني: «الخلق التاريخي هو ظاهرة ذات طبيعة دينية»[27]. اكتشف آنذاك الخطاب الحوليّاتي الحامل لتاريخ متحرر من الدولة بكثير من الحماسة والذي يتقصى الحياة اليومية الحسية المندمجة في فضاءات خاصة. ومنذ تلك اللحظة أصبح يستطيع الاندماج، ولو أن ذلك تم في فترة متأخرة، في تاريخ حولياتي يسمح له «بالتوفيق بين وفائه العائلي والسياسي واهتماماته العلمية»[28]. وجدت عبارة حنين إلى الماضي، التي كانت تطلق سلباً على كل ما هو متحجر، دلالة ضمنية إيجابية. تلتقي العودة إلى ألوان المجتمع ما قبل الصناعي لما كان يدافع عنه كعالم يجب حمايته من أية عقائد تقدمية وليبرالية أو ماركسية. يتوافق التمجيد الحالي للماضي وللجماعة التقليدية للتضامن القديم، وممارسته للتاريخ كإثنولوجيا الماضي. نفهم عند قراءة إيمانويل لوروا لادوري وفرانسوا فوريه وغيرهما، كيف التقت في النهاية هذه التواريخ ذات المسالك المختلفة تحت راية واحدة. يعطي إيمانويل لوروا لادوري، المنبهر بتواصل البنية العائلية الزراعية والمنزلية والتي عرفت كيف تستمر إلى ما بعد البيت التقليدي القديم، نماذجَ من الماضي لإعادة إنتاجها لتعذر إرساء أسس مجتمع الصيرورة: «أعلن اللون المطلوب: أنا من محبي الريف (Rouergophile). تعجبني الطريقة التي بواسطتها استطاع هذا البلد الصغير في ظرف قرن ونصف من الزمن أن يتخلص من بؤسه ومن

---

(27) المصدر نفسه.

(28) Roger Chartier, «Préface,» dans: Ibid., pp. 18-19.

تخلفه... فلماذا لا نقلب «الأوتوبيا» (utopie)؟ دون أن نؤمن بها كثيراً، بالطبع. أتمنى لكوكبنا الذي هو في أغلبيته من الفلاحين ومن الفقراء، أوتوبيا مضادة مستقبلاً، مخضرة بقدر ما هي غير واقعية. أضع أمنية للقرن الواحد والعشرين، أن تكون الإنسانية جمعاء فيه مثلما كانت منطقة الآفيرون (Aveyron) الشاملة في صورتها عام 1925»[29].

هذان التياران الأيديولوجيان، الواحد يتكون من مرتدين عن الستالينية والآخر محافظ يحن إلى الماضي، قد وجدا مكوناً آخر يشمل مسيحيي اليسار أو المثقفين الذين دخلوا الالتزام السياسي إبان حرب الجزائر: مثل جاك جوليار وبيار نورا وبيار فيدال ناكيه أو ميشال فينوك. كان هذا التيار حساساً لمواضيع الإدارة الذاتية والخطاب المعارض للدولة والدفاع عن المجتمع المدني والتجريبية الاجتماعية. هذه المجموعة التي تلتقط كل شيء وتمثلها **الحوليّات** التي تصب فيها كل المسالك في اتجاه خطاب إجماعي، قد سمحت ليس باللقاءات فقط، وإنما بعملية توفيقية حقيقية بين مختلف التوجهات الأيديولوجية لتجد مبدءاً مشتركاً في الخطاب الحوليّاتي، فنتج عن ذلك فقدان الجدلية بين الماضي والحاضر والمستقبل التي تعد ركيزة الخطاب التاريخي، فقد تبنى جاك جولّيار هذا التخلي بوضوح: «بما أن عام 1968 حررنا من الطوباوية رغماً عنها، أي من المستقبل في حين أن عام 1981 حررنا من العقيدة، أي من الماضي يمكننا اليوم أن نحاول الحياة في الحاضر»[30]. إنه التحليق في

---

(29) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien,* bibliothèque des histoires, 2 vols. (Paris: Gallimard, [1973-1978]), vol. 2, pp. 335-336.

(30) Jacques Julliard, *La Faute à Rousseau: Essai sur les conséquences historiques de l'idée de souveraineté populaire* (Paris: Editions du Seuil, 1985), p. 247.

اللاجاذبية في عصر الفراغ وعلى جاك جوليار أن يبدأ عملية تطهير ثوريي الأمس بالهجوم مؤخراً على واحد من رموز الثورة الفرنسية. جان جاك روسو كمصدر لبقايا القديم وانحرافات الثورة ثم أفكار اليسار في القرنين التاسع عشر والعشرين. إنه يعيب خاصة الاستعمال الفعلي لأعمال روسّو لأنه حسب رأيه هناك تشويش في الأذهان. روسّو ثوري؟ عودوا إلى رشدكم، ما من محافظ أسوأ منه، يبني مجتمعاً مؤسساً على العقد الاجتماعي؟ إنها مجرد حكاية تروى للأطفال ومثل فلسفي في أحسن الحالات. السلطة الشعبية؟ مارد خرج من كهفه، مفهوم غريب، غير لائق... «أعلن أن الدكتور روسّو غير كفؤ تماماً»[31]. يستطيع المؤرخ عوضاً عن بناء نماذج نظرية مخيبة للظن، أن يبحث في ماضينا ويهيئ لنا من أحسن الوصفات التي كانت لأسلافنا. تتغير وظيفة التاريخ، فمن علم التحولات والتغيرات يصبح اختصاصاً في ركود الشعوب الثابتة، ودرس الأشياء لتحذرنا من أوهام التغيير بتغذيتنا بالحنين الغامض إلى ما افتقدناه. يعترف فرانسوا فوريه بالطبيعة الرجعية لمثل هذا التاريخ ويتحملها: «إن هذا النوع من التاريخ (تاريخ الأزمنة الطويلة والإنسان العادي) في المضمون، هو تاريخ أعترف بأن له توجهاً محافظاً. وما أن نبدأ بالمقارنة، ليس بين الأحداث وإنما بين عناصر هي دائماً نفسها عبر فترة زمنية، من المؤكد أن نعثر على افتراض، وبالتحديد على حالات ركود. يبدو لي أن هذا النوع من التاريخ هو بمثابة ترياق مضاد لتاريخ يمكن أن نسميه تاريخ القرن التاسع عشر المانشستري - الماركسي»[32]. بعد صد الأفق الثوري أو محاولة استعادة السلطة، لم

---

(31) المصدر نفسه.

(32) F. Furet, dans: *L'Historien entre l'ethnologue et le futurologue: Actes du*
= *séminaire international organisé sous les auspices de l'association internationale pour*

يبق إلا أن نحافظ على تاريخ ثابت. يوشك التاريخ أن يفقد في ذلك هويته رغم كثرة البحوث الحالية. وهو يميل إلى تحلل الحقل التاريخي في مختلف العلوم الاجتماعية الأخرى. يحل الشك محل بناء مستقبل الإنسانية انطلاقاً من ماضي التغير الإنساني باسم فقدان المعنى. ومن هنا كان انحسار رواية الحدث الذي انهار وضعه بما أنه لم يعد يندرج ضمن إشكالية معقولة لما قبل وما بعد في سلّم الزمن. إن مجتمعاتنا التي كانت تتكون انطلاقاً من وعي تاريخي تستيقظ كتلة جامدة ومادة «باردة» على مثال المجتمعات البدائية التي درسها كلود ليفي ستراوس. حلل ريجيس دوبريه (Régis Debray) هذه الظاهرة على أنها ثأر الطبيعة في القرن العشرين من الإرادية التاريخية (المذهب الإرادي) التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. كانت الطبيعة قد اعتبرت كحاجز يجب تجاوزه، فهي تبدو لنا اليوم كمثل أعلى منظّم أو كجنة يجب استرجاعها: «تعاقبت القرون، الواحد تلو الآخر، القديم العائد والجديد، والحنيني والمترقب»[33]. تضيع عند ذلك أفعال الناس وحركاتهم في عالم بلا معنى. كل شيء أعيد إلى نفس المستوى، فلم تعد هناك إنقطاعات شاملة من مجتمع إلى آخر وذلك يسمح بالمقابلة بين وقائع من فترات مختلفة في مظاهرها المتكررة. هذا هو المنوال الذي اعتمده إيمانويل لوروا لادوري لتحليل الأزمة في مجتمعنا الغربي[34]، فالفترة التي تمتد ما بين 1720 و1973 تبدو إجمالاً فترة نمو ونعرف اليوم أزمة نقص في المواد من

---

la liberté de la culture, la fondation Giovanni Agnelli et la fondation Giorgio Cini, Venise, 2-8 avril 1971, le savoir historique; 4 (Paris; La Haye: Mouton, 1972). =

(33) Régis Debray, *Critique de la raison politique*, bibliothèque des idées (Paris: Gallimard, 1981).

(34) Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, vol. 2.

نوع أزمات الفترة الممتدة من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر.

كما لو أن شيئاً لم يتغير في عالمنا. إنها أزمة من نفس النوع تتميز بالنقص وقلة العرض ولكن ليس نقص الحبوب وإنما نقص النفط. تأثرت الديموغرافيا في حين أن إنتاج النفط الخام انخفض في القرن العشرين مثلما هو الشأن في القرن السابع عشر، فإذا تحققت تكهنات نادي روما «فستكون العودة إلى النظام القديم». لم يعد التاريخ يتلعثم، وإنما يتكرر، فيجب أن يكون رد الفعل على الأزمة مثلما كان رد الفعل في الماضي. يجب أن يكون رد فعلنا كرد فعل مجتمع النظام القديم. يجب الصبر ومجابهة التقشف والندرة لحماية التواصل وتهيئة المستقبل بالبحث عن طريقة لتعويض الصعوبات الاقتصادية بالابداع الثقافي. هكذا تجاوز الغرب أزمات القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر، لذلك لا مفر من تكرار وصفات الماضي. ويتبع هذا التخلي عن أية علاقة جدلية بين الحاضر والماضي والمستقبل، الهجوم الذي تتعرض له الماركسية من جميع النواحي باعتبارها نظرية قمعية ومصدراً لكل مآسينا. ما فتئت تتزايد حدة التنديد بالعقيدة الماركسية المطبوعة برؤية يهودية ـ مسيحية تجند الناس من أجل خلق جنة مزعومة على الأرض. يبدو تاريخ الغولاغ (المعتقل في منفى سيبيريا) في الفكر الماركسي كما لو أن التاريخ ينحصر في إنتاج الأفكار. فلا تكون الممارسة سوى مرآة، ومجرد نمو خارج النظرية فعلى هذا النسق يمكن أن تظل المحاكم منعقدة إلى ما لا نهاية. وعلى يسوع أن يتحمل مسؤولية إنشاء محاكم التفتيش وعلى روسّو مسؤولية الإرهاب الثوري ونيتشه مسؤولية فظاعات هتلر وسوريل مسؤولية الفاشية الإيطالية وماركس مسؤولية الرعب الستاليني. يمكن أن نستغرب أمام حصر التاريخ في أنواع الخطاب، من رؤية جانب هام من المؤرخين يردد نفس أغنية

المفقودين التي يرددها الفلاسفة الجدد. إن تنوع مدرسة **الحوليّات** وعدم تناسقها لا تسمح بتعميمات مبالغ فيها. هناك الذين يدحضون الماركسية وهناك من يعتبرون أبحاثهم امتداداً لها.

كتب إيمانويل تود ليخرج الماركسية من الأفق الفكري، فجاء كتابه **المجنون والبروليتاري** كمحاولة «لإعادة تفسير غير ماركسية للتاريخ الأوروبي أي كتاريخ مضاد»، فقد اعتبر الماركسية كمظهر من مظاهر المرض النفسي لمجتمعنا، كأنه إغراء مرضي ونوع من الكليانية الحديثة التي ترتكز على الأرضية التي نشأت فيها الأفلاطونية أوالبروتستانتية. هناك من جهة أخرى بالنسبة على إيمانويل تود، علاقات ذات دلالة في ما يتعلق بالطابع المرضي للماركسية بما أننا نلاحظ انتشارها في المجتمعات التي تتزايد فيها نسبة الانتحار والإدمان على الكحول والالتباس الذهني والتي تمس البورجوازية الصغيرة بصورة خاصة. تنتمي الماركسية بالنسبة إلى إيمانويل تود إلى مجال علم النفس العلاجي، وليس هناك داع لتيأس بيّانكور (Billancourt) (ضاحية في غرب باريس تحتوي على عدة معامل، وبالتالي يؤمها العمال، خاصة المنتسبون للحزب الشيوعي) فذلك قابل للعلاج. بالنسبة إلى فرانسوا فوريه: «لا يمكن لماركس أن يهرب اليوم من إرثه، فتأثير الصدمة قوي بما أنه ظل مؤجلاً لفترة طويلة»[35]. يصطبغ موقف إيمانويل لوروا لادوري من الماركسية بسخرية لاذعة. فهو لا يرى مانعاً من أن يتمتع بعض المؤرخين الماركسيين المنتمين إلى **الحوليّات**، مثل غي بوا أو ميشال فوفيل، «بقدر» صغير اعتادوه من الماركسية[36]، ولا يجب الخلط بين

---

(35) F. Furet, dans: *Le Nouvel observateur* (4 juillet 1977).

(36) Emmanuel Le Roy Ladurie, dans: *Le Monde* (11/3/1977).

المخدرات القوية والمخدرات الخفيفة. وحده التصعيد هو الذي يؤدي إلى الغولاغ. لفافة من الماركسية لم تسبب لأحد أذى لا شفاء منه، وبالنسبة إلى بيار نورا عاشت الماركسية مثل الفكرة الثورية، ومآلها الانطفاء.

لم يشمل هذا الزيغ الأيديولوجي كل مؤرخي مدرسة **الحوليّات**، فقد وضع عدد لا يستهان به من هؤلاء بحوثهم في تواصل مباشر أو غير مباشر مع المادية التاريخية. اكتشف جورج دوبي الماركسية عندما درس الفلسفة عام 1937. كانت إضافة هامة بالنسبة إليه وما فتئ يقارن أعماله بها. كما أثرت فيه كذلك قراءة لويس ألتوسر وإتيان باليبار (Etienne Balibar). ستظل لماركسية جورج دوبي قيمة استكشافية، ولن تكون أبداً منطلقاً للالتزام السياسي، وهو ما مكّنه من الإفلات من تحريفات الضغط الستاليني وبعد ذلك من التقلبات الحالية: «كان تأثير الماركسية عميقاً في تطوري. وأنا أرد بعنف كبير على أولئك الذين يزعمون حسب موضة باريسية أن الماركسية لم تكن لها مكانة لدى المؤرخين الذين هم من جيلي، فقد كانت لها قيمة كبيرة بالنسبة إلي وأتمسك بأن يقال ذلك»[37]. غي بوا وهو مؤرخ آخر مختص بالعصر الوسيط يواصل كذلك النهج الماركسي في مقاربة شاملة للتاريخ. أما جاك لوغوف الذي يمكن وصفه بالمتمركس، ولو أنه رغم اعترافه بماركس «كرائد من رواد تاريخ جديد»[38] فهو يرفض منحه أولية «فظة» للاقتصادي الذي يضع الذهنيات في البنى الفوقية التي تحددها البنى التحتية، فهو عندما يتحدث عن الماركسية الرسمية، يحيل إلى استخدامها من قبل

---

(37) G. Duby, «Entretien avec l'auteur,» *Vendredi* (janvier 1980).

(38) Jacques Le Goff, Roger Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire,* les encyclopédies du savoir moderne (Paris: Retz- C. E. P. L., 1978), p. 236.

الحركة الستالينية، ولا يسعنا في هذا المستوى إلا أن نشاطره تنبيهاته. وحتى حدود الخمسينيات أثرت الماركسية في علم التاريخ بواسطة التاريخ الاقتصادي. وعدد من المؤرخين المختصين في العصر الحديث من مؤرخي **الحوليّات** يضعون أنفسهم في دائرة الماركسية، مثل ميشال فوفيل وروبير ماندرو المختصين في تاريخ الذهنيات أو بيار فيلار الذي ما فتئ يبحث من خلال دراسة منطقة كاتالونيا عن تحسين النظام المفاهيمي للماركسية.

من بين المختصين في التاريخ الإغريقي القديم، تعتبر الماركسية لعدد هام من الباحثين أداة تحليل أساسية، فمن إيفون غارلان (Yvon Garlan) إلى بيار ومونيك ليفاك (Pierre et Monique Lévèque) مروراً بكلود موسيه (Claude Mossé) أو جان - بيار فيرنان القائمة طويلة ولكن يصعب أن تكون شاملة. يبدو من خلال هذه المقاربات المتضاربة لوظيفة التاريخ أن مدرسة **الحوليّات** تجمع مؤرخين لهم مواقف أيديولوجية مختلفة. وتدور في قلب هذه المدرسة مجابهة أخوية بين مختلف مكوناتها. وما يلاحظ في الفترة الأخيرة أن الخطاب المحافظ الذي يحن إلى الماضي قد تغلب على الخطاب الذي صمد أمام موجة اليأس العميقة ليحافظ على إرساء تاريخ مرتبط بتكوين صيرورة جماعية.

نفي السياسي

ظهر السياسي مع ميلاد المدينة. برز هذا الشعور بالانتماء إلى مجموعة تتجاوز وحدة الكتلة والقبيلة على فضاء مفتوح، هو الساحة العامة. وهي قطيعة أساسية في تاريخ إنسانية عالم يصف نفسه بالانفتاح والتساؤل على هويته وعلى علاقات الواقع بالحقيقة. ومن السياسي ولد التاريخ والحاجة إلى الشهادة وترك اثر للأجيال القادمة.

كان الحدث مع هيرودوت[39] ميلاداً للتاريخ انطلاقاً من رواية الحروب الميدية (Médiques). وهكذا تأنسنت الزمنية وأصبحت تدرك ذاتها انطلاقاً من الوعي اليوناني في مواجهة «البرابرة». يشير نص هيرودوت إلى وعي جديد لوضعية الإنسان في العالم. وهو يواجه القانون الإغريقي في القرن الخامس قبل الميلاد بالملكية المطلقة، والمواطنة بالعبودية والحضارة بالبربرية. إنه عالم ثنائي وهو مصدر الهوية والمقاومة في نفس الوقت. وهو تمجيد للعدل ضد الجور واللامساواة وتمجيد للشعب في ذروة المجد الأثيني الذي يقدم على أنه نموذج للحضارة في القرن الخامس. ولد التاريخ من السياسة فأسس للسياسة ضمن تضامن ومصير جماعي.

ونفس الشيء بالنسبة إلى توسيديد (Thucydide) الأب الآخر للتاريخ، فهو يروي تاريخ حرب البيلوبونيز ليعطي معنى للصيرورة الإنسانية انطلاقاً من النموذج الأثيني كنظام متعارض مع نظام إسبرطة (Sparte). يعد التفسير الذي يقدمه توسيديد لهذا الانقسام بين الإغريق تفسيراً جوهره سياسي. وهو في الواقع صراع بين الديمقراطية وسلطة التراتبية. كان الزمن التاريخي يعيش موقعاً على الرغبات السياسية. وكما بيّن ذلك فرانسوا شاتليه (François Châtelet)، ستؤدي أزمة المدينة ـ الدولة إلى أزمة الخطاب التاريخي، فلم تعد الأحداث متناسقة والصراع بين أثينا وإسبرطة قد تشعب، فتشتّتت السياسة وتفتّتت وحل نقيض التاريخ محل التاريخ. وتخلى السفسطائيون عن فكرة التطور لأن الإنقاذ السياسي أصبح يبدو أنه مستحيل. وهم يشيرون للعودة إلى الماضي، إلى الزمن الطيّب

---

(39) François Châtelet, *La Naissance de l'histoire: La Formation de la pensée historienne en Grèce*, 10/18; 819-820, 2 vols. (Paris: Union générale d'éditions, 1962).

للتضامن اليوناني ويرفضون أي معنى للصيرورة. وتواصل تفكك بلاد اليونان في القرن الرابع وامّحى الخطاب التاريخي عندها أمام إشكاليات أصبحت فردية عند كزينوفون[40] (Xénophon). فقدت الزمنية معناها التاريخي والسرد التاريخي لم يعد يطمح للوصول إلى درجة معينة من معقولية الواقع. أصبح التاريخ ظرفياً وشأناً فردياً. تراجع كل من كزينوفون وأرسطو، وهما في دوامة صراعات عصرهما وغموضه، نحو تجريبية منهجية، فتحلل التاريخ في تلك الفترة إلى تواريخ فردية في صيغة الجمع.

هذا الانعطاف نحو بلاد اليونان الكلاسيكية ليس بريئاً. وهو يحملنا إلى علاقة التاريخ الجديد منذ 1929 بالسياسي ومنها إلى تحديد الوظيفة التاريخية. وهذا التطور ـ اللاتطور من القرن الخامس إلى القرن الرابع في بلاد الإغريق من هيرودوت إلى أرسطو يلاحظ أيضاً بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين. إن فقدان السياسي في الوقت الحاضر مرتبط بفقدان الوعي بالتاريخية. لم يعد للصيرورة أي معنى، فذاب الوعي التاريخي في عصرنا هذا في التجريبية ذاتها: «لم يتساءل أحد عن مساهمة التاريخ في وضوح أفضل للسياسة؟ فهل إن مدرسة **الحوليّات** قررت أن لا تتدخل أبداً في هذا الحقل؟»[41] اختار ميشال فوكو، وهو واحد من خيرة مؤرخي هذا العصر أن تكون السلطة ـ السلطات ـ هدفاً له. ولكنه تطور معبّر إذ يطاردها في أطرافها حيث تتواصل خارج حدود قوانينها الداخلية، فهو يريد إعادة تركيب هذه الأجسام الطرفية المهملة والتي ظلت إلى ذلك الوقت بمثابة الظواهر العرضية. إن مزية هذه المقاربة هي اكتشاف الفوضوي

---

(40) المصدر نفسه، ج 2، ص 118.

(41) F. Ewald, «Y a-t-il une nouvelle histoire?,» papier présenté: Colloque de Loches, institut collégial européen, 1980, p. 41.

والتراتبية والنظام وراء ما ليس عضوياً. ولكن السلطة عند ميشال فوكو تحجب بعدها السياسي بتحليله وتشتيته، فالسلطة لا تقسم حسب كيانات متجاورة بين من يملكونها وبين الآخرين، ولا يمكن أن تستحوذ عليها طبقة وهي سلطة غير متجانسة. فالسلطة تتنقل بين الأفراد عبر شبكة وتعمل في شكل متواصل وتمر عبر كل الأفراد قبل أن تتجمع في كل واحد. فإذا لم تكن هناك عقدة في السلطة لا يمكن أن تكون هناك مقاومة لتلك السلطة، فهي دائمة الحضور ولا يمكن لها أن تحيد لأنها فينا نحن، فكل شيء هو سلطة. عندئذ ليس هناك مجال لمقاومتها. إن من الخطأ أن ننفي إضافات ميشال فوكو الذي يدعونا إلى عدم الخلط بين السلطة والدولة في واقع واحد، ولكن العائق الأكبر هو أن هذه الإشكالية توجد في تغييب الدولة. هذا الانتقال إلى الأطراف هو أيضاً من تأثيرات فشل أيار/ مايو 1968 وتحويله إلى نظرية. وكل تحرر يعاد استعباده في تتابعه المنطقي بإمكانيات تلك السلطة، فالثلاثية الفوكودية (foucaldienne): جسد/ خطاب/ سلطة تعمل في أطرافها. الجسد والسلطة معادلان للوجود واللاوجود، فالحرية تقف ضد القسر والرغبة ضد القانون والثورة ضد الدولة والمتعدد ضد المجمع والمنفصم ضد مرضى الخوف (paranoïaque). إن الاستعباد الذي لا مفر منه بالنسبة للإنسان يمر عبر مصطلح ثالث وليس عن طريق توازن القوى، عبر الخطاب أو عبر استنتاجية تنتمي إلى حقل السلطة. يظل هذا التحلل ـ الذوبان للسياسي علامة على النفور من هذا المارد الحديث المتعلق بالدولة مصدر القهر والشر. أمام العجز عن القضاء عليه نتحاشاه. ولتجنب أي احتواء بواسطة العدوى ننفي وجوده.

إن رفض السياسي من قبل **حوليات** اليوم هو في تواصل تام مع جيل المجلة الأول. هناك فعلاً وجه شبه بين ذهنية الثلاثينيات

والموقف العنيف من السلطة والتكنوقراطية والتخطيطية ومناخ الثمانينيات الذي تقدم فيه الدولة على أنها مفهوم خارج عن المجتمع المدني. على تحررية الأمس المطلقة ترد اليوم كصدى الريغانية (Reaganisme) حتى في وسط «اليسار الثاني». إلا أن هناك توافق في الأفكار داخل نواة **الحوليّات**، في المركز الإداري لها وهذه الحساسية الموجودة لدى اليسار الثاني التي تندد «بالعصر البربري للكل السياسي»[42]. إن الحضور المكثف لهذه المدرسة الحوليّاتية داخل (*Nouvel observateur*) على الأقل إلى حدود عام 1981، هو تعبير عن هذا التوافق الأيديولوجي وعن قبول شامل للتفاهم وللإضراب ولهدنة أو لسلم طبقات اجتماعية مستسلمة لوضعها ضمن النظام القائم. إلا أن هذا التيار الفكري يقبل بأن يعطي للشعب حق الوجود من خلال الثقافة الشعبية ومن خلال الاعتراف بقيمه شريطة أن لا تصبح مهيمنة. هكذا يرى الشعب أن وضعه معترف به ولكن في وضع المسيطر عليه ويأخذ التكنوقراطيون هويته بعين الاعتبار ليتصرفوا دون إحداث هرج. وهذا الخطاب الأيديولوجي الاجتماعي التحرري هو الذي يجمع حوله كل نواة السلطة داخل **الحوليّات**.

أدّى رفض التحليل السياسي **بالحوليّات** بأن تتجنب الظواهر التاريخية الأساسية في عصرها، وكذلك الحال اليوم. إن الموسوعة المتعلقة بالتاريخ الجديد والصادرة عام 1979 لا تتضمن مدخلاً خاصاً بالسياسي. ويجب أن نضيف إليها المناخ الحالي الذي يدفع إلى التخلي عن السياسة ويؤكد مرة أخرى رفض السياسي: «الأمد الطويل

(42) ورد في: E. Maire, Hervé Hamon et Patrick Rotman, *La Deuxième gauche: Histoire intellectuelle et politique de la CFDT*, collection «l'épreuve des faits» (Paris: Editions Ramsay, 1982), p. 399.

العزيز على التاريخ الجديد، أمد طويل خالٍ من السياسة»[43].

حققت **الحوليّات** إبعاد السياسي عن المركز. يضع فرانسوا فوريه نفسه خارج التاريخ السياسي ويعتبره الجدول المفضل للتغيير[44]. يجب على التاريخ في اهتمامه بما هو دائم، أن يستفيد من العلوم الاجتماعية ويتخلى عن متاهات السياسة. وعندما بيّن[45] كيف أن محو الأمية ازدهر في فرنسا دون أن يكون مجسداً في المؤسسة التعليمية، فهو يؤكد على نسبية دور الدولة وأدواتها الأيديولوجية في المجال الثقافي. اضطر فيليب أرياس، وقد خاب ظنه بسبب التهميش التدريجي للأفكار الموراسية (Maurrassiennes) التي كان يدعو إليها، للخضوع إلى تاريخ مفرغ كلياً من السياسي. وهي تلك البحوث التي حملته إلى طريق التتويج داخل **الحوليّات**: «نعم، هناك علاقة بين كرهي المتزايد للعمل السياسي واندماجي النهائي في تاريخ يقلص من مكانة الدولة والإيديوليوجيات لصالح ثقافة أكثر إثنوغرافية»[46]. وعندما درس إيف - ماري برسيه (Yves-Marie Bercé) انتفاضات الفلاحين إلى حدود القرن التاسع عشر، اقتصر على تركيبة ذات خصائص إثنوغرافية تترجم تطور مسار أحداث العنف الجماعي، وقد تجردت من إطارها السياسي وهكذا يمكنه أن يقدم الثوابت.

تغيب الدولة في حركة معارفنا التي تشمل الكرة الأرضية. وكذلك الحال بالنسبة إلى الشركات المتعددة الجنسيات التي تسعى

(43) Jean Chesneaux, *Du passé faisons table rasé: A propos de l'histoire et des historiens,* petite collection Maspero; 164 (Paris: F. Maspero, 1976), p. 129.

(44) François Furet, dans: *Le Débat* (décembre 1981).

(45) François Furet et Jacques Ozouf, dirs., *Lire et écrire: L'Alphabétisation des Français de Calvin à Jules Ferry,* le sens commun, 2 vols. (Paris: Edition de Minuit, 1977).

(46) Ariès, *Un Historien du dimanche*, p. 8.

إلى التقليل من شأن الكيانات الوطنية. كما بين أندريه بورغيار[47] في مستوى الذهنيات، فإن أقدم فكرة متجددة وهي فكرة السعادة تتجه نحو التخصيص وانعدام التسييس. في الماضي كان أصحاب المشاريع المجددة يعتمدون على الدولة لتوفير السعادة الإنسانية. عوّل فلاسفة عصر النور من فولتير إلى ديدرو على بعض الطغاة المتنورين. واليوم أصبح البحث عن الرفاه والاستقلالية العاطفية.. يتم خارج إطار الدولة. والفترة تتناسب مع انحسار المدة الطويلة الخاصة بالسياسة، وهو ما لاحظه إيمانويل لوروا لادوري: «يجب أن يكون البحث التاريخي منفصلاً عن السياسة»[48].

جمع جاك جوليار، والذي لا يمكن أن نقول عنه أنه تخلى عن السياسة بما أنه أشرف على سلسلة «السياسة» في دار سويّ (Seuil)، مختلف الحجج اللازمة لمقاضاة التاريخ السياسي وهو يعتبر أمراً طبيعياً أن تبقى مجلة جدية مثل **الحوليّات** بعيدة عن السياسة: «التاريخ السياسي هو تاريخ نفسي لا يعرف التأثيرات الخارجية، فهو تاريخ نخبوي وربما بيوغرافي ولا يعرف المقارنة، وهو سردي ولا يعرف التحليل، ومثالي لا يعرف المادي، وأيديولوجي وليس له وعي بالذات، وجزئي ولا يعرف ذلك جيداً، وهو يرتبط بما هو واع ولا يعرف ما هو غير واع، حيني ولا يعرف الأمد الطويل، وفي كلمة واحدة وهي كلمة تلخص كل شيء في لغة المؤرخين، إنه تاريخ وقائعي»[49].

---

(47) A. Burguière, dans: *Le Nouvel observateur* (10 septembre 1973).

(48) Emmanuel Le Roy Ladurie, «Entretien avec l'auteur,» *Maintenant* (juillet 1979).

(49) J. Julliard, dans: Jacques Le Goff et Pierre Nora, dirs., *Faire de l'histoire*, bibliothèque des histoires, 3 vols. (Paris: Gallimard, 1974), vol. 2, pp. 229-230.

في حين أن البعد السياسي لم يتم تهميشه ولا تحويله عن مكانه من قبل الجميع، فالبعض يأخذه بعين الاعتبار كواقع أساسي بالنسبة إلى المجتمع المدروس. يعتبر جورج دوبي أن المجتمع الفيودالي يتميز أولاً بتفكك السلطة الملكية[50]. أدّى عجز الملوك الكارولنجيين في مواجهة الهجمات الخارجية إلى تفتت النفوذ السياسي وإلى تشتت السلطة وهو أساس الفيوداليات المحلية على خلفية اندحار النفوذ المركزي الملكي. ولكن في العموم يبقى السياسي أفقاً ميتاً في الخطاب الحوليّاتي، وتركه جانباً ناتج أساساً عن التخلي عن كل جدلية بين الحاضر والمستقبل. تندرج القاعدة الأساسية في وجود السياسي في الرغبة في الثورة والتغيير وكذلك في اضمحلال أي رؤيا للقطيعة واندثارها. يصادق جاك لوغوف على هذا الرفض للسياسي والذي يرده إلى تصور نخبوي للتاريخ لأن السياسة تشارك في رأيه في زخرفة أسلوب ارستقراطي لممارسة السلطة، تم تجاوزه. وبهذه الصورة ينحصر السياسي في قشرة ضعيفة وسطحية من التاريخ. ولكنه يدعو إلى إعادة اعتبار لمقاربة السياسي في منظور أوسع، منظور أنثروبولوجي حول مفهوم السلطة: «يحتوي التاريخ السياسي كتاريخ للسلطة على رونق لغوي يعود إلى تطور الذهنية»[51]. إلا أن هذا المشروع لتجديد السياسي يترك جانباً كل رهانات الطبقات حول سلطة الدولة لفائدة تاريخ ثقافي صرف مبني على نماذج أنثروبولوجية تكاد تكون ثابتة.

وقد ضاعف سياق الحداثة القطيعة بين ما سيحصل والحاضر

---

(50) Georges Duby, *Guerriers et paysans, VII-XIIème siècle; premier essor de l'économie européenne*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1973).

(51) Jacques Le Goff, *L'Imaginaire médiéval: Essais*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1985).

عند هؤلاء الفرنسيين الذين ليس لهم انتماء كما يصفهم جيرار منديل (Gérard Mendel). إنه في هذه المرحلة، مرحلة الانكماش الفردي، والانكفاء داخل بيت الجليد النرجسي الذي يدفعه السياسي إلى الهوامش و تقل رهاناته. ينتعش الخطاب التاريخي خارج حقل السياسي وخاصة في مجتمع مبني على توسع الخصخصة وتآكل الهويات الاجتماعية. لم يعد هناك مشروع تاريخي يحرك الناس فتنفتح عندئذ **مرحلة الفراغ** كما رآها جيداً جيل ليبوفيتسكي (Gilles Lipovetsky) «إن مجتمع ما بعد الحداثة هو مجتمع تسوده لامبالاة السواد الأعظم من الناس ويهيمن فيه التكرار و المراوحة»[52]. إذا كانت هذه المرحلة الجديدة تفتح فترة نقية غير متشنجة، فهي تترجم كذلك بتفتت الجسم الاجتماعي وبعدم الالتزام السياسي والنقابي وتؤدي إلى اللامبالاة كتعبير عن العجز عن الفعل. ويفقد فيها السياسي سبب وجوده إلا بالنسبة إلى هيئة المختصين، وهم رجال السياسة كما يقول علماء السياسة.

---

(52) Gilles Lipovetsky, *L'Ere du vide: Essais sur l'individualisme contemporain*, les essais; 225 (Paris: Gallimard, 1983), p. 11.

5 ـ تاريخ جامد

مقاربة بنيوية

كان الدرس الافتتاحي لإيمانويل لوروا لادوري بكوليج دو فرانس يوم 30 نوفمبر 1973 يحمل عنواناً معبراً عن «تاريخ ثابت»[1]. فمن وراء هذا التعبير الاستفزازي نوعاً ما حيث يختلط الماء بالنار، هناك إرادة لمصالحة المتناقضات والجمع تحت مظلة التاريخ مكاسب الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا التي تأثرت نجاحاتها بالمقاربة البنيوية.

سنجد إذاً في أعمال التاريخ الجديد ملاءمة للحقل التاريخي يقوم بها عاملان استخدمهم كلود ليفي ستراوس في «مجتمعاته الباردة». وجرى إذاً تفضيل الزمن الذي لا يتحرك لاكتشاف البنى اللاواعية بالنسبة إلى كل مؤسسة. وجرى استخدام سلسلة من القواعد المركبة كوسيلة لفهم الواقع: الإقصاء، انقلاب الرموز، الملاءمة، مما يسمح للنظام القائم بتحكم ذاتي من خلال استيعاب كل ما هو جديد أو متناقض باعتماد عمليات منطقية وداخلية، فلم يعد التغيير

---

(1) Emmanuel Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, bibliothèque des histoires, 2 vols. (Paris: Gallimard, [1973-1978]), vol. 2, p. 7.

والقطيعة من الأمور التي لها معنى. وأصبحت الحركة التاريخية كأنها حركة تكرارية وتواصل يسود فيه الثابت على المتغير. فلم تعد الاختلافات التي يتم اكتشافها داخل النظام سوى اختلافات في المكان تتفوق فيها الوحدة على تناقضاتها. وتحل التناقضات التي يمكن أن تظهر من خلال الصيرورة التاريخية بتعويض كلمة بأخرى مع المحافظة على القاعدة الأولية. وهكذا يتجدد المجتمع بلا انقطاع جوهري بواسطة حركة تعديلات متزامنة ومنفصلة تتكرر في إطار قواعد نظام متناسق لا يحتمل أي نشاز. لا يمكن إذاً أن يقع تغيير في النظام في حد ذاته. صدمة خارجية فقط يمكن أن تهز أركانه بما أنه لا تخترقه تناقضات داخلية. ليس الصراع بين البنيوي والتاريخي بأمر جديد. كان أوغست كونت يفرق بين الثابت الاجتماعي والمتغير وكان يعطي الأولوية للأول. وكما لاحظ هنري لوفيفر: «إن البنيوية هي أيديولوجيا التوازن... إنها أيديولوجيا الأمر الواقع»[2]. كيف يمكن للمؤرخ وهو يجابه دراسة الحركة والصيرورة والتغيير أن يستغل لحسابه هذا الإرث؟ فلا يمكنه ذلك إلا عندما ينشد التوازن النهائي مقياس بحثه والذي تنتظم حوله التموجات التي تظهر فيها أوهام وحوادث وتفاهات. يقدم التاريخ الجديد نفسه وكأنه آلة عسكرية ضد الفكر الجدلي، فهو يعطي المكانة الأولى للمستقبل على حساب الكائن ويرى المحرك والفاعل التاريخي في صيرورة الانفصال بين المتناقضات وليس التحامها. يدخل هذا التمييز في عملية جدلية بواسطة شبكة من الموافقات تجعل الحركة التاريخية موحدة ضمن صيرورة انفصال وإنجاز للتناقض. ولا يمكن أن يكون الفكر التاريخي إلا فكر القطيعة والعمل الفعلي للانفصال نحو

---

(2) Henri Lefebvre, *L'Idéologie structuraliste*, collection points; 66, nouvelle éd. abrégée (Paris: Seuil, 1975), p. 69.

التجاوز ليس نحو العودة إلى ماض يكون قد وقع فيه استيعاب التناقض وإنما نحو المستقبل. ولا يذوب الجديد في القديم ولكنه يظهر كجديد في فكر يسعى إلى ادراك ما هو في طور الزوال أي الواقع في تحوله إلى واقع آخر.

فلم تفعل الأنثروبولوجيا سوى تعميق هذا التوجه والتقليل من شأن القطيعة التي وقعت حتى الآن في الحقل التاريخي. تشكل عمليات التواصل القديمة والتنظيمات الثابتة قاعدة بحوث التاريخ الجديد: «تتراءى من وراء تاريخ الحكومات المزدحم والحروب والمجاعات تواريخ تكاد لا تتحرك أمام البصر، وهي تواريخ محدودة الانحدار: تاريخ المسالك البحرية، تاريخ القمح، أو مناجم الذهب، تاريخ القحط والري، تاريخ التناوب الزراعي وتاريخ التوازن الذي أقامه العنصر البشري بين الجوع والوفرة»[3]. إن نموذج لوروا لادوري هو نموذج كلود ليفي ستراوس مطبق على المجتمع الغربي. تحت اشرافه، لا يمكن أن يحدث تجدد إلا في قمة المجتمع. إن نخبة ما وحدها قادرة على قلب بعض القيم من قمة التراتبية الاجتماعية، سواء على المستوى الثقافي أو على مستوى الدولة. وتغيب التناقضات والصراعات التي تهدف إلى فرض الهيمنة، لمصلحة هذا الكيان الاجتماعي الجديد: النخبة. لم يعد هناك مجال للتناقض، فهو قد فقد كل معانيه. ويتأقلم النظام مع ذاته بأن يحل مكان الفئات القيادية بآلية تعويض وتناسق تحافظ على استقرار وتواصل النظام، فلم يعد لزمن البنى نفس الإيقاع الذي للتاريخ على مستوى الإنسان فهو زمن أمد بالغ الطول. وهو يفرض أن نعطي قيمة

(3) Michel Foucault, *L'Archéologie du savoir*, bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, 1969), p. 10.

ليس للتقطع وإنما للخصائص التكرارية لأنشطة الإنسان. ينصرف النظر إذاً إلى الانتظام كزمن الفصول والدورات وثوابت اليومي. أصبح التاريخ بنيوياً: «تخلى العلم الاجتماعي عن الأحداث وحتى الوقائع التي ليست فيها أحداث ولكنها مفردة لفائدة التكرار وحده»[4]. عندها سيفرض حدوداً جديدة تستطيع فيها البنية الاجتماعية أن تعيد إنتاج ذاتها بإخلاء أفقها من كل ما من شأنه أن يعطل أو أن يحدث اضطراباً في عملية التكرار. توجد الأرضية الأيديولوجية لهذه المقاربة في التشاؤم الجوهري الذي يجعل من الواقع عالماً بعيداً عن متناول الإنسان عالماً محكوماً بالدوام دون تغيير يذكر، متماشياً مع طبيعة بشرية ثابتة كثبات طبيعة الحيوان أو النبات. يغوص المؤرخ في أعماق التاريخية تاركاً على السطح ظواهر يتخبط فيها الأفراد. يتغير وضع الحدث، فمن دلالة لها معنى يصبح تركزاً اصطناعياً وأسطورياً لما لا معنى له، فيتم دفعه إلى الهوامش ويمكن حتى «أن لا يتم الاهتمام به أبداً»[5]. بنت المدرسة التاريخية الكمية الأمريكية أشكالاً من التاريخ الخيالي مستعملة في ذلك الحاسوب، فحذفت العديد من الأحداث الكبرى في التاريخ الأمريكي مثل حرب الاستقلال لتصل في نهاية دراسة كمية إلى القول بأن نمو الاقتصاد كان سيبقى على نفس الحال بدونها، فيذوب الحدث في الأمد الطويل. وفي نفس الوقت الذي اكتشف فيه بعض الفلاسفة موت الإنسان أعلن بعض المؤرخين عن وفاة الحدث: «كانت الكتابة التاريخية المعاصرة مجبرة على أن تقتل من أجل أن

(4) Krzysztof Pomian, *L'Ordre du temps* (Paris: Gallimard, 1984), p. 158.

(5) Krzysztof Pomian, dans: Jacques Le Goff, Roger Chartier et Jacques Revel, dirs., *La Nouvelle histoire,* les encyclopédies du savoir moderne (Paris: Retz- C. E. P. L., 1978), pp. 543-544.

تحيا: فقد حكمت منذ عقود مضت على التاريخ الوقائعي وعلى البيوغرافيا التجزيئية بموت شبه كلي»[6]. فيكون التاريخ إذاً أسطوريا: «لا يمكن التقليل من علاقة الإنسان بالإنسان وإنما اخضاعها إلى وضع حيواني»[7] وذلك وهم المجتمع الذي لا يتغير. إن كل محاولة ثورية يمكن اعتبارها، في لغة العصر التي تتحدث عن التكراري، مهما كان موضوعها ومهما كان زمنها محاولة كليانية. تعد محاولة القيام بقطيعة في التطور الحالي من قبيل السلوك الانفصامي بما أنها تهاجم عملاً يعتبر خارج الزمن بالنسبة إلى مجتمع لا يتغير. يضع إيمانويل تود في نفس المستوى كل من فرنسا في عامي 1793 و1848 وروسيا عام 1917 وألمانيا الهتلرية عام 1933، ففي كل مرة يتبين وراء الذين يصنعون القطيعة ملامح بورجوازية صغيرة تعاني من حرمان مزدوج، جنسياً واجتماعياً، وهي توجد تحت تأثير ضغوطات هستيرية ومرضية تمثل قاعدة الالتزام الكلياني، فلا تكون **الطبقات الخطيرة** تلك التي حللها لويس شوفالييه (Louis Chevalier) في أعماله وإنما «البورجوازية الصغيرة». طبقة مريضة أثر فيها الإدمان على الكحول، ونسبة الانتحار فيها مرتفعة نتيجة لشعور سادي مازوشي مرضي، وهو ما دفع بها إلى الالتزام الأيديولوجي الذي لا يعدو أن يكون إلا نتاجاً متزايداً للتوجهات الفصامية. والبورجوازية الصغيرة هي إذاً طبقة اجتماعية تتكون من المصابين في عقولهم. يؤدي التقدم حسب إيمانويل تود إلى التراجع واختلال مميت للتوازن بالنسبة إلى الجسم الاجتماعي. هكذا يكون تقدم رفع الأمية والقراءة والمستوى الثقافي للسكان الأوروبيين حاملاً للوثات عقلية حادة:

---

(6) Le Roy Ladurie, *Le Territoire de l'historien*, vol. 1, p. 169.

(7) Régis Debray, *Critique de la raison politique*, bibliothèque des idées (Paris: Gallimard, 1981), p. 52.

«يبدو أن لارتفاع نسبة التعلم والهستيريا نفس الدوافع الخفية»[8].
التقدم والتاريخ هذا هو العدو بالنسبة إلى بعض . . .المؤرخين. إن الخيبة ليست لها حدود عندما لا يتطابق الواقع مع الأطروحة التي يراد البرهنة عنها، لذا يجب حذف الواقع لتخليصه نهائياً من ميوله الانتحارية. يحمل فصل من كتاب إيمانويل تود عنوان: «رفض تاريخ فرنسا». تكون الدائرة آنذاك قد أقفلت. وعندما ينتهي الأمر يعود من جديد. فعندما يتحرك التاريخ ويعبر عما فيه من انقطاعات لا بأس بها، الأفضل إذاً أن نمحوها وذلك بوضع هذه اللحظات المنعطفات في خانة الهذيان المرضي. إن التحركات الإنسانية العبثية لا تستطيع شيئاً فالعالم لا يتحرك والطبيعة ثابتة والإنسان بلا معنى. وبعكس التخوف من هذا التطور في الخطاب التاريخي يجب أن نقرأ المؤرخ فيليب أرياس، الذي وإن عبر عن موقفه المحافظ، فهو يلاحظ «إن هذه الوضعية تنطوي على مخاطرة: فقدان الإحساس بالزمن»[9].

الثورة الفرنسية انتهت

تميل نظرة المؤرخ المعاصر إلى محو مراحل تسارع العملية التاريخية، المنعطفات واللحظات الفاصلة التي يتفكك فيها نظام لينشأ نظام جديد. بما أن التاريخ أصبح بنية ثابتة فعليه إذاً أن يتخلص مما اعتبر حتى الآن انقطاعات أساسية. وجرى التعامل مع الحقبات الثورية على أن كل حقبة تمثل مواجهة محاولة لإعادة الملكية، مرتبطة أساسياً بالماضي. هذه المحاولات تعتبر رجعية حيث إنها

---

(8) Emmanuel Todd, *Le Fou et le prolétaire*, libertés 2000 (Paris: R. Laffont, 1979), p. 61.

(9) Phillippe Ariès, «Y a-t-il une nouvelle histoire?,» papier présenté colloque de Loches, institut collégial européen, 1980, p. 21.

تنشط ضد عناصر جديدة تعارضها. بعيداً عن إعطاء قيمة لما يبدو مجدداً في كل محاولة تغيير، يوجه المؤرخ اهتمامه نحو الذي يصمد أمام الإرادة التغييرية، ونحو الجوامد. وبهذا فإنه يقوم بعملية تخفيض، إذا لم يكن إلغاء للانقطاعات المؤسسة للأنظمة الجديدة، فيمّحي انعدام التواصل. ويصبح الأفق التاريخي متماثلاً وتكرارياً مهما كانت الفترة ومهما كان المجال المدروس. وتفسر الانقلابات مهما كان نوعها من منظور الأمد الطويل. وفي منظور الماكرو ـ تاريخ يصبح الحدث عاجزاً ولا يبقى محركاً ومسرّعاً للمساور ليتحول إلى مجرد رمز وأسطورة وتهويمات.

وهو الأمر نفسه بالنسبة إلى مختلف المراحل التاريخية. ولكننا سنقتصر على هذا الحدث المؤسس، وهو موضوع جدل بامتياز في الكتابة التاريخية، ألا وهو الثورة الفرنسية كبرهان على هذه القراءة الجديدة النافية للانقطاعات. في عشية المئوية الثانية لعام 1789 بشكل من التعزيم، أعلن رئيس مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية السابق، فرانسوا فوريه، عن موت الثورة الفرنسية: «عندما كتبت: لقد انتهت الثورة، كان ذلك طريقة للتعبير عن أمنية وإثبات حالة»[10]. ليس هناك مجال لوضع خط التماس بين المياه الذي منه يحدد الفرنسيون موقعهم في اليمين أو في اليسار. ألم تؤدِّ تحقيقات المؤرخين الجدد إلى التساؤل ما إذا كانت هذه الملحمة الثورية الشهيرة قد وجدت حقيقة؟ و لم لا تكون سوى حلم مزعج؟ يكفي أن نفتح أعيننا جيداً لنتخلص منه. تمت محاولة العملية على مرتين، فقد تم أولاً وضع الثورة بين قوسين وتم حصرها في مرحلة تراجيدية وفي نفس الوقت لا معنى لها. ثم لم يبق إلا أن نلقي بالمارد بعد

---

(10) F. Furet, dans: *Le Nouvel observateur* (28 février 1986).

ربطه ونضعه خارج الدائرة. وهو ما سمح بالإعلان عام 1979 بأن «الثورة الفرنسية قد انتهت»[11]. فالثورة الفرنسية كانت تزعج من منظور الأمد الطويل تاريخاً هادئاً. بالنسبة إلى فرانسوا فوريه ليست الثورة الفرنسية سوى أسطورة كما كان يقول من قبل المؤرخ الإنجليزي ألفرد كوبّان (Alfred Cobban) عام 1955. تزعم هذه النظرة الحالية أنها بعيدة عن الجدل السياسي ومنفصلة عن الفاعلين في هذا العصر لتضع نفسها في معيار علمي. ولكننا نجد في الأعماق دفاعاً عن نموذج مجتمع يعمل «من الأعلى» ويتطور بذاته بفضل نخبه. كانت ثورة التنوير السلمية في القرن الثامن عشر، وهي تحقق التناسق بين النبلاء المتنورين والبورجوازيين المثقفين، تحدث تغييراً يمكن أن يكون بلا مصادمات. تتقوى الرأسمالية بدون صراع طبقي وبدون تدخل الجماهير التي يبدو أن تدخلها غير لائق ومتخلف. لم تكن هناك حاجة للثورة من أجل خير فرنسا بفعل دور شعبها في حروب الإمبراطورية القارية التي أدارت ظهرها للتقدم الاقتصادي. دون أن يكون خطاب التاريخ الجديد، خطاباً جديداً حول الثورة الفرنسية، فهو يستعيد الإرث القديم للفكر الليبرالي المناوئ لثورة اليعاقبة (Jacobine). في قلب الفكر الليبرالي يوجد ارتجاج وانكسار يحس كأنه ضروري ولكنه مغلق، إنه الثورة الفرنسية. ينسب الليبراليون أنفسهم للحظات الأولى من العمل الثوري ولكنهم ولجعلها أكثر طهارة تم السعي لإبعاد أية امكانية لحدوث مرحلة تجاوز ثوري. وهذا يعني إعادة التفكير في السياسي للتمكن من اعتبار أن الأحداث الثورية مستبعدة. الفكر الليبرالي الفرنسي هو قبل كل شيء فكر مضاد للثورة. رغم أن المسالك المتبعة هي مسالك

---

(11) François Furet, *Penser la révolution française*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1978).

متعددة، فبالنسبة إلى مدام دو شتايل[12] (Mme De Staël) حدثت قطيعة في الكتلة الثورية: 1789 ـ 1794. هناك بالنسبة إليها كما هو الحال بالنسبة إلى أغلب الليبراليين مرحلتان مختلفتان في تاريخ الثورة: المرحلة المتجهة إلى إنجلترا وهي الثورة الليبرالية عام 1789 والتي رحّب بها باعتبارها حاملة للتقدم والحريات، والمرحلة الشعبية التي تتميز بـ «سلطة اليعاقبة». الشعب بالنسبة إليها موجود بين الأعيان الملاكين وهم قاعدة النظام الاجتماعي والمتوحشين. وهي تلقي بنظرة مليئة بكثير من التعالي إلى هذا الشعب شرط أن يبقى في مكانه: «إن سر النظام الاجتماعي يكمن في خضوع العدد الكبير». ولتجنب الشغب فهي تدعو إلى إقامة نظام المجلسين لإيجاد توازن أمام الضغط الشعبي المحتمل. استعاد غيزو هذه القطيعة بين عام 1789 ومرحلة الإرهاب مواجهاً الجانب الحسن للثورة بالجانب السيئ منها ليحدد بشكل أفضل موقع نظام ملكية تموز/ يوليو في تواصل مع مثاليات عام 1789. إن كل تاريخه عن الحضارة الأوروبية ليس إلا لوحة كبيرة تصف مختلف فئات النخب الحاكمة. يُنظر إلى الثورة كأنها نتاج لتطور قديم أدّى إلى مجتمع قانوني وعادل، أفضى إلى سيطرة الطبقة الوسطى ذات التوجه العالمي. عام 1875 وضع تاين (Taine) أيضاً بين قوسين المرحلة الثورية التي عطلت النخب الطبيعية والطبقات العليا عن تسيير الشأن السياسي. يعد التدخل الشعبي إذاً صعود من الاعماق ومن الوحل يقف الشعب فيه كحيوان متوحش: غوريلا داعر. . .المتوحش الضخم يأخذ الشكيمة بين أسنانه. . .»[13].

---

(12) M. le duc de Broglie et M. le baron A. de Staël, *Considérations sur les principaux événements de la révolution française: Ouvrage posthume de Mad. la baronne de Staël*, 3 vols. (Londres: Chez Baldwin, Cradock, et Joy, 1818).

(13) Hippolyte Taine, *Les Origines de la France contemporaine*, 2 vols. ([s. l. : s. n.], 1875).

لذا لا يُعتبر فرانسوا فوريه ودنيس ريشيه مجدِّدين كما يزعمان، فهما يستعيدان أطروحة كلاسيكية وهي أطروحة ثنائية (الخير والشر) في الثورة الفرنسية. يقدم فرانسوا فوريه نفسه كمؤرخ أتى من الخارج متحرر من التأثير المباشر لخطابات أبطال ثورة يتصورها كأنها عبارة عن أسطورة، فيشير إلى ثنائية المُتَملِّقين دانتون (Danton) وروبسبيار (Robespierre)، وأولار (Aulard) وماتييه (Mathiez). وهذا الموقف الذي اتخذه فوريه يحمله لأن يستعيد على مسؤوليته تحليل كل الذين تفاخروا بنفي القطيعة الثورية من الضمائر. إذاً التحليل المشترك لدنيس ريشيه وفرانسوا فوريه هو تحليل أيديولوجي مطلق ويبدو ذلك بوضوح كبير في كل لحظة مدروسة.

تم أولاً وضع الحدث، في صيغته لعام 1965[14]، في إطار الأمد الطويل الذي يظهره كأنه بسيط وأكثر من ذلك يظهره ضد تيار التوجهات العامة التي كانت سائدة في مرحلة أعوام 1750 ـ 1850. في مرحلة الصعود الواسع لليبرالية، يبدو زمن الإرهاب (في عصر الثورة) كأنه فظاعة غير لائقة يجب وضعها بين قوسين لتحقيق إدراك أحسن لمعنى التاريخ. وقد نندهش من ملاحظة أن هؤلاء هم أنفسهم الذين يتحاملون على نظرة دينية للتاريخ، ينكرون على الواقع كل وضع ذي دلالة، باسم معنى معدٍّ مسبقاً. لذا سيقوم فرانسوا فوريه ودنيس ريشيه حسب مخطط أصبح كلاسيكياً، بتقسيم القطعة الثورية إلى فصلين: الزمن الايجابي للوحدة والزمن السلبي للصراع. وفي حين أن كل شيء بدأ في أحسن صورة، ووصف عام 1790 بعنوان «السنة السعيدة»[15]، تتجسد الرغبة الاصلاحية في «المجلس» الذي

(14) François Furet et Denis Richet, *La Révolution française*, l'histoire sans frontières, nouv. ed. (Paris: Fayard, 1973).

(15) المصدر نفسه، ص 99.

يمسك من الآن بأساس السلطة. إنها الثورة الوحيدة المقبولة في عيون مؤلفَينا، أما الثورتان الأخريان اللتان حدثتا في نفس الوقت، ثورة المدن وثورة الأرياف، فهما ليستا سوى أحداث تجاوزها الزمن. كل شيء كان جاهزاً في القمة للمضي إلى الأمام دون أن تعطله الجماهير. وننسى، بشكل عابر، أنه في هذه المرحلة مازالت الثورة بعيدة عن تحقيق المبادئ التي تنتمي إليها. فعلى المستوى القانوني مازالت المساواة لم تتحقق بما أن الاقتراع لا يزال حكراً على دافعي الضرائب وعلى المستوى الاجتماعي، وحدهم بعض المزارعين الأغنياء، والفلاحين، القادرين على إثبات اغتصاب الحق بالحصول على الضرائب الفيودالية والذين لديهم ما يكفي من المال للاستحواذ على الأرض، يستطيعون التفكير بالتحرر. ولكن الوضع تدهور، والحرب ليست بعيدة، والتوازن الجميل سوف ينفجر حيث يعبر مؤلفانا عن خيبتهما الكبرى ويضعان العنوان التالي: «انحراف الثورة»[16]. حادثة أفشلت التطور الليبرالي وتزعزع كل شيء. عندئذ حاول فرانسوا فوريه ودنيس ريشيه بيأس التشبث بالرجال وبالأحزاب الذين يعارضون التطرف الثوري. حول عام 1789 قاما بمدح ملكيين ذوي أفكار معقولة، وفي عام 1791 ظهرت ورقة جديدة يمكن لعبها: هي ورقة الرهبان الذين فعلوا ما في وسعهم للحفاظ على الهدوء: «إن هذا الفصل الأخير من عام 1791 هو أفول لفترة جميلة كبيرة»[17]. يُنسب فشل الرهبان إلى شخص الملك وحده، وهو تفسير أقل ما يقال فيه إنه مفاجئ يصدر عن مؤرخَين يأملان بإعطاء قيمة للظواهر العميقة في التاريخ. مع القضاء على الرهبان كانت اللحظة الأساسية لانحراف الثورة الفرنسية التي سلكت اتجاهاً ممنوعاً. وعلى

(16) المصدر نفسه، ص 126.

(17) المصدر نفسه، ص 145.

أبـواب الـفـشـل عـام 1793 أصـبـحـت صـورة الـجـيـرونـديـيـن (Les Girondins) صورة محببة، لا تقاوم: «أحاط الجيرونديون الثورة بهالة من الجاذبية والشباب والحماس»[18]. وتعتبر هزيمتهم يوم 2 حزيران/يونيو ليست فقط هزيمة لمنطقة الجيروند وإنما هزيمة للثورة. عندها سيوجّه الجبليون (Les Montagnards) مصير الثورة نحو التطرف في أهدافها، معتمدين في البداية على الحركة الشعبية التي كانت تدفع نحو مكتسبات جديدة من أجل المساواة داخل الجسم الاجتماعي، ونحو إلغاء الامتيازات بصورة لا رجعة فيها. إنما هذا الفصل يحمل عند مؤلفينا عنوان «زمن الشدة»[19]. وبالنسبة إليهما فإن المقت موجود بالتأكيد وأساساً في مستوى العناصر الشعبية. وقد أعاد اللامتسرولون (les sans-culottes) نماذج أعمال الحركات التي وقعت في المدن في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبالتالي ليست حركتهم سوى عودة للقديم المتخلف. وأصبح هيبير (Hébert) إلى مصاص دماء «متعطش للدم»[20]. أما بالنسبة إلى الضغط الشعبي في الشارع والنوادي هو أبعد ما يكون تعبيراً عن التناقض الطبقي، فهو يعبر نوع من الغيرة تجاه الناس القادرين. وبذلك تكون الثورة قد حادت عن السكة بفعل المصلحين المتنورين: «وذهبت خارج الجادة الكبرى التي سطرها الذكاء والثورة في القرن الثامن عشر»[21] نتيجة لتدخل العامة والدهماء... نازعين عن الثورة الفرنسية الخطاب الكوني الذي جرى تبنيه في أوروبا بأسرها في القرن التاسع عشر للوقوف ضد سلطات السلالات الملكية. رأى فرانسوا فوريه ودنيس

---

(18) المصدر نفسه، ص 201.

(19) المصدر نفسه، ص 203.

(20) المصدر نفسه، ص 232.

(21) المصدر نفسه، ص 253.

ريشيه في المغامرة الثورية كما لو أنها اتجاه معاكس للتاريخ وتراجع عسكري ـ فلاحي فرض قطعة الأرض على المعمل، فلم ينخرطا إلا في نموذج واحد كمقياس نظر وحيد للمقارنة وهو التطور الإنجليزي المتمثل في المحافظة والملكية، وشعب خامد والتوافق في القمة والحوار عوضاً عن الصراع بين إناس محترمين. يؤكد أحد تلاميذ فرانسوا فوريه، غي شوسينان ـ نوغاريه (Guy Chaussinand - Nogaret) أن التوافق كان ممكناً عام 1789 وأن الثورة لم تكن، على أي حال، سوى غلطة مأسوية بين شركاء منزعجين من التدخل الشعبي. نتخيل طبقة النبلاء الفرنسيين في القرن الثامن عشر خاملة وطفيلية، على هامش مجال اجتماعي مجدد. أمام هذه الصورة يضع[22] غي شوسينان ـ نوغاريه صورة طبقة نبلاء نشيطة تقف في قلب التقدم. أمراهنة هذه؟ حاول المؤلف إعادة اقحام طبقة النبلاء في تراثنا الوطني ونقل رمادها إلى مدفن عظماء الأمة (Panthéon). كانت طبقة النبلاء ضحية عنصرية عنيفة: «النبيل، في عام 1789، يهودي المملكة»[23]. على الصعيد الاقتصادي يقدم لنا غي شوسينان ـ نوغاريه طبقة نبلاء، أدخلت مفاهيم الرأسمالية للثروة والكفاءة في أخلاقياتها، تميل لتبني هوية التجديد: «لم تكن هناك حاجة للثورة لتحرير القوى المنتجة»[24]. أما على المستوى الثقافي الذي يوليه أهمية أكبر، تصبح الأنوار موحدة لا تنقسم، وهي حكر للنخبة: نبلاء وبورجوازيين معاً. يعد ذلك إغفالاً لما هو أهم، أي مسألة الامتيازات التي كانت محور أزمة النظام القديم. في الواقع اصطدمت

---

(22) Guy Chaussinand-Nogaret, *La Noblesse au XVIIIème siècle: De la féodalité aux lumières* ([Paris]: Hachette, 1976).

(23) المصدر نفسه، ص 9.

(24) المصدر نفسه، ص 122.

محاولات الانصهار والتفاهم على مستوى القمة أثناء القرن الثامن عشر بين طبقة نبلاء ليبيرالية وبورجوازية النظام القديم، بتشبث النبلاء بامتيازاتهم الطبقية وبالتالي المعارضة المتواصلة للبرلمانات التي جمدت أي محاولة للانفتاح. أصبحت المؤسسة السياسية ـ القضائية عائقاً لا يمكن تخطيه بالنسبة إلى البورجوازية التي اضطرت لتحقيق الانتصار، إلى الاستناد على شرعية شعبية. على عكس الوضعية الإنجليزية في القرن السابع عشر أو وضعية أوروبا في القرن التاسع عشر في ألمانيا وإيطاليا، حفزت الأرستقراطية الفرنسية بموقفها المحافظ، كما بيّن جورج لوفيفر، القيام بأول فعل ثوري. وهو ما نسميه برد فعل النبلاء أو الثورة الأرستقراطية ضد السلطة الملكية. فمفهوم الحرية نفسه يحجب الرغبة الصارمة في المحافظة على الحقوق الفيودالية كاملة والامتيازات الفخرية ضد التطلعات إلى المساواة. عندما نغادر كواليس البلاط، يبرز الأساسي من طبقة النبلاء، الطبقة الآيلة للانهيار والمستعدة للدخول في تمرّد، حتى ولو أدّى ذلك إلى انزلاقها نحو ثورة. طبقة النبلاء هذه، وهي قوة خامدة بل وقوة مواجهة، منطوية داخل عالم له قوانينه الخاصة، وتمثل الأغلبية داخل النظام الذي تنتمي إليه، وجدت في بولانفيلييه (Boulainvilliers) الخطاب الرجعي لشرعيتها التي تعود إليها، والذي سيسمح لها، باسم انتمائها التاريخي وباسم أصولها الفرنجية وباسم حرياتها القديمة التي قضمتها شيئا فشيئاً السلطة الملكية، بأن تفرض نفسها في وجه التهديد المزدوج من قبل الملكية وعامة الشعب. كبحت ردة فعل النبلاء وصول نخبة العامة إلى قمة الدولة والكنيسة وأكثر من ذلك إلى الجيش. يريد غي شوسينان ـ نوغاريه أن يقنعنا أنه كان بإمكان فرنسا، أن توفر ثورة، حسب النموذج الإنجليزي. ومثل فرانسوا فوريه ودنيس ريشيه يضع أمام الواقع الثنائي لمجتمع يعيش ثورة، نظرة أحادية لهرم تديره نخبته منذ الأزل وإلى الأبد. فيكون آنذاك واقعنا اليومي متجذراً بصلابة في

ماضٍ خالٍ من صراع الطبقات ويسمح بالتخلص من الأحلام بالمساواة النابعة من أعماق المجتمع. وعام 1789 لا يمكن أن يكون إلا سوء تفاهم بين فئتين من نخبة واحدة.

لم يتوقف فرانسوا فوريه في الطريق. وبعد أن صور الثورة كمجرد انزلاق أو مرحلة بين قوسين، واعتبر في عام 1978[25] أن جوهر هذه الثورة، مثل كل الثورات، أنها شمولية. وبين الأطروحتين ظهر الحديث عن أرخبيل الغولاغ مع كتابات سولجنتسين (Soljenitsyne) كلوحة قراءة جديدة بالنسبة إلى فرانسوا فوريه. وهو يهاجم فكرة الثورة ذاتها باسم ما أصبح عليه الاتحاد السوفياتي: «يؤدي الغولاغ اليوم إلى التذكير بزمن الإرهاب لإعطاء هوية للمشروع، فالثورتان مترابطتان»[26]. إن إعادة القراءة هذه لمناضل قديم في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي مصاب بالخيبة، مثل فرانسوا فوريه قد تمت على قاعدة انبعاثين: مفكران مناهضان للثورة هما أليكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville) وأوغستان كوشان (Augustin Cochin). وتحولت مرحلة بين القوسين إلى انحراف ليس ابتداء من عام 1792 ولكن منذ عام 1789. تتبع الثورة ديناميكية داخلية ليست لها علاقة بأسسها الاقتصادية والاجتماعية، ولا مع ظروف الحرب التي وجدت فيها، فالرمزية الثورية تعمل بذاتها مجتثة من الرهانات الاجتماعية ضمن مسار يبدو أن التاريخ نفسه غائب عنه. لا يقدم الإرهاب في مرحلة لجنة الإنقاذ الوطني كرد على وضعية القلعة المحاصرة من قبل الانتفاضة الأرستقراطية الداخلية وأوروبا المتحالفتان. بينت الأحداث المعاصرة مثل الحربين العالميتين، ضرورة اللجوء في مثل هذه الحالات إلى الإدارة

---

(25) Furet, *Penser la révolution française.*

(26) المصدر نفسه، ص 25.

المتسلطة و السخرة وشد الأحزمة.. ولكن بالنسبة إلى فرانسوا فوريه الشر يكمن في الرغبة الثورية ذاتها: «الحقيقي هو أن الإرهاب جزء من الأيديولوجيا الثورية »[27]. لذا فإن توجهه هو توجه آخر ولم يعد روبسبيار يظهر كبطل غير لائق في الدراما وإنما تجسيد لمنطق ديناميكية شمولية تكررت في العشرينيات مع روسيا الستالينية. تعتمد مقاربة فرانسوا فوريه على مؤلفات توكفيل التي أخرجها من الظل ر. آرون[28] (R. Aron). كتب ألكسيس دي توكفيل عام 1851 بعد سقوط الجمهورية الثانية التي زالت إثر انقلاب 2 كانون الأول/ ديسمبر. خاب أمله بدوام دولة قوية في فرنسا انتصرت مرة أخرى عام 1851 مع لويس نابليون بونابرت (Louis Napoléon Bonaparte)، فأصبح يفكر في الفصل بين الحرية والمساواة خاصة وأن بونابرت كان محل اجماع أغلب الشعب الفرنسي. وركز على التفكير حول الثورة الذي أدّى إلى نشر كتاب **النظام القديم والثورة** (*L'Ancien régime et la révolution*) عام 1856. يحدد موقع الحدث الثوري ضمن صيرورة طويلة الأمد، تبدأ مع النظام القديم وتتواصل عام 1789 لتتسارع في القرن التاسع عشر ممثلة في مركزية السلطة وإحكام قبضة الإدارة المركزية على المجتمع. لم تتدخل الثورة في هذا البناء للدولة إلا كظاهرة عرضية. وهي تقوم بإتمام ما كان قد بدأ مع النظام القديم فقط: بناء دولة مركزية وقوية منظِّمة للمجتمع المدني. كل شيء كان يعتلج قبل عام 1789، ولم تفعل الثورة سوى أنها استعادت الإرث في «فترة انتقالية

---

(27) المصدر نفسه، ص 90.

(28) Alexis de Tocqueville, *L'Ancien régime et la révolution* (Paris: Michel Lévy frères, 1856).

وقليلة الأهمية»[29]. وهكذا يجد كل من لويس الرابع عشر وروبسبيار ونابليون أن هناك خيط متواصل يوحدهم حول نفس الهدف هو تدعيم دولة قوية. وتفقد الثورة مظهرها المجدد لأنها تبنت لحسابها الاستبداد الملكي. حاول توكفيل في الواقع اقتلاع فكرة الثورة من القرن التاسع عشر الفرنسي المضطرب في نهاية عام 1848. وكتب عام 1858: «ما هو زائد في هذا المرض الذي هو الثورة الفرنسية شيء خاص أشعر به دون أن أستطيع وصفه جيداً ولا تحليل أسبابه. إنه فيروس من نوع جديد وغير معروف»[30]. والتلقيح الوحيد الممكن بالنسبة إلى توكفيل هو إعادة دمج الحدث في التاريخ الوطني مع تجنب أي تصدع جديد. إن إنجازات الثورة هي إنجازات إيجابية ولكن يمكن أن تحصل بدون مصادمات وبدون حماس عاطفي، وهنا نجد الطموح الليبرالي مرة أخرى: نعم للإصلاح الذي يحفظ مصالح المتميزين، أما الثورة فلا: «إن شعباً غير مهيأ للتحرك بنفسه لا يستطيع أن يبدأ بإصلاح كل شيء في نفس الوقت بدون أن يحطم كل شيء، فحاكم مستبد كان يمكن أن يكون مجدداً دون أن يكون خطيراً»[31]. لم يجد توكفيل لقاحاً فعّالاً ضد الفيروس ولكن فرانسوا فوريه وجد ذلك في شخص أوغستان كوشان المتعصب الكاثوليكي. فقد كتب هذا الأخير في بداية القرن العشرين ضد أطروحة أولار (Aulard) الجمهوري، فهو متشبث بالحضارة الكاثوليكية في العصر الوسيط

---

(29) المصدر نفسه.

(30) Alexis de Tocqueville, *Correspondance avec Kergolay* ([Paris]: Gallimard, [s. d.]), lettre du 16 mai 1858.

(31) Alexis de Tocqueville, *L'Ancien régime et la révolution,* idées; 55 (Paris: Gallimard, 1967), p. 265.

ومثله الأعلى هو القديس لويس (Saint Louis)، فأوغستان كوشان هو أبعد ما يكون عن فكرة الثورة في حد ذاتها، فهو يرفض النظام التأميمي وطغيان جمعيات الفكر أو«الخليط الشعبي»، فاليعاقبية (le jacobinisme) هي الشبح الذي رفعه أوغستان كوشان وجعل منها حركة وأيديولوجيا تحملان الشمولية في طياتهما باسم واقع علوي قد يكون إرادة الشعب والإرادة الجماعية. يرى فرانسوا فوريه في هذا المفهوم، الشعب - الملك «المهد المولد للشمولية»[32]. أخرجت مؤلفات أوغستان كوشان من تحت التراب من قبل غاكسوت (Gaxotte). في عام 1929 أعاد اعتماد أطروحة الإرهاب الفكري منددًا «بالدكتاتورية الشيوعية» للجبليين كأنها نهاية منطقية للثورة اليعاقبية. اعتمد فرانسوا فوريه كل شيء باستعادة ارث أكثر محافظة وهو تطور منطقي بما إنه يريد اقتلاع حتى فكرة الثورة: «فتح عام 1789 فترة انحراف التاريخ»[33].

إذا كانت الثورة الفرنسية قد انتهت وإذا كان تبخر معها التاريخ السياسي، فقد بدأت المئوية الثانية ولا يريد فرانسوا فوريه أن يكون خارج الإطار، فضاعف بحوثه حول حالات من تاريخ الثورة ليبرهن عن أطروحته حول الانحراف وعن العلاقة العضوية بين الثورة والاستبداد، فاعتمد من أجل دعم أطروحته على مفكر آخر من القرن التاسع عشر وهو مثل توكفيل، متأذ من انقلاب 2 كانون الأول/ ديسمبر الذي يصادف تاريخ نفيه إلى بلجيكا ثم سويسرا. يحلل إدغار كينيه (Edgar Quinet) وهو نائب جمهوري، فشل الثورة الفرنسية على ضوء فشل الجمهورية الثانية ونشر عام 1865 كتاب **تاريخ الثورة** (*Histoire de la révolution*) مستوحى من غائية المعارك الخاسرة: «كل شيء يدفع

---

(32) Furet, *Penser la Révolution française*, p. 232.

(33) المصدر نفسه، ص 69.

بمنفي 2 كانون الأول/ ديسمبر إلى تأمل متشائم حول الإرث الوطني»[34]. تظل عام 1789 بالنسبة على إدغار كينيه قطيعة تقدمية ولكن التوازن الذي نتج عنها يظل مؤقتا ومهدداً باستمرار بالانتكاس وبعودة نفس الشيء أي طغيان النظام القديم، فقد حصل هذا التراجع سنة 1792 مع الجبليين الذين انصهروا في الإرث الممركز للماضي الملكي مع لجنة الأنقاذ الوطني. ينفي إدغار كينيه مثل فرانسوا فوريه تأثير الحرب في هذا التطور للظروف الخارجية: «لا، ليست ضرورة الأشياء هي التي خلقت نظام الإرهاب. إنها الأفكار المغلوطة»[35]. استنتج فرانسوا فوريه من ذلك درساً فلسفياً أعلن عن خصائصه اللازمنية أي العلاقة الوثقى بين الظاهرة الثورية واستبداد الدولة، فهذا المشروع الإلغائي الذي رفضه مؤخراً ماكس غالّو[36] (Max Gallo) قد سمح لقراءة جديدة بأن تضع نفسها في موضع الخطاب السائد. وعلى رأس هذه القراءة يوجد بيار شونو المحاط بمجموعة من الشبان الطامحين إلى الخطاب الرسمي متغذين بكل الأعمال المناهضة للثورة منذ بدايتها عام 1789. تم إعادة رسم أساتذة الفكر القدامى ليظهروا بمظهر الحداثيين ولكنهم خرجوا لتوهم من مدارس التعليم الديني التقليدي المناهض للثورة. كتب إدمون بورك (Edmund Burke) ضد الثورة منذ 1790[37] ولم يكن في حاجة

(34) François Furet, *La Gauche et la révolution française au milieu du XIXe siècle: Edgar Quinet et la question du jacobinisme, 1865-1870*, textes présentés par Marina Valensise (Paris: Hachette, 1986), p. 30.

(35) المصدر نفسه، ص 96.

(36) Max Gallo, *Lettre ouverte à Maximilien Robespierre sur les nouveaux muscadins*, collection «lettre ouverte» (Paris: Albin Michel, 1986).

(37) Edmund Burke, *Réflexions sur la révolution de France, et sur les procédés de certaines sociétés, relatifs à cette révolution* (Londres; Paris: Impr. Jacob-Sion, 1790).

إلى حجة حادثة مقاطعة لا فانديه (la Vendée) ليستفظع ما يحدث في فرنسا. فقد هاجم فكر الفرنسيين التجريدي الذي يميل إلى نفي الواقع والتجربة باسم قيم ماورائية. جوزف دو ماستر[38] (Joseph de Maistre) يرفض كذلك سنة 1789 كما لو أنها ظاهرة شيطانية «يوجد في الثورة الفرنسية طابع شيطاني». وبهذه الصورة دخل مجمع المراجع الضرورية لمن يريد تدنيس جوهر الظاهرة الثورية. والوجه الثالث زعيم للصليبيين الجدد هو القس بارّويل[39]. فبالنسبة إليه حدثت مؤامرة نظمها ثلاثة زعماء: فولتير (Voltaire) ودالمبير (D'Alembert) وفريدريك الثاني (Frédéric II) «تم تحديد يوم 14 تموز/ يوليو 1789 كيوم للانتفاضة»[40]. وتكون الثورة إذاً وحشاً له ثلاثة مكونات: المؤامرة ونفي الواقع والجوهر الشمولي. تلك هي النسخة الجديدة التي يجب غرسها وتكرارها بقوة لإنها تحل مشكلة كل ما له علاقة بالظروف التاريخية التي يعتبرها فرانسوا فوريه، الذي تعرّض لضغوط اليمين، حجة «واهية». وجد القس بارّويل تواصلاً في شخص بيار شونو: «لم نحصل أبداً على أمر مكتوب من هتلر يتعلق بإبادة اليهود، ولكن لدينا أوامر بارير (Barrère) وكارنو (Carnot) فيما يتعلق بمقاطعة لافانديه (La Vendée). زد على ذلك أنني كلما مررت أمام ثانوية كارنو أبصق على الأرض»[41]. «إن التصور السادي لفيالق تورو (Tureau) يعادل وحدات النخبة النازية

---

(38) Joseph de Maistre, *Considération sur la France* (Lyon: Pélagaud, 1786).

(39) Augustin Barruel, *Mémoires pour servir à l'histoire du jacobinisme* (Hambourg: P. Fauche, 1797-1799).

(40) ورد في: Gallo, *Lettre ouverte à Maximilien Robespierre sur les nouveaux muscadins*, p. 48.

(41) Pierre Chaunu, *France-Culture*, 24 juin 1986.

(SS) والغولاغ والخمير الحمر»[42]. قدمت لنا الثورة كأنها «جزء صغير يشكل خطراً سرطانياً في تاريخنا»[43] وككل سرطان فهو يحتاج إلى علاج قوي. هكذا فتح بيار شونو الطريق للمؤلفات التي تهاجم الثورة حالة بحالة وتعتبرها ظمأ للدماء التي تسيل بكثرة وبعنف بربري. وقد تناول فريدريك بلوش (Frédéric Bluche) مذابح أيلول/ سبتمبر عام 1792، في ما تناول رينالد سيشيه (Reynald Secher) حادثة لا فانديه[44]. ونجد عبر هذه المؤلفات نفس الشراسة التي ظهرت في مناسبة سيئة، وهي مناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على الثورة عام 1939 وهي الفترة التي ثار فيها غضب بيار غاكسوت (Pierre Gaxotte) - في **إنني في كل مكان** (*Je suis partout*) - وليون دواديه (Léon Duadet) للثأر من عام 1936 ومن الجبهة الشعبية ومن العطل المدفوعة الأجر ومن خوفهم. وكما يقول ماكس غالّو (Max Gallo)، إن هذا الرفض من «هؤلاء الشبان الأنيقين الجدد» يستهدف في الواقع مبدأ المساواة الذي كتب على واجهة الجمهورية الفرنسية منذ عام 1789.

إنه وهم سياسة تأثيرية، ووهم تحرير، وأيضاً وهم الاحتفال الثوري. اختارت مونا أوزوف (Mona Ozouf) موقع الاحتفال، وهو المكان الممتاز لانتهاك المحظورات، والقواعد الاجتماعية السائدة، وللتعبير العفوي، لتبرهن أن الاحتفال الثوري بين عامي 1789 و1799

(42) ورد في: Gallo, Ibid., p. 22.

(43) المصدر نفسه، ص 26.

(44) Frédéric Bluche, *Septembre 1792, logiques d'un massacre*, les hommes et l'histoire, préface de Jean Tulard (Paris: R. Laffont, 1986), et Reynald Secher, *Le Génocide franco-français: La Vendée-Vengé*, histoires, préf. de Jean Meyer (Paris: Presses universitaires de France, 1986).

هو تعبير عن نظام وليس تعبيراً عن السعادة، هو إلزام وليس من الخيال: «إن حُمّى الاحتفال الثوري هي تاريخ لخيبة أمل عميقة»[45]. وبحذفها من حقل دراستها المظاهرَ العفوية لفرح الشعب التي يقصيها العنف من مفهوم الاحتفال، يصبح الأمر هيناً بالنسبة إلى مونا أوزوف لاستعادة الشكل الدوركايمي الذي يرى في الاحتفال تعبيراً إجماعياً لشعب جمعته السلطة. ففي هذه الحالة يكون الاحتفال جزءاً لا يتجزأ من وضع نظام لتأطير ومراقبة الفرد الموضوع في مجال جديد اقتحمته السلطة المهيمنة. تندرج هذه السلطة في مجال من الشفافية، وهو مجال مفتوح في الهواء الطلق بلا حدود، ويعرض نفسه للاحتفاء بذكراه مخلياً الكنائس ومديراً ظهره للجبال، كرمز للتراتبية. تسمح هذه الشفافية بمراقبة أي انحراف ومنعه. يوزّع الاحتفال الأفراد كما توزع المدارس التلاميذ حسب الصفوف، ويصبح الاحتفال مدرسة للإذعان. إنها أداة من أدوات الدولة البشعة التي تدفع تفرعاتها للسيطرة حتى على الزمن. إن هدف هذا التنظيم المسرحي، ورسالة هذه الأعمدة الضخمة التي ترفع حول مذابح الوطن، تكون كلها من أجل تهدئة الغليان الثوري وإيقاف الزمن في حاضر تأملي للإنجاز المحقق. وإذا كان حقاً يمكن أن يكون ذلك ممكناً عندما تقطع السلطة مع الضغط الشعبي، يتحول الاحتفال عندئذ إلى مجاز فارغ يمتص العنف الثوري: لم يعد لويس الرابع عشر هو الذي يهان في الساحات العامة وإنما فكرة الملكية. تنفي مونا أوزوف حقيقة الانفجار الخلاق للعام الثاني للثورة، عندما ظهر الشعب في المشهد السياسي أكثر تصميماً، ومكرّساً القطيعة مع مؤسسات السلطة. رغم أن تعميق القطيعة الاجتماعية يجعل تراجع كثافة القوانين وأنظمة الطقوس ممكنة بما في

---

(45) Mona Ozouf, *La Fête révolutionnaire, 1789-1799*, bibliothèque des histoires (Paris: Gallimard, 1976), p. 19.

ذلك تلك التي جاءت بها السلطات الجديدة، ولد احتفال آخر، هو احتفال الاعتراض، واحتفال الخيال الذي تنكره مونا أوزوف. وكيف لا نرى في الأيام الثورية، عندما امتدت سواعد الضواحي العارية لدعم الجمعية التأسيسية (la convention)، احتفالاً بالمصير؟ تضاعفت هذه الاحتفالات العفوية. ومنذ عام 1780 تنتقل جماعات الفلاحين يوم الأحد من قرية إلى قرية، حيث تخرج المقاعد من الكنائس وتقتلع دوارات الهواء عن سطوح المنازل، وترقص في الساحات العامة. وفي مرحلة الخروج على المسيحية كانت الغرائز تنتهك كل المحرمات، وحوّل الشعب الكنائس إلى قاعات للرقص، ونزع رجال الكنيسة لباسهم الكنسي، وتعددت سهرات الفرح. هذه الحركة التي انطلقت من القاعدة، كانت تجمع الناس حول محارق نصبت لحرق كراسي الاعتراف وزخارف الكنيسة وكتب الكنائس الدينية، والتي كان يتجمع حولها الناس ويرقصون رقصة الكرمنيول الإسبانية (Carmagnole). عندها لم تكن السلطة موجودة، وكان الشعب في كل مكان، وكان الفرح يتولد من نظرة الشعب للعمل المصمم الذي يقوم به ضد النظام القائم.

من المؤكد أن النار الثورية لا تزال حية حتى تحدث مثل تلك التوجهات التي وضعت على عاتقها مهمة إطفائها إلى الأبد من الأفق التاريخي. وكما كان يقول جورج كليمنصو (Georges Clemenceau) عام 1891: «إن هذه الثورة الرائعة، والتي بها وُجِدنا، لم تنته أبداً». فالثورة الفرنسية ذلك الرمز العالمي للتحرر، مازالت بقوة معناها هدفاً وخط اختلاف أساسي بين أولئك الذين يريدون دفنها للدفاع عن امتيازاتهم وأولئك الذين يتمنون أن يبنوا عالماً أكثر عدالة. لا، من المؤكد أن الثورة الفرنسية لم تنته.



الخاتمة

بتطبيقها لمناهجها على تاريخها، تعرّف مدرسة **الحوليّات** نفسها على أنها مدرسة طويلة الأمد، فهي تتبنى التواصل والثوابت التي توحد في حركة واحدة معارك لوسيان فيفر من أجل التاريخ والتاريخ المفتّت لبيار نورا. وفي نفس الوقت تريد هذه المدرسة أن تكون بعيدة عن الإدراك، وغير قابلة لأي شكل من التعريف، فهي سديم بلا نواة. وهذا تعبير عن فرضيتين. التأكيد بقوة على انتمائها إلى مجموعة لها ماضٍ ولها إنجازاتها وإضافاتها المتتالية وهو ما يسمح بتدعيم مواقعها السلطوية ويقوي البنى المؤسسية التي هي تشكل قوة **الحوليّات** أمام علوم إنسانية أصغر سناً وأقل تجذراً في دوائر السلطة. إن تناسق المجموعة والهوية المشتركة، ولو أسطورية جزئياً، ضروري لإدارة السلطة وديمومتها. إنه ضرورة استراتيجية. ولكن رأينا رغم ذلك أن من المناسب الفصل في هذه المدرسة بين تعاقب أجيال ثلاثة أو بين شكلين كبيرين لحقل العلوم الإنسانية. الاستمرارية التي جرى اعتمادها تحجب في الواقع جملة من الانعطافات، والانقطاعات بين الخطاب التاريخي في الثلاثينيات وخطاب الثمانينيات حتى وإن كان عدد من التوجهات التأسيسية موجوداً حتى اليوم. إن تاريخ مدرسة **الحوليّات** ليس تاريخاً جامداً.

بل بالعكس، فهي تواكب بنجاح التحولات المتتالية لمجتمعنا طيلة القرن العشرين وتصمد بنفس الحيوية أمام هجمات العلوم الاجتماعية المجاورة والمنافسة.

لقد اجتاز التاريخ مدرسة **الحوليّات** بشكل واسع، وهو تأثير ملحوظ خاصة لدى مؤرخين كثيري التقبل للعالم المحيط، بما في ذلك تأثير الموضات. يمكن أن نكتشف عدداً من حالات الاستمرار والانقطاع بين **جوليات** الثلاثينيات و**حوليات** الثمانينيات. نفس النفي للسياسي، وهو نقطة العدم في الأفق الحوليّاتي منذ الولادة، نفس عملية الاحتواء للعلوم الاجتماعية ولكل ما يبدو جديداً، ونفس المرجعية للتاريخ ـ المشكل، ونفس المسلك الثالث بين التاريخ التقليدي التاريخاني وماركسية متكلسة، احتلت **الحوليّات** ما كان فارغاً منها بولوج عوالم لم تكتشف من قبل. وهي في نفس الوقت حاجز لمقاومة الماركسية وبديل عنها ولكن ليس أيديولوجياً وإنما كذهنية، ليس مادياً ولكن كطبيعة مادية وليس جدلياً وإنما بنيوياً... نفس الشيء في إطار التأقلم مع الحداثة سواء في الثلاثينيات من خلال قراءة اقتصادوية، أرادت **الحوليّات** أن تؤدي دوراً نشيطاً وعملانياً من منظور إداري كما هو الشأن في الثمانينيات عندما انتقلت السلطة المهيمنة نحو وسائل الإعلام، فتأقلم الخطاب الاجتماعي ـ الثقافي **للحوليات** مع الخطاب السائد للمجتمع وازداد قوة باحتلال مواقع في السلطة الإعلامية ضمن استراتيجية غازية للتحكم بمواقع القرار في مجال النشر وتسويق الإنتاج التاريخي. نتج عن ذلك أول انحراف واضح في الانتقال من تاريخ جغرافي ـ اقتصادي إلى تاريخ للذهنيات أو الأنثروبولوجيا التاريخية. يمكن أن نكتشف انقطاعات أخرى، في المقام الأول لم يعد الإنسان الأفق الأول لعمل المؤرخ، دون بلوغ الحد الأقصى الذي بلغه إيمانويل لوروا لادوري وكتابه

تاريخ بدون البشر (*Histoire sans les hommes*)، فالتوجه لم يعد توجهاً أنثروبولوجياً. وارتباطاً بهذه اللامركزية، يجري الانتقال من التاريخ كعلم للتغيير مثلما هو الحال بالنسبة إلى مارك بلوخ ولوسيان فيفر إلى تاريخ «يكاد يكون جامداً» كما يعرّفه فرناند بروديل في خطابه الافتتاحي في كوليج دو فرانس عام 1950 ثم إلى «التاريخ الجامد» بالنسبة إلى إيمانويل لوروا لادوري عام 1973 عندما خلف فرناند بروديل في كوليج دو فرانس. إلا أن التاريخ لا يمكن أن يكون جامداً، أو أنه لا يكون. يوجد انقطاع آخر هام، يتمثل في التخلي عن كل جدلية بين الماضي والحاضر والمستقبل. لم يعد التاريخ عندئذ يعتبر كموقع لإنارة المعاصر: «بالنسبة لي التاريخ هو عبارة عن هروب خارج القرن العشرين. نحن نعيش فترة بائسة» هكذا اعتبر إيمانويل لوروا لادوري التاريخ. وأخيراً أهم الانقطاعات نجدها في تحطيم بناء المعرفة التاريخية، ونهاية كل التوجهات الشمولية، فلم يعد هناك التاريخ وإنما التواريخ. وبقدر ما شدّد الأبوان المؤسسان مارك بلوخ ولوسيان فيفر على تمسكهما بتاريخ كلي بقدر ما هناك شعور بالسعادة اليوم عند الحديث عن تعدد مواضيع التاريخ والمناهج والتفتت بعد مرحلة تعدد الأزمنة داخل مجموعة واحدة وهي مرحلة انتقالية مثلتها المرحلة البروديلية. ولكن انفجار الحقل التاريخي هذا لم يتم تبنيه من قبل كل المؤرخين الحوليّاتيين. هناك أعمال تذهب عكس هذا التوجه داخل المدرسة ذاتها. وهي أعمال تبرهن على إمكانية الاستفادة من مناهج العلوم الاجتماعية من دون أن يتم تحويل طريقة عملها بصورة آلية، والمحافظة بالتالي على الطموح التوليفي للتاريخ وعلى تشابك مختلف مستويات الواقع وعلى جدلية الأزمنة القصيرة والطويلة.

تدين مدرسة **الحوليّات** بنجاحها لهذه القدرة العجيبة على التأقلم. وفي كل منعرج نجد التحديات المرفوعة وعمليات السيطرة

التي تقوم بها العلوم الاجتماعية تجاه التاريخ. لقد تغيرت **الحوليّات** ونضجت لتتحول في النهاية إلى درجة أنه بالنسبة إلى بيار فيلار لم تعد مدرسة **الحوليّات** موجودة: «لقد ماتت»[1]. كرد على التحدي الدوركايمي في بداية القرن قام التاريخ الحوليّاتي بتحطيم أصنام التاريخ التاريخاني الثلاثة: البيوغرافي والسياسي والوقائعي. وأمام تحدي كلود ليفي ستراوس في الخمسينيات قامت **الحوليّات** مع فرناند بروديل بمفهمة الأمد الطويل كتعبير قادر على توحيد العلوم الاجتماعية. وفي الستينيات، مكّنت أعمال ميشال فوكو من إنهاء تحطيم البناء التاريخي انطلاقاً من أشكال جزئية مناطقية ومؤقتة للمعرفة. وبعد احتواء المدرسة الجغرافية الفيدالية وعلم الاجتماع الدوركايمي وعلم النفس التاريخي في الثلاثينيات، تم احتواء علم الإحصاء والديموغرافيا في الخمسينيات، ثم في الستينيات والسبعينيات تم احتواء الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، فهذا التاريخ الذي تم على ثلاث مراحل يعبّر عن حيوية كبيرة لمدرسة تعرف نفسها بانفتاحها ويسمح بالوصول إلى مواضيع جديدة وآفاق جديدة لبلوغ مستوى عال لإنتاج تاريخي ثري.

غير أن التاريخ الذي تم تطعيمه بالعلوم الاجتماعية ينتهي بالتخلي عن هويته ويتعرض لخطر كبير، بأن يجد نفسه معرّضاً للضياع في الانفجار والتحول إلى شظايا، وتعدد مواضيعه المختلفة والتي لا توجد بينها علاقات. وهو يوشك أن ينتهي مثل علم الحيوان بالأمس أو يعرف أزمة وتهميشاً كاللذين عرفتهم الجغرافيا، فإذا كان هذا التطور قد تم على ثلاث مراحل، يمكن أن نبين حركتين كبيرتين وشكلين مختلفين لعلوم الإنسان التي اندرج فيها تاريخ **الحوليّات**،

---

(1) P. Vilar, «Entretien avec l'auteur,» 24 janvier 1986.

مثّل التوجه الإنسانوي الشمولي توجه الجيل الأول والثاني وهو جيل مؤسسي **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** التي أسست عام 1929 من قبل مارك بلوخ ولوسيان فيفر وكذلك فرناند بروديل. إنها محاولة بناء سوق مشتركة لعلوم الإنسان الموحدة حول التاريخ والتوليف بينها في كتابة شمولية قد تؤدي إلى ميلاد علم مشترك كان فرناند بروديل يتمناه من أعماقه. وتغير المشهد في الستينيات، تخلّى المؤرخون الحوليّاتيون عن توجههم التوليفي من أجل الصمود أمام الهجوم الجديد للعلوم الاجتماعية، وألقوا بسلاحهم وأصبحوا يفكرون في تقسيم مؤقت للاختصاصات من خلال الممارسات المختلفة ومختلف مواضيع التاريخ، فوجد الإنسان نفسه خارج المركز من خلال هذا التوجه الذي وقع فيه تفكيك التاريخ إلى ممارسات جزئية وتخلى عن كل الطموحات الشمولية. عندئذ أصبح الأمر يتمثل في عمليات رصد انطلاقاً من إجراءات جزيئية للمجتمع لوصف تكتلات ثابتة تكون لها خصائص نظام. هذه العملية المجدولة يمكن أن يترتب عنها إثراء شرط أن تطرح مسألة تمفصل أنظمة مختلفة وتحديد المكانة في كيفية الوجود لقوى من خارج الوجود وقوى التفكيك الداخلي للعمل والتي تنبئ بمراحل القطيعة والمراحل الانتقالية. لقد أدت عملية التفكيك التي قامت بها **حوليات** الجيل الأخير إلى بروز كتابة أكثر وصفية مما هي تفسيرية وأكثر وضعانية وتجريبية مما هي علمية. وفي هذا الشكل الجديد لحقل العلوم الاجتماعية فقد المؤرخ عصاه كرئيس للجوقة ليصبح عاملاً من العمال في أعماق المناجم يأتي بالمواد المطلوب درسها للعلوم الاجتماعية الأخرى، كما يراه إيمانويل لوروا لادوري، فهو متسكع على طريقة ميشال دو سيرتو واختصاصي في الهوامش والمنحرفين والاختلال. إنه يتخلّى عن دوره الاجتماعي ليدخل بشكل أفضل في حقل الإعلام.

لقد كان التاريخ دائماً مرتبطاً بالسلطات. وقوة **الحوليّات** في أنها نجحت بالالتصاق بالسلطات الجديدة في القرن العشرين، وهي مختلفة عن سلطات الماضي، فالتاريخ يعطي خطاباً متماشياً مع المجتمع، فهو مرآة له وشفافية لسلطة تبحث فيه عن شرعيتها. إن وجود المؤرخ إلى جانب السلطة، يعطيها معنى، وهو الضامن لشرعيتها. تتمحور أزمات الخطاب التاريخي المتتالية حول مختلف مراحل تطور المجتمع، وهي في كل مرة مراحل للتأقلم مع إعادة تموقع الجهاز الاجتماعي.

إن كتابة تاريخ سياسية في عالم المدينة القديمة، في زمن كانت فيه المدينة تهيمن على المجتمع الإغريقي أو الروماني، كانت تدفع المؤرخ ليؤسس الهوية المدنية الجديدة أمام التقاليد القبلية. وكانت كليو تعطي قواعد الانسجام للمدينة ضمن توجهها التوسعي، ودفاعها وإشعاعها وكانت تقدم نفسها على أنها خطاب سياسي، مثل تمجيدها للأعمال العسكرية المتميزة. وفي العصر الوسيط كان رجال الكنيسة هم الذين يهيمنون على المجتمع ويعطون معنى لمصير المجتمع الغربي: «إن المسيحيين، مدفوعين بالتاريخ، سوف يمجّدون كليو بتعميدها»[2]. ويصبح التاريخ عندها أخلاقاً ويندمج ضمن نظرة دينية في إطار النظرة المسيحية لتحقيق خطة الرب. واندمج الواقع ضمن زمنية روحية. عرّف القديس أوغسطين (Saint Augustin) التاريخ في القرن الخامس على أنه تحقيق للمشيئة الإلهية. وفي تلك الفترة فرض رجال الدين نظرتهم للعالم ولمصير البشرية في الوقت الذي كانوا يقومون فيه بدورهم في الهيمنة على بقية طبقات المجتمع، أي العلمانيين. إنه عصر تاريخ خوارقي من الناحية الاخلاقية عصر تواريخ

(2) Charles-Olivier Carbonell, *L'Historiographie*, que sais-je?; 1966 (Paris: Presses universitaires de France, 1981), p. 26.

حياة القديسين، أي المناقب. كان التاريخ آنذاك كله تاريخ ديني تحت تأثير رجال الدين المنتظم، والرهبان داخل مؤسساتهم التعليمية الدينية. ولكن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تأقلم الخطاب التاريخي مع انتقال السلطة من الدير إلى المدينة ومن القصر إلى الدولة المركزية الناشئة، وتعرض التاريخ إلى عملية زمننة ليتناسب بشكل أفضل مع السلطة الجديدة المسيطرة. وأصبحت العلاقة بالزمن أكثر إنسانية وتأقلمت الزمنية مع أنساق هذه الدول الجديدة ونبضها، ومنحتها خطاباً مشرعناً اعتمدت عليه لتفرض نفسها. وهكذا تحقق الاتحاد بين النظامين المسيطرين في المجتمع، النبلاء ورجال الدين، من أجل الحفاظ على النظام الاجتماعي، واستخدم ملوك فرنسا في المقام الأول رهباناً لكتابة تاريخ المملكة. ولا يمكن للسلطة الملكية أن تحصر نفسها في التعبير عن القوة، فهي بحاجة إلى التعبير عن معنى قوتها وهذه من مهام المؤرخ. وفي هذه الفترة تكفل المؤرخون بتمجيد طبقة النبلاء ومدح شجاعتها ورجولتها وتفانيها خاصة في فترة الحروب الصليبية وهي الفترة المميزة التي تحقق فيها انصهار السياسي والديني واكتشاف الآخر: «إن فرواسار (Froissard) هو مرآة الطبقة الاجتماعية التي كان يكتب من أجلها»[3]. قام رواة تاريخ العصر الوسيط هؤلاء، أثناء خدمتهم سادة الفيودالية، بنقل الخطاب التاريخي من الديني إلى السياسي. وكان التاريخ «قد أصبح راشداً، وحصل على استقلاليته الذاتية. ولكنه لم يتوقف عن خدمة الكنيسة الا ليدخل في خدمة الدولة[4]». إن أول مؤرخ رسمي للملك كمهمة رسمية بأجر كان عام 1437، وقد شغل هذه الوظيفة راهب من سان

(3) R. Fossier, «Le Discours de l'histoire,» *France culture* (2 août 1978).

(4) Bernard Guenée, *Histoire et culture historique dans l'occident médiéval,* collection historique (Paris: Aubier Montaigne, 1980), p. 366.

دونيس (Saint Denis) هو جان شارتييه (Jean Chartier) في عهد شارل السابع (Charles VII) ولم تختفِ هذه الوظيفة إلا مع الثورة الفرنسية. توجه السلطة الملكية العمل التاريخي نحو تكوين خطاب يعكس لها صورة إيجابية ويبرر لها طموحاتها. والطبقة النبيلة مثل الملك تبني نفوذها على الانتساب إلى سلالة وإلى دم نبيل والتاريخ يعطيها أسساً واضحة لذلك التجذر، فيكون التاريخ لازمتها الضرورية بتبريره لوضعها الحاضر. رجل سلطة إلى جانب السلطة، ينسج المؤرخ تواصل المجال السياسي الذي ينظم المجتمع الجديد. سوف تتأكد وظيفة المؤرخ هذه، رديف السلطة، لمدة طويلة لغاية بداية القرن العشرين بالتأقلم مع مختلف الأنظمة السياسية. لقد رأينا في ما كانت المدرسة المنهجية، مدرسة لافيس وسينيوبوس، أداة فاعلة لجمهورية راديكالية كانت تستعد للثار من ألمانيا. إنه تاريخ سياسوي أساساً لمؤالفة نسيج الأمة الاجتماعي حول هدف مركزي يتمثل في الدفاع الوطني، وبذلك يهدف التاريخ للقيام بالحرب. ولكن المجتمع الفرنسي تطور منذ الحرب العالمية الأولى وأصبح الاقتصاد هو الجهاز الأساسي بالنسبة للسلطة. أصبح الاقتصادي، الحاسم دائماً، المرجع المهيمن في القرنين التاسع عشر والعشرين، شاملاً كل أوجه الحياة الاجتماعية فهو الذي ينظم المجتمع في مجمله. ينحني الخطاب التاريخي ليتأقلم مع هذا التطور، الذي يشكل الثورة الحوليّاتية في الثلاثينيات والتي تعد قطيعة إبيستيمية وانتقال للنظرة المؤرخة عن السياسي نحو الاقتصادي، وهي المرحلة الأولى للتأقلم مع الحداثة. لقد وجد هذا التاريخ الاقتصادوي ازدهاره عند فرناند بروديل بعد الحرب العالمية الثانية. و**الحوليّات** تعكس إذاً صدى التحولات في العالم، فما هو وضع **الحوليّات** اليوم؟ تسمح المقاربة السطحية باعتقاد العكس أي في غياب علاقات بين السلطات المهيمنة والتكنوقراطية والثقافة التقنية من جهة وبين المؤرخين الحاليين

المنطوين على تاريخ جامد وبعيد. ليس الأمر كذلك. إن الخطاب التاريخي الجديد، مثل القدامى يتأقلم مع السلطة والأيديولوجيا السائدة. في عالمنا الحديث تنحصر الرغبة في التغيير في الهوامش وفي رتبة الحلم الأجوف والهذيان عندما يتم التفكير في التغيير كوصف وليس كمجرد تحول كيفي وإعادة إنتاج للحاضر. تعكس **حوليّات** اليوم مراحل القطيعة ومراحل ثورات كأنها مجرد محاولات في صلب تواصل حامل لتطور خطي، فقد أصبحت الثورة أسطورة في هذا الخطاب التاريخي وكل من يحاول أن يفكر في التغيير لا يجد شيئاً يذكر في الأعمال العديدة والثرية لمدرسة **الحوليّات** كما يعترف بذلك جاك ريفيل[5]. إن الخطاب الحوليّاتي يعكس أوليّة وسائل الإعلام وهو يتأقلم مع قوانينها ويقدم تاريخاً ثقافياً وإثنوغرافياً بالأساس. وهو وصف باهر للثقافة المادية ضمن مقاربة رومانسية جديدة يجالس فيها المجانين الساحرات، وتحل فيها الهوامش والأطراف محل المركز وتقدم فيها الجمالية الجديدة وجها مغايراً للسلطة التكنوقراطية المحيطة وللأبنية الزاحفة على السواحل. وهذا التاريخ يستبطن الأحلام الجوفاء والمكبوتات ليحقق إجماعاً حول بناء حداثتنا ومهمة المؤرخ هي أن يجمع كل أولئك المنحرفين ليأتي بهم إلى محيط خليط حيث لكل واحد مكانه ضمن مجوعة اجتماعية خالية من التناقضات. لقد استطاعت هذه المدرسة المتأقلمة جيداً مع النظام الوصول إلى وضعية هيمنة. ولا أحد يعترض على النجاح الحوليّاتي والتي بلغ إشعاعها درجة قصوى حتى أنه لم يعد هناك مكان لتطور تيارات تعقبها: «لم يعد هناك صراع داخل أسرة المؤرخين»[6]. لقد انتهى العصر الذي كان فيه التاريخ على طريقة

---

(5) J. Revel, dans: *Annales* (novembre-décembre 1979), p. 1371.

(6) Jean Glénisson, «L'Historiographie française contemporaine,» dans: *La* =

لافيس العدو المحدد والذي كان يحرك الطاقات. هذا التاريخ التقليدي انتهى. لقد استقرت **الحوليّات** في موقعها السلطوي وأصبحت تمجد ذاتها وتبني أسطورتها. ولكن هذه الوضعية التي تكتفي فيها مدرسة بالتصرف في الإرث توشك أن تصل إلى مرحلة أزمة لأنه ليس هناك تناسب داخلي إلا ذاك الذي يرفض عودة التاريخ التقليدي. وقد ظهرت أصوات تدعو للنقد، وهي مرحلة أولى لانقطاعات قادمة. إن شهرة الكتابة التاريخية الحالية تعبر عن ضرورة تقييم الوضع مع إمكانية بروز الاختلافات المختفية وراء الشعار المشترك **للحوليات**. من علامات الأزمة التي تشق الخطاب الحوليّاتي الذي انتصر في كل المعارك ولكنه في قبضة القوى الداخلية النافرة، هو الموقف الشجاع شديد النقد لأحد الممثلين البارزين للمدرسة نفسها، ألان بزنسون الذي كتب: «هناك للأسف طريقة دنيا لكتابة التاريخ وهي للأسف تزدهر في بلادنا منذ الحرب: التاريخ الكلي أو التاريخ ذو الأنظمة. وهذه المرة لم تعد الأحداث معتبرة في حد ذاتها فلم تعد تحدث المفاجأة ولا الانبهار، ولا الرهبة. لقد أخذت هذه الأحداث وتم تكييسها وترسيخها ضمن شكل عام دائماً هو نفسه وفي إطار تأويل شمولي تكون له مبرراً. أي نظام؟ ليست الماركسية دائماً، وإنما علم اجتماع يترتب عنه بطريقة لاواعية تحمله ريح العصر والوسط الذي ينتدب منه المؤرخون والسهولة الفكرية التي يسمح بها **اقتصاديات، مجتمعات، حضارات**»[7]. ليس هناك أكثر وضوح في النقد الذي يوجه بصورة مباشرة إلى النواة التي تدير

Recherche historique en France de 1940 à 1965 (Paris: Centre national de la = recherche scientifique, 1965).

(7) Martin Malia, *Comprendre la révolution russe*, points, histoire; 45, préface d'Alain Besançon (Paris: Editions du Seuil, 1980), préface.

الحوليات، والمتهمة بالقيام بتسييل التاريخ باسم كلية يجب نبذها. إنها رائحة تفجر تصدر يوماً بعد يوم عن مدرسة يتبع فيها كل واحد طريقه للإنقاذ إلى درجة أنه يمكن التساؤل عما يربط تاريخاً أصبح أنثروبولوجيا تاريخية بتاريخ ديموغرافي ـ اقتصادي كمي وتاريخ مفاهيمي.

إن الكسر الداخلي الكبير الذي يخترق الخطاب الحوليّاتي يضع وجهاً لوجه دعاة تاريخ مفتّت، أي تاريخ يتبع مختلف طرق العلوم الاجتماعية ودعاة تاريخ كلي تغذى بإضافات العلوم الاجتماعية ولكنه يحافظ على القاعدة التاريخية وعلى طموحه الشمولي. إن الخطاب الأول هو خطاب أغلب عناصر النواة المهيمنة وهو يحتل مكانة مركزية وأهم ما في جهاز سلطة المدرسة، فهذا الذوبان للتاريخ في العلوم الاجتماعية يراه جاك لوغوف كاحتمال من ثلاثة احتمالات للمستقبل: تاريخ عام يكون قد ابتلع مختلف العلوم الإنسانية، ففي هذا الصراع من أجل المصالح الذي وضع التاريخ بصفته من أقدم العلوم وكعلم له شرعيته وجهاً لوجه منذ بداية القرن مع العلوم الاجتماعية الجديدة، قد يكون التاريخ استطاع أن يهيمن بفضل **الحوليّات** ويوحد الجميع ولكن مقابل ذوبانه وفقدانه لهويته. هناك طريق أخرى يراها تيار حولياتي ثان قريب من الماركسية ولكنه يعترف بالقيمة الظاهرية للتوجهات التأسيسية لمدرسة **الحوليّات**. يحذر هذا التيار من مخاطر تشتت التاريخ ويلح على ضرورة عمل التوليف خاصة في عصر ازداد فيه التخصص. كثيرون داخل **الحوليّات** أولئك الذين لا يزالون متشبثين وأوفياء بتوجههم للجيل الأول جيل التاريخ الشمولي، فهم يرون في المسار الكلي أساس الخصوصية التاريخية. وبعيداً عن المعارك الخلفية يرفض هؤلاء المؤرخون الاستقالة التي يُدعَون إليها من كل الأطراف، في حين أن أغلب الحوليّاتيين تخلّوا عن التاريخ الكلي باسم الخوف من

الشمولية ولكن أولئك الذين يحافظون على البعد الكلي هم أكبر ضامن ضد الشمولية. لقد استعاد الإنسان بعده في الزمن الذي يعيشه، في حين أن تجزّؤ الزمن إلى زمنيات متعددة وبدون علاقة يجرده من موقعه المركزي. على المؤرخ أن يختار عوضاً عن تفكك الزمن إلى زمنيات اقتصادية وسياسية وأيديولوجية مدروسة ضمن تطورها الخاص، وبصورة مستقلة، مقاربةً شمولية وإطاراً مفاهيمياً يسمح بالبحث في الأنظمة السببية ويبرز العلاقات بين الظواهر ذات الطبيعة المختلفة. يبرز التاريخي إذاً كجلية بين بنية معقولة مجردة والواقع. وهي حركة تنطلق من البنية إلى الظرفية والعكس ليعيد بناء شكل معقول. إن تجزّؤ حقل الواقع يتضاعف في بعض الأحيان بنزوع إلى الشمولية لدى بعض المؤرخين الذين يفككون ممارستهم على زمنين: الأول هو زمن التفكك ثم يأتي بعده زمن دمج العناصر النووية في كل وهمي يضعهما جنباً إلى جنب. إن هذا الوهم الوضعي الجديد لمسار شمولي يقتصد من مستوى أساسي، وهو التحليل البناء والفرضية السببية التي بدونها لا يمكن أن يكون هناك تاريخ كلي. إن المنطلق الخفي لهذه المقاربة الشمولية هو أن تعتبر أن هناك عقلانية في عمل المؤرخ، فمهمة المؤرخ إذاً، هي أن يكتشف حدود هذه العقلانية وراء جملة من الوقائع الغامضة ظاهرياً في مستوى معانيها. إنه فكر البعد الضروري والارتفاع من المجرد إلى الملموس كنقطة وصول وليس كنقطة انطلاق ليصل إلى بناء شبكة تراتبية لمحددات مختلف مستويات الواقع. «إن كل تاريخ جديد خال من طموح شمولي هو تاريخ هرم مسبقاً»[8]. يجب أن تتجنب التراتبية السببية التي يراد بناؤها خطرين:

---

(8) Pierre Vilar, dans: *Annales* (janvier 1973),

أعيد نشره: Pierre Vilar, *Une Histoire en construction: Approche marxiste et problématiques conjoncturelles,* hautes études ([Paris]: Gallimard; Seuil, 1982).

خطر التعميم النظري المجرد المنقطع عن الواقع، وخطر وصف الحالات المفردة. وبالعكس، يجب على المؤرخ أن يحقق حركة مستمرة ذهاباً وإياباً من الوقائعي إلى الإطار المفاهيمي، ومن الإطار المفاهيمي إلى الوقائعي. فلا يكون توليفه مجرد إلصاق لأجزاء مختلفة تقدم في تخطيط طوابقي ولكن بحثاً عن أنظمة سببية.

هؤلاء المؤرخون دعاة التاريخ الشمولي هم اليوم الحاملون الحقيقيون لتجديد الخطاب التاريخي ولتاريخ جديد حقيقي. يجب أن تقع إعادة ترتيب وفق معايير جديدة. أنشهد تفككاً، ليس تفكك التاريخ ولكن تفكك مدرسة **الحوليّات**؟ إن الجواب على مثل هذا السؤال ليس رهينة المؤرخين بقدر ما هو رهينة الحركة الاجتماعية. لكي يعود التاريخ من جديد علم التغيير، كما يسميه مارك بلوخ، عليه أن يقطع مع الخطاب الحوليّاتي السائد في زمن جامد مع نظرة ماضوية للمؤرخ الذي يحصّن نفسه من أي ضعف لإرادة التغيير، ويقدم نمطاً اجتماعياً له تنفس طبيعي منتظم لا يتغير عندما أصبح التاريخ إثنولوجياً، نفى ذاته، واستهدف أساسه الذاتي: الديمومة، بأنساقها البطيئة والسريعة وتقلباتها. تمر نهضة الخطاب التاريخي عبر قيامة ما رفضته مدرسة **الحوليّات** منذ البداية: الحدث. هذا الإقصاء للحدث يقود التاريخ على درب انحلال ما يشكل قاعدة لخصوصيته ووظيفته. تلك هي الممارسة الوحيدة التي من شأنها أن تتبين جدلية النظام والحدث وجدلية الأمد الطويل والقصير والبنية والظرفية. بالطبع، لا مجال للدعوة إلى العودة للوقائعي في التاريخ اللافيسي (L'Histoire lavissienne)، فقد تم وضع هذا الأخير ضمن المسليات والترويح عن النفس حتى ولو أن البعض يتمنى له الانبعاث مع العودة إلى زمن رواية أمجاد أبطالنا الوطنيين ورجالنا المتميزين ومغامرات المخادع. بعد هذا التاريخ المكثف للحفاة والعراة تتم في

النهاية إعادة اكتشاف بذخ الصالونات الساهرة وبريق الأنوار والأقمشة الفاخرة والأسرّة الوثيرة التي مرت منها نخب مجتمعات الأزمنة الماضية. يجب رفض هذا البديل المغلوط بين الرواية الوقائعية التي لا معنى لها ونفي الحدث، فالمقصود هو السعي لبعث الحدث الذي له معنى مرتبط بالبنى التي جعلته يكون ممكناً ومصدراً للتجديد: «إن النهضة التي هي علم حديث حقيقي لا يمكن أن تبدأ إلا مع الاعتراف بالحدث»[9]. إن إعادة الاعتبار للحدث هي إذاً ضرورة لبناء تاريخ جديد. يمر العمل التاريخي عبر تجاوز القطيعة بين الحاضر والماضي وبعلاقة عضوية بينهما تهدف إلى أن تؤدي معرفة الماضي إلى فهم أوضح لمجتمعنا. ولا ننسى مع موزس فينلي (Moses Finley) أننا يجب أن نغير العالم وليس الماضي»[10].

(9) E. Morin, dans: *Communications,* no. 18 (1972), p. 14.

(10) Moses Finley, dans: *Le Monde* (14/3/1982).

الثبت التعريفي

بناما (فضيحة) (Panama): هي فضيحة مالية وسياسية في عهد الجمهورية الثالثة (1888-1893)، تتمثل في القضاء على الشركة المكلفة بفتح قناة بناما، وقد كان لها تأثير كبير في المجالين السياسي والأيديولوجي. وقد تم تكليف فرديناند دو ليسبس الذي كان قد حفر قناة السويس، بإدارة هذه الشركة. ونظراً إلى صعوبة المهمة، اضطر دو ليسبس إلى الاعتماد على المدخرين الصغار ببيعهم أسهماً في الشركة. ولكن أمام الصعوبات استنجد دو ليسبس بإيفل من أجل حفر قناة على شكل ما هو حاصل في الأنهار الأوروبية. ولكن من أجل ذلك لابد من قرض رقاعي وهو أمر يحتاج إلى مصادقة البرلمان، فتمت رشوة العديد من النواب الذين تسميهم الوثائق والصحف في تلك الفترة بالصكوكيين (Les Chéquards). وقد انفجرت هذه الفضيحة عام 1891. وكانت لها مضاعفات عديدة سواء بالنسبة إلى الرأي العام أو انعدام الثقة في البرلمان ورجال الأعمال. وقد كان المدخرون أكبر ضحايا هذه العملية الفاشلة.

بوتسدام (قمة) (Potsdam): هو لقاء التأم ما بين 17 تموز/ يوليو و2 آب/ أغسطس 1945 جمع كلاً من روزفلت وستالين وتشرشل (حل آتلي الوزير الأول الجديد في بريطانيا مكان تشرشل)

وهدف إلى اتخاذ التدابير السياسية والاقتصادية لحل القضايا المطروحة بعد هزيمة ألمانيا النازية. ومن أهم قرارات هذه القمة هو نزع سلاح ألمانيا والقضاء على النازية ومحاكمة مجرمي الحرب وتحديد ما يجب على ألمانيا دفعه كتعويضات عن خسائر الحرب. كما انضم الاتحاد السوفياتي أثناء هذه القمة إلى التحذير الأنجلو ـ أمريكي الموجه إلى اليابان ومطالبتها بوضع السلاح بلا قيد ولا شرط. كما تم الاتفاق أثناء القمة على إعداد معاهدة سلم بين الأطراف المتنازعة ولكنها لم تعرف النور أبداً.

بولانجية (Boulangisme): اسم أطلق على الحركة السياسية التي التفت حول الجنرال بولانجيه (Boulanger) ما بين عامي 1886 و1889 والتي ضمت تجمعاً غير متجانس من الغاضبين والمعادين للنظام الجمهوري وقد اندلعت هذه الحركة على أثر تدليس النياشين الفخرية الذي كان يقوم به صهر الرئيس جول غريفي (Jules Grévy) وعزل الجنرال بولانجيه، ولكنها في الحقيقة نتيجة للأزمة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تتخبط فيها فرنسا في تلك الفترة منذ عام 1881. وإن لم تؤد هذه الحركة إلى قلب النظام فإنها شكلت تهديداً واضحاً للنظام الجمهوري البرلماني.

بونابرتية (Bonapartisme): تعني البونابرتية في نفس الوقت الوفاء لسلالة نابليون بونابرت الأول ولنوع من الحكم الفردي الذي يعتمد الاستفتاء الذي يزكّى بالاقتراع العام. تم إرساؤه في عهد نابليون الأول وخاصة في عهد نابليون الثالث. تتبنى البونابرتية إرث الثورة الفرنسية وكذلك الحكم المركزي الذي يمثله حاكم واحد وترفض وجود الأحزاب السياسية والنظام البرلماني وكذلك الحريات العامة. وتتجسد العلاقة بين الحاكم والشعب عبر الاستفتاء.

بيروس (Pyrrhus): من عائلة الإسكندر المقدوني، كان ملكاً

على منطقة إيبر شمال غرب بلاد اليونان، ولد حوالي عام 319 قبل الميلاد وتوفي حوالي عام 272 قبل الميلاد. وهو من كبار القواد العسكريين في بلاد اليونان في عهده. بسط نفوذه على مقدونيا التي غزاها عام 288 قبل الميلاد، تغلب على الرومان عام 280 قبل الميلاد ثم عام 279 في معركة أسكولوم ولكنه تكبد خسائر فادحة حتى أصبح انتصاره هذا مضرباً للمثل فيقال : **انتصار على شاكلة انتصار بيروس** (Victoire à la Pyrrhus). خاض العديد من الحروب في إيطاليا وبلاد اليونان ومقدونيا ومات في إحدى المعارك في شوارع مدينته الأصلية ـ أرغوس (Argos).

جاروزلسكي (الجنرال) (Wojciech Jaruzelski): ولد عام 1929 بمدينة كوروف، وهو جنرال وسياسي بولوني، شغل منصب وزير أول (1981 ـ 1985) وأميناً عاماً للحزب العمالي الموحد البولوني (1981 ـ 1989). شكّل لجنة عسكرية للإنقاذ الوطني عام 1981 لمجابهة الأزمة الاقتصادية والتململ الشعبي في بولونيا. ثم أعلن حالة الطوارئ مما أدّى بالكثيرين من سكان البلاد إلى السجن ومن ضمنهم الزعيم النقابي ليش فاليسا، زعيم نقابة تضامن (سوليدارنوشك) التي تم حلها في نفس الإطار. واضطر عام 1982 إلى إلغاء حالة الطوارئ نتيجة للعصيان المدني والحصار الاقتصادي الذي ضربه العالم الغربي على بولونيا. وقد اعتمد سياسة إصلاحية تهدف إلى إنشاء ديمقراطية في البلاد، فأصدر عفواً تشريعياً عاماً وسمح لنقابة التضامن بالعودة إلى النشاط الشرعي. انتخب رئيساً للبلاد عام 1989. وفي عام 1990 تم انتخاب ليش فاليسا خلفاً له.

جبليون (Montagnards): أطلق هذا الاسم في عهد الثورة الفرنسية على النواب الذين كانوا يجلسون على الكراسي المرتفعة داخل الجمعية التأسيسية عام 1791 وقد أطلقت تسمية الجبل على

هذا المكان المرتفع داخل الجمعية التأسيسية (La Convention). كانوا من أنصار الجمهورية يقودهم زعماء مثل دانتون (Danton) ومارا (Marat) وروبسبيار (Robespierre). عرفوا أوج النفوذ في ربيع سنة 1793، حيث كان عدد نوابهم 300 نائب. اعتمدوا على اللامتسرولين وعلى سكان باريس والمدن الكبرى في فرنسا، وفرضوا سياسة الإرهاب ولكنهم فشلوا بعد سقوط روبسبيار وأنصاره.

جيروند/ جيرونديون (Gironde et girondins): أطلق هذا الاسم على مجموعة سياسية أدت دوراً هاماً في بداية الثورة الفرنسية. أطلق عليها هذا الاسم - كما تسمى هذه المجموعة أيضاً بالبريسوتيين (Les Brissotins) نسبة إلى أحد زعمائهم الصحفي بريسّو (Brissot) - لأن أغلب زعمائها من منطقة الجيروند (La Gironde) جنوب غربي فرنسا. ومن أشهر زعمائهم يمكن أن نذكر بريّسو وبوزو (Buzot) ورولان (Roland) وفيرنيو (Vergniaud) وكوندورسيه (Condorcet). وهم من المحامين والصحافيين المنحدرين من أصول البورجوازية المناطقية. وقد كانوا من أشد المعارضين لعودة النظام القديم ولكنهم يناهضون أي إصلاح اجتماعي واقتصادي لصالح الفئات الشعبية. وكانوا يقولون بأن الثورة قد انتهت عام 1791 في الداخل لذلك يجب تصديرها إلى الخارج. كانوا يجلسون على يسار المجلس التشريعي ودفعوا لويس السادس عشر إلى إعلان الحرب ضد النمسا عام 1792 ولكنهم بعد التمرد الشعبي يوم 10 آب/ أغسطس عام 1792، انتقلوا إلى يمين المجلس وأصبحوا في وضع تصادمي مع بقية التيارات السياسية مما أدّى بالجبليين إلى محاصرتهم (يوم 2 حزيران/ يونيو 1793) وإعدام 21 منهم.

حرب المئة سنة (Guerre de cent ans): تطلق هذه التسمية على الحرب التي اندلعت بين فرنسا وإنجلترا عام 1337 والتي انتهت عام

1453. وإن كانت هذه الحرب متقطعة فقد حقق فيها الإنجليز انتصارات كثيرة على الجيش الفرنسي في معركة الإكلوز (L'Ecluse) عام 1340 وفي معركة كريسي (Crécy) عام 1356، ولم تستطع المملكة الفرنسية استعادة أراضيها التي كانت تحت سيطرة الإنجليز إلا بعد عام 1453 وذلك بفعل جهود الملك شارل السابع وحماسة جان دارك (Jeanne D'Arc). ولكن لم توقع معاهدة السلم بين البلدين إلا عام 1475 واضعة بذلك نهاية دبلوماسية لحرب دامت أكثر من مئة سنة.

درايفوس (قضية) (Affaire Dreyfus): كانت هذه القضية في البداية قضية تجسس ولكنها سرعان ما تحولت إلى قضية أخلاقية وسياسية قسمت الرأي العام الفرنسي في ظل الجمهورية الثالثة (1894 ـ 1904) إلى قسمين وعمقت الخلاف بين اليسار واليمين ونتج عن ذلك نشوء الجمهورية الراديكالية التي استمرت حتى عام 1940. وقد أثيرت هذه القضية بعد اكتشاف أسرار عسكرية فرنسية عند الألمان عبر سفارتهم في باريس. وقد وجهت تهمة إفشاء هذه الأسرار إلى أحد الضباط وهو ألفرد درايفوس وهو من عائلة يهودية بورجوازية من منطقة الألزاس. فحوكم بتهمة الخيانة ونفي إلى إحدى الجزر. ولكن اكتشفت وثائق تدين غيره فتحمس الكثيرون ودعوا إلى إعادة المحاكمة مثل الأديب إميل زولا، مما أدّى إلى العفو عنه في مرحلة أولى وإعادة المحاكمة عام 1906 وتبرئته وإعادة الاعتبار إليه.

ستاكانوفية (Stakhanovisme): اسم يطلق في الاتحاد السوفياتي على نظام عمل يهدف إلى الزيادة في المردود وهو مستمد من اسم عامل في مناجم الفحم يدعى ستاكانوف والذي يبدو حسب الدعاية السوفياتية أنه أنتج ما ينتجه 14 عاملاً من الفحم في يوم واحد (31 آب/ أغسطس 1935). وقد كان هذا النظام الإنتاجي يكافئ العمال

المتميزين بزيادة مرتباتهم وبمنحهم أوسمة تميز في قطاعات الصناعة والفلاحة والنقل.

شمال أفريقيون (Bougnoule): تنحدر الكلمة في الأصل من لغة الولوف بالسنغال وهي تعني «أسود». وفي البداية أطلقها الفرنسيون لوصف السود الأفارقة ثم تطورت الكلمة في اللغة الفرنسية لتصبح عبارة عن تسمية عنصرية ينعت بها سكان أفريقيا الشمالية وتضاف إليها عبارات أخرى في قاموس اللغة العنصرية مثل بيكو (Bicot) وراتون (Raton) وهو «الفأر الصغير» وتستعمل عبارة «راتوناد» (Ratonnade) للتعبير عن العمليات التي يقوم بها العنصريون ضد المغاربة في فرنسا وتستعمل كذلك مولون (Melon) وهو «البطيخ» وغيرها من الكلمات التحقيرية لكل من كان ينتمي إلى بلاد المغرب العربي أو كل من كان أسمر اللون عموماً.

صاحب اللحية الكثيفة (Poilu): في الأصل هي صفة ترمز إلى الفحولة ثم أصبح يستعملها المدنيون للتعبير عن جنود الحرب العالمية الأولى الذين قضوا سنوات طوالاً في الخنادق يجابهون الألمان. ويحتفل الفرنسيون في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر من كل عام بمن بقي حياً منهم إلى أن توفي آخرهم عام 2008.

طهران (قمة) (Téhéran): التأمت هذه القمة بمدينة طهران ما بين 28 تشرين الثاني/ نوفمبر و2 كانون الأول/ ديسمبر عام 1943 وهي أول قمة تجمع بين القوى الكبرى المتحالفة قي الحرب العالمية الثانية. حضرها روزفلت وتشرشل وستالين وكانت تهدف إلى فتح جبهة عسكرية ثانية وذلك بالإعداد لإنزال قوات حليفة في كل من نورماندي بغرب فرنسا وإكس آن بروفانس (Aix en Provence) بجنوبها.

غستابو (Gestapo): منظمة البوليس السري في ألمانيا النازية. وقد لعبت دوراً قاتماً في ألمانيا وفي البلدان التي جرى احتلالها خلال الحرب العالمية الثانية. قامت باعتقال وتعذيب وتصفية كل من لم يكن متعاطفاً مع النازية من الديمقراطيين والشيوعيين. كما طاردت بشراسة كل من قاوم الألمان في المناطق المحتلة وهي المسؤولة عن محرقة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية.

غولاغ (Goulag): التسمية التي تطلق في الاتحاد السوفياتي سابقاً على المعتقلات التي يحشر فيها المعارضون للسلطة وكل الذين حكم عليهم بالسجن من خمس إلى عشر سنوات. وقد بنيت هذه المعتقلات بعيداً عن المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة. وقد كان المسجونون يستخدمون كعمال بدون أجر في الغابات وفي المناجم. ويقدر عدد المسجونين في هذه المعتقلات عام 1939 بستة ملايين سجين. وقد كانت نسبة الوفيات مرتفعة داخل هذه المؤسسات بسبب سوء التغذية والمعاملة ومشقة الأعمال التي يكلفون بها. وقد اكتشف العالم وجود هذه المراكز العقابية من خلال الأدب وخاصة من خلال كتاب سولجينتسين المشهور **أرخبيل الغولاغ** (1973 ـ 1976).

كاميزار (Camisards): أطلقت هذه التسمية في فرنسا في عهد لويس السادس عشر على أنصار المذهب الكالفيني في منطقة السيفان (Les Cévennes) الذين ثاروا على الاضطهاد الديني الذي تواصل بعد إصدار مرسوم نانت (L'Edit de Nantes) (1685). وقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم كانوا يرتدون قمصاناً بيضاء فوق ثيابهم الخارجية للتعارف في ما بينهم في أثناء المعارك الليلية. وقد نجحت ثورة هؤلاء الناس التي يؤطرها حرفيون صغار ورعاة في الصمود أمام الجيوش الملكية لمدة ثلاث سنوات (1702 ـ 1705).

لامتسرولون (Sans culottes): هو الاسم الذي منح عام 1792

في ظل الجمعية التأسيسية (La Convention) في عهد الثورة الفرنسية للمناضلين الثوريين المنحدرين من الفئات الشعبية وإلى كل الثوريين الذين كانوا يدافعون عن المصالح الشعبية. وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يعتبرون لباس السروال الضيق رمزاً من رموز النظام القديم. وكانوا يرتدون سراويل مخططة باللون الأصفر والأخضر وصدرية صفراء فاتحة اللون وطربوشاً ثلاثي الألوان مثل سكان اليونان القدامى كرمز من رموز الانعتاق. وقد لعبوا دوراً هاماً في الضغط على الحكومة الثورية لاتخاذ جملة من القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لصالح الفئات الشعبية.

مخطط مارشال (Plan Marshall): مخطط اقترحه وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية جورج مارشال في حزيران/ يونيو عام 1947 لإعادة بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية وتأمين البلدان «المهددة بالتسرب الشيوعي»، فهو مخطط عسكري واقتصادي يهدف بالدرجة الأولى إلى «حماية» أوروبا وخاصة تركيا واليونان، ويشمل أيضاً الاتحاد السوفياتي، إلا أن وزير خارجية الاتحاد السوفياتي آنذاك وهو السيد مولوتوف، رفض هذا المخطط واعتبره من المخططات الإمبريالية التي تدبرها الولايات المتحدة. وتم قبول المشروع عام 1948 من قبل 17 دولة أوروبية منها فرنسا والمملكة المتحدة وإيطاليا والبلدان الإسكندينافية. وقد وفرت الولايات المتحدة بمقتضاه 12 مليار دولار ما بين أعوام 1948 و1951 إلى البلدان المعنية في شكل هبات عينية تمثل السدس والبقية في شكل قروض. وقد كانت لهذا المشروع عدة نتائج من الناحية الاقتصادية إذ ساهم بتنشيط الاقتصاد الأمريكي الذي يعاني من فائض في الإنتاج كما ساهم في إعادة بناء الاقتصاد الأوروبي. أما من الناحية السياسية فقد أدّى إلى قطيعة بين دول أوروبا الشرقية ودول أوروبا الغربية في إطار الحرب الباردة.

مكتبة تروي الزرقاء (Bibliothèque bleue de Troyes): تستمد اسمها من لون الورق الذي تغلف به كتبها. وهي مجموعة من الأقاصيص الشعبية في أوروبا الحديثة. وقد انتشرت هذه الأقاصيص منذ العصر الوسيط ومرت بمراحل مختلفة من الزيادات والتغييرات بحسب متطلبات الجهات والعصور. وهي قصص يمتزج فيها الخيال بالحقيقة، وتندمج فيها مغامرات الفرسان بأحداث الحروب الصليبية، وهي تشبه في بعض جوانبها ألف ليلة وليلة أو سيرة عنترة العبسي. وقد كان التجار المتنقلون يبيعون من ضمن بضاعتهم هذه القصص التي تقرأ بصوت مرتفع في السهرات العائلية الريفية عندما يتوفر من يحسن القراءة من خارج الإطار الكنسي نظراً إلى عدم خضوع محتوياتها لأخلاقيات الكنيسة في أغلب الأحيان.

ناكازاكي (Nagasaki): مدينة يابانية تقع في جزيرة كيوشيو قصفها الأمريكيون بالقنبلة النووية يوم 9 آب/ أغسطس عام 1945 مما أدّى إلى وفاة 20 ألف نسمة وجرح 50 ألف آخرين.

نظام المجلسين (Bicaméralisme): نظام تمثيلي يتميز بوجود مجلسين يمثلان الشعب وهو نظام نشأ في المملكة المتحدة ويتميز بوجود مجلس للنواب ومجلس للوردات ثم بعد ذلك انتشر في عدد من البلدان وهو في فرنسا يتكون من مجلسين: مجلس النواب ومجلس الشيوخ.

هيروشيما (Hiroshima): مدينة يابانية تقع على الساحل الجنوبي لجزيرة هوندو قصفها الأمريكيون يوم 6 آب/ أغسطس عام 1945 بالقنبلة النووية مما أدّى إلى 130 ألف إصابة، بينهم 80 ألف قتيل.

يالطا (قمة) (Yalta): التأمت قمة يالطا بالقرم ما بين 4 و11 شباط/ فبراير عام 1945 وجمعت كلاً من روزفلت وتشرشل وستالين

من أجل الاستعداد لمرحلة ما بعد الحرب وقرب هزيمة ألمانيا. وقد كانت الولايات المتحدة تهدف في تلك الفترة إلى كسب تحالف الاتحاد السوفياتي ضد اليابان ووضع نظام أمني مشترك. وكانت بريطانيا ترغب من جانبها في تقليص الدور المتزايد للاتحاد السوفياتي في أوروبا الوسطى خاصة وأن القوات السوفياتية كانت تسيطر على أكبر جزء من هذه البلدان وهي على بعد حوالي 90 كلم من العاصمة برلين. وقد أدت هذه القمة إلى اتخاذ جملة من القرارات منها: الموافقة على إنشاء هيئة الأمم المتحدة، والاتفاق على ضرورة السيطرة على ألمانيا وادارتها حسب تقسيم رباعي بين فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي كما التزم الاتحاد السوفياتي الدخول في الحرب ضد اليابان بعد ثلاثة أشهر من انهيار ألمانيا بشرط السيطرة على بعض المناطق في المحيط الهادي وجنوب شرق آسيا (منشوريا، جزر كوريل وجنوب جزيرة سكالين وهي أراضي فقدتها روسيا عام 1904 ـ 1905 على إثر الحرب الروسية اليابانية). كما تقرر إنشاء أنظمة ديمقراطية في البلدان الأوروبية المحررة، وضبط الحدود بين الاتحاد السوفياتي وبولونيا. وتم الاتفاق في يالطا على تقسيم العالم بين القوى الكبرى الثلاث.

يعاقبية (Jacobinisme): هي جمعية سياسية أنشأها في البداية نواب مقاطعة بريتانيا الفرنسية (La Bretagne) في شهر أيار/ مايو عام 1789 في فرنسا. وهي جمعية تتكون من النواب المعتدلين والذين ينادون بملكية دستورية، ولكن أنصار هذه الجمعية انقسموا بعد إلقاء القبض على الملك لويس السادس عشر، فمنهم من أسس تياراً آخر هو تيار «الرهبان» (Les Feuillants) ومنهم من إنضم إلى الجمهوريين. شاركوا في الحياة السياسية إلى جانب روبسبيار. وبقيت العبارة في فرنسا تعني الجمهوريين الذين يساندون نظاماً ديمقراطياً مركزياً قوياً.

ثبت المصطلحات

اجتماعوية	Sociabilité
أدوات ذهنية	Outillage mental
ازدواجية المجالس	Bicamérisme
استباحة المحارم	Inceste
استنتاجية	Discursivité
اصطلاحي	Idiographique
إغريقي/ يوناني	Grecque
اقتصادوية	Economiciste
إقطاعة	Fief
التحام	Coalescence
إمكانوية	Possibilisme
إمكانوية تاريخية	Possibilisme historique
الأنا الأعلى	Surmoi
إنسانوية	Humaniste
أنوار	Lumières
أوليّة	Primauté
بنى تحتية	Infrastructure
بنى فوقية	Superstructure
بيت تقليدي قديم	Ostal

Histoire	تاريخ
Ethno histoire	تاريخ إثني
Histoire immobile	تاريخ جامد
Histoire sérielle	تاريخ جداولي أو سلاسلي
Histoire nouvelle	تاريخ جديد
Psychohistoire	تاريخ علم - نفسي
Histoire totale	تاريخ كلي
Histoire quantitative	تاريخ كمي
Micro histoire	تاريخ مجهري
Histoire comparatiste	تاريخ مقارني
Histoire quantifiée	تاريخ مكمم
Eistoricisme	تاريخ واقعي/ تاريخ حقائقي
Historisante	تاريخاني
Historique	تاريخي
Erudition	تبحّر علمي
Abstraction	تجريد
Spatialisation	تحييز
Adoubement	تدريع
Combinatoire	تركيبية
Nominaliste	تسموي
Moniste	توحيدية
Fixisme social	ثباتية اجتماعية
Montagnards	جبليون
Gironde et girondins	جيروند/ جيرونديون
Présentification	حاضرية
Annaliste	حوليّاتية/ حوليّاتي
Spatial	حيزي مجالي
Vitaliste	حيواتي

Vitalisme	حيواتية
Cérébralisation	دمغنة
Séculier	دنيوي
Piétaille	دهماء
Cycle	دورة
Etatique	دولياتي
Bannière tricolore	راية ثلاثية الأوان (علم فرنسا الأبيض وأزرق وأحمر)
Temporalité	زمنية
Temporels	زمنيّون
Onction	زيت تعميد
Cartulaire	سجل كنسي
Registres paroissiaux	سجلات الأديرة
Schématisme	شكلانية
Bougnoules	شمال أفريقيون
Totalitaire	شمولي
Epiphénomènes	ظواهر العرضية
Organiciste	عضوانية
Sociologisme	علم - اجتماعوي
Laïcs	علمانيون
Scientiste	علموية
Sciences légitimes	علوم شرعية
Grégoriens	غريغوريون
Chronosophie	فلسفة تأريخية
Vidalisme de la Blache	فيدالية (نسبة إلى الجغرافي)
Servage	قنانة/ استعباد
Chaires	كرسي/ كراسٍ
Totalité	كليانية
Commune de Paris	كومونة

Déshistoricisation	لاتأرخة
Sans culottes	لامتسرولون
Mercuriales	لوائح أسعار
Macro-histoire	ماكرو تاريخ
Imaginaire	متخيل
Abstrait	مجرد
Ecole historisante	مدرسة تاريخية واقعية
Panthéon	مدفن عظماء الأمة
Scrofuleux (maladie)	مسلوعون
Conceptualisation	مفهمة
Comparaison	مقارنة
Comparatisme	مقارنية
Sacré	مقدس
Bibliothèque bleue de Troyes	مكتبة تروي الزرقاء
Claviers de possibilités	ملامس الإمكانيات
Hérétique	مهرطق
Historien	مؤرخ
Objectivisme	موضوعانية
Système féodal	نظام إقطاعي
Ancien régime	نظام قديم
Guanta/ quantum	نظرية كميات محددة
Nomographie	نموذجي
Médiéval	وسيطي
Médiévale	وسيطية
Bras séculier	يد زمنية

المراجع

1 ـ العربية

كتب

التاريخ الجديد. إشراف جاك لوغوف؛ ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري؛ مراجعة عبد الحميد هنية. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007. (علوم إنسانية واجتماعية)

دوريات

«افتتاحية: التاريخ والعلوم الاجتماعية: تحول حاسم.» **الحوليّات**: آذار/ مارس ـ نيسان/ أبريل 1988.

الحوليّات: 1960.

2 ـ الأجنبية

Books

Alphandéry, Paul. *La Chrétienté et l'idée de croisade*. Texte établi par Alphonse Dupront. Paris: A. Michel, 1954-1959. 2 vols. (L'Evolution de l'humanité, synthèse collective, 2. sect.; no. 38)

Ariès, Philippe. *Essais sur l'histoire de la mort en Occident: Du moyen âge à nos jours*. Paris: Editions du Seuil, 1975.

———. *Un Historien du dimanche.* Avec la collaboration de Michel Winock. Paris: Editions du Seuil, 1980.

———. *Le Temps de l'histoire.* Préface de Roger Chartier. Paris: Editions du Seuil, 1986. (L'Univers historique)

Aron, Jean-Paul. *Le Mangeur au XIX^ème^ siècle.* Paris: Denoël Gonthier, 1976. (Bibliothèque médiations; 142)

Aron, Raymond. *Introduction à la philosophie de l'histoire.* Paris: Gallimard, 1984. (Bibliothèque des sciences humaines)

Aymard, Maurice [et al.]. *Lire Braudel.* Paris: La Découverte, 1988. (Armillaire)

Bachelard, Gaston. *La Formation de l'esprit scientifique: Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective.* Paris: J. Vrin, 1969.

Bakhtine, M. *L'Oeuvre de François Rabelais et la culture populaire au moyen âge et sous la renaissance.* Traduit du russe par André Robel. Paris: Gallimard, 1970. (Bibliothèque des idées)

Barraclough, Geoffrey. *Tendances actuelles de l'histoire.* Paris: Flammarion, 1980. (Champ; 91)

Barruel, Augustin. *Mémoires pour servir à l'histoire du jacobinisme.* Hambourg: P. Fauche, 1797-1799.

Berr, Henri. *L'Avenir de la philosophie: Esquisse d'une synthèse des connaissances fondée sur l'histoire.* Paris: Hachette, 1899.

———. *La Guerre allemande et la paix française: I. Le Germanisme contre l'esprit français, essai de psychologie historique.* Paris: La renaissance du livre, 1919.

———. *La Synthèse en histoire: Essai critique et théorique.* Paris: F. Alcan, 1911. (Bibliothèque de philosophie contemporaine)

Besançon, Alain. *Histoire et expérience du moi.* Paris: Flammarion, 1971. (Science)

Blanchard, Raoul. *La Flandre, étude géographique de la plaine flamande en France, Belgique et Hollande.* Dunkerque: La Société dunkerquoise pour l'avancement des lettres, des sciences et des arts, 1906.

Bloch, Marc. *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien.* Préface de Georges Duby. 7^ème^ éd. Paris: A. Colin, 1974. (U prisme; 34)

———. *L'Etrange défaite.* Avant-propos de Georges Altman. Paris: Editions Franc-tireur, 1946.

———. *L'Ile-de-France (les pays autour de Paris).* Paris: L. Cerf, 1913.

———. *Les Rois thaumaturges: Etude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre*. Paris: A. Colin, 1961.
———. ———. Préface de Jacques Le Goff. Paris: Gallimard, 1983. (Bibliothèque des histoires)
———. *Seigneurie française et manoir anglais*. Préf. de Georges Duby, Paris: A. Colin, 1967. (Cahiers des «Annales»; 16)
———. *La Société féodale*. Paris: A. Michel, 1968. (L'Evolution de l'humanité; 8)
Bluche, Frédéric. *Septembre 1792, logiques d'un massacre*. Préface de Jean Tulard. Paris: R. Laffont, 1986. (Les Hommes et l'histoire)
Bois, Guy. *Crise du féodalisme: Economie rurale et démographie en Normandie orientale du début du 14ème siècle au milieu du 16ème siècle*. Paris: Presses de la fondation nationale des sciences politiques, 1976. (Cahiers de la fondation nationale des sciences politiques; no. 202)
Bollème, Geneviève. *La Bibliothèque bleue; littérature populaire en France du XVIIème au XIXème siècle*. Paris: Julliard, 1971. (Collection archives; 44)
Bouglé, C. *Bilan de la sociologie française contemporaine*. Paris: F. Alcan, 1935. (Nouvelle encyclopédie philosophique; 4)
Bourdé, Guy et Hervé Martin. *Les Ecoles historiques*. Paris: Le Seuil, 1983. (Points, histoire; H67)
Braudel, Fernand. *Civilisation matérielle, économie et capitalisme: XVème-XVIIIème siècle*. Paris: A. Colin, 1979. 3 vols.
———. *Civilisation matérielle et capitalisme, 1, XVème-XVIIIème siècle*. Paris: A. Colin, 1967.
Vol. 1: *Les Structures du quotidien, le possible et l'impossible*.
Vol. 2: *Les Jeux de l'échange*.
Vol. 3: *Le Temps du monde*.
———. *La Dynamique du capitalisme*. Paris: Arthaud, 1985.
———. *Ecrits sur l'histoire*. Paris: Flammarion, 1969.
———. *L'Identité de la France*. Paris: Flammarion, 1986.
———. *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*. Paris: Armand Colin, 1949.
———. ———. Paris: A. Colin, 1976. 2 vols.
Broglie, M. le duc de et M. le baron A. de Staël. *Considérations sur les principaux événements de la révolution française: Ouvrage*

posthume de Mad. la baronne de Staël. Londres: Chez Baldwin, Cradock, et Joy, 1818. 3 vols.

Burguière, André (dir.). *Dictionnaire des sciences historiques.* Paris: Presses universitaires de France, 1986.

Burke, Edmund. *Réflexions sur la révolution de France, et sur les procédés de certaines sociétés, relatifs à cette révolution.* Londres; Paris: Impr. Jacob-Sion, 1790.

Caillé, Alain. *Splendeurs et misères des sciences sociales: Esquisses d'une mythologie.* Genève: Droz, 1986. (Pratiques sociales et théories; 3)

Carbonell, Charles-Olivier. *L'Historiographie.* 2ème éd. corr. Paris: Presses universitaires de France, 1986. (Que sais-je?; 1966)

Châtelet, François. *La Naissance de l'histoire: La Formation de la pensée historienne en Grèce.* Paris: Union générale d'éditions, 1962. 2 vols. (10/18; 819-820)

Chaunu, Huguette et Pierre Chaunu. *Séville et l'atlantique, 1504-1650.* Paris: S.E.V.P.E.N, 1975.

Chaunu, Pierre. *Histoire, science sociale: La Durée, l'espace et l'homme à l'époque moderne.* Paris: Société d'édition d'enseignement supérieur, 1974.

——— et Georges Suffert. *La Peste blanche: Comment éviter le suicide de l'occident.* [Paris]: Gallimard, 1976. (L'Air du temps)

Chaussinand-Nogaret, Guy. *La Noblesse au XVIIIème siècle: De la féodalité aux lumières.* [Paris]: Hachette, 1976.

Chesneaux, Jean. *De la modernité.* Paris: La Découverte; Maspero, 1983. (Cahiers libres; 379)

———. *Du passé faisons table rase?: A propos de l'histoire et des historiens.* Paris: F. Maspero, 1976. (Petite collection Maspero; 164)

Corbin, Alain. *Les Filles de noce: Misère sexuelle et prostitution: 19ème et 20ème siècles.* Paris: Aubier Montaigne, 1978. (Collection historique)

Coulanges, Fustel de. *Histoire des institutions politiques de l'ancienne France.* Paris: Hachette, 1888. 6 vols.
Vol. 3: *La Monarchie franque.*

———. *Questions historiques.* Revues et complétées d'après les notes de l'auteur. Paris: Hachette et cie, 1893.

Coutau-Bégarie, Hervé. *Le Phénomène «nouvelle histoire»: Stratégie et idéologie des nouveaux historiens.* Paris: Economica, 1983.

Crise de l'économie française à la fin de l'ancien régime et au début de la révolution. Paris: Presses universitaires de France, 1944.

Debray, Régis. *Critique de la raison politique*. Paris: Gallimard, 1981. (Bibliothèque des idées)

Delumeau, Jean. *La Peur en occident, XIV^{ème}-XVIII^{ème} siècles: Une Cité assiégée*. Paris: Fayard, 1978.

Demangeon, Albert. *Le Déclin de l'Europe*. Paris: Payot, 1920. (Bibliothèque politique et économique)

———. *La Picardie et les régions voisines, Artois, Cambrésis,* Beauvaisis. Paris: A. Colin, 1905.

——— et Lucien Febvre. *Le Rhin: Problèmes d'histoire et* d'économie. Paris: A. Colin, 1935.

Dosse, François. *L'Empire du sens: L'Humanisation des sciences humaines*. Paris: La Découverte, 1995.

Duby, Georges. *Le Chevalier, la femme et le prêtre: Le Mariage dans la France féodale*. Paris: Hachette, 1981.

———. *Guerriers et paysans, VII-XII^{ème} siècle; premier essor de l'économie européenne*. Paris: Gallimard, 1973. (Bibliothèque des histoires)

———. *La Société aux XI^{ème} et XII^{ème} siècles dans la région mâconnaise*. Paris: A. Colin, 1953.

——— et Guy Lardreau. *Dialogues*. Paris: Flammarion, 1980.

Elias, Norbet. *La Civilisation des mœurs*. [Paris]: Calmann-Lévy, 1974. (Archives des sciences sociales)

Encyclopedia Universalis. Paris: [s. n.], 1968.

Espinas, Georges. *Les Origines du capitalisme*. Lille: Librairie E. Raoust, 1933-1949.

———. *La Vie urbaine à Douai au moyen âge*. Paris: A. Picard, 1913.

Essais de méthode, de critique et d'histoire littéraire. Rassemblés et présentés par Henri Peyre. Paris: Hachette, 1965.

Evantail de l'histoire vivante. Paris: A. Colin, 1953.

Eventail de l'histoire vivante, hommage à Lucien Febvre offert [à l'occasion de son 75ème anniversaire] par l'amité d'historiens, linguistes, géographes, économistes, sociologues, ethnologues. Paris: A. Colin, 1953. 2 vols.

Febvre, Lucien. *Combats pour l'histoire*. Paris: Armand Colin, 1953. (Economies, sociétés, civilisations)

———. *Un Destin: Martin Luther*. Avec une postf. de Robert Mandrou. 4ème éd. Paris: Presses universitaires de France,

1968. (Collection hier; 3)
———. *Philippe II et la Franche-Comté: Etude d'histoire politique, religieuse et sociale.* Paris: Flammarion, 1970.
———. *Le Problème de l'incroyance au XVI^{ème} siècle: La Religion de Rabelais.* Paris: A. Michel, 1942. (L'Evolution de l'humanité; 53)
———. *Pour une histoire à part entière.* Paris: Service d'édition et de vente des publications de l'éducation nationale, 1962.
———. ———. Paris: Editions de l'école des hautes études en sciences sociales, 1982. (Bibliothèque générale de l'école des hautes études en sciences sociales)
———. *La Terre et l'évolution humaine.* Paris: Renaissance du livre, 1922.
Felice, Raoul de. *La Basse-Normandie: Etude de géographie régionale.* Paris: Hachette, 1907.
Ferro, Marc. *L'Histoire sous surveillance: Science et conscience de l'histoire.* Paris: Calmann-Lévy, 1985. (Intelligence de l'histoire)
Flandrin, Jean-Louis. *Familles: Parenté, maison, sexualité dans l'ancienne société.* Paris: Hachette, 1976. (Le Temps et les hommes)
Fleury, Michel et Louis Henry. *Des Registres paroissiaux à l'histoire de la population: Manuel de dépouillement et d'exploitation de l'état-civil ancient.* [Préface d'Alfred Sauvy]. Paris: Institut national d'études démographiques, 1956.
Fleury, S. (ed.). *Mélanges Mélanges M. Bloch.* Paris: EHESS, 1983.
Foucault, Michel. *L'Archéologie du savoir.* Paris: Gallimard, 1969. (Bibliothèque des sciences humaines)
———. *Les Mots et les choses; une archéologie des sciences humaines.* Paris: Gallimard, 1966. (Bibliothèque des sciences humaines)
———. *L'Ordre du discours; leçon inaugurale au collège de France prononcée le 2 décembre 1970.* Paris: Gallimard, 1971.
Furet, François. *Atelier de l'histoire.* Paris: Flammarion, 1982.
———. *La Gauche et la révolution française au milieu du XIXe siècle: Edgar Quinet et la question du jacobinisme, 1865-1870.* Textes présentés par Marina Valensise. Paris: Hachette, 1986.
———. *Penser la révolution française.* Paris: Gallimard, 1978. (Bibliothèque des histoires)
——— et Denis Richet. *La Révolution française.* Nouv. ed. Paris:

Fayard, 1973. (L'histoire sans frontières)
——— et Jacques Ozouf (dirs.). *Lire et écrire: L'Alphabétisation des Français de Calvin à Jules Ferry*. Paris: Edition de Minuit, 1977. 2 vols. (Le Sens commun)
Gallo, Max. *Lettre ouverte à Maximilien Robespierre sur les nouveaux muscadins*. Paris: Albin Michel, 1986. (Collection «lettre ouverte»)
Granet, Marcel. *Fêtes et chansons anciennes de la chine*. Paris: E. Leroux, 1919.
———. *La Religion des chinois*. Paris: Gauthier-Villars, 1922. (Science et civilisation: Collection d'exposés synthétiques du savoir humain)
Guenée, Bernard. *Histoire et culture historique dans l'Occident médiéval*. Paris: Aubier Montaigne, 1980. (Collection historique)
Guerreau, Alain. *Le Féodalisme, un horizon théorique*. Préface de Jacques Le Goff. Paris: Le Sycomore, 1980.
Guizot, M. *Histoire de la civilisation en Europe*. 7ème éd. Paris: Didier, 1828.
Halbwachs, Maurice. *Les Causes du suicide*. Paris: F. Alcan, 1930.
———. *Esquisse d'une psychologie des classes sociales*. Paris: M. Rivière, 1939.
———. *Morphologie sociale*. Paris: A. Colin, 1938.
Hamon, Hervé et Patrick Rotman. *La Deuxième gauche: Histoire intellectuelle et politique de la CFDT*. Paris: Editions Ramsay, 1982. (Collection «l'épreuve des faits»)
Hauser, Henri. *Recherches et documents sur l'histoire des prix en France de 1500 à 1800*. Publiés par Henri Hauser [avec la collaboration de Denuc et P.-J. Burin]. Paris: Impr. Les Presses modernes, 1936.
Hémardinquer, Jean-Jacques. *Pour une histoire d'alimentation*. Paris: A. Colin, 1970. (Cahiers des annales; no. 28)
Henry, Louis. *Une Richesse démographique en friche: Les Registres paroissiaux*. [s. l.]: [s. n.], 1953.
Histoire de France. [Sous la direction de Jean Favier]. Paris: Fayard, 1984-1988. 6 vols.
Vol. 1: *Les Origines (avant l'an mil)*.
Iggers, Georg G. *New Directions in European Historiography*. With a

Contribution by Norman Baker. Middletown, Conn.: Wesleyan University Press, [1975].

L'Impossible prison: Recherches sur le système pénitentiaire au XIX^ème^ siècle. Réunies par Michelle Perrot; débat avec Michel Foucault. Paris: Seuil, 1980. (L'Univers historique)

Joutard, Philippe. *La Légende des Camisards: Une Sensibilité au passé.* Paris: Gallimard, 1977. (Bibliothèque des histoires)

Julien, Charles-André. *Histoire de l'Afrique du Nord: Tunisie, Algérie, Maroc.* Paris: Payot, 1931.

———. *Histoire de l'Algérie contemporaine.* Paris: Presses universitaires de France, 1964.

Julliard, Jacques. *La Faute à Rousseau: Essai sur les conséquences historiques de l'idée de souveraineté populaire.* Paris: Editions du Seuil, 1985.

Labrousse, C. E. *Esquisse du mouvement des prix et des revenue en France au XVIII^ème^ siècle.* Préface de Henri Sée et de Roger Picard. Paris: Dalloz, 1933. 2 vols. (Collection scientifique d'économie politique; 3)

Lane, Frederic C. *Venise: Une République maritime.* Paris: Flammarion, 1985.

Langlois, Charles Victor et Charles Seignobos. *Introduction aux études historiques*, préface de Madeleine Rebérioux. Paris: Editions Kimé, 1992. (Collection «le sens de l'histoire»)

Le Goff, Jacques. *L'Imaginaire médiéval: Essais.* Paris: Gallimard, 1985. (Bibliothèque des histoires)

——— [et al.]. *Histoire et imaginaire.* Paris: Poiesis, 1986.

——— (dir.). *La Nouvelle histoire.* Bruxelles: Complexe, 1988. (Historiques; 47)

——— et Pierre Nora (dirs.). *Faire de l'histoire.* Paris: Gallimard, 1974. 3 vols. (Bibliothèque des histoires)

Vol. 1: *Nouveaux problèmes.*

———, Roger Chartier et Jacques Revel (dirs.). *La Nouvelle histoire.* Paris: Retz- C. E. P. L., 1978. (Les Encyclopédies du savoir moderne)

Lefebvre, Henri. *L'Idéologie structuraliste.* Nouvelle éd. Abrégée. Paris: Seuil, 1975. (Collection points; 66)

Lévi-Strauss, Claude. *Anthropologie structurale.* Paris: Plon, 1958.

———. *Mythologiques; 1, le cru et le cuit.* Paris: Plon, 1964.

Lévy-Bruhl, Lucien. *Les Fonctions mentales dans les sociétés*

inférieures. Paris: F. Alcan, 1910.
Lindenberg, Daniel. *Le Marxisme introuvable*. Paris: Calman-Lévy, 1975. (L'Ordre des choses)
Lipovetsky, Gilles. *L'Ere du vide: Essais sur l'individualisme contemporain*. Paris: Gallimard, 1983. (Les Essais; 225)
Le Roy Ladurie, Emmanuel. *Histoire de la France rurale*. Paris: Seuil, 1975.
———. *Histoire du climat depuis l'an mil*. Paris: Flammarion, 1967. (Nouvelle bibliothèque scientifique)
———. *Les Paysans de Languedoc*. Paris: Flammarion, 1969. (Champs; 7)
———. *Le Territoire de l'historien*. Paris: Gallimard, [1973-1978]. 2 vols. (Bibliothèque des histoires)
Mairet, Gérard. *Le Discours et l'historique: Essai sur la représentation historienne du temps*. [Tours]: Mame, 1974. (Bibliothèque repères, sciences humaines, idéologies; 13)
Malia, Martin. *Comprendre la révolution russe*. Préface d'Alain Besançon. Paris: Editions du Seuil, 1980. (Points, histoire; 45)
Mandrou, Robert. *De la culture populaire aux XVII^{ème} siècle et XVIII^{ème} siècle: La Bibliothèque bleue de Troyes*. Paris: Stock, 1964.
Mann, Hans Dieter. *Lucien Febvre: La Pensée vivante d'un historien*. Paris: A. Colin, 1971. (Cahiers des annals)
Mantoux, Paul. *La révolution industrielle au XVIII^{ème} siècle, essai sur les commencements de la grande industrie moderne en Angleterre*. Paris: G. Bellais, 1906.
Maugüe, Jean. *Les Dents agacés*. Paris: Buchet-Chastel, 1982.
Meillet, Antoine. *Aperçu d'une histoire de la langue grecque*. Paris: Hachette, 1913.
Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel. Toulouse: Privat, 1972.
Morazé, Charles. *Trois essais sur histoire et culture*. Avant-propos de Lucien Febvre. Paris: A. Colin, 1948.
Morineau, Michel. *Pour une histoire économique vraie*. [Lille]: Presses universitaires de Lille, 1985. (Economies et sociétés)
Nora, Pierre (dir.). *Les Lieux de mémoire*. Paris: Gallimard, 1993. 3 tomes.
Tome 3: *Les France*. Avec la collaboration de Maurice Agulhon [et al.].
Ozouf, Mona. *La Fête révolutionnaire, 1789-1799*. Paris: Gallimard,

1976. (Bibliothèque des histoires)
Passerat, Charles. *Les Plaines du Poitou*. Paris: Ch. Delegrave, 1909.
Piganiol, André. *La Conquête romaine*. Paris: F. Alcan, 1928.
———. *Essai sur les origines de Rome*. Paris: E. de Boccard, 1917.
———. *Histoire de Rome*. Paris: Presses universitaires de France, 1939. («Clio»; introduction aux études historiques; [3])
Pirenne, Henri. *Histoire de la Belgique*. Bruxelles: H. Lamertin, 1920-1932. 7 vols.
Pomian, Krzysztof. *L'Ordre du temps*. Paris: Gallimard, 1984.
Pratiques culturelles des Français: Description socio-démographique, évolution 1973-1981. Paris: Dalloz, 1982.
La Recherche historique en France de 1940 à 1965. Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1965.
Ricœur, Paul. *Temps et récit*. Paris: Seuil, 1983-1985. 3 tomes. (L'Ordre philosophique)
Tome 3: *Le Temps raconté*.
Rist, Charles. *Histoire des doctrines économiques, depuis les physiocrates jusqu'à nos jours*. Paris: Société anonyme du Recueil Sirey, 1909.
———. *Histoire des doctrines relatives au crédit et à la monnaie depuis John Law jusqu'à nos jours*. Paris: Librairie du Recueil Sirey, 1938.
Roche, D. *Mélange de l'école française de Rome*. Paris; La Haye; New York: Mouton, 1979.
Ruffié, Jacques. *De la biologie à la culture*. Paris: Flammarion, 1976. (Nouvelle bibliothèque scientifique)
Samaran, Charles (ed.). *L'Histoire et ses méthodes*. Paris: Gallimard, 1961.
Secher, Reynald. *Le Génocide franco-français: La Vendée-Vengé*. Préf. de Jean Meyer. Paris: Presses universitaires de France, 1986. (Histoires)
Seignobos, Ch. *Histoire politique de l'Europe contemporaine: Evolution des partis et des formes politiques, 1814-1914*, 7ème éd. Paris: A. Colin, 1924. 2 vols.
Siegfried, André. *Tableau des partis en France*. Paris: B. Grasset, 1930.
———. *Tableau politique de la France de l'ouest*. Paris: A. Colin, 1913.
Simiand, François. *Recherches anciennes et nouvelles sur le mouve-*

ment général des prix du XVIème au XIXème siècle. Paris: Ed. Domat Montchrestien, 1932. (Conférences d'histoire et statistique économiques)
Sion, Jules. *Les Paysans de la Normandie orientale, pays de Caux, Bray, Vexin normand, vallée de la Seine; étude géographique*. Paris : A. Colin, 1909.
Sombart, Werner. *Der Modern Kapitalismus*. München: Duncker und Humblot, 1902.
Soriano, Marc. *Les Contes de Perrault: Culture savante et traditions populaires*. Paris: Gallimard, 1977. (Bibliothèque des idées)
Sorre, M. *La Notion de paysage dans les Pyrénées méditerranéennes*. Paris: Colin, 1913.
Spengler, Oswald. *Le Déclin de l'occident*. Paris: Gallimard, 1920.
Stoianovich, Traian. *French Historical Method: The Annales Paradigm*. With a Foreword by Fernand Braudel. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1976.
Taine, Hippolyte. *Les Origines de la France contemporaine*. [s. l.: s. n.], 1875. 2 vols.
Tocqueville, Alexis de. *L'Ancien régime et la révolution*. Paris: Michel Lévy frères, 1856.
———. ———. Paris: Gallimard, 1967. (Idées; 55)
———. *Correspondance avec Kergolay*. [Paris]: Gallimard, [s. d.].
Todd, Emmanuel. *Le Fou et le prolétaire*. Paris: R. Laffont, 1979. (Libertés 2000)
Vacher, Antoine. *Le Berry, contribution à l'étude géographique d'une région française*. Paris: Librairie Armand Colin, 1908.
Veyne, Paul. *Comment on écrit l'histoire, essai d'épistémologie*. Paris: Seuil, 1971
———. *Le Pain et le cirque: Sociologie historique d'un pluralisme politique*. Paris: Seuil, 1976. (L'Univers historique)
Vidal de La Blache, Paul. *Tableau géographique de la France*. Paris: Hachette, 1911.
Vilar, Pierre. *Une Histoire en construction: Approche marxiste et problématiques conjoncturelles*. [Paris]: Gallimard; Seuil, 1982. (Hautes études)
Vovelle, Michel. *Idéologies et mentalités*. Paris: F. Maspero, 1982. (fondations)
———. *La Mort et l'Occident: De 1300 à nos jours*. [Paris]: Gallimard, 1983. (Bibliothèque illustrée des histoires)

———. *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIII^ème^ siècle; les attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments.* Paris: Le Seuil, 1978. (Civilisations et mentalités)

Wallerstein, Immanuel. *Le Système du monde du xv^ème^ siècle à nos jours.* Paris: Flammarion, 1980-1985. (Nouvelle bibliothèque scientifique)

Tome 1: *Capitalisme et économie-monde: 1450-1640* (1980).

Tome 2: *Le Mercantilisme et la consolidation de l'économie-monde européenne: 1600- 1750* (1985).

Weber, Max. *L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme.* [s. l.: s. n.], 1904.

Werner, Karl Ferdinand et Peter Brown. *Genèse de l'antiquité tardive.* Paris: Gallimard, 1983. (Bibliothèque des histoires)

——— et ———. *La Société et le sacré dans l'antiquité tardive.* Trad. de l'anglais par Aline Rousselle. Paris: Gallimard, 1985.

Periodicals

Andreu, Pierre. «Les Idées politiques de la jeunesse intellectuelle de 1927 à la guerre.» *Revue des travaux de l'académie des sciences morales et politiques*: 1957.

Annales, économies, sociétés, civilisations: tome 3, no. 2, 1948.

Annales d'histoire économique et sociale: 1929; 1930; tome 1, 1945.

«Les Annales d'histoire économique et sociale et l'enseignement de l'histoire,» *Revue d'histoire moderne et contemporaine*: no. hors série «100 ans d'enseignement d'histoire,» 1984.

Annales d'histoire sociale: tome 2, no. 1, 1940; tome 3, nos. 1-2, 1941, tome 3, nos. 3-4, 1941; tome 1, 1945.

L'Année sociologique: vol. 6, 1903; vol. 11, 1906-1909.

Auge, M. «Entretien.» *Espaces temps*: nos. 34-35, décembre 1986.

Bachimon, Philippe. «Physiologie d'un langage.» *Espaces temps*: no. 13, 1979.

Barret-Kriegel, B. «Histoire et politique.» *Annales*: 11 décembre 1973.

Besnard, Philippe. «La Formation de l'équipe de l'année sociologique.» *Revue française de sociologie*: vol. 20, janvier-mars 1974.

———. «L'Impérialisme sociologique face à l'histoire.» *Journées annuelles de la société française de sociologie* (Lille): vol. 6, 1984.

Besse, J. M. «Idéologie pour une géographie.» *Espaces temps*: no. 12, 1979.

Bloch, Marc. «Réflexion d'un historien sur les fausses nouvelles de la guerre.» *Revue de synthèse historique*: 1921.

———. «Technique et évolution sociale.» *Europe:* 1938.

———. «Testament spirituel, Clermont-Ferrand, 18 mars 1941.» *Annales d'histoire économique et sociale:* tome 1, 1945.

——— et Lucien Febvre. «A nos lecteurs.» *Annales d'histoire économique et sociale*: 1929.

Blot, J. (J. Chambaz). «Le Révisionnisme en histoire ou l'école des Annales.» *La Nouvelle critique*: no. 30, novembre 1951.

Boltanski, Luc. «America, America: Le Plan Marshall et l'importation du management.» *Actes de la recherche:* no. 38, mai 1981.

Bouglé, C. «Comment étudier la sociologie à Paris?.» *Annales de l'université de Paris*: 1927.

Bourdieu, Pierre. «Lundis de l'histoire.» *France culture*: 25 février 1980.

Braudel, Fernand «C. R. de *Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730* de Pierre Goubert.» *Annales*: juillet-août 1963.

———. «Discours du récipiendaire, académie française.» *Le Monde:* 2/6/1985.

———. «Entretien.» *L'Express:* 22/11/1971.

———. «Entretien.» *L'Histoire:* septembre 1982.

———. «Entretien.» *Magazine littéraire*: novembre 1984.

———. «Histoire et sciences sociales: La Longue durée.» *Annales*: 10 décembre 1958.

———. «Lundis de l'histoire.» *France culture:* 3 janvier 1977.

———. «Les Méthodes de l'histoire.» *France-culture*: 30 juillet 1985.

———. «Rapport du concours 1953.» *Bulletin de l'association des professeurs d'histoire et de géographie*: 1954.

———. «Séville et l'atlantique: 1504-1650.» *Annales*: 1963.

———. «Ya-t-il une nouvelle histoire?.» *Les Nouvelles littéraires*: 7 mars 1980.

Bulletin de l'association des professeurs d'histoire et de géographie: 1935.

Burguière, André. «Histoire d'une histoire: La Naissance des Annales.» *Annales*: vol. 11, 1979.
Certeau, M. de. «Les Discours de l'histoire.» *France culture*: 31 juillet 1978.
Chartier, Roger et Jacques Revel. «L. Febvre et les sciences sociales.» *Historiens et géographes*: vol. 2, 1979.
Chaunu, Pierre. «L'Histoire sérielle: Bilan et perspectives.» *Revue historique*: 1970.
Communications: no. 18, 1972.
Le Débat: décembre 1981.
Delacroix, Christian. «La Falaise et le rivage: Histoire du tournant critique.» *Espaces temps*: nos. 59-61, 1995.
Dialectique: nos. 10-11, 1975.
Les Directeurs. «Au bout d'un an.» *Annales*: 1930.
Dosse, François. «Les Habits neufs du président Braudel.» *Espaces temps:* nos. 34-35, décembre 1986.
———. «Paul Ricœur révolutionnaire de l'histoire.» *Espaces temps*: nos. 59-61, 1995.
Duby, Georges. «Entretien avec l'auteur.» *Vendredi*: 4 janvier 1980.
Dumoulin, Olivier. «Un Entrepreneur des sciences de l'homme.» *Espaces temps*: nos. 34-35, décembre 1986.
Durkheim, Emile. «Leçon d'ouverture du cours de science sociale.» *Revue internationale de l'enseignement*: vol. 15, 1888.
Espaces temps: no. 7, 1978; nos. 34-35, décembre 1986.
Febvre, Lucien. «C. R. de la «Basse Normandie» de Felice.» *Revue de synthèse historique*: 1907.
———. «De Lanson à Mornet: Un Renoncement?.» *Annales d'histoire sociale*: tome 3, 1941.
———. «Face au vent.» *Annales*: janvier 1946.
———. «H. Pirenne: 1862-1935.» *Annales d'histoire économique et sociale*: tome 7, 1935.
———. «Le Problème historique des prix.» *Annales*: 1930.
Ferro, Marc. «Le Laboratoire des Annales.» *Magazine littéraire*: novembre 1984.
Flandrin, Jean-Louis. «Enfance et société.» *Annales*: 1964.
Foi et vie: vol. 5, 1934.
Fossier, R. «Le Discours de l'histoire.» *France culture*: 2 août 1978.

Foucault, Michel. «L'Histoire et les historiens.» *France culture*: 17 juillet 1969.

France-inter: 14 décembre 1978.

Furet, François et Adeline Daumard. «Méthode de l'histoire sociale: Les Archives notariales et la mécanographie.» *Annales*: 1959.

Gourou, Pierre. «La Civilisation du végétal.» *Indonésie*: vol. 1, no. 5, 1948.

Goursolas, J. M. «Les Jeux de l'échange entre l'histoire braudélienne et l'analyse économique.» *Espaces temps*: nos. 34-35, décembre 1986.

Grataloup, Christian. «L'Appel des grands espaces.» *Espaces temps*: nos. 34-35, décembre 1986.

———. «Après l'empirie, le beau temps.» *Espaces temps*: no. 30, 1985.

Gruson, Claude. «Planification économique et recherche sociologique.» *Revue française de sociologie*: vol. 5, 1964.

Gurvitch, Georges. «Le Concept de structure sociale.» *Cahiers internationaux de sociologie*: vol. 19, no. 7, décembre 1955.

Heilbron, Johan. «Les Métamorphoses du durkheimisme: 1920-1940.» *Revue française de sociologie*: vol. 36, no. 2, avril-juin 1985.

Hexter, J. H. «Braudel and the Monde Braudélien.» *Journal of Modern History*: vol. 44, septembre 1972.

L'Histoire: no. 22, avril 1980; no. 8, mai 1981; no. 25, janvier 1986.

Journal of Modern History: no. 4, 1972.

Karaday, V. «Durkheim, les sciences sociales et l'université: Bilan d'un semi-échec.» *Revue française de sociologie*: avril 1976.

———. «Stratégies de réussite et modes de faire-valoir de la sociologie chez les durkheimiens.» *Revue française de sociologie*: vol. 20, no. 1, 1979.

Labrousse, E. «Entretien.» *Actes de la recherche en sciences sociales*: avril 1980.

Lévi-Strauss, Claude. «L'Anthropologie sociale devant l'histoire.» *Annales*: juillet-août 1960.

———. «Histoire et ethnologie.» *Revue de métaphysique et de morale*: vol. 54, 1949.

———. «Lundis de l'histoire.» *France culture*: janvier 1971.

Le Magazine littéraire: septembre 1980; novembre 1982; novembre 1984; décembre 1985; 1987.
«La Méditerranée et le monde méditerranéen.» *Revue historique*: 1950.
Le Monde: 25/1/1969; 11/3/1977; 2/5/1980; 15/6/1980, et 14/3/1982.
Le Monde de l'éducation: mai 1980.
Le Monde du dimanche: 7 octobre 1975.
Le Roy Ladurie, Emmanuel. «Entretien avec l'auteur.» *Maintenant*: août 1979.
Nora, Pierre. «Lundis de l'histoire.» *France culture*: 12 août 1974.
Le Nouvel observateur: 8 mai 1968; 10 septembre 1973; 7 mai 1974; 18 avril 1977; 23 mai 1977; 4 juillet 1977; 20 novembre 1978; 5 mai 1980; 28 février 1986.
L'Ordre nouveau: octobre 1933; avril 1936.
Plans: no.1
Pollak, Michael. «La Planification des sciences sociales.» *Actes de la recherche*: nos. 2-3, juin 1976.
Prost, Antoine. «Seignobos revisité.» *Vingtième siècle*: no. 43, juillet-septembre 1994.
Le Quotidien de Paris: 18 décembre 1981.
Revel, Jacques. «Entretien.» *Espaces temps*: nos. 34-35, décembre 1986.
———. «Histoire et sciences sociales: Les Paradigmes des annales.» *Annales*: vols. 11-12, 1979.
———. «Lundis de l'histoire.» *France culture*: 12 août 1974.
Revue française de sociologie: janvier 1982.
La Revue historique: no. 1, 1876; nos. 7-8, 1896; 1900; no. 225, 1961; vol. 6, 1962.
Revue d'histoire moderne et contemporaine: octobre 1981.
Rougemont, Denis de. «Cahiers de revendications.» *NRF*: vol. 20, 1932.
Schmitt, Jean-Claude. «Le Suicide au moyen âge.» *Annales*: janvier 1976.
Simiand, F. «Méthode historique et science sociale.» *Revue synthèse historique*: 1903.
Stoetzel, Jean. «Sociologie et démographie.» *Population*: no. 1, janvier 1946.
Vidal de La Blache, Paul. «La Géographie politique.» *Annales de géographie*: 1898.

Wesseling, H. L. «The Annales School and the Writing of Contemporary History.» *Review*: vol. 1, Winter-Spring 1978.

Conferences

Au berceau des Annales: Le Milieu strasbourgeois, l'histoire en France au début du XXème siècle: Actes du colloque de Strasbourg, 11-13 octobre 1979. [Organisé par l'université de Strasbourg et le groupe d'études historiographiques]; sous la direction de Charles-Olivier Carbonell et Georges Livet. Toulouse: Presses de l'institut d'études politiques de Toulouse, [1983]. (Recherches et documents/ société savante d'Alsace et des régions de l'rst; 31. Publications de l'institut d'études politiques de Toulouse; 6)

Congrès international des sciences historiques de Rome. Roma: [s. n.], 1955.

L'Historien entre l'ethnologue et le futurologue: Actes du séminaire international organisé sous les auspices de l'association internationale pour la liberté de la culture, la fondation Giovanni Agnelli et la fondation Giorgio Cini, Venise, 2-8 avril 1971. Paris; La Haye: Mouton, 1972. (Le Savoir historique; 4)

Une Leçon d'histoire de Fernand Braudel: Journées Fernand Braudel, 18, 19 et 20 octobre 1985, Châteauvallon. [Organisées par le centre de rencontres de Châteauvallon]. Paris: Arthaud-Flammarion, 1986.

La Mort au moyen âge, colloque de l'association des historiens médiévistes français, réunis à Strasbourg en juin 1975. Strasbourg: Librairie Istra, 1977. 2 vols. (Publications de la société savante d'Alsace et des régions de l'est, collection recherches et documents; t. 25)

Tendances politiques dans la vie française depuis 1789: [colloque de Royaumont, 23 mai 1959]. Paris: Hachette, 1960. (colloques: Cahiers de civilisation)

Thesis

Dumoulin, Olivier. «Profession historien: 1919-1939.» (Thèse de 3ème cycle, EHESS, Paris, 1984).

Mazon, Brigitte. «fondations américaines et sciences sociales en France: 1920-1960.» (Thèse de 3ème cycle, EHESS, 1985).



الفهرس

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

- ج -

- ح -

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

- م -